

أحلى الأساطير العالمية

تأليف: خليل نادوس

www.isra.silamontada.com

مكتبة اقرأ الثقافية

أحلى الأساطير العالمية

أحلى الأساطير العالمية



حيث واسع زعم
أمر طوق العلق
أطلق الصدى أله
أله قدر أبحكم بغير للفت
حار طوق على السر
وحسب على الطورين

لقد هي الأساطير التي لها إرادة في حياة الناس
وسيطرت على أفعالهم ووجدت في حياتهم مكانها حقيقيا
أمرنا باستمعوا لقرآن وحققوا مع أفعالهم في تلك الأيام
لذلك ووجدوا حتى أصبحت هذه الأساطير والخرافات من
معتقداتهم أحياء ومع قراءة هذا الكتاب نرى أن تلك
الأساطير حزين على هؤلاء العصور ولكنها الأساطير
الشعر



خليل حنا تادرس

أحلى الأساطير العالمية

مجموعة رائعة
من أساطير العالم

كتابنا للنشر

مقدمة

الأسطورة... .

هي الأحداث الواقعية.. الخارقة التي قد لا يصدقها العقل.. ولكنها حقيقة واقعية قد حدثت بالفعل.. إنها تحلق بك.. تأخذك على أجنحة الخيال.. تثير دهشتك وتنفلك إلى أجواء مذهشة رائعة.. .

وقديماً.. . كانت الأساطير، وعاش أبطالها أيام الإغريق.. وكان الشاعر اليوناني القديم هوميروس أروع من كتب الأسطورة خاصة الإلياذة والأوديسة.. . والفراعنة، قدماء المصريين كانت كل حياتهم أساطير فوق الخيال وخاصة قصة إيزيس وأوزيريس.. وكل بلد في العالم عاش حقبة من الأساطير الخالدة التي لن تنسى على مر العصور..

وفي هذا الكتاب قدمت لك، أيها القارئ، مجموعة شيقة من أجمل الأساطير في العالم، أرجو أن تحوز إعجابك وتعيش معها في جوها.. . وفي واقعها.. خليل ح. تادرس

جميع الحقوق محفوظة

لدار كتابنا للنشر

بيروت

كتابنا للنشر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال
دون إذن خطي مسبق من الناشر

الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات بيتنا للدار

ISBN: 978-9953-505-21-3

لبنان، المنصورية (المتن)

ص.ب. : 269 - المنصورية (المتن)

هاتف/ فاكس : 00961 / 4 / 532255 - جوال : 00961 / 3 / 629910

E-mail: kitabouna@yahoo.com

طبع في لبنان

الأسطورة والخرافة

كثيراً ما تستخدم كلمتا «أسطورة» و«خرافة» كأنهما كلمتان مترادفتان. والواقع أن هناك فرقاً جوهرياً بين الأسطورة والخرافة من حيث المضمون وما يجب أن يستخدم فيه.

ولعلنا نبادر إلى القول بأن الجذع المشترك للأسطورة والخرافة هو الجذع اللاشعوري الوجداني الذي يرتبط به الإنسان ارتباطاً لا محيص عنه. فالأسطورة تتعلق باللاشعور الجمعي وتنشأ عنه. بينما ترتبط الخرافة باللاشعور الفردي ولأن كانت في كثير من الأحيان تنعكس بأصدائها على ذلك اللاشعور الجمعي.

فالأسطورة ليست ظاهرة فردية، ولا تنبئ لدى مجموعة من الأفراد، بل هي ظاهرة تصدر عن شعب بأسره أو عن جود جمعي لا سبيل إلى إحصائه أو حصر عدد أفراده.

ومن جهة أخرى فإن الأسطورة تنسم بالقدم والامتداد بالجزور المتأصلة في الماضي السحيق. فهي لا تتصل بالماضي القريب، وبالأولى لا تتصل بالحاضر.

وأكثر من هذا فإننا لا نستطيع أن نتخيل أساطير يقبض لها البروغ والظهور والتبلور في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد. ذلك أن الأسطورة تنشأ عن الجذع اللاشعوري لدى شعب من الشعوب أو حتى لدى مجموعة من الشعوب.

ومن جهة ثالثة لا تتعلق الأسطورة بأي أمر من الأمور اليومية العادية، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بأساسيات الحياة ومقوماتها، وتقدم تفسيراً عاماً وشاملاً للكون والوجود والإنسان. تفسيراً أشبه ما يكون تاريخاً وجودياً لنشأة الكون وتفتحه عن هذه الموجودات المتعينة والمتباينة.

ولكن هل تقدم الأسطورة تاريخاً للوجود يتسم بالصراحة والتحديد؟ الواقع كلاً. فالأسطورة عندما تقدم قصة عن الوجود، فإنما تقدم رموزاً تتسم بالعمومية من جهة، وبالبساطة من جهة أخرى.

ولعل هذه العمومية وتلك البساطة تشكلان السر في ذبوع الأسطورة وبقائها وترسخها في العقول والقلوب. وقد تعمل الرمزية التي تنحو إليها الأسطورة بإزاء قصة الوجود على فتح آفاق الواقع والمستقبل، وتدفع الإنسان اليوم - بعد أن تطور ونضج فكره وكثر تأمله - إلى إحالة تلك الرموز إلى أفكار واجتهادات للشرح والتأويل.

فإذا ما عدت الأسطورة مثلاً إلى ذكر عدد من الأيام ثم خلالها خلق العالم، فإن المفسرين يقولون أن كل يوم من تلك الأيام يمثل دهرأ. والدهر من الزمان يقدر بملايين السنين.

وهكذا دواليك بالنسبة للأشخاص: فقد ذهب البعض إلى اعتبار الشخصيات المحددة والمذكورة في بعض الأساطير، سلاله من السلالات البشرية، رُمز إلى كل منها بفرد من أفراد الناس. وهكذا قُلُ عن جميع نواحي الأسطورة وما قد تتضمنه من أفراد أو أحداث أو مواقف أو علاقات.

على أن المؤمنين بإحدى الأساطير - مهما كانت جنسيتهم أو ديانتهم - فهم يقدسون أساطيرهم ويخشون من تناولها بالعقل والنقد والتحيص الذهني. ذلك أن قديسة الأسطورة تحول دون تناولها بالمنهج النقدي. فمثل تلك المناهج تعمل على إفسادها وتفكيكها وإضاعة جوهرها. وشأن من يتناول الأسطورة بالنقد أو حتى بالشرح كشأن من يتناول لؤلؤة ثمينة، عامداً إلى تقطيعها لمعركة سر قيمتها. إنه يمثل تلك المعالجة يعمل على إفسادها. فهي عظيمة القيمة طالما يتناولها المرء بغير محاولة لسر أغوارها، أو لتفهم ما تحتويه من مضامين أو للوقوف على ما تحمله من قيم ذاتية. فالواقع أن قيمة اللؤلؤة - وكذلك قيمة الأسطورة - في كليتها لا في جزئياتها. فأتت عندما تتناول الأسطورة من حيث مضمونها ومحتوياتها، فإنك قد تجد أن ذلك المضمون أو المحتويات بسيطة أو - حتى ساذجة.

ولكن عظمة الأسطورة تنبدي في مغزاها ودلالاتها، بل قل في وظيفتها الإيمانية عبر العصور المتعاقبة. فالأسطورة سابقة للفلسفة والعلم. ويعد ظهور الفلسفة والعلم أخذت تسير معهما على خطين متوازيين، ولم يعمل ظهور الفلسفة أو ظهور العلم على التقليل من قيمتها أو الاستغناء عنها.

ولكن الخطأ يبدو فيما ترغب فيه الفلسفة أو يرغب فيه العلم من إخضاع الأساطير لأحكامهما وتقديرتهما أو حتى لندوقتهما.

والواقع أن الأسطورة تنهج نهجاً مضاداً للنهج الذي تنهجه الفلسفة وتسير وفقه. فينبينا نجد أن الفلسفة تأخذ نتائج العلوم والمعارف وتضعدها إلى نظرة شاملة للحياة والوجود، فإنما نجد أن الأسطورة تتباين عن ذلك تبايناً تاماً من حيث أنها - وقد سبقت العلوم والمعارف - تقدم الحقيقة الكلية دفعة واحدة في سياق القصة التي تتضمنها. فهي لا تصعد من الجزئيات - التي هي في حالة الفلسفة تتمثل في نتائج العلوم وجميع المعارف الإنسانية التي يتسنى للفيلسوف إحرازها والوقوف عليها - بل هي تبدأ من الكل وتقدمه. لذا تعتبر التعبير المباشر عن اللاشعور الجمعي التليد.

بيد أن الأسطورة على قدمها ويمدها السحيق عن الحاضر الراهن - بل وعن الماضي القريب أيضاً - فإن تدوينها قد حدث بلا شك بعد وجودها بمدة طويلة.

ومعنى هذا في الواقع أن ما يتسنى لنا قراءته من أساطير، إنما هو مرحلة سبقتها مراحل أخرى من تطور الإنسان وتقدمه، بل قل إن الأسطورة لم تنشأ من فراغ ثقافي، بل كانت تعبيراً عن ذلك اللاشعور الجمعي تعبيراً نسبياً لا تعبيراً مطلقاً، أو قل أنها تتمتع بأكبر قدر من ذلك اللاشعور الجمعي. والأمر هنا شبيه بأمر الفنان أو الشاعر.

وإذا سأل سائل عن مدى صحة وحقيقة الأسطورة - أيا كانت تلك الأسطورة بنض النظر عن ذاتيتها وعن الشعب الذي يؤمن بها أو الكتاب الذي ترد به - فإننا نقول إن صحة الأسطورة يمكن أن ينظر إليها من زاويتين: الزاوية الأولى هي الزاوية اللاشعورية الجمعية ومدى قدرة الأسطورة على أن تعبر عن ذلك اللاشعور الجمعي التليد. أما الزاوية الثانية فهي الزاوية النقدية العلمية المتعلقة بعلم من العلوم الوضعية أو بمنهج من مناهج التفكير الفلسفية النقدية. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن الزاوية الأولى وحدها هي الجديرة بالتناول والأخذ بعين الاعتبار. أما الزاوية الثانية فيجب أن تُستبعد تماماً. ومن الواضح أن إنسان الحضارة واقع تحت تأثير العلوم الوضعية، وهو متحيز لها أراد ذلك أو لم يرد.

ولكن مهما كان ذلك التحيز، فمما لا شك فيه أن الأسطورة يجب أن تتباين في الأذهان عن الخرافة. ومما لا شك فيه أيضاً أن الأسطورة تتضمن منهجاً قائماً بذاته هو المنهج الكلي في النظر إلى الوجود. وقد تباين الإنسان الحديث عن ذلك المنهج، ومن

ثم فليس من المتوقع أن يقبل عليه، أو أن يخضع له تفكيره. فمنطق الإنسان الحديث يخضع للشك بالدرجة الأولى، بينما الأجدى به أن يكون مؤمناً ليتناول الأساطير تناولاً صحيحاً جديرًا بها، تناولاً تستحقه الجواهر الثمينة المقدسة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة هي أقرب تعبيراً عن اللاشعور الجمعي لمجتمعات قديمة، فإنها مع ذلك تعبر عن أحداث ووقائع تاريخية أو ذكريات ظلت محفوظة مدة طويلة، إلى أن يقض لها أن تترجم في صيغ محسوسة مدونة، سواء بالتمائيل المنحوتة أم بالصور المرسومة أم بالكلمات الرمزية أو شبه الرمزية المكتوبة. فالواقع أن الخبرات التي مرت بها الشعوب القديمة لم تكن مجرد أحداث تترسخ وتتصل وتستمر محفورة في ذاكرات أبنائها وأحفادها، بل كانت أيضاً أحداثاً لها أثرها الوجداني العاطفي العميق. وقل أكثر من هذا إنها كانت بالدرجة الأولى تؤثر في الوجدان والحياة العاطفية، وبالدرجة الثانية في الفكر وما يرتبط به من تفسير وتعليل.

ومن هنا فإن من يتناول الأساطير بالإطلاع والتأمل، عليه أن يتناولها من هذه الزاوية التفاعلية الانفعالية، ونعني بالتفاعلية التفاعل بين العاطفة والعقل، كما نعني بالانفعالية ذلك الجانب السائد بالأسطورة وهو الجانب الذي سجلت به الأسطورة، أعني الجانب الإيماني والذي يُقصد به التأثير على من يقرأها أو يوقف عندها، دون القيام بالمناقشة والتحليل. ذلك أن التحليل كما قلنا مفسد للأسطورة، ومضيع لمضمونها، ومفتت لمقوماتها، ومبهد لتأثيرها، ومعطّل عن تحقيق الأهداف التي جعلت لها.

وقد نقول إن الأساطير - وهي الجانب الذي سمح بإعلانه على الملأ وسمح بإذاعته ونشره بطريقة أو بأخرى - كانت مجرد ظل للحقيقة، أو كانت مجرد إشارة إلى الحقيقة في نطاق حضارات اتسمت الحقائق العلمية فيها بالسريرة، ولم يكن يسمح لجميع الناس من أفراد الشعب بالمشاركة فيها أو الوقوف عليها.

ومن ثم فإن رجال الدين والسحرة - وكثيراً ما كان رجل الدين هو الساحر، كما كان الساحر رجل دين - كانوا يضربون بسنار من الكتمان على جميع المعارف العميقة، ولم يكونوا يسمحوا بإذاعة أي من تلك المعارف إلا في صور قصصية تصلح لأن تداع بين الناس، ولا تعمل في نفس الوقت على إنشاء أسرارهم. فكانوا في صياغتهم للأساطير ينفخون من معرفتهم بعض الشذرات القليلة، يصوغونها في صيغ رمزية غير صريحة ومكتنفة بالغموض.

وما ننحو إليه هنا يتضمن فيما يتضمنه بطلان الزعم القائل إن العصور التي دونت فيها الأساطير كانت عصوراً ساذجة وخالية من المعرفة الذهنية العميقة. وأكثر من هذا، إن فئة أو فئات بأسرها من المعارف المتباينة لكل من الفلسفة والعلم كما نعرفهما اليوم قد اندثرت مع انقضاء تلك العصور، ومع وقوع الأحداث التاريخية التي أدت إلى تبديد الكتب والنقوش والرسوم وغيرها من وسائل التدوين.

من ذلك مثلاً الكثير مما كان يحتفظ به الكهنة والسحرة من معارف حبست عليهم وصارت وفقاً على أتباعهم ومريديهم. فاندثرت تلك المعارف لأنها لم تكن منتشرة وذائعة، ولم يبق إلا بعض الأساطير، مما أغرى بالبعض بأن يزعموا أن حضارة تلك العصور لم تكن في جعبتها إلا تلك الأساطير فحسب.

فالأساطير إذاً كانت مجرد شذرات معرفية مسوقة في قالب شعري أو أدبي أو رمزي، أو قل إنها كانت أصداء لمعرفة عميقة محبوسة عن طبقات الشعب من غير رجال الدين والسحرة. بيد أن ذلك التدوين الأسطوري لم يكن ليتم بطريقة شعورية مقصودة، بل كان يتم بطريقة إلهامية أيضاً ولكن من قبل الجن.

لقد كان رجل الدين أو الساحر لا يقوم بكتابة الأسطورة وهو في حالته الشعورية الواعية، بل يفعل ذلك، وهو في حالة غياب عن الوعي، لوجود قوى روحية - خيرة أو شريرة - تحل فيه وتسيطر عليه وتملك ناصيته التعبيرية وتدفع به إلى كتابة أو تدوين الأسطورة بشكل أو بآخر فالكاهن أو الساحر كان مسوقاً في كتابته بواسطة قوة روحانية.

وهذا الموقف شبيه في الواقع بموقف الشاعر الملهم أثناء قيامه بقرض الشعر، وهو أيضاً حال الفنان النحات أو الرسام أثناء قيامه بنحت التمثال أو رسم الصورة.

وهذا هو نفسه ما كان يحدث أثناء كتابة الأسطورة قديماً. ولكن المسألة لم تكن مجرد شعور أو لا شعور، بل كان هناك ما يعرف بالحلول، سواء حلول روح خيرة أو روح شريرة مؤقتاً أو بصفة مستمرة، وتوجيه دقة التعبير لدى واضع الأسطورة.

بيد أن هذا لم يكن يعني أن الأسطورة لم تكن مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالواقع التاريخي للعصر أو للعصور السابقة عليها، بل إن جميع المعارف التاريخية والموضوعية الواقعية كانت مسخرة لإمرة الجني الخير أو الشرير، فتأتي الكتابة معبرة عن تفاعل مركب يشارك فيه الروح الحال من جهة، والمعارف المختزنة بعقل الشخص الذي تحل فيه تلك الروح من جهة أخرى.

على أن المؤرخ عن طريق الأساطير يجد نفسه في حيرة إزاء كل واقعة ترد بأي منها. فهو إما أن يعتبر الواقعة حقيقية، وإما أن يعتبرها رمزية.

ولكن، في الواقع - وهو يعيش في ظل الواقع العلمي الراهن - سوف يعتبر كل ما يتعارض مع حقائق العلم الحديث رمزاً - فإذا ما تناول أسطورة تقول إن الكون كان بيضة كبيرة ثم فقس وخرج منها الشمس والقمر والأرض والنجوم، فإنه بالطبع سوف يعتبر أن تلك البيضة بيضة رمزية وليست بيضة حقيقية.

على الرغم من أننا قد أكدنا أن الأساطير قد نشأت في الماضي البعيد معبرة عن لاشعور الجمعي لمجموعات كبيرة من الناس، وأنها قد وجدت بالفعل على الألسنة وشاعت وتناقلها الناس في تلك العهود السحيقة حتى قبل أن يتسنى للناس القيام بتسجيلها بوسائل التسجيل المتأينة، فإننا نقرر مع هذا أن الأساطير القديمة قد ألقت كثير بالي إلى المستقبل. فهي لم تكن مجرد ترديد لأحداث وقعت، بل كانت تتضمن أيضاً نبوءات وتوقعات وترقيات بما سوف يقع في المستقبل البعيد. فهي لم تكن لتعني بنشأة الكون فحسب، بل كانت تُعنى أيضاً بالتعرض لما سوف يؤول إليه الكون، وما سوف يتعرض له من أحداث أو ما سوف يصيبه من كوارث أو ملومات.

وأكثر من هذا فإن الكثير من الأساطير قد عني بالتنبؤ بشخصيات من الزعماء أو المصلحين سوف يظهرون ويقودون أممهم ويخلصونهم من براثن الضعف أو من الصعاب التي تعترض طريق حياتهم كما كانت تشير إلى الصعوبات والكوارث والمصائب التي سوف تكثف المجتمعات، وما قد يصادفه البطل المرتقب من أهوال ليتصر في النهاية عليها، ويقود شعبه إلى بر الأمان، ويتغلب على كل من يقف في طريقه من أعداء ومناوئين.

على أن المستقبلية في الأسطورة لا تكون غالباً مستقبلية صريحة، بل تكون مستقبلية رمزية. فأشخاص الأسطورة يرمزون إلى جماعات كما هو الحال في أسطورة إيزيس وأوزيريس وست وحورس، وإن كانوا قد وردوا بها كأفراد، وكأنهم عاشوا في عصر سابق أي في الماضي. والرمزية في الأسطورة تتبدى في أمرين أساسيين: الأول: أن بعض أفراد الأسطورة لا يشيرون إلى أفراد بل إلى جماعات من الناس، فيرمز كل فرد من أبطال الأسطورة إلى فئة من الناس، أو إلى أفراد سوف يظهرون في المستقبل البعيد. ومن جهة أخرى فإن الأحداث الفردية والعلاقات القائمة بين شخص وآخر في الأسطورة

- وإن كانت قد وقعت فيما مضى - فإنها قد تشير رمزياً إلى المستقبل وليس إلى الماضي.

على أن الأساطير - وإن كانت قد توقفت بصفة رئيسية عن الظهور بعد انقضاء ذلك الماضي السحيق عندما كانت القبائل والشعوب في حالة لا شعورية - فإن الإنسان سوف يظل هو الإنسان، ذلك أن اللاشعور الذي كان يمتلئ قوياً وسيطر على حياة الإنسان البدائي، ما يزال قوياً وذات فاعلية في حياة الإنسان الحديث أيضاً، على الرغم من التنافس الشديد القائم فيما بين اللاشعور والشعور، أو فيما بين القطاع الوجداني من الجهاز النفسي الإنساني - الفردي والجمعي - والقطاع الذهني المنطقي.

وحتى بالنسبة للأساطير التي يتتصر فيها الشر على الخير، أو يكون فيها الأشرار أقوياء، بينما يكون الأحيار ضعفاء واهنين، فإن قارئ الأسطورة والمطلع عليها سرعان ما يجد نفسه حائفاً على أولئك الأشرار ويكاد يذرف الدمع على ما لاقاه الضعفاء الأحيار من ذلك أو عبودية أو اضطهاد أو ألم.

وهنا تكون السمة العاطفية متوافرة أيضاً، طالما أن الهدف قد تحقق والخير قد انتصر على الشر انتصاراً جوهرياً ودائماً.

ومن يدرى فلعل انتصار الخير على الشر في نفوس القراء والمتأملين بالأسطورة أقوى وأكثر فعالية من انتشار الأخيار على الأشرار في سياق الأسطورة وفي تنابع أحداثها.

فالقارئ الذي يقوم بوضع الأسطورة يحقق التناغم أو السمة العاطفية فيما يضعه من أحداث. تهايك عما ينحو إليه من إضافة أحداث لم تقع في الواقع، ولكنها كان يجب أن تقع حتى تكتمل الصورة، ويتم التجانس.

من هنا فإن ثقافة الإنسان القديم لم تكن كمية ما يقوم بقراءته، بل بتأمل ما يقوم بقراءته أو مشاهدته. وكلما كان ما يطلع عليه متمسكاً بالغموض، كان تأمله أعمق.

لهذا السبب انتشرت الرمزية في الأساطير حتى يتسنى لمن يقوم بتأملها أن يغوص إلى أعماقها، وأن يكشف عن غوامضها، وأن يستشف ما فيها من حكمة ومن صلة روحية يقيمها بين ذاته وبين المعاني العليا التي تتضمنها.

والأسرار الرمزية في الأسطورة لم تكن لينكشف النقاب عنها عن طريق أعمال

آلهة في الأساطير..

- ملك الآلهة اليونانية وإله السماء هو: زيوس
- ملك الآلهة الرومانية وإله السماء هو: جوبيتر
- عَمَلاق الآلهة اليونانية: أطلس
- ملكة الآلهة اليونانية وإلهة السماء: هيرا
- ملكة الآلهة الرومانية وإلهة السماء: جونون
- إله الحب عند اليونان هو: إيروس
- إله الحب عند الرومان هي: كيبويد
- إله الحرب عند اليونان: آرس
- إله الحرب عند الرومان: مَارْس
- إله النار عند اليونان: هيفائيتوس
- إله النار عند الرومان: فولكان
- إله البحار عند اليونان: بوسيدون
- إله البحار عند الرومان: نبتون
- إله الزراعة عند اليونان: كرونوس
- إله الزراعة عند الرومان: ساتورن
- إله الكرمة عند اليونان: ديونيسيوس
- إله الكرمة عند الرومان: باخوس

العقل الواعي، بل أعمال التأمل الحدسي، وإعداد الذات لتقبل الإلهام، والكشف الإلهي أو الكشف الروحي عن طريق ما أسميناه بالحلول المؤقت أو الدائم لجُتي أو أكثر في عقل الحكيم.

وهذا هو في الواقع ما كان يقال عن كثير من فلاسفة الإغريق النسيكين من أمثال أنبادقليس، كما شاع الأمر عن سقراط نفسه وعندما كان يغيب عن وعيه ويستغرق في تأمل عميق لا يتصل بالعالم الخارجي من قريب أو من بعيد.

أساطير فرعونية



إله المواسم عند اليونان: ديمتري

إله المواسم عند الرومان: سيريس

إله الشمس والطب عند اليونان والرومان: أبولون

إله الشفاء عند اليونان والرومان: إسكليبيوس

إلهة الحب والجمال عند اليونان: أفروديت

إلهة الحب والجمال عند الرومان: فينوس

إلهة الخصب والزهور عند اليونان: أفروديت

إلهة الخصب والزهور عند الرومان: فينوس

إلهة الحكمة والحرب عند اليونان: أثينا

إلهة الحكمة والحرب عند الرومان: ميرفا

إلهة الصيد والقمر عند اليونان: أرتميس

إلهة الصيد والقمر عند الرومان: ديانا

إلهة القمر عند اليونان: لونا

إلهة القمر عند الرومان: سيلين

إله الشمس عند الفراعنة: رع

إله الشر عند الفراعنة: سيت

إلهة الخصب والأمومة والوفاء: إيزيس

إله الموتى: أوزيريس

إله القمر عند الساميين: سيناء

إله الخصب عند عرب الجاهلية: قيس

إلهة الخصب والجمال عند الفينيقيين: عشتار

أسطورة إيزيس وأوزيريس

ومن أجمل الأساطير الفرعونية تيزغ شخصيات هامة مثال إيزيس وأوزيريس، وست وتحوت، وشخصيات أخرى أقل أهمية مثل مين إله الإخصاب، وبانتست وغيرها.

أما إيزيس فقد حيكّت حولها أساطير لا حصر لها، بل إن الأسطورة الأصلية لها ولزوجها أوزيريس تروى بشئ الصيغ. والروايات الكثيرة تختلف في التفاصيل وإن كانت تتفق في اللب والجوهر. وبالرغم من أن شخصية إيزيس إنما بدأت في البزوغ الحقيقي بعد ذبوع قصتها مع زوجها أوزيريس، وأخيها ست، وابنها حورس، إلا أنه يبدو أنها كانت إلهة معبودة حتى قبل هذا، كما أنها استمرت تعبد، واستمر عدد كبير من أتباعها يزاولون طقوسها إلى القرن السادس الميلادي وما بعده.

وتروي أسطورة إيزيس أن إله الأرض «كب» وآلهة السماء «نوت»، أنجبا أربعة أطفال: ولدتين، هما أوزيريس، وست، وابنتين، هما إيزيس ونفتيس. وتزوجت إيزيس من أوزيريس، كما تزوجت نفتيس من ست. وورث كب أوزيريس ملك القطرين. فكان ملكاً عظيماً حكم البلاد بالعدل، وسطع على عرش أبيه كالشمس حين تشرق في السماء: عادلاً في تثبيت أقدام الحقيقة في مصر، ومظفراً أوقع بأعدائه، ووسع رقعة بلاده، فمدحته الناسوعة الكبرى من الآلهة، وأحبته الناسوعة الصغرى.

وأوغر ذلك صدر ست فاحتال الأخير بأن صنع تابوتاً جميلاً، وأقام حفلاً، وقال أنه سيهدي التابوت لمن يكون على مقاس جسمه. ودخل الكثيرون في التابوت ولكنه كان إما صغيراً، أو كبيراً عليهم، حتى دخل فيه أوزيريس. ومن البديهي أن التابوت كان مصنوعاً على هيئته تماماً، فطابقه كل المطابقة. وما إن دخل أوزيريس حتى أغلق ست عليه التابوت، وألقاه في اليم.

وبقيت إيزيس وحيدة تنعى أختها وزوجها. وبحث عته دون ملل أو كلل وجابت

الأرض، حتى علمت أن التابوت قد قذفه اليم على شاطئ «بيلوس» وهي مدينة في مستنقعات الدلتا، وأن شجرة نمت حتى ضم التابوت سابقها تماماً.

وذعبت إيزيس إلى المدينة، ورعت ابن ملكتها حتى أحبتها الملكة، وأجابنها إلى طلبها بأن تقطع الشجرة. واستخرجت إيزيس جثة زوجها من التابوت، وراحت تنوح عليه مع أختها نفيس بشيد أضحى فيما بعد نموذجاً لكل الأناشيد الجنائزية، ومطلعه «أرجع إلى منزلك، أرجع إلى منزلك، أيها الإله» أو. «عد إلى منزلك، أنت الذي لا أعداء لك...».

وتشكلت إيزيس في شكل طائر، وحملت من جثة زوجها بالصبي حورس. وفي هذه الأثناء عرف ست ما حدث، فاخطف جثة أوزيريس، وقطع أشلاءه إلى أربعة عشر جزءاً بعثرها في أنحاء مصر. وراحت الزوجة الثكلى تبحث ثانية عن جثة زوجها حتى عثرت على أجزائها فجمعتها، وعطف عليها رع فأرسل إليها ابنه الرابع أنوبيس ليدفن زوجها. ودفرت إيزيس بأجنحتها على أوزيريس حتى دبث الحياة في جسم الميت، وحرك ذراعاه، ثم انقلب على جانبه، ورفع رأسه. ولما كان من المسير عليه أن يحيى بعد هذا على الأرض حياته الأولى، لذلك أضحى لزماً عليه أن يحيى حياة ثانية وبذلك صار ملكاً لمملكة الموتى «امتني».

وخافت إيزيس على ابنها حورس، الذي أنجبته من جثة أوزيريس، من بطش ست الذي أصبح ملكاً مكان أخيه، فذهبت به لتعيش في مستنقعات الدلتا تحت حماية الإلهة حاتور، إلهة الحب والجمال، ومع ذلك فقد عرف ست مكانهما، وأرسل عقرباً ساماً لدغ الطفل، ولكن أمه أنقذته، بأن قرأت تعويذة سحرية عليه. واستمرت محاولات ست لقتل حورس، ولكن إيزيس كانت دائمة تحميه، وترعاه، وتنقذه.

وكبر الطفل حورس وراح يطالب عمه «ست» بعرش أبيه، أوزيريس، وتقاتلا قتالاً مريعاً، فقد فيه حورس عينا، كما فقد ست خصيتيه، حتى خلسهما تحوت من بعضهما.

وعرض الأمر، في الرواية القديمة للأسطورة، على مجلس كب، والآلهة الذين حكموا لصالح حورس، في حين ادعى ست أن حورس لاحق له في الميراث حيث أنه ليس ابناً لأوزيريس. ولكن تحوت ناصّر حورس، ودافع عنه حتى اقتنع باقي الآلهة. وتصور النسخة الحديثة من الأسطورة، الجزء الأخير على أنه نزاع قانوني، بين حورس وست نظرتهم محكمة التاسعين، بقود المناقشة فيها «شو» أو أنوريس، ويدون محاضراتها

تحوت. واستمر اعتقاد المحكمة ثمانين عاماً دون أن تستطيع إصدار حكم، حتى اقترح شو إحضار كبش مندس لكي يكون حكماً، على اعتبار أنه إله النسل. ولكن كبش أوتيس مندس رفض التدخل في الأمر، واقترح كتابة خطاب إلى نيت العظيمة

ووافقت الآلهة على هذا وقام تحوت بصياغة الخطاب، وردّت نيت بقولها: «اعهدوا بمنصب أوزيريس لابنه حورس، ولا ترتكبوا ظلماً كبيراً وإلا سأغضب، وستسقط السماء على الأرض».

ورفض ست الإذعان للأمر، وناصره رع، ولكن إيزيس استمرت في تدخلها، وحيلها أمام المحكمة حتى طلب ست عقد الجلسة بعيداً عن إيزيس. ووافقت الآلهة على ذلك، فانتقلت إلى جزيرة نائية، وأوصوا الملاح بأن لا يسمح لامرأة بالعبور. وتخفت إيزيس بشكل امرأة عجوز، وأعطت الملاح رشوة من ذهب، بحجة أنها تود الذهاب إلى الجزيرة لإطعام ولدها، الذي تركته فيها. وسمح الملاح لها بالعبور، وفي الجزيرة استعملت الصيغة السحرية التي اقبلت بها إلى امرأة رائعة الجمال.

ولما رآها ست فتن بها، واتجه نحوها فقالت له «يا سيدى العظيم إنني كنت زوجة راعي قطع، وأنجبت له ولداً. غير أن زوجي توفي، وتولى ابني رعي ماشية أبيه. ولكن أجنبياً حضر وجلس في حظيرتي، وقال لابني: سأضربك وسأخذ ماشية أبيك، وأطردك. وهكذا قال، ولكني أود أن تكون له حامياً ومعيناً» فقال لها ست: «أعطني الماشية إلى رجل أجنبي على حين يوجد ابن الرجل على قيد الحياة؟»

وعندئذ تحولت إيزيس إلى طائر، وطار وتاستقرت في أعلى قمة شجرة سنط وصاحت به «الخزى لك، إن فعلك نفسه قد قالها، وإن مهارتك نفسها قد حكمت عليك، فماذا تريد بعد ذلك؟»

ولم يرض ست بذلك واستمر النزاع مدة أخرى، بينه وبين حورس، انتهى أخيراً بأن حكم حورس الأرض، وكلف أتوم إيزيس بأن تحضر ست مقيداً بالأغلال، ولامه على عدم إذعانه لقرارات المحكمة. فاذعن ست. وترك لحورس منصب أبيه. وعوضته الآلهة بأن جعلته آلهة على الأرض الحمراء - الصحرا.

هذه باختصار شديد أسطورة إيزيس وأوزيريس: وقد كرس لها بلوتارك في القرن الأول الميلادي كتاباً بأكمله. وهي كما ترى قصة بسيطة حوت كل المشاعر الإنسانية. من

تفاني الزوجة، إلى تفاني في الأمومة. ولهذا كانت أحب الأساطير إلى قلوب المصريين، بل لقد أحبها الأدباء في جميع العصور من بلوتارك إلى فولتير.

وكان للأسطورة أثر أكبر من مجرد الأدب. فقد رأينا أن إيزيس كانت تتلو العزائم، وتشكل كيفما أرادت وشاءت سواء في هيئة بشرية أو حيوانية، بل أنها كانت أيضاً تخرق بسهولة النار والماء والصخور وأي شيء أرادت.

ومن هنا نشأت عبادة إيزيس أو ربما كان الأصح أن نقول شعائر إيزيس، وطقوسها، فقد استهوت الآلهة المصريين بما أبدته من ضروب الحب والوفاء الزوجي، وملأت مشاعرهم بالأحاسيس بحنانها الأموي وخوفها على حورس ورعايتها له. كما استولت على إعجابهم بسعة حيلتها وبضروب السحر والتعاويذ التي أبدعتها ومارستها.

ولم يقتصر تأثير إيزيس على الشعب المصري، وإنما تعداه إلى سائر الشعوب. فقد حركت فيهم ما تمثله من رقة الأمومة، والوفاء للزوج، والخصوبة، واكتساح الأثرة. كل المشاعر الإنسانية. كانت تهيم على كل ما ولد، وكل ما ينمو. وكانت دموعها في بكاها على زوجها تملأ النيل بالماء حتى يفيض ويغصب الأرض، وهامت روحها في النجم سيربوس حتى أن ظهور سيربوس في فجر الانقلاب الصيفي، استمر يمثل للمصريين فيضان النيل وسائر الشعوب الخصب والخير. وكان نواح إيزيس وبكاؤها على زوجها هو الذي أعاد إليه الحياة، فأضحت أيضاً تمثل عودة الروح إلى الجسد، كما كانت مثلاً لعودة الخصب إلى الأرض حين الفيضان بعد الجفاف والموت.

وهكذا استمرت شعيرة إيزيس عبر القرون لآلاف السنين، إيزيس المرأة، والأم، والزوجة، إيزيس إلهة الإخصاب والتناسخ. وتعرفت عليها شعوب العالم، مقارنة بإها بالكنهة الخاصة: فهي منيرفا، وأفروديت، وميريس، وهيكتات، وهي عشتروت وأنان، وسيل. ولم تنف عظمة إيزيس عند هذا الحد بل إنها تسامت على كل شبيهاها في الشرق والغرب. كانت الآلهة الأخرى تحب الأضحيات الحيوانية والبشرية، وكانت إيزيس تمثل الحياة، وعودة الحياة.

وانتشرت شعيرة إيزيس في الشرق، إلى آسيا وفي الغرب في إفريقيا والشمال في أوروبا.

وراح علماء الفلك واللاهوت والسحر والفلسفة يفسرون الأسطورة، ويفحصون

تمثيلها والرسومات التي تصورها. كان كل شيء ذا مغزى في نظرهم سواء في شكلها أو ملابسها أو ما حولها وما تقبض عليه. وفي قاعدة تمثالها في سايس حفرت الكلمات الآتية: «أنا كل شيء. وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون...». ولم يستطع، أو لن يستطيع أي كان أن يكتشف ما يخفيه قناعي». ورسم أبوليس صورة حية للآلهة في القرن الثاني الميلادي ومن وصفه أناستاسيوس كيرتشر الجزويتي (1601 - 1680) وحياً في حجر على الخشب صور فيه الآلهة يتوج رأسها خصلات شعر، رمز تأثير القمر على النباتات والأعشاب. وعلت سنابل القمح رأسها، كتذكراً بأنها هي التي اكتشفت الحبوب، وعلمت البشرية طريقة زراعتها. ويصور رأسها وحوله حالة ترمز إلى العالم. وتستقر الهالة على كتلة من الزهور، تقصع عن سيطرة الآلهة على النباتات، ويحلى غطاء الرأس شعباناً يرمزان إلى قوة القمر المولدة للحياة، وإلى مساره المتعرج، ويعني شعرها التهذول أنها أرضعت السكون وتطعمه وتقبض في يدها اليسرى على دلو، يمثل فيضان النيل، وفي يدها اليمنى صلاصل، وهي آلة موسيقية مقدسة لديها وهي الشخيلة، وهذا طبقاً لكيرشر يفصح عنها كمصدر النيل وحامية ضد الشر. ويژهو ثوبها بجميع ألوان القمر. وبما أنها ملكة القبة السماوية الزرقاء، فإنها ترتدي دثاراً مرصعاً بالنجوم، وزينت حواشيها بالأزهار، رمز الثرية، لتذكرنا بأنها هي إيزيس التي اكتشفت الأعشاب الطبية، ورحيق الزهور، وعلى رحمها وضع نصف قمر إشارة إلى أن أشعته السحرية تنصب الأرض، وتستقر قدمها اليمنى على الأرض، واليسرى على البحر، فهي سيدة العناصر جميعاً.

ويحدثنا بلوتارك، الذي كانت آراؤه متأثرة إلى حد بعيد بالأفلاطونية وخفايا الشرق، عن ثالث أوزيريس وإيزيس وابنتها حورس. فيقول إنهم يمثلون العقل، والمادة، والكواكب، ويسمهم الثالث الكامل. وتوضح أجزاء هذا الثالث سراً مقدساً، القاعدة وهي تساوي أربعة، هي إيزيس الأثنى التي تحتوى في رحمها على العناصر: والسمت، أو الخط الرأسى يماثل ثلاثة هو أوزيريس الذكور الخالق الرئيسي. أما حورس التاج، فهو الورتر في المثلث، ويقابله العدد خمسة.

وأي مثلث يرسم بهذه النسب يكون رسماً قديماً، له قوة سحرية وكذلك الأعداد الثلاثة، فإنها ذات قوى فوق الطبيعة. ونود بهذه المناسبة أن نقرر أن المصريين، ومن تبعهم في ذلك الفياغورثيون، كما سنرى في فصل لاحق، كانوا يعتقدون بحكمة الأرقام. والواقع أننا لو تتبعنا في الأزمنة اللاحقة أية تعويذة أو دائرة سحرية تظهر فيها

الأرقام، فلا شك في أننا سنجد أن لها أصلاً يعود بنا إلى قدماء المصريين. ويقول بلوتارك إن للأرقام شيئاً لاحظته مؤسس الطائفة في المعابد المصرية، إذ تشير إلى بعض الطقوس التي كانت تتبع فيها، أو إلى رموز معروضة على جدرانها. ولكن بلوتارك لا يعطينا أي تفسير لهذه الأرقام، بل ولا مجرد إشارة حتى إلى التفسير، إما لأنه لم يكن يعرفها، وإما لأنه لم يكن يود أن يوح بها. هذا على الرغم من أنه أكثر من الكلام عنها في مواضع متعددة. على أن القياس لبني في كتابة السحر المتسامي، حاول في فصول متعددة أن يشرح نظرية الأرقام طبقاً للمدرسة الفيثاغورية.

ولا نرى موضعاً هنا للكلام عنها، فمن شاء فله أن يرجع إلى الكتاب المذكور.

ولم يقف تأثير إيزيس وأوزيريس على مجرد الرموز، والتماوزي وغيرها، بل إننا نجد أن عبادتها قد تغلغلت حتى الهند شرقاً، حيث كان يعبد الساكيون الملوك البرابرة، سارابو إلى جنب بوذا وهرقل. كما نجد الشعيرة أيضاً قد جذبت الإغريق، فأقيم في بيرى، في القرن الرابع قبل الميلاد، معبد لإيزيس. وعُبدت الآلهة المصرية أيضاً في رودس ولسيوس، وثيرا، وأزير، وفي جزيرة ديلوس المقدسة، حيث شيد أحد كهنة سيرابيس، من منف هيكلاً صغيراً للآلهة في بيته ثم جعل حفيده سيرا بيوم، بناء على أمر الآلهة. وصل الأمر بالإغريق إلى حد ظهور عادة غريبة في القرن الثاني قبل المسيح، خاصة في كل من أرخومين، وطروتي، وهي نذر من كان يراد عتقهم من العبيد لإيزيس وسيرابيس، كأنهما كانا الإلهين العظيمين الرئيسيين لهاتين المدينتين.

وامتزجت الآلهة المصرية باليونانية، أو ربما كان الأصح كما يقول هيرودوت، أن اليونانيين اقتبسوا من الآلهة المصرية. فأصبحت إيزيس نيمزس ديكانوسيني ونيكي، وهيجيا، وصارت في ديلوس تسمى إيزيس - سوتيرا استارتي - افروديت. وكان إيروس - حريوقراط، أبولو ولداً لها.

وتغلغلت الآلهة المصرية كذلك في الدولة الرومانية، فنجد في روما في عهد سلا جماعة مصرية، كانت أصالة من العبيد الممعتقين، تطبق شعيرة إيزيس. ومنها انتقلت إلى بقع مختلف طبقات الشعب ولم تؤثر فيها سائر الأديان التي كانت وقتئذ تتصارع في الإمبراطورية، فلا أدم العظيمة من آسيا الصغرى، ولا متراس، إله الشمس عند الفرس، ولا يهوه إله اليهود أمكنهم أن يتزعموا السبق من الآلهة المصرية ذات الطقوس والأعياد الحافلة بالأسرار.

ويبدو أن شعيرة إيزيس قد بلغ من تغلغلها في الدولة الرومانية أنها أصبحت خطراً على الدولة نفسها، مما حدا بالأباطرة الرومان إلى تدمير معابدها: حتى أنه وصلنا أنها دمرت على الأقل خمس مرات في أحد عشر عاماً بين 59 - 47 ق. م وأخيراً حرم أغسطس بناء أي معبد لها داخل المدينة. وفي سنة 19 بعد الميلاد دمر تيبيريوس معبد الإلهة وصلب الكهنة، وأمر بإلقاء تماثيل الإلهة في النهر، كما نفى في الوقت نفسه آلافاً من العبيد الممعتقين، وأرسلهم إلى سردينيا ليحاربوا قاطع الطرق كما كان على غيرهم أن يهاجروا من إيطاليا إن لم يعودوا عن القيام بطقوسهم.

ولكن هذه النكسة ما لبثت أن زالت، فقد أقيم من حقول مارس معبد كبير جديد لإيزيس. وكان الذي أقامه في هذه المرة أحد الأباطرة وهو كاليجولا، وزاد فيه إمبراطور آخر، وهادميان، كما ساهم خادريان كثيراً في هذا التطور إذ زار مصر، ومعه الإمبراطور، ورجال البلاط، مظهراً شدة تحمسه للبلاد وآلهتها.

وبهذا نرى الإلهة المصرية قد تمكنت تماماً من قلوب الرومان، وعقولهم، حتى أن لوسيان حينما كان يهاجم «الآلهة ذات رؤوس الحيوان» في تهكم لاذع أنهى حوارها على لسان زيوس بأن هذه الأشياء المصرية كرهية مقبولة، ولكنه يضيف بحيلة وحذر: «إن كثيراً منها الغاز وأحاجي، وما ينبغي أن يهزأ بها من لم يحط بأسرارها» وفي هذه الجملة عود إلى ما قاله بلوتارك «إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها ولا يعبا بمعناها السامي، فإنما ينبغي له أن يتفل، وأن يظهر قمه».

فأوزيريس هو عنصر الربوطة، وقوة الإخصاب في التناسل، إنه في الروح العقل، وفي العالم، كل رتيب متسق مع القانون هو الخير. وست (تيفون) هو الخفاف، والإمحال، والمقم، هو السفاعة، والحماقة في النفس، وهو المرض والدمار في العالم، هو الشر. وإيزيس هي الأرض الخصبة جسداً وهي الأنثى التي تتلقى اللقاح، هي مادة الخير والشر والشخيلة التي يصلصل بها المرء أمام الآلهة، مستديرة الشكل عند قمتها ولها قضبان أربعة. وفي هذه الدائرة إشارة إلى دائرة القمر التي تحيط بكل شيء، وإلى العناصر الأربعة التي تتحرك فيها الماء والهواء والتراب والنار.

لنراجع من النصوص الإغريقية. «إنني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً. لقد تعلمت على يد هرمز، وابتدعت بالإنفاق معه الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة. سنت القوانين للناس وأبرمت ما لا يستطيع بشر نقضه، أنا كبرى بنات كرونوس

أنا زوجة الملك أوزيريس وأخته، إنني أنا التي تشرق في نجمه الكلب، إنني أنا التي يسميها النساء إلهة. من أجلي شيدت مدينة بوسطة. أنا التي فتحت السماء عن الأرض. وبيت للنجوم مسالكها، واخترت الملاحة... أنا التي عقدت بين الرجل والمرأة، وقضيت بأن يحب الأبناء آباءهم. لقد وضعت مع أخي أوزيريس حداً للنمنمة (أكل لحوم البشر) وأعلمت الناس الأسرار الخفية، وكيف يبدلون تماثيل الآلهة، وحددت مناطق معابدها. أزلت دول الطغاة، وحملت الرجال على حب النساء وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة وقضيت بأن يرى الناس الحق جليلاً.

واستمر بناء المعابد في الإمبراطورية الرومانية لإيزيس وميرابيس (أوزيريس) طوال القرون الأولى بعد الميلاد. فترى رجلاً يدعى منابثوس من مالمسين، على بحيرة جاردا، يعيد بناء معبد إيزيس، ويشيد على نفقته الخاصة مبنى أمامه. وفي بنفنت شيد من يدعى لوسليوس «قصرًا فخماً من أجل إيزيس العظيمة سيدة بنفنت ورفاقها الآلهة» وفي يومٍ حيث دمر الزلزال معبد إيزيس سنة 63 بعد الميلاد أعادت أسرة بويديوس بناء ذلك المعبد.

واحتفظت الشعائر اليومية العادية في المعابد الأوروبية لإيزيس بالصيغ القديمة التي كانت لها في مصر، حتى أن مرثل المعبد كان يوظف الآلهة باللغة المصرية القديمة، بل وبأشودة الصباح نفسها «إنك تصحو في سلام، وصحوك لطيف» التي كانت تنشذ منذ آلاف من السنين خلت. واحتفظت أعياد إيزيس بطابعها خاصة عيد نوفمبر الذي كان يستمر ثلاثة أيام، يمثل فيها موت أوزيريس، والبحث عن جسده، ثم العثور عليه. وكان العيد يحتفل به عامة الشعب، إلا أن الشعائر السرية كان يحتفظ بها للامانة ضيقة للغاية من المؤمنين الذين كانوا يؤلفون أخوة صالحة، وكانت لهم مدرستهم بجوار المعبد.

والعيد الثاني هو عيد مارس الكبير، الذي كانت تفتتح به إيزيس ملاحه العام، وكان يبدأ بمجموعة بملايس تكرية، ثم موكب النساء بأثواب بيضاء، يتلوهن الرجال والنساء بالمصايح والمشاغل، ثم الموسيقيون، ثم المكرسون الذين يصلصون بالشخاليل، ثم الرؤساء الستة، ويحملون مصباحاً، وملبهاً، وأدوات أخرى مقدسة، وتليهم الآلهة يتقدمها أنوبيس، برأسه المذبة وشارته والعصا ذات الثعابين والنخلة. ويحمل خادم تماثل بقرة واقفة، وهي صورة الإلهة الولود، ويليهِ خادم يحمل صندوقاً يحتوي على «أسرار الديانة المحيطة».

وقد ورد لنا وصف هذه الأعياد بدقة بالغة على لسان رجل في القرن الثاني بعد

الميلاد يدعى كوكبوس، ويروى أيضاً كيف كرس في ديانة إيزيس ليكون من أتباعها المخلصين. فيقول إن كاهن كشيرو قاده إلى المعبد، ثم أخذ من قدس الأقداس كتباً بحروف على أشكال الحيوان وتنمقات عجبية (أي بالخط الهيروغليفي). وتلي منها ما يلزم لتكريسه ثم اقتيد بصحبة بعض الأتقياء إلى الحمام وطهر بسكب الماء عليه، وبعد الظهور في المعبد أنشئت له الأسرار عند قَدَي الآلهة، ثم فرض عليه أن يتعشع عن أكل اللحم، وشرب العصير عشرة أيام. ولما انقضت هذه الفترة اجتمع المؤمنون في المساء، واقفاده الكاهن إلى قدس الأقداس. أما ما حدث له هنالك فلم يكن له أن يحدثنا عنه إلا تلميحاً: لقد دخل عالم الموتى ثم عاد منه ماراً بكل العناصر؛ وقد رأى الشمس تضيء في حلك الليل ونظر إلى الآلهة الأعلى، والأسفلين وعبدتهم وسمح له برؤية الشمس وهي تعبر بالليل مملكة الموتى مع حاشيتها. وعندما خرج في الصباح اصعد على مراقبة في وسط المعبد، أمام تماثل إيزيس، ثم ألبس ثياباً مبرقشة، محلاة بصور الحيوان، ووضع في يده مشعلًا، وحلى رأسه بتاج من خوص.

هذه هي إيزيس أم الأشياء وسيدة جميع العناصر، البداية الأولى للأزمة التي كانت تعتبر في فريجيا أما مقدسة ليستينوس، وفي أثينا الإلهة أثينا، وفي قبرص أفروديت بافدس، وفي كريت أرتيميس، وفي صقلية برسيفون استكس، وفي الويس ديمتر، وهي أيضاً هيرا وبللونا، وهيكتات، والإلهة الرامنوسية.

هذه هي إيزيس ذات الأشكال المتعددة، والأسماء الكثيرة، التي ابتلعت كل الآلهة في أوروبا فضلاً عن البلاد المصرية والتي اجتاحت آلهة بلاد الشرق الأدنى، عشتروت في صيدا، وإترجانس في سوريا ولكيتس في كريت. هي فيضان النيل في مصر والنهر الكبير في فينيقية، والكنتج في الهند. هي صاحبة السلطان على الرياح، والرعد والبرق والعواصف: هي إيزيس التي لا تقهر التي اقتحمت شعيرتها شمال أفريقيا وآسيا، وبلاد الدانوب وفرنسا وحتى في إنجلترا حيث ترى نقوشاً تكرم فيها إيزيس، ويكرم زوجها أوزيريس. وتقول إحدى المصادر المسيحية أن تونسيرج، جنوب بوزن، كانت كائناً إسكندرية ثانية مليئة بحماقات إيزيس، واختفاء سيرابيس. وكان في مارينهورن في مقاطعة الرين، مذبح لسيرابيس أقامه ضابط روماني، كما عثر مراراً في منطقة الرين على تماثيل صغيرة من البرونز للإلهة المصرية. وربما كان أقوى شاهد هو ذلك الذي حفظته لنا كنيسة أورشولا في كولونيا وهو تماثل صغير لإيزيس التي لا تقهر، وقد استخدم في العصر الوسيط في تاج أحد سلاطينها.

وبالرغم من انتشار المسيحية وبداية نهاية الوثنية إلا أننا لا زلنا نرى في أوروبا أثر إيزيس واضحاً في أماكن كثيرة. ففي أثينا في منتصف القرن الرابع عشرنا على قبر لكاهن لإيزيس دفنت معه الأدوات الفضية التي كان يستخدمها في المعبد. وفي العصر نفسه نجد في الرين الأمير الألماني مديرش الذي تلقى هذه «الأسرار الإغريقية» وهو أسير في بلاد الغال. تؤدي به حماسه لسيرابيس إلى تسمية ابنه بإسم سيرابيون. وحاول جوليان إحياء الوثنية فكُرم بذلك الإلهة المصرية. وفي عام 392 لم ينس إريو جامست الفرنسي عبادة إيزيس عندما نصب أوبيجين على العرش. وفي عام 394 احتفل نيكوماك فلاقيان بصفته قتيلاً، بأخر الأعياد الرسمية في روما تمجيداً لماجنا ماتر، وإيزيس.

وحتى حينما تم النصر نهائياً للمسيحية في أوروبا على يد تيودسيوس ظل الفلاسفة العارفون يحملون شعل إيزيس، حتى أن أحدهم وهو إسكليبيادس الذي عاش في القرن الخامس عمد الإقامة مدة طويلة في مصر ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها.

ولم يقتصر دخول إيزيس على العقائد الوثنية الأخرى بل تعداه إلى العقائد المسيحية. ويكفي هنا أن نذكر ما قاله فريزر في هذا الصدد «الواقع أن طقوسها الفخمة بكهنتها الحليق الذقون والرؤوس، بصلاتها في الصباح، وتواقيسها في المساء بموسيقاها الرنانة وتعميدها والنضح بالماء المقدس، ومواكبها المهيبة، والصور المتوجة بالمجوهرات للإلهة الأم تمثل نقط تشابه عديدة مع مواكب وطقوس الكاثوليكية».

وتعدى الأمر هذا الحد حتى أن شعيرة إيزيس عاشت أيضاً في نظريات السحرة في الغرب المسيحي الذين تبعوا آراء بلوتارك فوجدوا في قدم عهد الإلهة الأم شعيرة رمزية شميرة روح الكون، التي تغذي كل مخلوقات الله. فيعد أن طردت من جنة المسيحيين استمرت إيزيس في عالم النجوم وعلى الأرض لتبذر جوهر الحياة هي الجزء الأنثوي من الطبيعة أو هي تمتلك ما يجعلها كائناتاً مناسبة لإنتاج كل الكائنات الأخرى.

ونشاهد في القرن السابع عشر حقراً يوضح روح الكون ونرى فيه الكثير من الرموز التي ترجع إلى إيزيس: الشعر المسدول والهلل على الرحم وقدم على الماء والأخرى على اليابسة وهي مقيدة بالرب، أو كما قال بلوتارك: «إن إيزيس دائماً ترتبط بالأعلى» أما الرجل (قرد الرب) فيظهر في الحفر مقيداً إلى إيزيس، فهو يدين بحياته ذاتها للذرة التي تتدفق من ثديها.

وتمر قرون، وما زالت شعيرة إيزيس باقية. يذكرنا وبسبب النصوص التي وردت في سايس وهو يقوم في احتفال مهيب بالكائن الأعلى بإشعال النار في خمار يغطي تمثالاً ضخماً لا يراه، إيزيس التي أضحيت قواها الحيوية الدافقة تمثل العقل مغذى التقدم.

هل انقطعت شعيرة إيزيس بعد هذا ؟ أبداً فإنه بالرغم من أن المسيحية كما سوف نرى قد عاملت السحر، والشعائر الوثنية عامة بمتهى القسوة، إلا أننا نرى أن شعيرة إيزيس قد اتخذت أسماء أخرى كالعذراء السوداء في أوروبا وأفروديت السوداء في قبرص، واستمر انتشارها حتى في أحلك عصور الاضطهاد. بل إننا نعلم عن يقين وجود ست جمعيات على الأقل في أنحاء أوروبا تحت إسم العذارى السوداء في سنة 1939، أي منذ أقل من سبعين سنة خلت.

من شعيرة إيزيس إنها لم تحمل من أوزيريس كما تحمل النساء، بل تشكلت بشكل طائر وحملت منه أو من روحه وهو متوفي. وتعلمنا منها قوة الاسم السحرية فهي التي خادعت رع حتى باح لها بإسمه المقدس، وكذلك القوى الخفية للأرقام. وتعلمنا المثلث السحري، ودائرة القمر السحرية، وأخيراً تعلمنا الطقوس التي كان يزاولها الكهنة.

أسطورة إنقاذ البشر من الفناء

هذه الأسطورة من أروع أساطير المصريين القدماء، تحدثوا بها لكي يظهروا من طرف خفي، ما عرّف عن الإنسان من ميل إلى الشر، وتعسف ومغالة في الاستبداد إذا ترك له الحبل على الغارب. فأغضب هذا النزوع إلى الشر الإله الكبير وأراد أن ينتقم من هذه المخلوقات الضعيفة التي شقت عصا الطاعة على خالقها. ولكنه في آخر الأمر أخذته الرأفة وعفا عنهم إبقاءً على من بقي منهم، عسى أن يكون في ذلك عبرةً ومثلاً يضرب للبشر الضعاف فيردعهم ويوقم من ميلهم إلى الشر والخيانة.

ويبدو أن هذه الأسطورة كانت محبوبة عند المصريين لأننا عثرنا عليها مكتوبة في أكثر من مكان. وكان الملوك أنفسهم يتعلّقون بما انطوت عليه من حكمة عميقة. فأمرُوا بنقشها على جدران مقابرهم الداخلية لتصبحهم إلى الدنيا الثانية.

ومن بين المقابر التي خلّدت الأسطورة، مقابر سيتي الأول ورَمسيس الثاني ورَمسيس الثالث في وادي الملوك بالأقصر. ويمكننا أن نُؤرخها ما بين القرن الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

وهذا هو نص الأسطورة:

«حدث فيما مضى من الزمان - حين كان «رع» يسكن الأرض وبعد أن خلق الناس وخلق كل ما يدب على ظهر الأرض، كما خلق الآلهة - أنَّ الناس كانوا يتقدمون من الإله الأكبر بكل فروض الطاعة والعبادة اللازمين لمقامه العلمي.

ولكن الإله كان قد داهمته الكهولة بتعاقب السنين والأجيال وأصبح عجوزاً، عظامه من فضة ولحمه من ذهب وشعره من لازورد.

فأخذ الناس يتكلمون عليه ويرمون بالضعف والهزال.

وعلم جلالة الإله ما كان يدور بين الناس وما كانوا يهيمسون به. فغضب وأمر الآلهة التي كانت في ركابه قائلاً:

«أدعوا لي عيني على عجل وكذلك «شو» و«تفنتو» و«كب» و«نوت» وكذلك كل الآلهة من الآباء والأمهات الذين كانوا معي عندما كنت أسكن «نون». وكذلك أدعوا «نون» نفسه وثلاث مع أفراد حاشيته.

ادعوه جميعاً في السر حتى لا يراهم البشر، وأحضروهم إلى القصر الكبير. وحضر هؤلاء الآلهة جميعهم واجتمعوا سراً حتى لا يعرف البشر بأمر اجتماعهم. وعندما دخل عليهم الإله خروا ساجدين بين يديه واضعين أيديهم على الأرض.

— ثم هتفوا قائلين:

«تحدث إلينا، حتى نعرف ما غطبك».

— فقال «رع» موجهاً كلامه إلى «نون»:

«أي «نون» يا أكبر الآلهة ستأبأ من وجدت فيه.

يا أقدم الآلهة. أدعوك لتدلي برأيك.

«إن البشر الذين خلقتهم قد تأمروا ضدي.

«إن البشر الذين خلقتهم من عيني يتهايمسون ضدي.

«إنهم يقولون في قلوبهم متكهمين: «انظروا! إن الملك أصبح كهلاً، تحولت عظامه إلى فضة ولحمه إلى ذهب وشعره إلى لازورد. هل لك أن ترشدني إلى ما أنا صانع بهم. من أجل ذلك دعوتك لاستشارتك».

«أعلم أنني لم أقدم على إفنائهم حتى أسمع منك ما تنصحنني به».

— وتكلم «نون» قائلاً:

«أنت أيها الإله العظيم».

«أنت يا من تفوق خالقك في عظمتك».

«أنت الابن الذي فاقت قوته قوة أبيه».

«أرسل عينك لتفك بالمتأمرين عليك».

«عندئذ سوف يختفون من فوق الأرض».

فأرسل «رع» عينه لتفتك بالبشر حسب نصيحة «نون» ولكنهم عندما شعروا بذلك تفرقوا في الصحارى واختفوا بين الصخور.

— فقال «رع»: «انظروا كيف هرب البشر إلى الصحارى واختفوا بين الصخور. إن قلوبهم ترتجف لهعاً من عيني».

عندئذ تقدمت جموع الآلهة إلى الإله «رع» بنصيحة أخرى وهي أن يرسل عينه بين الناس على الأرض لتفتك بهم عن كثب. وقالوا له:

«رع عينك تنزل إلى الأرض لتقبض على أولئك الذين يتآمرون بالشتر ضدك.

«إن قوة عينك لا تكفي أن تقوم بمهمتها هذه.

«فلترسلها في شكلها كابتك «حاتحور».

فنزلت هذه الإلهة إلى الأرض وفكت بالبشر المتشترين في الصحراء ورجعت إلى أبيها.

— فقال لها الإله:

«مرحباً بك يا «حاتحور» يا من قمت بما أدعوا إليه من أعمال».

— فقالت الإلهة «حاتحور»:

«يا من تحيا من أجلي

«لقد كنت جارة قوية بين البشر

«مهمتك هذه، أقوم بها بقلب مفعم بالسرور والهنا»

— فرد عليها الإله قائلاً:

«إن فتكك بهم سوف يوطد سلطاني عليهم.

«ولكن كفى ما قمت به.

«ولا تقتلي منهم بعد ذلك فرداً»

أما الإلهة فلم تستمع إلى ما قاله لها أبوها. واستمرت طوال الليل تفتك بالبشر

وأخذت تسبح في دمانهم وخشي «رع» في صبيحة اليوم الثاني أن تأتي «حاتحور» على ما تبقى منهم فصلح فيمن حوله:

«ادعوا لي على عجل رسلاً يسابقون الريح، تفوق سرعتهم سرعة الظل»
فحضر الرسل على الفور وأمرهم بجلالة الإله:

«اذهبوا إلى [إلفتين] واحضروا لي كل ما تستطيعون حمله من آل «ددى»
وعندما أحضر الرسل آل «ددى» إلى الإله أمر بصحنه كما أمر بعض الخادmates بإعداد كميات كبيرة من الشراب وخلطها بآل «ددى» فأصبح لونها كدماء البشر. ثم ملا بها سبعة آلاف جرة.

وفي الصباح أمر «رع» أتباعه أن يحملوا هذه الجرار بما فيها من حمراء وسكبها في المكان الذي اعتمدت «حاتحور» أن تفنك فيه بمن تبقى من البشر.

— وقال الإله متمتماً:

«ما أجمل ما فعلت. سأحمي ما بقي من البشر من فتكها»
وبدت الحقول كبيرة تعلوها طبقة من الشراب إلى ارتفاع ثلاثة أكف.
ولقد تم ذلك كله بأمر من جلالة هذا الإله.

وفي الصباح المبكر أتت الإلهة «حاتحور» إلى هذا المكان الذي غمره ذلك الفيضان وتمتعن برؤية وجهها الصبوح مرتسماً على سطحه. فضحكت وعم السرور نفسها

ثم شربت ولذ لها الشراب حتى ثملت. فرجعت تترنح ولم تقو على إتمام ما اعتمدته من الإتيان على ما تبقى من البشر.

وأقيمت الاحتفالات وسرَّ الإله. ورضيت نفسه بتيبة هذا العمل.

رأى المصري في هذه الأسطورة أشياء أخرى غير ما قدمت، إذ ربط بين الفيضان الذي نتج عن سكب هذه الأواني السبع من الآلاف وبين الفيضان الحقيقي الذي يغمر نهر النيل في البلاد مرة كل عام.

ومما يؤكد لنا هذا الربط أن المصري القديم كان يحتفل بعيد «حاتحور» الذي يمتاز بكثرة الشراب والإقبال على تعاطي الشراب في شهر توت وهو أول شهور فصل الفيضان.

وفي هذه الحالة يمكننا أن نقارن بين غضب «رع» على البشر وبين القحط والجفاف الذي يسبق شهور الفيضان في مصر.

ووصلت إلينا بعض نماذج مختلفة لهذه القصة، لم تكن نهايتها كما ذكرنا، بل اتبعوها بفصل آخر يتحدث عن هذه الإلهة وثورة غضبها عندما ذهب عنها تأثير الشراب.

فنددت بأبيها الذي منعها من إكمال مهمتها والقضاء على البشر جميعهم. واعتمدت الهجرة من مصر واتخذت لنفسها شكل أنثى (زوجة) الأسد. واختارت السودان مكاناً لسكنائها.

فحزن «رع» لفرافها وأرسل وراءها الرسل بعد الرسل يتوسلون إليها حتى يقتنعوها بالرجوع إلى بلدها. ولكن جهودهم كانت دائماً تبوء بالفشل.

وفي آخر الأمر التجأ الإله إلى الأخذ بنصيحة مجمع الآلهة. فادلوا له برأيهم ونصحوه أن يرسل حكيم الآلهة «تحوت» فهو الوحيد الذي تؤهله صفات الحكمة والدرية بخلق الإلهة أن يقنعها بالعودة إلى مصر.

فانخذ «تحوت» لنفسه شكل القرد وذهب إليها ووجدها تتجول في صحراء السودان. وعندما رآه زمجرت. فعرف أنها لا تزال غاضبة. ولجأ إلى حيلة، علّه يجلب السرور إلى قلبها.

فقام بقفزات مختلفة وحركات لطيفة جعلت الإلهة تهادى بل تبدأ بالضحك.

وعندئذ انهمك «تحوت» في أساليبه المضحكة حتى لاحظ أن حالة الإلهة أصبحت تسمح له بمفاتحتها بأمر المهمة التي أتى من أجلها.

وفي آخر الأمر نجح ورجعت معه الإلهة وسعدت مصر بقدموها كما فرح أبوها بلقائها بعد غياب طويل.

امراة بين رجلين

المرأة هي المرأة، في كل العصور، في عصر الفراعنة، في عصر المماليك، في العصر الحديث، في القرن العشرين.. وحتى في العصور القديمة أيام أجدادنا الفراعنة العظام. وما أحرزوه من تقدم مذهل وحضارة رائعة رهيبة. وتلك الأسطورة التي سوف نقرأ أسطورها، تعد مثلاً مجسداً لتلك الأنثى. وهي تجسد هذا اللون من الصراع الأبدي بين المرأة والرجل. وتبين مدى ما تصل إليه العلاقة حتى بين الأخوة إذا ما دخلت بينهما امرأة.

تبدأ أسطورتنا الفرعونية تلك، أيام عصر الملك أمنحتب الثاني. بين أختين هما توت وأنجيدو. كانا يعيشان معاً في دار صغيرة تقبع على ضفاف نهر النيل العظيم. يقيمان فيها مع زوجة توت الأكبر. وكان هو الذي يتولى تنظيم حياتهما، والإنفاق من الدخل الذي يعود لهما، في حين كان الصغير أنجيدو هو الذي يقوم بحراثة الأرض وزراعتها ثم ينظم المنزل الذي يقبع فيه أخوه وزوجته، بينما هو يقيم في الحظيرة يفتش الأرض كل يوم في المساء. ورغم ذلك وعندما تبرز شمس النهار، يقوم ويجهز الحافلة بكل ما طابت به الأنفس. وبعد أن ينتهي الجميع من تناول إفطارهم يتناول ما تبقى منه، ثم يسوق الحيوانات إلى الحقل وينطلق بهم ليقوم بالعمل اليومي المكلف به. أما العائد الذي يحصلون عليه فكان يحصل عليه أخوه توت ولا يقسم ثمنه مع أخيه الذي يشقى ويكد بلا مقابل. وكان أنجيدو راضياً بتلك الحياة إلى أن جاء ذات صباح.. وكان الأخوان يعدان الأرض للزرع فخرجوا في صبيحة ذلك اليوم إلى الحقل. حيث أخذ أنجيدو في العمل تحت لطف الشمس وفي وهج حرارتها، بينما وقف أخوه الأكبر توت يشرف على العمل ويوجهه. ويأمر وينهي ولا يفعل شيئاً سوى ذلك. وأنجيدو يعمل بكد وهمة ولا ينس بكلمة واحدة رغم قسوة العمل وخاصة أيام الصيف.

وبعد أن أتم أنجيدو حراث الأرض وأصبحت جاهزة لاستقبال البذور قال توت لأنجيدو:

- إذهب الآن إلى المنزل واحضر منه أكياس البذور ولكن لا تتأخر حتى يتم زرع البذور اليوم

وقال أنجيدو:

- سمعاً يا أخي سأعود حالاً

وانطلق أنجيدو عائداً إلى المنزل وهو يلهث من التعب. ودخل قاعة الطعام حيث توجد أكياس البذور فانتقى كيساً كبيراً ملاءه بالبذور والقمح والشعير ثم استجمع قواه ورفع الكيس فوق ظهره وسار في طريقه إلى خارج الدار عائداً إلى الحقل. وهنا رآته زوجة أخيه وهو يحمل ذلك الكيس الضخم. ورفعت المرأة عينها وهي ترقب ذلك الفتى القوي. لقد كان جسده القوي يتصبغ عرقاً وقد برزت عضلاته وقوته. إن كل جزء من ذلك الجسد كان يوحى بالقوة والشباب.

وأحست المرأة فارق المقارنة بين زوجها الذي يوشك على بلوغ الحلقة الرابعة من عمره وبين ذلك الفتى الذي دخل في الحلقة الثانية من عمره. فأخذت تقترب من الشاب الصغير وقالت له:

- ألا تئن من هذا الحمل الذي تضعه فوق ظهرك؟ انتظر حتى أدعو لك بعض العمال فيساعدوك في حمل ذلك الثقل.

وانتفض أنجيدو وهو يسمع هذا الكلام ولكنه استمر ينطلق في طريقه وكأنه لم يسمع ما قالته زوجة أخيه. ولكن المرأة بإلحاحها لم تتركه يسير بل استمرت تقول:

- ما أجملك يا أنجيدو وأنت تحمل ذلك الكيس! إنك تبدو كأحد الآلهة التي هبطت من السماء لتعيش في الأرض، وما أروع أن يكون للمرأة زوجاً هوبه من الآلهة في القوة. إنك مفتول العضلات، يافع السن، عكس أخيك الذي قد قارب فترة الشيخوخة ووهنت قوته.

واقتربت المرأة من أنجيدو، ووضعت يدها الساخنة على ذراعه المفتولة العضلات.

وهست قائلة:

- لكم تمنيت أن أكون زوجة لك يا أنجيدو. فإنك أقوى من أخيك وأبهي منه عفواناً وروعة.

وانتفض الفتى من كلام المرأة. وأحس وكأنما أصابته الحمى وارتفعت درجة حرارته. أو كأن أفعى سامة قد لدغته. فإن بعض الكلام تصيب الإنسان وكأنه قد أثنى بالجراح أو طعن بمئات الخناجر.

وقال أنجيدو لامرأة أخيه:

- إن المرأة التي تتكلم عن زوجها بمثل ما تكلمت به أنتي، لا تستحق أن تعيش ولو يوماً واحداً بعد ذلك. ولكنه أخي ومن العار أن تتحدث امرأة مثلك عنه بهذه الطريقة. إنك لا تستحقين مثل توت، ولا ينبغي لك الحياة الكريمة.

وانطلق أنجيدو يهرب من ذلك المنزل. إنه يفر منه وكأنما تطارده آلاف الأرواح الشريرة أو تطارده الشياطين. وبالفعل فإن ذلك المسكن كان يقطن فيه شيطاناً ممثلاً في تلك المرأة الوقحة القبيحة اللسان.

وذهب أنجيدو إلى الحقل ولكنه قد عوّل بينه وبين نفسه على ألا يحدث أخيه عن ذلك الموضوع وذلك الكلام الذي جرى بينه وبين امرأته. . وانتهك في العمل الشاق دون أن يتكلم وكأنه لم يحدث شيئاً.

أما المرأة فقد تملّكها الرعب. . إنها فزعّت وتصورّت أن أنجيدو سوف يحدث زوجها يخبره بما حدث منها.

وفي نفس الوقت اجتاحتها رغبة عارمة في الثأر والانتقام لأنوثتها التي أهانها أنجيدو. إنه أذل كبرياءها ولذلك عزمّت على الإقصاء إلى زوجها افتراء حتى يتقم منه ولو أدى الأمر إلى أن تكون تلك هي نهايته.

وأخذت المرأة الشيطانة تلتطخ جسدها بالطين ثم تخمش ذراعها وكفيها. حتى يخيل إلى من يراها أنها قد خرجت لنوها من معركة قاسية. إنها فعلت كل ذلك لنوهم زوجها بنشوب معركة بينها وبين أنجيدو ولكنها رفضت الاستسلام له عندما حاول الإيقاع بها بين برائته.

وعندما حل الظلام، قفل توت الأخ الأكبر عائداً إلى المنزل وترك أنجيدو يجhez الأشياء التي سوف يعود بها. وأخذ العجب بتوت وهو لا يرى امرأته تستقبله على باب

المزول فتلک هي عاداتها تستقبله يومياً وفي يدها المصباح تير له الطريق والمدخل إلى المنزل. ولكنه دخل إلى منزله وتعجب أكثر عندما لم يجد الماء الساخن الذي تعودت أن تجهزه له ليغسل يديه وقدميه بعد عشاء اليوم وقد أحس أن هناك شيئاً ما قد حدث جعلها تنسى أو تنسى كل هذه الأشياء ولذا انطلق على حجرتها ففوجئ بامرأته وهي راقدة تبكي وتتوجع ونظر إلى جسدها فوجدته ملطخاً بالطين والتراب، والخدوش والجروح تغطي معظم ذلك الجسد فسألها توت:

— ماذا بك؟ .. ماذا حدث؟

فكانت امرأته وهي ما زالت تبكي

— إنه أخوك يا توت. .. إنه أنجيدو. .. فعندما حضر هنا ليأخذ كيس البذور وجدني بمفردي فحاول الإيقاع بي وسوّلت له نفسه أن يعتدي على عرضك ويدنس شرفك. وأخذ يتفاخر بقوته وأنه على استعداد لأن يقتلك لأنك أضعف منه. .. فلما حاولت نبيه عن ذلك وحاولت أن أفهمه أنك أخوه الأكبر وولي نعمته، راح يسخر مني ومنك وألقاني على الأرض وإنهال عليّ ضرباً فقاومته. لكنه أقسم أن يقتلني إذ أنا واجهتك بهذا الموضوع ولذا فانا أقول لك ما حدث رغم أنني أعرف أن ذلك ربما يكون فيه نهاية حياتي. .. إذا لم تسبق أنت وتضع حداً لحياته هو. .. ذلك الخائن الذي تأوّه في دارك وتفق عليه.

ولعبت تلك الكلمات في رأس توت. .. وأتت ثمار خطة تلك الشيطانة مفعولها. .. ونفضت فكرة وضع حداً لحياته أخيه ولم يطق الصورة التي نقلتها امرأته كذباً واقتراء على أنجيدو. فشحن خنجره وتربص في الحظيرة منتظراً حضور أخيه وعودته من الحقل وهو يسوق أغنامه وأبقاره التي كانت ترعى طيلة ذلك النهار المنصرم. .. ولم تكد أولى البقرات تدخل باب الحظيرة حتى سمعها تحدره وهي تقول له:

— حذار. .. حذار. .. يا أنجيدو إن أخاك مرتبص لك يريد أن يقتلك فانطلق واهرب قبل أن يثلك.

ولكن أنجيدو لم يعبأ بذلك الكلام ودخلت البقرة الثانية ولدهشته سمعها تقول نفس الكلام الذي قالته البقرة الأولى وكلما دخلت إحدى الأبقار إلى الحظيرة رددت نفس كلام السابقة لها. .. وأخذ العجب بأنجيدو. .. وتلصص بتلفت بحذر فإذا به يرى قديمي أخيه توت وهي تستعد للالتقاط على.

ولذا انطلق يعدو مبتعداً عن الحظيرة بكل ما أوتي له من قوة ومن خلفه انطلق توت يحاول أن يقتله وهو يرفع خنجره. ولما كاد أن يلحق به. .. وفي لحظة الضعف انطلق أنجيدو وهو يرفع رأسه إلى السماء إلى الآلهة وهو يقول:

— أيتها الآلهة. .. أيها الإله حورس. .. يا من تعرف أنني مظلوم وإنني لم أترف إنماً ولا ذنباً. .. أتقضي مما أنا فيه. أخي يريد قتلي لأنني حافظت عليه وعلى شرفه ولم ألوته.

واستجاب الآلهة لدعوة ذلك المظلوم. .. فإذا سيل من مياه الأمطار يفصل بين الأخوين المتخاصمين.

وإذا رأى أنجيدو ما فصل بينه وبين أخيه توقف عن الجري والتفت إلى توت وقال له:

— لا تنصرف يا أخي توت. .. أبقي مكانك حتى تبرغ علينا شمس الصباح وتفصل الآلهة بيننا وتحكم بالعدل وتأخذ كل منا حقه من الآخر. ولكن إذا ظهرت برائي فإني لن أعود معك إلى تلك الدار مرة أخرى. .. إنها النهاية بيننا.

وطلعت شمس الصباح وأشرق حورس يغطي الأرض بضياءه فوق الأخوان يحتكمان وكل يسوق أدلة اتهامه.

فقال أنجيدو:

— لقد حكمت عليّ بالموت يا توت واستمعت إلى وشاية زوجتك ولم تستمع إلى دفاعي. .. قد أردت أن أقتل بيدك خوفاً على نفسها من أن تقتل. .. إنني لا أخونك ولا يمكن أن ألوث شرفك وأدسه. .. اطمئن يا أخي. كيف غاب ذلك عن بالك وعن خاطرك؟ إن زوجتك هي التي زينت لي الإثم والزيلة وأردت هي لا أنا أن تنال من عرضك. .. وتمنت هي أن أقتلك لنعم سوياً فوق أطلال جيتك. فلما نهرتها ورفضت ذلك أقسمت أن تختلق تلك القصة الطويلة حتى تقتصني. .. فاستمعت أنت إلى الشيطانة وختت أخوك الذي كان يحافظ عليك وعلى شرفك وأردت أن تقتلني. أليس كذلك يا توت ؟. وسكت أنجيدو فترة وأخذ يسمح دموعه التي انهارت على خديه واستطرد يقول:

— ولكن رغم كل ذلك فانا أخوك ولن أحقد عليك ولن أسعى إلى تدميرك والدفاع

عن نفسي. عد يا أخي إلى منزلك وإلى زوجتك التي أترتها على أخيك وأتني لك الحياة السعيدة رغم أنك تمنيت لي الموت.

وأخذ توت يكي ويعتذر لأخيه وهو يقول:

- لقد عرفت صدق قصتك يا أنجيدو.. وعرفت أنني أخطأت بحقك عندما سمعت كلام زوجتي ولكنني أرجوك بحق الآلهة أن تعود.. لا تجعل الغضب يأخذ منك مأخذاً. عد لنعيش كالحسن ما يعيش الأخوة.

وقال أنجيدو:

- لقد قررت أن أذهب إلى وادي الموت لأعيش هناك.

ورد توت:

- وادي الموت!! كيف ستعيش في هذا الوادي حيث الشياطين والوحوش لا تأتي إلا في هذا المكان.

ولكن الفتى أنجيدو قال:

- منذ رفضت خنجرك في وجه أخيك انقطع ما بيننا يا توت. ومع هذا إن كنت لا زلت تحب أهلك فإن الآلهة سوف تيسر لك سبيل التوبة وإصلاح هذا الذنب ولن يستطيع أحد أن يقنذني إذا وقعت في مأزق يعرض حياتي للمخطر، إلا أنت.

فقال توت:

- كيف أستطيع إنقاذك يا أنجيدو وأنت في ذلك الوادي وأنا لا أعرف عنك شيئاً؟

قال أنجيدو:

- بفضل قوة السحر سوف أعلق قلبي على إحدى زهرات الطلح فإذا حدث وقطع أعدائي ساق الشجرة سوف يقع قلبي على الأرض وعندئذ يفور الطعام الذي تتناوله وتحس مرارة في فمك. فإذا أردت أن تقنذني فأسرع إلى وادي الموت وابحث عن قلبي الملقى على الأرض. فإذا وجدته ضعه في إناء بارد وعندئذ سترتد إلى جسدي الحياة ومن ثم أنهض وأنتقم بنفسي من كل من يريد لي الموت.

وودع أخاه ثم انطلق إلى وادي الموت.

وعاد توت يكي يصر على الانتقام من تلك المرأة التي جعلت أخاه يهجره ويضحي

بنفسه في سبيله وهو الذي كاد أن يقتله.. فمزق تلك المرأة والشيطان الذي يسكن روحها بنفس الخنجر الذي كاد أن يقتل به أخاه.

عاش أنجيدو في وادي الموت بسعادة لا يشاركه الحياة أحد من بني الإنسان.. وذلك بمنأى عن شروهم. وكان يقضي وقته في مطاردة الحيوانات ويعود في الليل إلى البيت الذي أقامه في جانب الوادي.

إلا أنه ذات يوم، مرَّ به أحد الآلهة ورآه في عزلته هذه، فاقترب منه وقال له:

- أنتعيش بمفردك هنا يا بني؟ ألا تؤلمك هذه الوحدة؟. عد إلى دارك فقد انتقم أخوك لك من زوجته وقتلها وكفر عن الذنب الذي اقترفه في حقك. فلماذا هذا الخصام؟. عد له يا ولدي إنه ينتظرك.

ولكن أنجيدو قال له:

- يا إلهي إنني أقسمت ألا أعود إلى هذا المكان. فدعني أدير شؤوني.. ولكن باركني قبل أن تنصرف.

فأشفق عليه الإله وباركه بعد أن ترك له زوجة جميلة خلقها خصيصاً له لتشاركه هذه الحياة. وهبطت الزوجة لتقع بين أحضان ذلك الفتى الصغير، الذي ملأته الفرح من هبة الآلهة له. ولكن ربات الجمال اللواتي رأينها تنبأن لها بأن حياتها، سوف يضع السيف حداً لها، وأن دماءها سوف تهدر جزءاً لخياتها.

وأحب أنجيدو تلك المرأة التي هي من نسل الآلهة حياً جماً وبلغ به هذا الحب حد الغيرة حتى أنه لم تخرج إلى نهر النيل لتستحم فيه.. وبسبب هذا الحب كله فقد صارحها بسر قلبه المعلق فوق زهرة الطلح.. ولكنه حذرهما من قطعها حتى لا يموت ويفقد حياته.

وذات صباح خرج أنجيدو يصطاد الحيوانات كعادته كل صباح وكان الملل والسأم قد أخذاً بزوجه بسبب مكوئها معظم وقتها بمفردها انتظاراً لعودة زوجها. فانتبهت الفرصة وغادرت الدار وانطلقت إلى شجرة الطلح حتى ترى قلب زوجها المعلق عليها. ودفعها الفضول وأرادت أن تعبر النهر وكشفت عن ساقها الجميلتين وأدلتها في الماء وهي تحركهما في صخب. وانطلاق فاضطرب النيل وأثارة مرأى هاتين الساقين الجميلتين وأحس بهما. فاندفعت الأمواج تضهما وتحاول اختطافها ولكنها صارت برقع ساقها العاريتين وانطلقت إلى داخل الدار من الخوف والرعب وأخذ الأسف بالنيل

الموت، وكيف أن زوجها سوف يفقد حياته إذا قُطعت تلك الشجرة وسقط القلب المعلق فوقها.

وأرسل الملك رسله من جديد إلى وادي الموت وقاموا بقطع الشجرة وسقط القلب واختفى في جوف الأرض وسقط أنجيدو على الفور يصارع الموت ويتنظر معجزة الإله التي سوف تنقذه من هذا المصير الذي أعذته له زوجته.

ومضى ذلك النهار وانقضى... وجاء المساء.

عاد توت إلى منزله وأخذ يجهز طعامه. وحين همّ بتناوله أخذ الطعام بالفوران والغليان. لكن توت كان قد نسي تحذير أخيه له حول تلك الظاهرة وحدوثها يعني أن حياته في خطر. فتناول من هذا الطعام وأحس بمرارة في حلقه كالملقم. وهنا تذكر كلام أنجيدو وأحس أنه في خطر وأن عليه إنقاذه لأنه بحاجة إليه.

وارتدى توت ملابسه وحمل سلاحه وتوجه إلى وادي الموت وعثر على منزل أخيه ودخله. فوجد أنجيدو على فراشه وجثته لا تزال ساخنة. وراح يبحث عن القلب هنا وهناك ولكنه لم يستطع العثور عليه. واستمر توت بالبحث حتى يئس من العثور على قلب أخيه وأدرك أنه لا بد من دفن الجثة كيلا يتركها كذلك، وفي اليوم الذي همّ فيه بالرحيل قام يبحث للرملة الأخيرة فعثر على بذرة بشكل قلب، لم يكده يضعها في الماء حتى انتفخت وصارت بحجم القلب الذي لم يكده يبلغ حجمه الطبيعي، حتى تحرك الجسد الذي كان محتفظاً فوق الفرائش. وفتح أنجيدو عينيه وعادت نسيمات الحياة إليه.

إنطلق الأخوان عائدين إلى ممفيس. وخلال تلك الرحلة روى أنجيدو لأخيه قصة حياته وزوجته له وأقسم على الانتقام منها. واتفقا على الطريقة التي ستساعداهما بالدخول إلى قصر الفرعون لتنفيذ هذا الانتقام.

وفي الصباح، تحول أنجيدو بقوة السحر التي يملكها إلى ثور مقدس يحمل كل علامات التقديس. وطلب من أخيه توت أن يقوده إلى بلاط الفرعون.

فانطلق توت يقود أخاه على القصر. وأطلت الملكة زوجة أنجيدو فرأت ذلك الثور المقدس وأمرت بإدخاله إلى القصر والسهل عليه ورعايته وعنايته.

ومضت الأيام وبدأ الثور في النمو على القصر، وأخذ يتردد في دهاليزه المختلفة دون أن يضايقه أحد أو يتيمه أحد من الحرس المكلفين برعايته والاهتمام به. ولم يجرؤ أحد على اعتراض طريقه أو حرمانه من التمتع بحريته.

لهرب تلك المرأة التي أثارتة ورغب بها، وراح يتوسل إلى شجرة الطلع المطلّة عليه أن تدعه يخطفها ويسير له ذلك. ولكن الشجرة رفضت توسله وظلت على رفضها ثم رضخت في نهاية الأمر لتوسلاته وأعطته خصلة من شعرها يطفى بها ظمأه المجنون إليها ويشم عبيرها منه.

وحل النبل تلك الخصلة فرحا وراح يجري بأمواله هنا وهناك ولكنه لم يتبين ذلك الحوض الذي يتخذ خدم فرعون مغسلاً له. وإذا بالخصلة تسقط في ذلك الحوض تنسّرت منها رائحة الطيب إلى ثياب الفرعون الذي ارتدى تلك الثياب، واشتم تلك الرائحة. فثارت أعصابه وسرت في جسده رعشة الحب وأقسم ليقتلن رئيس النساليين إذ لم يقل له سر ذلك المعطر ومن أين جاء.

وأخذ رئيس النساليين يبحث ويتقب حتى عثر أخيراً على خصلة الشعر في الحوض فحملها إلى الفرعون الذي أخذ يشمها وأحس بتلك النشوة مرة أخرى. ومن ثم أرسل الرسل والجنود إلى جميع أنحاء البلاد يبحثون عن صاحبة تلك الخصلة وعاد بعضهم وهو يحمل راية القتل. أما الذين ذهبوا إلى وادي الطلع فلم يعودوا إذ قتلهم أنجيدو جميعاً عندما حاولوا أن يقتربوا من منزله إلا جندياً منهم استطاع أن يفر من بطش أنجيدو وعاد يحمل سر المرأة إلى الفرعون.

وحشد الملك فرقة من الفرسان والرماة وذهبوا إلى وادي الطلع ليمودوا بتلك المرأة التي هام بها الفرعون حباً من قبل أن يراها. وأرسل مع الفرقة امرأة أوصاها بأن تكون في خدمتها بعد أن يخطفها الجنود.

واستطاعت تلك الفرقة أن تتحتم منزل أنجيدو خلال خروجه لصيد الحيوانات كعادته فاقتطفوا المرأة وهي بمفردها وانطلقوا بها إلى الفرعون قبل أن يعود زوجها ويبطش بهم.

وعاشت المرأة في منزل الفرعون وشعرت بالسعادة تملكها وهي تحس أنها ملكة وأخذت تتصرف على هذا الأساس. بل لقد عزمت على أن تعيش أبداً الدهر والزمان في ذلك القصر وقررت ألا تعود إلى زوجها، حتى ولو عثر عليها، رغم أن الإله قد خلقها لهذا الرجل بمفرده.

ولكن مكر النساء ودهاءهن جعلاهن تعيش في خوف دائم من أن يعثر عليها زوجها. ورات أنه من الأسلم أن تصارع الفرعون بسر القلب المعلق على زهرة الطلع في وادي

وذاث يوم دخل الثور المقدس حمام القصر. ووقف أمام امرأته التي كانت تمثل أجمل نساء القصر وأحلاهن. وأخذ في التحرك والدوران حتى يلفت أنظار الملكة فأنتهت وأخذت تداعب الثور وتربت على شعره في هدوء. ولم تكد تفعل ذلك حتى سمعت صوتاً يقول لها:

- انظري.. إني حي يرزق.

وهضت الملكة وهي تقول: - من أنت؟

فقال لها الصوت: - هل نسيته؟ ألا تذكرين زوجك؟

فصرخت الملكة رعباً وانطلقت إلى حجرتها وأغلقت بابها عليها.

وغادر الثور القصر عائداً إلى حظيرته التي يملك فيها..

وانصرم ذلك اليوم. وبينما كان الفرعون يتناول طعامه حول مائدته العامرة بأحلى أصناف الطعام وامراته جالسة بجواره تصب له كؤوس الشراب الواحد وراء الآخر، قالت له:

- هل تعدني أن تبلي لي طلباً؟

وضحك الفرعون من هذا الكلام ثم قال:

- لك ما تريدن بحق الآلهة.

فقالت المرأة:

- إذن امنحني كبذ هذا الثور الحبيب.

وفى نشوة السهر وإعجابه بامرأته، أمر الملك ببيع الثور فذبحوه. وحينما حملة الخدم إلى الخارج، سقطت قطرات من دماء ذلك الثور أمام الباب ولم ينتبه أحدٌ لهذا.

ومر اليوم وجاء الصباح.. فإذا شجرة عظيمة قوية الجذور قد نمت حيث سقط الدم وهي تحمل ثماراً حلوة لذينة.

وعلم الجميع بالمعجزة التي ظهرت أمام قصر الفرعون، فأقام الملك حفلاً عظيماً^{١٠٠} اشترك فيه جميع الناس.

ومضت الأيام وهبط الملك إلى الحديقة ذات يوم، وجلس تحت تلك الشجرة يتناول الطعام هو وامراته.

وسمعت صوتاً يقول لها:

- أيتها المرأة الخاتنة، للمرة الثانية تحاولين قتلي.

فصرخت المرأة وهي تنظر إلى الشجرة بذهول وعزمت على أن تقطع هذه الشجرة في أقرب وقت.

ومرت أيام أخرى، وطلبت الملكة من الملك قطع تلك الشجرة ليصنع من خشبها خزانة جميلة لها.

وفى اليوم التالي أمر الملك بقطع الشجرة وتنفيذ ما أمرت به. وتم لها ما أرادت تحت إشرافها إذ وقفت هي مع التجارين وهم يقومون بقطع تلك الشجرة.

وأثناء وقفتها وهي تأمر هذا وتنهى ذلك، طارت قطعة صغيرة من الخشب إلى فمها فابتلعها دون أن تعي ذلك ولم تهتم لها أبداً.

وبعد فترة، جاء الملكة المخاض فوضعت ولداً ذكراً. لم يكن سوى زوجها أنجيدو.. وفرح الملك بالطفل الصغير وأعلنه ولياً للعهد وأورثه حكم البلاد. ومات الملك واحتفل الجميع بتنصيب ولي العهد ملكاً عليهم.

وبينما الجميع يتظنون أن يقص الملك حكايته كما كان ذلك جارياً في تلك الآونة. انطلق ولي العهد يروي لهم حكايته منذ هرب من دار أخيه إلى أن وصل إلى حكمهم.

وارتفع صوت الملك يسأل كهنته:

- ما حكم تلك المرأة الخاتنة؟

فصاح الجميع بصوت جهوري:

- الموت... الموت... الموت.

وأمر أنجيدو بتنفيذ الحكم، وبالسيف قطع رأس الملكة، تماماً كما تنبأت لها ربات الجمال.

أما أنجيدو فقد استمر يحكم البلاد عشرين عاماً وهي الفترة التي عاشها حتى مات. وهكذا أوصلت المرأة شاباً إلى حكم البلاد ورعايتها وهي التي كانت تدبر له الموت على يد أعز الناس إليه وأقربهم إلى قلبه.. على يد أخيه..

قصة «أتون» إله التوحيد

في الدولة الحديثة كان الإله الأكبر هو «آمون» إله طيبة وملك الآلهة. واندمج فيه معظم الآلهة الأقوياء في مصر وعلى رأسهم إله الشمس «رع». وعلى ذلك فإن آمون وحورس وخنوم وآتوم، كل هذه الآلهة صارت تعتبر في الدولة الحديثة إلهاً واحداً.

ومع ذلك فإن وجود المعابد المختلفة لكل من هذه الآلهة يجعلنا نعتقد أن فكرة التوحيد بينها لم تكن إلا أقوالاً شعرية جوفاء. كما أنَّ كهنة آمون قاوموا - بطبيعة الحال - هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الآلهة في الدولة الحديثة، لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء وخشوا أن تطيح هذه النظريات ببرائهم الطائيل.

ويذكر التاريخ محاولة وحيدة عملية للقضاء على تعدد الآلهة قام بها ابن أمنحوتب الثالث آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظيم وهو المشهور باسم «أخناتون».

وقد انطوت محاولة هذا الملك على استبدال جميع آلهة العصور السابقة بإله واحد سماه «أتون الحي العظيم»..

ولعل القارئ يود أن يعرف شيئاً عن تاريخ هذا الإله. وفي الواقع لم يذكر هذا الاسم بين الآلهة المصرية إلا مرات معدودات، على أنه إله محلي فيتل الشأن، عبد في عصر الدولة الوسطى (حوالي 2000 ق.م) في قرية صغيرة من القرى المجاورة لمدينة هليوبوليس، وبقي مهملًا لا تعرف عنه شيئاً، حتى جاء هذا الملك المتحمس ورفع من شأنه وجعل من عقيدته ديناً رسمياً للبلاد.

ويجدر القول بأن الملك تحوتمس الرابع (ثامن ملوك الأسرة الثامنة عشرة) كان أول ملك جاهر بالتعبد لصورة من صور هذا الإله. ثم جاء بعده الملك أمنحوتب الثالث وبني بعض المعابد لهذا الإله في طيبة ومنف.

ويبدو أن الملك الأخير كان مدفوعاً بحب زوجته «تي» المشهورة التي سلبت له بجمالها. واحتفل بزواجه منها احتفالاً لم يذكره التاريخ لأي ملك آخر، وجعل منها الزوجة الملكية الأولى برغم أنها لم تكن من سلالة ملكية.

وعندما تولى أمنحوتب الرابع بن أمنحوتب الثالث من زوجته «تي» العرش لقب نفسه كبير كهنة «رع - حور - آختي»، المبتعج في جبله المضيء واسمه «شو» وهو اسم «آتون».

ومعنى هذا أن الملك آختاتون رأى في هذا الإله صورة معنوية غير مجسدة تسكن الجبل المضيء (بمعنى الأفق).

وفي أوائل أيام حكمه كان هذا الملك يتعبد لكل من الإلهين «آمون» و «آتون». عبد الأول بصفته ملكاً على مصر وتعبد إلى الثاني بصفته الشخصية.

ويظهر من بعض الوقائع التاريخية أن كهنة «آمون» عزّ عليهم أن يستمر هذا الملك الشاب الضئيل المريض الجسم.. الذي كاد يبدو كالمعتوه - في التقرب إلى ذلك الإله الدخيل «آتون». فأخذوا يحيكون حوله المؤامرات كما حاولوا عدة مرات اغتياله - ومما أدى إلى نتيجة لم يكن يتوقعها كهنة «آمون» إذ شن عليهم آختاتون حرباً شعواء لا هوادة فيها، وتعقبهم وشئت شملهم وصب جام غضبه على الإله «آمون».

وتصارى القول أن ثورة الغضب التي اجتاحت آختاتون جعلته يتعقب «آمون» وجميع الآلهة القديمة المندمجة فيه. ولا نجد لهذه الثورة مثيلاً إلا في تاريخ التعصب. فقد محا رجال الملك أسماء «آمون» وصورة حيثما وجدت، وكان أتباعه يتسللون حتى إلى بطون المقابر ليصبوا غضبهم على الإله البغيض.

ولا غرابة إذاً، إذا كره الملك عاصمة ملكه طيبة ممر عبادة «آمون» وزملائه من الآلهة إذاً فهجروا وأمر بتشيد عاصمة جديدة لتحل محل مدينة طيبة الدنسة.

وشيدت مدينة «تل العمارنة» في مصر الوسطى بالقرب من ملوى. ومن هذه المدينة انبثقت أشعة عصر جديد كله مجد وكله فخار.

فهنا نبت الدين الجديد الذي يوحد بين العبادات ويطلب إلى المصريين أن يتعبدوا إلى إله واحد لا شريك له. وهنا أيضاً أدخل الملك أماليب جديدة في كل مظهر من مظاهر الحياة في مصر.

وكان الفن من أهم ما تناولته يد التغيير فقد أخذ يرنو إلى تقليد الطبيعة حتى أصبح فناً واقعياً يستمد مادته مما هو كائن وبذلك تحرر الفنان من تلك القيود العتيقة الجامدة التي كانت تسيطر على الأسلوب الفني طوال العصور السابقة.

إذن كان للثورة هدفان: الأول إزاحة ذلك الكابوس الذي جثم على صدورهم سنين عديدة من تعدد الآلهة وإقامة الطقوس وتعبها وتحت الكهنة. والهدف الثاني كان الجرح بالفن إلى الناحية الطبيعية البحتة يستلهمها صوره وأخيلته ومعانيه.

وستحاول هنا أن نثبت ترجمة للأنشودة الكبرى التي دبحها آختاتون لمعبوده الجديد وهي تضفي على هذا المعبود صفاتاً عالمية خليقة بأن يرى فيها كل إنسان - مصرياً كان أو أجنبياً - مثله العليا التي يتطلع إليها كل متعبد تقي.

كما يجدر بنا أيضاً أن نشير إلى تلك المشابهة الكبيرة بين الكثير من فقرات هذه الأنشودة وبين فقرات أحد زمائره دارد وهو المزمار رقم 104، وقد كان هذا التشابه موضع ملاحظة كثير من علماء اللاهوت.

والأنشودة - موضوع الحديث - مأخوذة من مقبرة «آي» المحفورة في الصخر بمنطقة تل العمارنة. ولا شك في أنها كانت تشد كل صباح عند شروق الشمس ومساء عند غروبها في معبد «آتون» بتل العمارنة.

وها هي ذي ترجمتها:

«إنك تسطع جليلاً في أفق السماء.

«يا «آتون» الحي. يا بدء الحياة.

«إنك إذا أشرقت من جبل النور الشرقي.

«ملأت كل بلد بجمالك.

«إنك جميل. إنك عظيم

«إنك تتلأأ عالياً فوق كل بلد.

«إن أشعتك تغمر البلاد وكل شيء خلقته.

«إنك «رع» الذي تأمر كل من رآك.

«إنك الإله الذي دان الجميع بحبك.

«إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض.
 «إنك قصي ولكن طبعات قدمك على الأرض هي النهار.
 «إذا غربت في الأفق الغربي للسماء،
 «أظلمت الأرض وأصبحت كأنها ميتة.
 «فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم.
 «لا ترى عين عينا أخرى.
 «إذا سلبهم سارق ما تحت رؤوسهم فإنهم لا يتيهون.
 «أما السباع فتخرج من جحورها،
 «والثعابين تسسل وتلدغ.
 «ويخيم السكون على الأرض.
 «لأن خالقها قد استراح في أفقه الغربي.
 «تضيء الأرض إذا ما أشرقت من أفقك.
 «إذا سطعت في النهار كـ «أتون» تبدد الظلام.
 «إذا أرسلت أشعتك عم الفرج كلا القطرين،
 «واستيقظ الناس وهبوا على أقدامهم.
 «لأنك أنت الذي تقيمهم.
 «فيغتسلون ويلبسون ملابسهم.
 «وترتفع أذرعهم متعبدين لشووكك.
 «ثم يتشرون في الأرض يباشر كل منهم عمله.
 «أما الأشجار والنباتات فهي تزدهر.
 «أما الطيور فهي ترفرف خارجة من أوكارها.
 «تسبح أجنحتها بحمدك.
 «وتقفّر الحملان على أقدامها.

بني
 ١٠

«وكل مخلوق حي تهتز أعطافه.
 «لأنك تشرق من أجله.
 «وتبحر السفن شمالاً وجنوباً.
 «وتعج الطرق بالناس.
 «لأنك تضيء.
 «أما الأسماك في النهر فتتفاخر أمامك.
 «إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر.
 «إنك خالق النطفة في الرجال.
 «إنك تعطي الحياة للجنين في أحشاء النساء.
 «تهب الحركة للوليد في بطن أمه.
 «وتسكن من روعه فلا يبكي.
 «إنك بمثابة العربة للجنين وهو لا يزال في بطن أمه
 «إنك تهب نسيم الحياة.
 «ولحيا به جميع مخلوقاتك.
 «إذا خرج الجنين من بطن أمه،
 «جعلت من ذلك يوم ولادته.
 «ثم تفتح فمه ليتحدث،
 «وتدبر ما يحتاج إليه.
 «وإذا صاص الفرج في بيضته،
 «فإنك تهبه الهواء لتبقيه حيا،
 «ثم تمده بالقوة حتى يقبب بيضته،
 «ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة،
 «ويسمى على قدميه إذا خرج منها.

«ما أكثر ما خفي علينا منها.

«أنت يا إله، يا أوحده.

«لقد خلقت الأرض حسيما تهوى أنت وحدك.

«خلقتها ولا شريك لك.

«خلقتها مع الإنسان والحيوان كبيرة وصغيرة.

«مع ما يسعى على قدميه فوق الأرض

«وكل ما يخلق بجانبه في السماء.

«خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر.

«وأقمت كل إنسان في مكانه.

«ودبرت لكل إنسان ما يحتاج إليه.

«وجعلت لكل منهم أيامه المحدودة.

«لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم.

«كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم.

«وهكذا قد ميزت بين الشعوب.

«لقد خلقت النيل في العالم السفلي.

«ودفعت به إلى (أعلا) حسب مشيتك.

«لتحيي به البشر يا سيد الجميع.

«لأنك قد خلقتهم لنفسك.

«أنت يا شمس النهار.

«يا عظيما في جلالك.

«يا من خلقت البلاد البعيدة.

«وجعلتها تحيا هي الأخرى.

«لقد جعلت نيلا يهبط إليهم من السماء،

«وجعلت له أمواجاً تتدافع على الجبال كالبحر.

«فتجد حقولهم ما تحتاج إليه من الماء.

«ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية.

«وهبت نيل السماء لشعوب الجبال.

«فأحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه.

«أما أنيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي

«فتغذي أشعناك كل حديقة،

«وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه.

«لقد خلقت الفصول لكي تحيي كل مخلوقاتك.

«وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك،

«ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك.

«وخلقت السماء البعيدة لتشرق فيها.

«ولتري منها كل ما خلقت أنت وحدك.

«أنت الوحيد الذي يشرق في صورته كآتون الحي.

«ساطعا متلألئاً رائحاً وغادياً.

«لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التي تعد بالملايين

«مدنا وقرى وقبائل وجبالاً وأنهاراً

«كل العيون ترنو إليك.

«لأنك أنت آتون الذي يشرق في النهار على الأرض

«إنك في قلبي.

«ليس هناك من يعرفك غير ابنك أختاتون.

«إنك أنت الذي أمدته بالحكمة.

«إنك أنت الذي ثقفته بتدبيراتك وقوتك.



أساطير عربية



- «إن الدنيا بين يديك .
«ولا غربة في ذلك فأنت صانعها .
«إذا ما أشرقت عاش الناس .
«وإذا ما غربت ماتوا .
«إنك أنت الحياة .
«ولا يحيا الناس إلا بك .
«تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب .
«فإذا غربت في الأفق الغربي .
«ترك الناس أعمالهم كلها .
«لقد خلقت العالم .
«وجعلت الناس يحيون .
«كل ذلك من أجل ابنك الذي نشأ منك .
«ملك مصر العليا ومصر السفلى .
«الذي يحيا في الحق .
«سيد الأرضين أخناتون، الذي يحيا إلى الأبد .
«وكذلك من أجل زوجته المحبوبة .
«سيدة الأرضين نفرتيتي .
«التي تحيا وتزدهر دائماً وإلى الأبد» .

سليمان النبي والغراب

قرأت هذه الأسطورة التاريخية في كتاب أساطير شعبية تأليف «عبد الكريم الجهمان». وهي إحدى الأحداث التي مرت في حياة نبي الله سليمان بن داود، الذي وهبه الله الحكمة ومعرفة لغة الطيور، وسخر له الكثير من المخلوقات. كما أنه كان - عليه السلام - يعرف منطقها ويخاطبها بلغاتها ويفهم إشاراتها. وكانت الطير تجتمع عنده كل يوم عندما يجلس في مجلسه العام لتقدم له فروض الطاعة وتأتمر بأمره. . . وتنتهي عما لا يريد وتظله عن حر الشمس إذا طار على بساطه.

وكان سليمان بن داود - عليه السلام - حاذقاً بصيراً دقيق النظر كثير الفحص للأمور والبحث وراءها!

ولاحظ سليمان - عليه السلام - أن الغراب هو آخر من يحضر من الطير في الصباح. . . كما أنه أول من يطير عند نهاية الجلسة في المساء. وظن سليمان عليه السلام أن هذا التصرف غير دائم. فراقبه سليمان ووجد أن هذه قاعدة لم يشذ عنها الغراب في يوم من الأيام، وعلم أن وراء هذا التصرف سرّاً.

ذات يوم طلب سليمان بن داود الغراب وخلا به في مجلس خاص. . . وأنفى إليه بتلك الملاحظة وهي أنه آخر الحاضرين وأول المنصرفين فما السبب في ذلك؟. هل هو ضيق بهذه الجلسة. ونفور منها. . أم كراهية لأحد من الحاضرين فيها أم نوع من العصيان والجفاء الذي يسلكه العاجزون؟

وعندما انتهى سليمان بن داود من كلامه، قال الغراب: إنني استميتك يا نبي الله العفو. . واعتذر إليك عن سوء تصرفي. . ولكنني أؤكد لك أن هذا التصرف ليس مبعثه كراهية لمجلسكم. . ولا كراهية لأحد فيه وليس نوعاً من العصيان. فأنا وأبائي وأجدادي لم يكن فينا واحد ممن عصي ولي أمره، أو خرج من ربة الجماعة. ولكن والدأ شيخنا

كبيراً قد تساقط ريشه.. وبقي في وكرة لحمه لا يسترها شيء. وأنا أخشى عليه من جوارح الطير أن تأكله فأغطيته بجناحي. وأبقى بجواره حتى تذهب جميع الطير وإذا ذهبت جئت إليك وإذا انتهت الجلسة كنت أول الطيور انصرافاً.. خوفاً من أن يسبقني إلى والذي أحد جوارح الطير أو يسبقني إليه عدو من الأعداء فينكث بشيخ لا يستطيع الهرب.. ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

وهذا يا نبي الله هو السبب في تصرفي الذي يبدو شاذاً وقد يدك على شيء من الجفاء.. ومعاذ الله أن أسلك مسالك الجفافة أو الشاذين!

فَسُرَّ نبي الله سليمان بن داوود عندما علم بالسبب وسأل الغراب عن عمر والده فقال: أنه يبلغ من العمر ثلاثمائة من السنين.

وقال سليمان للغراب: احمل والدك إلينا لنسأله عن أغرب ما شاهده وما مر عليه في هذا العمر الطويل! فقال الغراب: سمعاً وطاعة يا نبي الله.

وطار الغراب مسرعاً إلى مكان والده حتى وصل إليه متأخراً واستغرب الوالد من ولده هذا التأخر.. فأخبره بما حصل.. وقال: إن نبي الله سليمان طلب إحضارك عنده!

فقال الغراب الشيخ: وماذا يريد مني سليمان. إنني رمة هاملة لم يبق في من القوي إلا قوة لساني.. فسمعي ضعيف! ونظري ضعيف! وجسمي ضعيف. وكل ما في ضعيف.. ومنظري منظر يشع حيث أن جمال الطير بالريش. وأنا ليس على جسدي إلا الزغب.

قال الغراب لوالده: وما رأيك؟

فأجاب الغراب الشيخ: الأمر إليك. فأنا اعتبر نفسي قد انتهت من هذه الحياة فلا أخشى أحداً ولا أرجو أحداً. وليس أحب إليّ من أن ألقى مصيري المَحْزوم. فليس في العيش بالنسبة إليّ إلا الآلام والأمراض والوساوس النفسية، والأحلام المزعجة!

علاوة على أنني صرت عبثاً ثقيلاً عليك يا ولدي العزيز، فقد شغلتنك عن كثير من شؤونك الخاصة. وفرض وجودي عليك بهذه الحالة سلوكاً خاصاً. بلا شك إنه قيد ثَقِيل يكبلك.

وقال الغراب لشيخه: لا عليك من هذه الأمور فنلك ديون تؤديها لمن سبقنا

ويؤديها إلينا من لحقتنا. وإنني أرى تلبية الدعوة وسوف أحملك على ظهري في وركك. وسوف نصل دون تعب أو مشقة.

وعندما رأى الغراب الشيخ تصميم ولده على هذا الأمر وافق عليه.

وحمل الغراب والده على ظهره.. وطار به حتى وصل إلى نبي الله سليمان.. نظر نبي الله إلى الغراب الشيخ فمسح جسده العاري بيده فاكسى جسمه ريشاً أسود لماعاً.. ونفخ في جسمه المهمل فعاد إليه شبابه.

ثم نظر إليه سليمان بن داوود فرأى أن إحدى عينيه مفقودة. وأنه لا يرى إلا بعين واحدة..

فسأله نبي الله سليمان عن سبب فقدانها.. كما سأله عن أغرب ما رأى وما سمع في عمره الطويل.

فقال الغراب: إنَّ أغرب ما مرَّ علي في حياتي هو قصة فقدانني لعيني هذه.

وأشار الغراب إلى عينه المفقودة.

فقال سليمان بن داوود للغراب: قصّ علينا هذه الحادثة.

فقال الغراب سمعاً وطاعة. لقد كنت في أيام شبابي كثير الحركة.. كثير الأسفار والانتقال من بلد إلى بلد.. للبحث عن الرزق.. ولمعرفة ما حولي ولاختيار أحسن الأماكن وأخصبها.

أثناء تجوالي مرت بمدينة عجيبة.. يعيش أهلها في خصب ورخاء.. ويحيط بمدينةهم سور من حديد فوقه شرفات من ذهب وقد أعجبني منظر هذه المدينة التي لم أر لها مثيلاً في حياتي الطويلة على كثرة ما رأيت من المدن.

وقد وقمت على سورها لأنظر إليها وإلى أهلها.. وبقيت ساعة من النهار مأخوذاً برعة هذه المدينة وحسن تخطيطها، وقوة بنائها والرخاء العظيم الذي يعيش فيه أهلها وقد بصر بي أحد سكان المدينة وأنا فوق السور. فلم أشعر بعد دقائق معدودات إلا بناقطة تخرج من المدينة.. ثم تساق إلى أن قربت مني.. ثم ذبحت وأشير إليّ أن هذه ضيائتي. فنزلت من شرفات السور.. وصرت أكل من لحم هذه الناقطة التي أضافتني إياها تلك المدينة بضعة أيام. حتى أتيت عليها كلها وبعد ذلك وإصليت أسفاري وتقلاتي من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة.. وأنا لا أكل ولا أمتلئ. لأنني كنت أعيش في عفوان شبابي

وأجد لذة عظيمة في التنقل من بلد إلى بلد كما أنني أزداد بذلك خبرة وعلماً وسعة اطلاع. إلا أنني في كل تجوالي لم أجد أحسن من تلك المدينة التي أضافني أهلها بناقة كاملة.

وقد غبت عن هذه المدينة فترة طويلة من الزمن ثم تآقت نفسي إلى رؤيتها مرة ثانية. فطرت حتى وصلت إليها فحلقت عليها عدة مرات لأمتع بمنظرها العجيب. ثم وقعت على إحدى شرفات سورها التي انقلبت إلى شرفات من فضة وبقيت منتظراً لأرى هل ما زال أهلها على ما كانوا عليه من كرم ورخاء.

وبعد فترة وجيزة بصر بي أحد سكان المدينة فاخرج إلى كيشاً وذهب خارج السور ثم أشار إليّ بأن هذه ضيافتي. فنزلت من فوق شرفات السور وصرت أكل من لحم ذلك الخروف عدة أيام حتى أكلته كله. ثم غادرت المدينة مواصلاً ثقلاتي وتجوالي.

وغبت عن هذه المدينة إلى ما شاء الله ثم اشتقت إليها وإليّ أهلها ثانية فعدت إليها ووجدت أن أحوالها قد تدهورت. وأن ذلك الرخاء قد تقلص. وأن تلك المدينة قد بدأت تخيم عليها سحب الكآبة والجذب والعوز. فوقعت على إحدى شرفات السور التي انقلبت إلى حديد.

ومكثت فترة من الزمن حتى رأيته أحد السكان فلم أشعر بعد فترة وجيزة إلا بدجاجة يخرج بها أحد السكان ثم يذهبها ويشير إليّ بأن هذه ضيافتي. ونزلت من فوق السور وأكلت تلك الدجاجة في أول يوم ثم غادرت المدينة متنقلاً من بلد إلى بلد متفكراً في هذه الدنيا وتقلباتها. وبعد مدّة طويلة، عدت إلى تلك المدينة التي سورها من حديد. وشرفاتها من ذهب. وحلقت فوقها عدة مرات. لكنني فوجئت برؤية حالها قد تدهورت بسرعة مذهلة. وأن ذلك النعيم والرخاء الذي كان يخيم عليها قد تقلص. وخُفّت بعده الفقر والعوز.

ووقعت على السور ناظراً مفكراً معتبراً. وقلت في نفسي سبحان من يغير ولا يتغير. كيف انتقلت هذه المدينة وأهلها من ذلك الخصب والرخاء والسعادة والهناء إلى هذا الفقر المدقع تبدو مظاهره على السكان في كل ركن. وفي كل ميدان.

ويواصل الغراب كلامه ونبي الله سليمان منصت إليه، متعجب من هذه المدينة وأهلها.

قال الغراب: وبينما أنا في زيارتي الأخيرة على إحدى شرفات السور. وإذا بأحد

السكان يسير في أحد الشوارع فيراني. ثم يقترب مني ويبدأ ويبدأ. ويلمع البصر شعرت بحجر ينطلق من يده فيصيب عيني فيفقاها. وكان يقصد قلتي ليأكلني ويطرده بلحمي ويلات الجوع التي يعانيها.

لقد كان هذا الحجر الذي أصاب عيني مفاجأة غريبة ما كانت تخطر على بالي. فأنا من عاداتي الخوف والحذر وافترض أسوأ الافتراضات للنجاة من شرور البشر إلا أنني كنت آتناً مطمئناً إلى سكان هذه المدينة لأنني لم أعتد منهم إلا الكرم والفضل والإحسان. ولم يسئ إليّ أحد منهم في يوم من الأيام.

ثم أن هذا الرجل لم ينحن ليأخذ الحجر من الأرض أمامي. والذي يظهر أنه كان قد أعدّه في جيبه قبل أن يراني. ولهذا فقد جاءني الحجر ممن لا أتوقع أنه يسئ إلي. كما أنّ إمارات الغدر لم تظهر من هذا الإنسان لأخذ حذري منه.

لهذا وقع المحذور وفقدت نصف نظري. وطرت من فوق سور هذه المدينة. وأنا لا أكاد أرى طريقي من شدة الألم وهول المفاجأة الغادرة التي جاءتني من حيث كنت تعودت الكرم ومن حيث كنت انتظر الإحسان.

وغبت يا نبي الله عن هذه المدينة ردحاً من الدهر لا أعرف عدد سنه. ثم إنني أحبيت أن أعرف إلى أين انتهت بهذه المدينة حوادث الدهر. وعرفت أن أمر هذه المدينة في إدمار. منذ أن ذهب منها الأخير، ولم يبق فيها إلا الأشوار.

وكنت عازماً في هذه المرة أن أخذ حذري. فإن المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين كما أنه لا يؤخذ بعد النذر إلا هتيم. وحلقت فوق المدينة فلم أر لها أثراً. وهبطت من علياني حتى قريت من الأرض، ولكنني لم أر تلك المدينة.

لقد اخضعت تماماً. وتراكت فوقها الرمال. حتى لم يظهر فيها أي أثر يدل عليها. تعجبت أشد العجب. وجعلت أنتقل من رأس كتّيب إلى رأس كتّيب لملي أرى من يدل على المدينة. ولكنني لم أر شيئاً مع أنني جازم ومتيقن أن المدينة تحت تلك الرمال.

وعندما يشتت من وجود آثار لهذه المدينة طرت منها وقد أوجست في نفسي خيفة ووحشة. وخشيت أن يحق بي ما حاق بهم من عقوبة وعذاب.

وختم الشيخ الغراب حديثه هذا لنبي الله سليمان بأن قال: إنّ هذه هي أغرب قصة جرت لي في حياتي.

وقال نبي الله للريح الشرقية مثل ما قال لأختها فاعتذرت له بعذر لم يحفظه الراوي إلا أنه أُنْقِصَ به نبي الله سليمان.

ولم يبق الآن إلا الريح الغربية وقال لها نبي الله مثل ما قال لأخوات لها من قبل فأبذت استعداداً تاماً بتنفيذ الأمر. وسألها نبي الله عن المدة التي تستطيع فيها إتمام هذا العمل. فأجابت: أربع وعشرون ساعة.

واشترط نبي الله على الريح أن تنقل الرمال فقط أما المباني والحيطان فيجب أن تحافظ عليهما محافظة تامة وألا تزيل حجراً من فوق حجر.

فأبذت الريح استعداداً وكتبت بذلك تعهداً وشرعت في عملها. وطار سليمان بن داوود فوق بساطه هو وحاشيته ومعه الغراب الشيخ وابنه.

وعندما جاء الغد واقترب الموعد الذي حددته الريح الغربية للانتهاء من مهمتها طار سليمان بن داوود فوق بساطه ومعه الحاشية التي حضرت عند بدء هذه العملية. ومعه الغراب الشيخ وابنه.

وعندما هبط البساط بنبي الله سليمان وحاشيته وجد الريح قد انتهت من مهمتها. ورأى مدينة كاملة تصفق أبوابها بالرياح. ورأى ذلك السور العتيد الذي عمل من الحديد لحماية المدينة. إلا أنه لم يحمها من قدرة الله التي تقهر كل قوي تعجبت وتذل كل جبار.

وتعجب نبي الله سليمان من هذه المدينة واتساعها وقوتها. كما تعجب حاشيته أكثر منه ونادى نبي الله في المدينة: هل فيها من أحد من الأحياء؟ فلم يجبه أحد ثم نادى ثانية وثالثة وعندئذ أجابه حية بأنها موجودة في بئر من الآبار المردومة بالرمال.

وذبح سليمان بن داود إلى جهة الصوت ووقف على حافة البئر الذي تستقر في قعره الحية وسأل نبي الله هذه الحية عن هذه المدينة وكيف فني أهلها ودفتنتها الرمال؟

فقلت: يا نبي الله إنني أنا التي قتلت سكان هذه المدينة بأجمعهم. وعندما مات السكان وصارت النباتات هشياً تذروه الرياح انهارت الرمال شيئاً فشيئاً حتى غطت المدينة بأجمعها وجعلتها كثباناً لا أثر للحياء فيها.

وقال نبي الله للحية. وكيف أهلكت مدينة بأجمعها؟

فقلت الحية: لقد ذهبت إلى البئر الوحيدة التي يوجد فيها الماء العذب والتي

وقال سليمان عليه السلام للغراب: هل تعرف الآن أين موقع هذه المدينة؟

فقال الغراب: نعم إنني أعرف موقعها كما أعرف هذا الشخص الذي حملني إليك وأشار إلى ولده.

وطار سليمان بن داوود على بساطه الذي تحمله الريح، وطار الغراب وتبعه البساط الذي صار يطير بسرعة الغراب.

وعندما توسطوا الصحراء رأوا الغراب يحطُّ على أحد كثبان من الرمال العالية. وهبط البساط على نفس الكثيب الذي وقع عليه الغراب، وعليه نبي الله سليمان ومن حوله حاشيته وأركان مملكته.

وقال الغراب إن هذا هو موضع تلك المدينة. ونظر نبي الله إلى ذلك المكان وإذا هو كله رمال فوق رمال. وليس هناك أي لمدينة أو أثر لحياة أو أحياء.

وأراد نبي الله أن يتأكد أكثر فأكثر. فأعاد السؤال مرة ثانية على الغراب قائلاً: هل أنت واثق من نفسك بأن هذا هو مكان المدينة؟

فقال الغراب: إنني واثق تمام الثقة وربقتي هذه رهينة عندكم إذا كنت غير صادق فاقطعوها.

ونظر نبي الله سليمان إلى تلك الأرض فإذا هي رمال قد ركب بعضها فوق بعض حتى صارت كهضبات الجبال، الأمر الذي يجعل المرء لا يصدق أن تحتها مدينة كانت أهلة بالسكان.

ودعا نبي الله سليمان الرياح الأربع فحضرت بين يديه. وقال للجنوب أريد أن تهبي علي هذه الرمال فتزيحها عن مكانها إلى مكان بعيد. فاعتذرت ربيع الجنوب لنبي الله بأنها ضعيفة. ولن تستطيع حمل هذه الرمال من مكانها إلى مكان آخر.

فقبل نبي الله عنذرها لأنه يعلم ضعفها وغورها في كثير من الأوقات والمناسبات.

وقال نبي الله للشمال مثل ما قاله للجنوب، فأجابته الشمال نبي الله سليمان: إنني نبي قوة عاتية. وأخشى إذا انطلقت ألا أبقِي في هذه الأرض رملة فوق رملة أو حجراً فوق حجر.

وقبل نبي الله عنذرها لأنه يعرف قوتها. ويخشى أن تزيح الرمال ثم تهدم بقايا المدينة المظمورة إذا كان هناك مدينة تحت تلك الكثبان.

يستقي منها أهل المدينة بأجمعهم. فنزلت إلى قاعها وتمددت في غار من الغيران القريبة من الماء. وصرت أشرب من هذا الماء حتى يمتلئ جوفي. وأترك ما شربت حتى يمتزج بسمومي. ثم أقذف ما شربت في الماء حتى يتسمم. فأني شخص يشرب من هذا الماء يهلك حالاً. بهذا قضيت على سكان هذه المدينة.

وسألها نبي الله عن اسمها وعن الدوافع التي دفعتها إلى هذا العمل الإجرامي الخطير. فقالت الحية: اسمي لس وأنا لا أعرف دافعاً محدداً. إلا أنني كنت مدفوعة إلى عملي هذا بحكم طبيعي، وبحكم شعوري نحو بني البشر في أنهم لو وجدوني لقتلوني. لذا فمن حقي إذا استطعت قتلهم أن أقتلهم. إنه أمر منطقي لا غبار عليه.

وعندما انتهت المناقشة إلى هذا الحد سكنت نبي الله وسكنت الحية.

ثم قال نبي الله للحية: أخرجني من هذا البئر لأرى قدرة الله في خلقك. وأجابت الحية بأنها تخشى البشر ولا تأمن شرورهم. وأنها مستعدة لامثال الأمر ولكن على شرط أن يعطيها النبي عهداً وميثاقاً بالآي مسهما أحد بسوء.

وأمنها نبي الله سليمان وقال لها: أخرجني بأمان الله وعلى حكم شرع الله.

وفهمت الحية من هذا الكلام أماناً مطلقاً. وبدأت تخرج من البئر. وصارت تنطوي في أرض فضاء حول تلك البئر. واستمرت تخرج وتنطوي إلى أن كادت أن تملا ذلك الفضاء.

وسمى نبي الله من طول الانتظار حتى يتكامل خروج الحية من البئر. وسألها هل بقي من جسمك شيء كثير لا يزال في البئر؟

فقالت الحية لسليمان عليه السلام. إذا رأيتم الشامة الزرقاء التي في ظهري فاعلموا أنه قد خرج نصفي. ونظر نبي الله وإذا الشامة الزرقاء لم تخرج بعد. واستمرت الحية في الخروج والتكور. ونبي الله ينتظر خروج الشامة الزرقاء بفارغ الصبر.

وبعد فترة من الوقت خرجت الشامة الزرقاء من البئر. وتكورت مع جسم الحية في نبي ذلك الفضاء الواسع الذي يحيط بالبئر.

وعندئذ رفع نبي الله سليمان سيفه وضرب الحية ضربة شديدة على تلك الشامة الزرقاء، التي هي منتصف جسم الحية. وبهذه الضربة ماتت الحية. وعجب أحد رجال الحاشية: كيف يؤمنها نبي الله ثم يقتلها؟

وسأل ذلك الرجل نبي الله وقال له: يا نبي الله كيف تؤمنها ثم تقتلها؟

فقال سليمان: أخرج العدو بأمان الله. ثم اقلته بشرع الله. وقد أعطيناها الأمان بموجب حكم الله. وحكم الله أن القاتل يقتل وهي تستحق القتل بشخص واحد فكيف وقد قتلت أهل مدينة بأكملها. فافتتح ذلك الرجل وسكت.

وأمر نبي الله بأن يقطع رأس تلك الحية فقطع وأخذت أنيابها. ونصبت أنياب لس على باب من أبواب تلك المدينة. وصار السكان يتوافدون لسكن تلك المدينة بعد أن زال عنها الخطر وأعلن أن المدينة قد صارت آمنة مطمئنة.

وعادت المدينة إلى حالتها السابقة من عمران ورخاء واستقرار. وعندما كثر السؤال والجواب عن هذا الناب. صار الغريب يسأل ما هذا فيقال له ناب لس. والجاهل يسأل عنه فيقال له ناب لس. فصار ناب لس المتصوب على بوابة هذه المدينة وقصتها هي حديث الغادي والرائح والقريب والبعيد ثم ما زال ناب لس يتكرر على الألسنة كلما جاء ذكر هذه المدينة. حتى علقت بها هذه الكلمة وصارت لا تعرف إلا بها أي «نابلس».

إلا أن الراوي لا يدري هل كان مسرح هذه الأحداث هو نابلس المدينة التي في فلسطين أم نابلس أخرى. قد طواها الزمان في طوايا النسيان.

الأميرة الساحرة

هذه الأسطورة من الأساطير العربية التي كانت تتداول منذ زمن بعيد. وقد راحت الجدة المعجوز تقص على أحفادها قائلة: رجلٌ رزقه الله من زوجته ولدين وابنتين، كان له بستان جميل في طرف من أطراف المدينة. وكان هذا البستان عامراً: بكل أنواع الأشجار: ففيه النخل والتين والرمان والتفاح والعنب. كما أن أرضه تبت جميع أنواع البقول والخضروات. وكان الابن الأصغر لصاحب البستان مغرمًا بهذا البستان لا يكاد يفارقه ليلاً ولا نهاراً. يتمتع بخضرته، ويجني من فاكهته ويحرسه من العابثين. العمال في البستان يعملون فيه نهاراً. فإذا جاء الليل ذهب كل واحد منهم إلى أهله في المدينة ولا يبقى في البستان إلا هذا الشاب ابن صاحب البستان. وكان هذا الشاب شاعراً موهباً الإحساس، ينظم القصائد ويغنيها على ربابه لديه، بصوت ساحر جذاب ونغمة حلوة مؤثرة. هذا هو دَيْدَن وهذه هي هوايته المفضلة. وذات ليلة، بينما كان يتأغى ربابته، وربابته تناغيه، مرت في جو هذا البستان الأميرة الساحرة تطير على جذعها ومعها وصيفتها. وسمعت الأميرة صوت الشاب وصوت ربابته. فأعجبت بالصوت أيما إعجاب واستشارت وصيفتها في الهبوط في البستان والتعرف بهذا الشاب والتمتع بصوته فوافقت. وهبطت الأميرة بجذعها في أحد جوانب البستان. وجاءت مع وصيفتها إلى جهة

غن لنا. فأخذ ربابته وشرع في الغناء بأغنية ثالثة لم يسمعاها من قبل. وأنصتا لهذه الأغنية وسرّتا بها أيما سرور.

وكان تأثيرها عليهما أعظم من تأثير سابقتها. ثم طلبتا منه أغنية رابعة فقال الشاب حبا لهما وكرامة وأخذ ربابته وغنى لهما أغنية رابعة. فسمعتا صوتاً ونعمة لم تسمعا مثلاً من قبل.

ثم قرب الفجر. فقامت الأميرة لتطليه وتودعه فشَمُّ الراححة الزكية وأغمي عليه وغاب عن الوجود. فغرفت الأميرة عقله من جديد وجعلته في وعاء الصين وتركته جثة هامدة. وأخفت الإناء الذي فيه عقله تحت إحدى الشجرات ثم طارت مع وصفتها.

واستمرت الفتاتان على هذه الطريقة بضعة أيام. ولا أحد يعرف شيئاً عن هذا الشاب وما هو فيه. إلى أن جاء والده ذات يوم يبحث عنه في البستان. فقد مضى عدة أيام لم يروه فيها.

ويبحث الوالد عن ولده في جوانب البستان فلم يجده ونادى بإسمه فلم يردّ عليه أحد. وازداد قلق الوالد على ولده. وجعل يبحث عنه تحت الأشجار فلعله سهر في الليل ونام في النهار.

وصار الوالد يتنقل من ظل شجرة إلى ظل أخرى. حتى جاء إلى عرش العنب. فاطل تحته وإذا به يرى ولده نائماً تحت ذلك العرش. وحاول أن يوقظه برفق، لكنه عندما قبض على يده وجدها باردة. ولم يحس فيها بنبض. ثم جسّ يده الثانية فوجدها مثل أختها.

ووضع أذنه على قلب ولده فلم يسمع دقات قلبه. فازداد قلق الوالد وخوفه. وقَلَب ولده من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر فلم يتحرك. وعاود الإنصات إلى دقات قلبه فلم يسمع شيئاً.

وأيّقن الوالد أن ولده قد مات. فغطاه بثوب، ثم ذهب إلى والدته وإخوانه فأخبرهم بحالة ابنه فجاءوا إليه مسرعين، وقلوبه ووجدوه جثة هامدة.

فخيم عليهم الحزن، وشرعوا في تجهيز جنازته. ففسلوه وكفنوه ثم صلوا عليه وذهبوا به إلى المقبرة فدفنوه.

وعادت الأسرة والخوف والأسى يملأ قلوبهم على فقيدهم الشاب اللطيف

الشاب. حتى وقتنا عنده وهو ينغي فسلمتاً عليه فسكت عن الغناء ورد عليهما السلام، وهو مبهور بجمالهما وخائف منهما ومتعجب لكيفية دخولهما.

وسألها الشاب قائلاً من أنتما؟ ومن أين أتيتما؟

فقالت الأميرة: إننا من بلدك ومن المعجبات بصوتك وقد تسللتا من أهلكا خفية لنجتمع بك. أما من نحن فهذا سر لا يمكن أن نبوح به من أول ليلة. ولكنك سوف تعرف كل شيء عنا فيما بعد.

وأنس بهما الشاب بعض الشيء. واستأذن منهما ليقوم ويأتي لهما ببعض الفاكهة فأذن له. وجاء بالفاكهة فأكلتا منها وأكل معهما. ثم طلبتا منه أن يغني لهما إحدى أغانيه. فقال لهما: حياً وكرامة.

وأخذ ربابته بين يديه وشرع يغني إحدى أغانيه وهما جالستان سامعتان منصتتان. وانتهت الأغنية الأولى. وهما في غاية السرور والسعادة. وشعر الشاب بقوة تأثير صوته عليهما، ومدى أنسهما وسرورهما بهذه الألحان.

ثم طلبتا منه أن يغني لهما أغنية ثانية. فأخذ ربابته أيضاً وشرع في الأغنية الثانية وأجاد فيها أيما إجادة وكان تأثيرها عليهما أعظم من تأثير الأولى.

وقرب طلوع الفجر، فلم يكن من الأميرة إلا أن قامت، وكان بيدها قارورة من الطيب الفاخر. فقالت للشاب: سوف اسمح عليك من هذا الطيب. ثم أودعك ونذهب إلى أهلكا قبل طلوع الفجر. وسعود إليك في الليلة الثانية.

وشَمَّ الشاب ذلك الطيب فراح في غيبوبة كاملة، فغرفت الأميرة عقله وجعلته في وعاء من الصين ثم تركته جثة هامدة.

وأخفت الإناء الذي فيه عقل الشاب تحت إحدى الأشجار، وذهبت مع وصفتها إلى الجذع وركبتا عليه ثم طار بهما في الجو ليعود بهما إلى أهلهما.

وفي الليلة الثانية عادت الأميرة ووصفتها إلى البستان فوجدت الشاب في مكانه حيث وضعت، فأسمتته عقله في كأس من البلور وعادت إليه الحياة وفتح عينيه فإذا الفتاتان أمامه. فسلمتا عليه ورد عليهما السلام. ثم استأذن منهما وقام ليأتي لهما بفاكهة.

وبعد قليل عاد مع الفاكهة، فأكلتا وأكل معهما. وبعد أن فرغوا من الأكل قالتا له:

المحبيب، الذي غادر هذه الحياة ولم يتمتع بشبابه. وفارق أهله وهو الملقق النفيس الذي يعلقون عليه أكبر الآمال.

وكان أكثر الأسرة تأثراً بموت هذا الشاب أخته الشابة التي كانت تحبه وتأنس به وترى فيه رمز سعادتها. وكانت هذه الأخت - علاوة على مشاعرها الخاصة نحو أخيها الأصغر - مرهفة الإحساس سريعة التأثر بما يحدث حولها.

لهذا فقد كانت أكثر أفراد الأسرة حزناً وقلقاً ووساوس. وعزفت عن الطعام والنام. وبقيت هي الوحيدة التي لازمها المصائب. وألح عليها العذاب ليلاً ونهاراً.

وكانت هذه الفتاة تنام في فراشها ليلاً على عاداتها فإذا نام جميع أفراد الأسرة قامت من فراشها وصعدت إلى السطوح. تقوم فتجول فيها وتسهر مع النجوم وتفكر في هذا الكون وأحداثه.

فإذا قرب الفجر نزلت من السطوح وعادت إلى فراشها حتى إذا قام أفراد أسرته من النوم أيقظوها من فراشها وكأنها كانت نائمة طيلة ساعات الليل. مع أنها لم تدق للنوم طعماً.

واستمرت الفتاة على هذه الحالة. وبينما كانت ذات ليلة على السطح تراقب النجوم. سمعت صوتاً جميلاً مؤثراً يأتي إليها من جهة المقبرة. وأنصتت إلى هذا الصوت. فإذا هو صوت أخيها الميت. وكذبت سمعها في أول ليلة.

وانتظرت حتى جاءت الليلة الثانية وصعدت إلى السطوح على عادتها. وأرهفت سمعها: وإذا بالصوت الذي سمعته في الليلة الماضية يأتي إليها في هذه الليلة.

وكذبت نفسها بادئ ذي بدء لكنها أرهفت سمعها وأنصتت إلى الصوت تسمع أوله وتسمع آخره. فلا يزيدا كل ذلك إلا يقيناً بأن الصوت هو صوت أخيها. لكن أخاها قد مات ودفن فكيف يخرج من قبره وكيف يغمي على رباته؟

واحتارت الفتاة في أمرها. ومن تخبر من أفراد عائلتها. هل تخبر أباه؟ هل تخبر أمها؟ هل تخبر أخاها؟ أما أمها وأبوها فقد رأتا ألا تفتحهما في الأمر لئلا تنكأ جرحاً نخب قد اندمل وتثير حزناً قد بدأ يطغى عليه السنين. وإذا فليس هناك إلا أخوها.

ولكنها احتارت أيضاً كيف تصوغ الخبر لأخيها. وكيف تقنعه؟ وأخيراً صممت على أن تخبر أخاها بما وقع لها كما وقع! سواء صدقها أو لم يصدقها وانتهزت فرصة في النهار وخلت بأخيها وأخبرته بما سمعت.

فقال الأخ لأخته: يظهر أنك ترين أحلاماً في المنام. وإلا فكيف يتكلم وكيف يغمي؟ وأردف قائلاً: إنك يا أختاه من فرط الحزن على أخيك تتوهمين أموراً ليست في دنيا الواقع.

ولكن أخته ألحت عليه بأفكارها. وقالت له: لك أن تشك في كلامي. ولكنني مستعدة أن أوفئك في الوقت الذي أسمع فيه صوت أخي لتسمعه كما سمعت. فهل أنت مستعد لذلك؟ فأجابها الأخ بأنه مستعد تمام الاستعداد لسماع ما سمعت.

وجاء الليل. وصعدت الفتاة إلى السطح كما كانت تصعد وأصغت بسمعها للصوت. فسمعته. إنه صوت أخيها الميت يأتي من جهة المقبرة. وصوت رباته التي تناغيه ويناغيا.

ودهيت مسرعة فأيقظت أخاها. وصعد الأخ مسرعاً مع أخته، وسمعت كما سمع هو أيضاً الصوت إنه صوت أخيه وصوت رباته.

وعرف الساعة التي سمع فيها الصوت. وقال لأخته: سوف أذهب غداً وأختفى في أحد القبور المهجورة ثم أستمع إلى الصوت عن قريب. وأرى رؤية العين ماذا يحدث.

وفرحت الفتاة بما توصلت إليه من إقناع أخيها وتصميمه على أن يرى بنفسه ماذا يحدث عن قريب.

وجاء الليل وذهب الأخ واختفى في أحد القبور. وقبل أن تحين ساعة الغناء رأى جذعا يحلق في الجو ثم يهبط قليلاً قليلاً حتى يلامس الأرض بقرب قبر أخيه ويستقر عليها.

وخرجت من داخله فتانان جميلتان. أزاحتا التراب عن القبر وردنا عقل الميت إليه. فجلس بشراً سوياً. وقدمتا له طعاماً فأكلن وأكلتا معه ثم قالتا له: غن لنا فأنشد الربابة وجعل يغمي وهما تسمعان. حتى قارب الفجر على الطلوع. فاعطيتاه طيباً ثم غرقتا عقله ووضعتاه في إناء من الصين وبعد ذلك أعادتاه إلى قبره ورميتا عليه التراب. وركبتا على الجذع وحلقتا به في الجو.

هذا والأخ يرى ما يحدث أمام عينيه ولا يكاد يصدق ما يرى، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاهل هذه المشاهد التي تحدث أمام ناظره.

وعاد الشاب إلى أخته فوجدها في انتظاره. لم تذل طعم النوم. فأخبرها بما شاهد. وقال لها: إنني سوف أخذ السهم والشباب في الليلة القادمة. وانتظر قدومهما. فإذا جلستا معه أسدس سهمي للرئيسة فلملي أخرجها جرحاً يعوقها عن الطيران.

وبعد ذلك سوف نرغمها على إعادة أخي إلى حالته الطبيعية. وإن لم تفعل هذناها بالقتل.

ففرحت الفتاة بما توصلأ إليه وحذت خطة أخيها الكبير وأملت أن يكون فيها نجاة أخيها الصغير.

وجاء الليل وأخذ الشاب قوسه ونشابه وذهب إلى المقبرة. وفي الموعد المحدد جاء الجذع فحلقت فوق المقبرة ثم هبط قليلاً قليلاً حتى لامس الأرض واستقر عليها. وخرجت الفتاتان وفعلتا في هذه الليلة كما كانتا تفعلان في الليالي الماضية.

وعندما ردتا عقل الشاب عليه أوتر الشاب قوسه. ثم سد السهم إلى فخذ الرئيسة التي عرفها من طريقة جلوسها وتادب الأخرى معها. وعندما أطلق السهم أصاب فخذها فصرخت صرخة مكتومة. وقامت بسرعة والدم يتزف من ساقها. ومرت بالسعوط عند خشم الشاب فنشئ عليه وغرقت عقله ووضعت في إناء الصين. وأخذته معها وركبت مع وصيفتها فوق الجذع. وهممت بوضع كلمات فطار بهما الجذع والدم يتزف من ساق الأميرة.

حلقت بهما الجذع في أجواء السماء. ولم يبرح الشاب الرامي مكانه حتى غاب عنه الجذع خوفاً منهن. ثم نهض من مخبئه متوجهاً إلى جهة أخيه. فوجده جثة هامدة.

وحركه فلم يتحرك. فحمله بين يديه. وذهب به مسرعاً إلى دارهم. ووضع أخاه بمساعدة أخته في مكان خفي من البيت وأخبر أخته بما جرى.

وقال: لقد جرحت الرئيسة. وطارت والدم يتزف من فخذها. وسوف أعرف اتجاههما من قطرات الدم التي تساقط من فخذ الفتاة المجرحة.

وجاء الصباح. وذهب اخو الشاب يتتبع قطرات الدم. حتى عرف اتجاه الفتاتين. فاشتري راحلة قوية واستعد للسفر في أثر هاتين الفتاتين.

وعندما تكامل استعداداه أوصى أخته بأخيه وقال: إخفي الخبر عن والدي حتى

أعود. سأنتع آثار هاتين الفتاتين. وسيكون دليلي قطرات الدم الساقطة من فخذ الفتاة المجرحة.

وأعطى الشاب لوالديه مبرراً لسفره: سوف أذهب إلى البلد الفلاني ولن يستغرق غيابي سوى بضعة أيام. فذعت له أمه ودعا له والده بالسفر السعيد والعود الحميد.

وسافر الشاب متتبهاً قطرات الدم. وصار ينتقل من بلد إلى بلد. وقطرات الدم هي دليله إلى مبيتاه. وطال السفر بالشباب ولكنه مصمم على الوصول إلى نتيجة.

واستمر في السير بضعة أيام حتى وصل إلى مدينة عظيمة يحكمها سلطاناً قوياً وعادل وهو في نفس الوقت مسلم.

وتتبع قطرات الدم حتى توقفت عند قصر السلطان. إنها لم تتجاوزوه. ولم تقصر دونه. وإذا فهاتان الفتاتان من حاشية السلطان، وهن تابعتا لحرم القصر السلطاني.

وجاء الشاب على راحلته حتى أتاها أمام باب السلطان وقال لبواب القصر: إنني جئت من بلاد بعيدة، أقصد السلطان وأريد مقابلته لأمر يهمه ويتعلق به شخصياً.

وأبلغ السلطان الخبر فقال: أنزلوا هذا الشاب في قصر الضيافة وسوف نخبره بوقت المقابلة بعد أن يرتاح من سفره.

وأخبر الشاب بما قاله السلطان، وأنزل في دار الضيافة، واستراح بقية يومه. وجاء اليوم الثاني، فأذن السلطان لهذا الشاب الغريب بمقابلته ليسمع منه الخبر الهام الذي يتعلق بالسلطان. فدخل عليه ووجده وحيداً في انتظاره. وقد نحى الخدم والحشم بعيداً عن مكان جلوسه وسلم على السلطان. ورد عليه السلطان التحية بأحسن منها ورحب به في بلاده وقال لضيفه الشاب: لقد بلغني أن لديك أخباراً تهمني شخصياً فما هي أخبارك؟

فقال الشاب: يا عظمة السلطان لقد جئت من بلاد بعيدة وتعرضت في سفري هذا لمصاعب جمّة. وذلك بسبب حادث غريب وقع لأخي الصغير.

فقال عظمة السلطان: وما هو الحادث الغريب الذي حدث لأخيك؟

فقص عليه الشاب كلّ ما جرى لأخيه.

وتعجب السلطان من هذه الحادثة، ولكنه قال للشاب: وما علاقة هذه الحادثة بنا أو بمملكتنا وأنت من بلاد أخرى غير بلادنا؟

فقال الشاب لقد رميت الرئيسة من الفتاتين بسهم كما أخبرت عظمتكم وصر الدم ينزف من ساقها. وقد تبعت قطرات الدم من بلادي حتى وصلت إلى عاصمة مملكتكم الزاهرة ثم تبعت قطرات الدم حتى توقفت عند قصر عظمة السلطان. ونظرت فإذا هي لم تتجاوزوه ولم تقصر دونه.

وتكلم الشاب بكلام بليغ أننى فيه على السلطان وأشاد بمدله وحكمته وبعد نظره وأطال في هذا المجال.

فأثر كلام الشاب في السلطان وتحسن للأمر. وقال للشاب: ثن أن الذي فعل غفلة سوف يلقى جزاءه سواء كان من أسرتي أو من أفراد رعيتي! ولن تسافر من مملكتي إلا بعد أن اكتشف الجريمة والمجرمين، ويلقى المعتدي جزاءه العادل إن شاء الله.

فدعا الشاب لعظمة السلطان بأن يوقفه الله ويحفظه وأن يجعله هادياً مهدياً، واستأذن منه وخرج.

أما السلطان فقد شك في ابنته، لأنه لم يرها منذ بضعة أيام وكان كلما سأل أمها عنها قالت إن عيونها مريضة. وهي محتجة في غرفة خاصة لا يدخل عليها أحد خوفاً من روائح الطيب التي تزيد مرض العيون وتضاعف آلامها.

وقد حاول السلطان عدة مرات أن يزور ابنته ليطمئن على صحتها. ولكن والدتها كانت تصده وتقول: إن في عظمتكم روائح عطرية حادة، وقد تضاعف آلام عيون ابنتك وتزيد من التهابها.

كان السلطان ومتى قالت الزوجة هذا الكلام، يقتنع به ويعدل عن زيارة ابنته. لكنه، بعد أن سمع من الشاب الغريب ما سمع، داخله الشك في ابنته وقال في نفسه لماذا لا تكون ابنتي هي الفاعلة لما قاله هذا الشاب؟.

فلبس ملابس، ومشى متجهاً إلى غرفة ابنته باسم الزيارة. فالتقى بأُمها التي سأله: أين تريد؟ فقال إنني أريد زيارة ابنتي. فقالت له زوجته: لقد أخبرتك أن زيارتك تؤثر عليها وتزيد من آلامها.

واعترض السلطان بعزم وتصميم: لا بد أن أزورها الآن.. وأرى كيف حالها. واستدعي لها الأطباء إذا اقتضى الأمر ذلك.

وحاولت الوالدة صرف السلطان عن رأيه، لكنه لم يتصرف. فقالت الوالدة: إذا فاسمح لي أن أذهب إلى ابنتي قبلك لتكون على استعداد لاستقبالك، ولأعمل الاحتياطات اللازمة لسلامة عيون ابنتي.

فوافق السلطان على هذا الرأي، وجلس في غرفة الانتظار وذهبت الوالدة إلى ابنتها. وأخبرتها بأن والدها سوف يزورها الآن. فدهشت الفتاة وخافت. وقالت لوالدتها حاولي أن تصرفيه عن رأيه.

أجابت الوالدة: لقد بذلت كل ما أستطيعه من محاولات لمنعته من هذه الزيارة. وقد نجحت فيما مضى. ولكنني في هذه المرة فشلت، فقد وجدت والدك اليوم مصمماً على الزيارة مهما كانت النتائج. عليك إذاً أن تخفي ما في فخذك، وأن تظهر بمظهر الذي تؤلمه عيونه لا غير.

واستعدت الفتاة لمقابلة والدها السلطان. وجاء السلطان فدخل عند ابنته وسلم عليها فردت السلام وهي تغطي وجهها وعينها. وجلس السلطان في مكان بعيد عنها بعض الشيء. ودار الحديث وتفرع ثم قال السلطان لابنته: تعالي يا ابنتي إليّ لأرى عينيك.

ردّت الفتاة: إنني لا أرى الطريق إليك. فقال السلطان لوالدتها: شدي على يدها وقودها إليّ لأرى عينها.

وأخرجت الفتاة كما أخرجت والدتها وخافتا من انكشاف أمرهما إذا مشيت الفتاة ولكنه لا بد من تنفيذ أمر السلطان. وقامت الوالدة وأخذت بيد ابنتها وقادتها إلى والدها. ومشيت الفتاة. ولاحظ السلطان أنها عرجاء وإن إحدى رجليها غير طبيعية.

وسأل السلطان عن هذا العرج فأجابته الفتاة: إن رجلي خادرة من طول الجلوس وليس بها أي مرض. وجلست بقرب والدها.

نظر السلطان إلى عينها فرأى فيهما إحمراراً. غير ناتج عن مرض، وإنما عن البكاء وفرك العينين.

قال السلطان: أريني رجلك. وخافت الفتاة أن ينكشف أمرها وأن يبدو من شأنها ما كانت تخفيه، ولكنه لا بد من أن يرى السلطان رجلاً. وقربت له رجلها فكشفها ورأى آثار اللثام والأربطة.

وسألها عما أصاب رجلها. فأجابت: لقد كنت أنزل الدرج وعينَي محجوبتان فزلت قدمي وسقطت فأصاب رجلتي هذه بعض الرضوض.

وقال لأمها: فكي هذه الأربطة عن رجلها لأرى مدى خطر الرضوض حتى نعالجها قبل أن يستفحل أمرها.

وترددت الأم بعض الشيء عن فك اللقائض، ولكنه لا بد من تنفيذ أمر السلطان. وجاءت إلى ابنتها وفكّت الرباط حتى ظهر موضع الألم. ورآه السلطان فوجده طعنة سهم وليس رضوضاً من الدرج. وتحقق السلطان أن ابنته هي التي فعلت ما ذكره الشاب الغريب.

وقال السلطان لابنته: إن الذي في فخذك ليس آثار رضوض وإنما هو ضربة سهم فاصدقيني الخبر وأخبريني بجلبه الأمر. ولا تحاولي أن تخدعيني. فإن حبل الكذب قصير فتلثمت الفتاة ولم تعرف طريقاً للخروج من هذا المأزق غير السكوت. ولكن السلطان يريد الحقيقة. والحقيقة مؤلمة. واستمرت الفتاة في سكوتها.

وسمّ السلطان من هذا السكوت. فتكلم بنفسه بالحقيقة، وجابه ابنته بالواقع. وقص عليها قصة الشاب الغريب، وأخيه المسحور. ثم أردف السلطان قائلاً:

لا يخامرني أي شك في أنك أنت الفاعلة. وعليك أن تعترفي بالحقيقة أولاً وتحاولي خديعتي أكثر مما حاولت. وعليك أن تخبريني بصويجتك التي كانت معك في تلك الرحلات.

وتيقنت الفتاة بأن والدها عظمة السلطان قد أطلع على كل شيء. وأنه ليس هناك مجال للثب والدوران ولا فائدة من المماطلة والمراوغة وتكتمان الحقيقة.

وقالت الفتاة لوالدها: نعم إنني أنا الفاعلة أما صويجتي فهي فلانة. وهذه فتوة من هفوات الشباب ونزوة من نزوات المرافقة أرجو من والدي أن يغفرها لي. وسوف تكون هي الأولى والأخيرة بعون الله.

فقال السلطان: يا ابنتي إن جريمتك هذه ليس من حقي أن أعفو عنها لأن ضررها يمس الدين، ويمس قومًا آخرين. ولا بد من تنفيذ عقوبة رادعة تتناسب مع هذا الجرم الشنيع الذي يشتمل على السحر وعلى انتهاك الحرمات، وعلى الاعتداء على الناس، وتركهم أمواتاً، أو كالأموات.

وأيقنت الفتاة بأنها سوف تلقى جزاءها. وأنه لا مجال للعفو أو للشفاعة وسلمت أمرها لله وندمت على ما فعلت ولكن هذا الندم جاء متأخراً.

وطلب عظمة السلطان إحضار الفتاة المرافقة فحضرت. كما أمر بأن تحبس كل واحدة منهما في غرفة مهجورة في أحد أركان القصر وألاً يأتي إليهما أحد فالزيارة بالنسبة لهما ممنوعة أشد المنع. وسوف يعاقب كل من يخالف هذه الأوامر السلطانية.

وذهب السلطان إلى ديوانه يدير شؤون مملكته ويصرف أمور رعيته، ويفكر في موضوع ابنته ورفيقتها. إنه لا بد من أن تلقيا جزاءهما العادل.

ولكنه لا يعرف حكم الشرع الشريف في هذا الموضوع على وجه التحديد كما أنه لا يمكنه أن يعرضه على القضاة لئلا ينكشف أمر ابنته. لأن انكشافه فضيحة تمس السلطان شخصياً وتمس عائلته.

ولهذا فقد صمم السلطان أن يكون هو القاضي الذي يصدر الحكم في هذه القضية. وسوف يجتهد ويخلص النية لله. فإن أصاب في حكمه قواعد الشرع وأحكامه فذلك بغضل الله وتوفيقه. وإن أخطأ فإنه لن يجرم الأجر. فنتية طيبة وقصده سام وشريف. وهو في سبيل تحقيق العدالة سوف يتخذ حكماً قاسياً صارماً في فلانة من فلذات كبده.

كما صمم السلطان على أنه كما أصدر الحكم بنفسه، فإنه سوف يتخذ بنفسه أيضاً. وذهب إلى غرفة الفتاتين بعد أن هدأ كل شيء حولهما. ودخل عليهما وسيفه معه.

ووجود السيف مع عظمة السلطان أمر لا يلفت النظر فإن السيف لا يفارق يده ليلاً ولا نهاراً. وأبعد السلطان قبل دخوله عليهما كل من حول غرفتهما من الخدم. ثم دخل عليهما واستل سيفه وقطع رأس ابنته، ثم اتبعه برأس رفيقتها. ووضع الرأسين في إناء واحد وغطاه. ثم طلب من أحد الحاشية أن يحمل هذا الإناء وأن يضعه في مجلسه الخاص. كما أمر السلطان أن يخل الفتاتين ليدفنهما في التراب.

هذا وقبل أن يتخذ في الفتاتين حكم الإعدام كان قد أخذ وعاء الصين الذي فيه عقل الرجل المسحور كما أخذ من ابنته شرحاً وافيّاً في كيفية إعادة هذا العقل إلى صاحبه.

وطلب السلطان حضور ضيفه الشاب الغريب. والرأسان عن يساره. وإناء الصين الذي فيه عقل الشاب المسحور عن يمينه. وعندما جاء الشاب الغريب إلى السلطان سلم عليه ودعا له. وجلس في مكان يبعد عن السلطان قليلاً.

لكن عظمة السلطان أمره بالقرب منه وعيّن له المكان الذي يجب أن يجلس فيه وامتل الشاب لأمر السلطان وقام حتى يجلس في المكان الذي أُشير إليه.

ولم يتغوّ السلطان بكلمة واحدة فقد كان يخيم على نفسه مزيج من الغضب والثورة والحزن على ما جرى أولاً وعلى ما جرى آخراً. وكشف الإناء الذي يحتوي فيه الرأسين. وقال للشاب: أنظر إلى هذين الرأسين: إنهما الرأسان اللذان شكوت منهما. قد نالتا جزاءهما العادل.

ثم التفت يمينا فأخذ إناء الصين الذي فيه عقل أخيه. وقال: هذا هو عقل أخيك. ولكي تعيده إلى وضعه الطبيعي يجب أن تعمل به كذا وكذا. وسرد وصفاً دقيقاً مفصلاً عن كيفية إعادة عقل الشاب المسحور إليه، كما وصفت له ابنته قبل أن يقتلها.

وسمع الشاب من السلطان وصف إعادة عقل أخيه ووعى الخطوات التي يجب أن يتبعها وينفذها الواحدة تلو الأخرى. وتأكيذاً على عدم نسيانها كتبها على ورقة.

وشكر الشاب الغريب عظمة السلطان على اهتمامه بالأمر وعلى تنفيذ الحكم. وإعادة عقل أخيه إليه. وودّعه وشد الرحال قافلاً إلى بلده بعد أن تقدّم السلطان مبلغاً من المال ولقافات من الملابس الفاخرة.

وواصل الشاب سيره ليلاً نهاراً حتى وصل إلى بلده، وحط الرحال في داره، وذهب بإناء الصين ووضع في مكان خفي أمين.

وبعد أن سلم على والديه، ذهب إلى أخته وأخبرها أنه وفق في رحلته. وتوصل إلى كل ما يريد. وقصّ عليها قصة سفره، منذ أن فارقتها حتى عاد إليها. وطلبت الأخت من أخيها أن يسرع في إعادة عقل أخيها المسحور إليه.

لكن أخاها قال لها: لا تعجلي فإن كل شيء مرهون بوقته وقد صبرنا الكثير ولم يبق إلا القليل. وتعرفين أن عقل أخي سلب منه ليلاً. ولا يمكن أن يعاد إليه ويتنجد الإعادة إلا إذا أعيد ليلاً.

وسكنت الفتاة، وبقيت تنتظر الليل بقلق ورجاء، وخوف وأمل.

وجاء الليل، ونام أهل البيت ما عدا الشاب وأخته. وأخذ الشاب إناء الصين، وذهب به إلى الغرفة التي يمتد فيها أخوه المسحور. وساعدته أخته فأقعداه. ثم بلاً فطنة

فانشقه إياها. وجعلاً يبلان القطنة من إناء الصين وينشقان إياها. حتى بدأت تدب فيه الحياة شيئاً فشيئاً. ثم سقوه البقية الباقية في الإناء.

فتفتح الشاب عيناه. ونظر حواله وقال أين أنا؟ فقال له أخوه وأخته، أنت في دارنا. وراح يتذكر ما مر به قبل ساعته هذه ولكنه لا يذكر شيئاً وإنما يشعر أنه كان يسبح في أحلام متواصلة، يتنقل فيها من حلم إلى حلم. ثم عندما صحا من النوم كانت أحداث تلك الأحلام قد تبخرت من ذاكرته، فهو يحس بآثارها ولكنه لا يتذكر دقائقها وأحداثها.

والمهم أن الشاب المسحور رجع إليه عقله، وعاد إلى حالته الطبيعية. وخرج به أخوه إلى البستان حتى لا يفتأ والداه بوجوده بينهم. فقد يحدث ما لا تحمد عقباه. فأن الفرع المفاجئ قد يقتل. كما أن الحزن المفاجئ لا يقل عن ذلك ضرراً. كما قال الشاعر العربي:

هجم السرور عليّ حتى أنه من فرط ما قد سرنى أبكاني

وأمر الأخ أخته أن تخفي الخبر عن أمها وأبيها، حتى يخبرهم هو بطريقة تدريجية، وبأسلوب لبق لا يحدث لهم فرحاً جارفاً قد يتقلب إلى كارثة جارية.

وعاد الشاب إلى البيت واجتمع بوالده والذته. وقال لهما وأخبرهما أنّ لديه بشري سارة يزفها إليهما بمناسبة قدومه من رحلته. واشرب والوالدان لما سيقوله ابنتهما.

وقال الابن: لقد كان موت أخي بتلك الحالة المفاجئة مثار دهشتي وتساؤلي. لأنني كنت قد سمعت أن هناك وفيات ينجأ أصحابها بعد فترة من الزمن لأنهم يصابون بإغماء عميق. يبقون فيه فترة من الزمن ثم تعود إليهم حياتهم من جديد.

لهذا ونتيجة لهذا التفكير ذهبت ليلاً وجلست بالقرب من قبر أخي فسمعت صوته داخل القبر. فلم يكن مني إلا أن حفرت القبر وأخرجته منه. فوجدته حياً ولكنه كان منك القوى. لهذا أخذته معي وسافرت به إلى طبيب ذكر لي في البلد الفلانية، فعالجه حتى عاد إلى حالته الطبيعية بحمد الله وتوفيقه.

وسمع والوالدان هذا الكلام. وكادا ألا يصدقا ما سمعاه. وقالوا لولدتهما: هل أنت جاد أم هازل؟ وهل أنت تخبرنا بحقيقة أم بخيال؟

وقال الشاب لوالديه: إنني أخبركم بحقيقة. وليس هناك مجال لخداعكم أو التغيرير

لكما. وإنَّ ما قلته لكم هو عين الحقيقة وأخي الآن موجود في البستان وهو يتمتع بكامل الصحة والسرور. وعلينا أن نذهب الآن سوياً لنراه ونطمئن على راحته.

ولبس الوالد والوالدة ملابسهما على عجل. وذهبا مع ولدهما إلى البستان وهما بين المصدِّق والمكذب.

وقد سرَّ الشاب بتقبُّل والديه هذا الخبر، بحيث أن رؤيتهما له لن تحدث لوالديه أثراً عكسياً.

ولهذا، عندما دخل البستان مع والديه نادى أخاه بأعلى صوته، فأجابه أخوه من طرف البستان. فسمع الوالدان صوت ولدهما وصداً ما قبل لهما ولكنهما قالوا:

لعلنا خدعنا بصوت يشبه صوته.

ولكن الشاب المسحور جاء يمشي مسرعاً حتى رأى والديه فأقبل عليهما يقبل رأس كل واحد منهما ودموع الفرح تتساقط غزيرة من عيونهم جميعاً.

وعاشت الأسرة كلها في سعادة وعناء.

زوجة أخي الخائنة

خيم الليل على الكون وأرغى سدوله ولم تعد الرؤية الواضحة ممكنة، ليوصل الأطفال لعمهم وحركتهم ونشاطهم، فاجتمعوا حول جدتهم ليتحرك خيالهم بعد أن احتبس نشاطهم، وليلحقوا بالخيال بعد أن هدأت حركة أجسامهم، وقالوا لجدتهم: قصي علينا سألقة سالم وزوجته وأخته.

فكانت البجدة حباً وكرامة: هناك هاك الواحد والواحد لله في سماه العالي. وهنا هاك الرجل الذي تزوج زوجة جميلة كانت مثال الزوجة الصالحة، التي تجعل البيت جنة وتوفر لزوجها فيه كل وسائل الراحة والاطمئنان لينطلق منه إلى أعماله وهو مرتاح الفكر، سليم الجسم، نشيط الحركة. وكان لسالم هذا أخت يتيمة صغيرة ليس لها من يقوم بتربيتها إلا أخوها. تعيش معه ومع زوجته.

كبرت الفتاة سلمى وبدأت تتعرف إلى أمور الحياة، وتدرى بما يدور حولها. وسافر سالم لبعض شؤونه المعاشية إلى بعض الأقطار المجاورة. وفي غيابه، رأت الأخت ما ساءها. رأت رجلاً غريباً لا عهد لهم به ولا معرفة يتردد إلى البيت في أوقات معينة وتتصرف معه زوجة أخيها تصرفات مريبة. فندبت الغيرة في نفسها على أخيها ومحارم أخيها وبيت أخيها الذي ترى فيه هذه الأعمال المشبوهة، كما ترى محارم الله تنتهك في حجراته.

تألمت الأخت من هذه الأعمال، لكنها صبرت لعلها تكون هفوة عابرة أو شهوة طائشة تخيم فترة ثم تنفث، رغبة مكبوتة تندفع ثم ترتدع. وجاء سالم من سفره فوجد كل شيء في بيته على ما يرام: زوجة مطيعة وبيت منظم ومريح وحياة هادئة مستقرة. وبالاختصار فإن سالمًا يجد في بيته كل ما يحلم به رجل من زوجة مثالية صالحة.

رأى سالم أن كل شيء في البيت بحالة جيدة إلا أخته. يرى أن صححتها تتدهور

وشبابها يذبل ونفسها تتحطم يوماً بعد يوم. فسألها: ما بك يا اختاه؟ هل تحسن بمرض فأعالجه أو تنقص في شؤون معاشك فأكلمه؟ هل في هذا البيت ما يضايقك فأزليه؟

نفت الأخت كل هذه الأمور وهذات من روع أخيها وقالت: إنها وعكة بسيطة أحس بها وسوف تزول بإذن الله. وهذه الحالة التي أنا فيها ليست خطيرة، بل هي عارضة بسيطة وسوف أتغلب عليها بحول الله وقوته.

وترك الأخ أخته بعد أن أكدت له أنها مرتاحة وأنها لا تحس بشيء يستحق الانزعاج.

لكن الأخت في واقع الأمر تحس بمكس ذلك، وتفكر في هذا الأمر بينها وبين نفسها وتفكر بالصدمة العنيفة التي سوف تسببها لأخيها. لو أخبرته بما يحصل في بيته. ولهذا فقد رأت أنه من الحكمة أن تضغط على أعصابها تسكت على مريض وتتحمل الآلام والمذاب التي تحس بها من جراء هذه الأمور التي تجري دون علم أخيها.

وسأل سالم زوجته عن أخته وأقضى إليها صراحة بأنه ليس راض عن حالتها، وغير مطمئن على صحتها، وسألها هل ينقصها شيء؟. هل في البيت ما يزعجها ويديم آلامها. فقالت الزوجة: أنه لا شيء من ذلك مطلقاً، ولكنني مطلعة على بعض الأمور في سلوكها. إلا أنني أرجو أن أوفق لإقناعها بالعدول عنها. فقال الزوج بلهفة وخوف ما هي هذه الأمور؟

فأجابت الزوجة: إنني حتى الآن لم ألاحظ عليها شيئاً يندس شرفها، أو يشين عائلتها. وإنما هو شاب يقف تجاه البيت في أوقات معلومة، فيجادث أختك وتحداه. ثم يذهب الفتى في سبيله وهي تعود إلى ما كانت عليه. ولكن ثق أنني سوف أتغلب على هذا الانحراف وسوف أعيدها إلى جادة الصواب. وسأقنعها بأن مثل هذا الحب العابر قد يجني على مستقبلها ويحطم حياتها. فاستاء الأخ من هذه الأنباء، لكنه ضبط أعصابه وأكد لزوجته أنه واثق بحكمته وحسن تدبيره وأنه يترك علاج هذا الأمر لها.

وسكت سالم على مريض. ودب الشك في نفسه من ناحية أخته. ولكن ماذا يصنع؟. إنه يرى صحتها متدهورة فهل يزيد بها سوءاً على سوء. ويرى نفسها محطمة فهل يساعد الأحداث عليها فيحطم ما تبقى من نفسياتها؟

لا... إنه لن يصنع شيئاً من ذلك، وسوف يترك الأمر لزوجته الحكيمة التي

ستعالج الأمر بنفس مجردة لا تميمها العواطف، ولا تندفع وراء الانفعالات الجامحة التي قد تصدر من الأخ نحو أخته لو بحث معها مثل هذه الأمور.

كتم الأخ هذا الجرح في نفسه، وأمات هذا السر في طوايا ضميره. وما أشد مثل هذه الحالة! إنه يريد أن يميت هذا الأمر. ويخفيه حتى عن نفسه، ولكنه ينمو ويزداد على مر الأيام.

رحل سالم في إحدى رحلاته. فافصلت الزوجة بحبيبها وصار يتردد عليها في أوقات معروفة اكتشفها الأخت. وعلمت الزوجة بأن الأخت اكتشفها وأنها إذا لم تدهور هذه الأخت فإنها سوف تدهورها. وإنها إذا لم تسبق إلى المعركة للخلاص منها وإماتة هذه الأسرار في نفسها فإنها سوف تكشفها لأخيها فتكون ما لا تحمد عقباه.

صممت الزوجة على التخلص من هذه الأخت بأسرع وسيلة ممكنة وفكرت وبحثت عن طريقة الخلاص. فسكت لها الطريقة ووضحت لها معالمها. وذلك بأن تأتي ببيض الحمر وهو طائر صحراوي بحجم المصفر. ثم تلزم الأخت بابتلاعه بحجة أنه طيب لصحتها التي تدهور من سئ إلى أسوأ.

وأوصت الزوجة حبيبها أن يجمع لها من أطراف الصحراء مجموعة من هذا البيض. وفعلاً جاء هذا الحبيب بما طلبت وأجبرت الأخت على أن تتلع هذا البيض كما هو بدون طبخ أو شوي أو مضغ. وغلبت الأخت على أمرها فبلعت البيض الواحدة أثر الواحدة.

تجمع هذا البيض في بطنها فانفخ حتى لا يشك من يراها أنها حبل. وجاء الأخ من رحله وقابله زوجته بوجه مشرق. وأعدت له في المنزل كل ما تطلبه نفسه، من هدوء وراحة. وسأل عن أخته فقالت الزوجة: إنها مريضة قليلاً. وهناك سر وراء مرضها. فسأل الزوج عن هذا السر في لهفة.

فقالت الزوجة: إنني لا أقوى على البوح به. إنه يتعلق بشرف العائلة. وقد حاولت مراراً وتكراراً ألا يحصل هذا ولكنني غلبت على أمري وأخفقت جميع الوسائل التي حاولت بها فتقادي هذا الأمر.

فارتبك الأخ واثارت أعصابه وغلي دمه. وقال: أوضحي لي الأمر. فليس بيني وبينك أسرار والشبه الذي يعيب أختي يعيبنا جميعاً.

فقالت الزوجة: لقد خرجت أختك وتكرر خروجها من البيت بدعوى زيارة إحدى

ورجت الأخت أن يجر الحديث إلى ذكر طرف مما تعمل هذه الزوجة، ليعالج أخوها الأمر بالحكمة المعهودة فيه، وسداد الرأي المعروف عنه.

لكن أخاها لم يتفوه بكلمة طيلة ساعات الطريق. ولم تجد الأخت مجالاً للحديث. ولا منذاً تعرض مشكلة الزوجة أمام زوجها. وهي قادرة على أن تفاجئ أخاها بما تعلم عن زوجته. ولكن الأمر، إن كان هكذا فسوف يكون مشكوكاً فيه. بخلاف ما إذا جاء في الوقت المناسب وقد جرّ الحديث إليه. والسامع مستعد لسماعه.

لهذا لم تجد الأخت مجالاً لأي حديث، لأن أخاها كان سامعاً حزيناً تتجاذبه الأفكار السوداء والهواجس العمياء. وجاء آخر الليل وهما يمشيان. وتعمّقاً في مجاهل الصحراء وهما صائتان. وبدأ النعاس يذب إلى الأفتان من آثار التعب والسهو. وأناخ الأخ وراحته بقرب شجرة عوشز، وأنزل أخته من فوق الراحلة. وفرش فراشين متجاورين أحدهما له والثاني لأخته.

نام الأخوان. إلا أن الأخت من كثرة خوفها وتعلقها بأخيها قالت أعطني طرف ثوبك لأقبضه بيدي وأنا وهو في يدي. فإني أخشى أن يأتي وحش فيجرني دون أن تشرب بي. فأعطاهما طرف ثوبه. فقبضت عليه بأصابعها الخمس وناست وطرف الثوب في يمينها.

كان الأخ يراقب أخته مراقبة دقيقة. فلما استغرقت في النوم أخرج سكيناً فقطع بها طرف الثوب الذي في يدها، فانفصلت القطعة عن الثوب الذي يلبسه.

بهذا لم يبق رابطة تربط الأخ بأخته. فطوى فراشه بهدوء وحمله على راحلته بسكينة. وعاد أدراجه إلى زوجته تاركاً أخته في هذا الجزء الموحش من الصحراء الذي إن لم تقتلها فيه الوحوش فسوف يقتلها الجوع والظلم. ووصل الزوج إلى زوجته وأخبرها بما جرى. فأظهرت الحزن وأبطئت السرور، لأن أسرار حياتها لزوجها قد مانت وإلى الأبد، بموت هذه الأخت التي كانت تمد عليها أنفاسها وتحصي عليها كل صغيرة وكبيرة. لقد استراحت منها وأمنت من شرورها، وأصبح لها اللجو صافياً. لا يكدره أي منكر.

سحرت الأسرة حفرة في فناء المنزل ودفنت فيها جثتها من أنواع النمل، اتهموا أنه أختهم العزيزة التي وافتها المنية من آثار العرش الذي كانت تمانية. ونسوا هذه الأخت تماماً واعتبروها لم دنيا الأموات.

صديقاتها. وحاولت منعها، ولكنها تمردت علي وعصت أمري وصارت تخرج من البيت في أوقات معلومة. وهي الآن حبل وأنا لا أشك في هذا الحمل نتيجة لملاقاتها بالشاب الذي كنت أخبرتك عنه. وقد حاولت مراراً وتكراراً أن أبعد هذا الشاب عنها أو أبعدا عنه، لكنني لم أستطع. والآن تظهر أختك بالمرض، وما هو بمرض وإنما هو الحمل الذي يملأ بطنها ويشل حركتها، ويجعلها تتباعد عن كل أحد خوفاً من اكتشاف هذا الأمر.

فتغلغل كلام الزوجة في نفس الزوج، ولم يشك بحرف واحد مما قالته زوجته.

فصمم على الخلاص من أخته. ولكنه يريد هذا الخلاص مستوراً وبغية من السرية، لأن انكشافه يؤثر على سمعة العائلة وشرفها ومركزها الاجتماعي. ولهذا فكر طويلاً في طرق الخلاص كلها. هل يقتلها ويدفنها في حفرة في بيته؟ أم يسافر بها فيليقها في إحدى المدن النائية؟ أم يعمد بها إلى صحراء قاحلة فيرميها فيها ويتركها للوحوش والجوع والظلم يقضي على حياتها؟

فكر في هذه الطرق الثلاث وفي طرق أخرى غيرها. فرأى أن أنسب طريقة هي أن يخرج بها إلى مجاهل الصحراء فيتركها فيها، حتى تموت جوعاً وظماً وتأكلها الوحوش، فلا يعثر لها على عين ولا أثر.

وهكذا صمم على سلوك هذا الطريق. وأخبر زوجته بما دبر فشجعت عليه وقالت: إن هذا خير وسيلة لغسل العار وإخفاء حادث القتل.

وفي ليلة باردة مظلمة قال الأخ لأخته: يا أختاه إنني أريد أن أسافر وإياك إلى طيب في مدينة قريبة، لعلاج ما تحسّن به من المرض فاستعدي. وليكن ذلك سريعاً فإننا سوف نمشي في الساعة الرابعة ليلاً أي بعد ثلاث ساعات من الآن.

فلبت الأخت هذه الدعوة وأعدت نفسها، وجمعت كلّ ما تحتاجه من أغراضها الخفيفة. وأودعته صندوقاً صغيراً كان معها. ولما جاء موعد السفر كانت البنت جاهزة. فأخذ الأخ أغراضها وحملها على الراحلة. ثم أخذ يد أخته وأركبها عليها. ومشى بها في ظلام الليل حتى لا يعلم أحد من أهل البلدة بهذا السفر، ولا يدري شيئاً عنه.

وكان الأخ طيلة الطريق ساهماً حزيناً على فراق أخته. لكن شرفه المتهلك أعز عليه من أي اعتبار آخر. وسكتت الأخت متظرة من أخيهما أن يكلمها، أن يؤنس وحشتها، أن يزيل بعض ما في نفسها من آلام مكبوتة سببت زوجته العزيزة عليه، المتهكة لحرمانه.

أما الأخت، فقد استيقظت في الصباح على حرارة الشمس، ولم تجد أخاها بجانبها. ونظرت يميناً وشمالاً لكنها لم تره يرمي راحلته ولم تر شيئاً. ونظرت إلى الجزء الذي كان يربطها به فرائته مقطوعاً بسكين. فعلمت أن مكيدة دبّرت لها من قبل زوجة أخيها، وأن تلك المكيدة قد نفذت بحذافيرها، ونجحت بكل جزء من جزئياتها.

ونظرت سلمى فيما حولها فلم تر إلا رمالاً وصحارى قاحلة لا ماء فيها ولا أنيس. وكان الوقت شتاء والجو بارداً، فبحثت لها عن ركنٍ يأويها، حتى وجدت غاراً في جبل مجاور، لها فجمعت حوائجها فيه ونظفته ونظمته. واستعدت للبقاء في هذا الغار حتى يوافيها أجلها المحتوم. وصارت تتجول فيما حولها من الصحراء فتأكل من أعشابها وتقتات من أوراق شجرها. واستمرت على هذا وقتاً طويلاً.

ثم أحست بالآلام الوضع. إن بطنها مليء ببيض الحمر وهي تحس أن نموه تكامل ولم يبق إلا أن يخرج من بطنها. وفي صباح أحد الأيام جاءها المخاض، فولدت حمرة أي طائرًا من نوع الطير الذي أكلت بيضه.

احتضنتها سلمى وعطفها عليها. واهتمت بها حتى شبت وترعرعت فكانت حوقلاً، ثم مقصباً، ثم مطياراً، ثم بلغت حد الكمال فصارت طائراً كجملة الطير. وصارت هذه الحمرة تطير إلى ما حولها وتنقل إلى أمها أنواع الأطعمة وتأتي إليها بالماء.

واستقرت سلمى وأنست بهذه الحمرة اللطيفة التي أذهبت وحشتها وآنست وحدتها ووفرت لها كل ضروريات العيش الذي يبقى على حياتها. واستمرت على هذا فترة من الزمن. وقالت هذه الحمرة لأُمها: ما هي قصتك يا أماء؟ فأخبرتها حادثتها من أولها إلى آخرها. كما أخبرتها بأخبار زوجة أخيها.

فكانت الحمرة لأُمها: سوف أسعى لرد الكيد إلى نحر عامله والسهام إلى قلب صانعه. فدعت لها أمها بالتوفيق ورجت أن تكلل أعمالها بالنجاح حتى تنكشف الحقائق، ويعلم الأخ أن أخته بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وحتى يتخلص من زوجته التي تعبت بشرفه وتسرف في ماله وتحطم أسرته.

وطارت الحمرة متوجهة إلى المدينة وأهوت على بيت سالم فوقعت على بعض حيطانه. وأشرفت فرأت سالماً يجلس في ركن من أركان المنزل يقرأ كتاباً فأطلت عليه. وألقت عليه هذه الكلمات المسجعة أو الشعر المثنوي:

«يا الحمرة.. يا المدمرة يا بايع أخته بالمرّة.. ترى البنية ما زنت إلا بيض الحمرة».

فأنصت الأخ إليها. وسمع كلاماً متقطعاً عرف بعضه وأنكر بعضه الآخر. وعجب كل العجب من طائر صغير يتكلم بمثل هذا الكلام. وعندما أنهت هذه الحمرة نشيدها أو شعرها المثنوي، خلقت في السماء وعادت إلى أمها في غارها المثنوي في مجاهل الصحراء تؤنس وحشتها وتقوم بخدعتها. وفي اليوم التالي وفي نفس الموعد عادت الحمرة إلى شرفة البيت التي كانت عليها بالأمس. فألقت نشيدها المعهود فالفتت إليها سالم أكثر من ذي قبل وجعل يستعيد كلامها في ذهنه ويحلله ليخرج منه نتيجة.

إن ما تقوم به هذه الحمرة وما تقوله ليس عبثاً وليس صدفة بل هو أمر مقصود ولاشك وله معانٍ ووراءه حقائق وأسرار. فليتظر إلى الغد فإن جاءت كعادتها فلإنها بذلك تقطع الشك باليقين ويتحقق من أن وراءها سرّاً لابد من اكتشافه..

صبر إلى الغد وهو يتعجل الساعات ويستبطن سير الزمن. فلما جاء موعد مجيئها، إذا بها على الشرفة وهو في مكانه قد استعد للسمع والفهم. ومتابعة هذه الحمرة حتى يعرف ما وراءها.

ألقت الحمرة نشيدها وفهمه كل الفهم وعرف مغزاه معرفة لا يشوبها الشك. وقام من فورهِ وتبع الحمرة وهي تطير أمامه قليلاً ثم تتعق لانتظار وصوله. وهكذا جعلت الحمرة تطير وتتبع فإذا لحق بها طارت وإذا ابتعدت عنه قليلاً وقعت حتى وصلا إلى سلمى.

كانت سلمى جالسة في الغار وحدها ترفو بعض ملامسها. رأت أخاها على باب الغار وفوجئ بها أخوها فأقبل الأخوان بعضهما إلى بعض يشوق وحتين. وندم الأخ ندماً لا يماثل ندم وقيل رأس أخته وقبلت أخته رأسه وجلس الأخوان وجهاً لوجه.

وقال سالم لأخته: قصي عليّ كل ما جرى لك مع زوجتي. فلقد تسرعت وخذعتني فأنخذعت.

فقصت عليه الأخت قصتها وقصت عليه قصة زوجته مع عشيقها أي محبوبها الذي يختلف إليها عند غياب زوجها وانكشف هذا السر للأخت وخوف الزوجة من أن يعرف زوجها هذه الأعمال فيكون في ذلك خراب بيتها وتقويض سعادتها.

أساطير هندية



أصلحت الأساطير

بكى الأخ بكاءً مريباً وكرر اعتذاره وأسفه لأخته . وقال لها : هيا اجمعي ملابسك ، وهيا بنا إلى الزوجة الخائنة الماكرة لأذيقها ثمرة مكراها وخيانتها . ووصل الأخ وأخته إلى البيت ودخلا . فكان دخولهما مفاجأة غير سارة للزوجة . التي أيقنت بانكشاف أمرها كما أيقنت بالهلاك لا محالة ، وهكذا حصل .

فقد أخذ الزوج زوجته الخائنة ، وانتحى بها جانباً فظنت انه سوف يعاتبها ثم يضربها ويطلقها . هذا هو أسوأ شيء ظنته الزوجة . لكن الزوج كان مصمماً على الخلاص منها بالقتل السريع . وعندما اختلى بها أخذ لباس رأسها الذي يسمونه الشيلة وخنقها به حتى أسلمت الروح لبارئها وانتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات .

ثم حفر الحفرة التي دفن فيها الجلع بحجة انه قبر الأخت فدفنها فيها . . وجمع أثاث بيته وسافر مع أخته من تلك المدينة إلى مدينة أخرى لا يرى فيها من المعالم ما يذكره بهذه المأساة المحزنة التي انتهك فيها شرفه ، وقطع فيها رحمه وحطم بها بيته الذي كان يغيظ نفسه به . ويرى أنه أسعد زوج وأن بيته أنظف بيت وأن زوجته أتقى وأوفى زوجة .

إلا أنه فوجئ بهذه القيم تتحطم ، وإذا بعكسها يحل محلها . هذا البعد هو العلاج الوحيد لتناسي هذه المأساة المؤلمة .

ووصل سالم مع أخته إلى المدينة التي قصدها ، وعاش معها وحرم على نفسه الزوجات . وعاشت أخته بجانبه لأنها لا يمكن أن تتركه وحيداً .

رامايانا

رامايانا هي أوديسة الهند في تاريخ الأدب الأسطوري وهي أشهر أساطير الهند وأحبها إلى النفوس. وتتناول حياة بطل اسمه راما، نفاه أبوه في غابة الشياطين حيث لقي من المصائب والأهوال ألوانا شتى. ونشب صراع جبار بينه وبين رافانا ملك الشياطين الذي تمكن من خطف زوجته، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم لليأس أبداً.

والهندي يعتبر رامايانا كتاباً مقدساً، ويعتبر راما صورة مجسدة للآلوهية، ولا يزال يتوجه إليه بالصلاة. وهو حين يقرأ الأسطورة إنما يشعر بأنه يستمد من قراءته سمواً دينياً كما يستمد متعة أدبية وارتفاعاً خلقياً، إذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعاً وتجعله ينجب ولداً حتى ولو كان عقيماً.

كان الجميع سعداء إلا الملك، فبرغم العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه كل الشعب، شيء واحد كان ينقص على الملك حياته. فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد يتولى من بعده عرش البلاد.

ولقد كان سكان مدينة أيوديا يعرفون تلك الحسرة التي تأخذ بقلب الملك دأشاراذا سيد بلاد «كوسلا». إلا أنهم ما كانوا يملكون شيئاً قط سوى أن يدعوا إلى «براهما» - وهم يقدمون القرابين - ليمنح ملكهم الطيب ولياً للعهد.

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين. فذات يوم وبينما كان الملك مجتمعاً بكهنته يقدمون القرابين لبراهما، ظهر لهم الإله «فيشنو» بشكل نمر متربعاً وسط النيران وقال للملك:

- خذ هذا الأرز المقدس واللبن الحليب، ووزعه على زوجاتك فقد أرسلني براهما لأبشرك بغلام اسمه راما، يكون له ثلاثة أخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات.

وحمل الملك ابنين والأررز إلى زوجاته وقسمه عليهن. وكانت نتيجة هذا الأررز خصبة: فأنجبت «كوشالا» زوجة الملك الأولى ولداً سماه «راما» ثم تبعها «كاكي» بولد سماه «باراتا». أما الثالثة فقد أنجبت ولدين هما «لاكشمان» و«ساتروجنا».

وعاش الأخوة الأربعة في كنف الملك حتى شبوا. ومع مر السنين كان راماً قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقاً وثابماً ورفيقاً. في حين كان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارساً لأخيه باراتا.

وكبر راماً حتى بلغ السادسة عشرة. وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شيء. ويديره على أن يكون ملكاً من بعده على كوسلا. ومن أجل أن يأمن على ولده - متى تولى العرش - من عداوات جيرانه، امتلاً رأسه بفكرة تزويجه من سينا كبرى بنات «جاناك» ملك «ميثالا».

والحق أن سينا كانت أجمل فتيات ذلك العصر، غير أنها لم تكن في الحقيقة ابنة الملك. فقد رُزق بها بصورة فجائية غير منتظرة. إذ كان يسوق المحراث، يحرق به بستان قصره ذات يوم، إذا بالأرض تنشق من تحته، وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور، ذات جبين من عاج، وشفة من مرجان، وأمانان تسطع بلمعة اللآلئ. كانت هي نفسها سينا التي اعتبرها الملك هدية من الآلهة، فتعهدها في قصره حتى شبت وعندما حان وقت زواجها، قرر جاناك ألا يزوجه إلا لمن يستطيع أن يشي القوس المقدس الذي أهده الآلهة لأجداده الأقدمين.

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله. غير أن أحداً لم يستطع أن يشي القوس. فقد كان قوساً مارداً عملاقاً، صنعه الإله شيفا لنفسه، ثم أهده لأجداد جاناك، ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثبته فلا الآلهة، ولا المردة ولا الشياطين كانوا يملكون القوة التي تستطيع أن تثبته.

وقرر راماً أن يشترك بالمباراة وانطلق إلى ميثالا حين كان الملك يستعد لإقامة عيد الضحية. وكان الشعب كله يحيي الملك حين دخل راماً الساحة، وأعلن عزمه على خطبة سينا ابنة الملك.

فتحولت إليه كل الأنظار. كان صدره بارزاً كليش، وجسده فارعاً كلّه، وعيناه مبهيتين كقبول.

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان يجرها خمسة آلاف عملاق. ومد راماً يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يشنيه وارتمع الجميع، فما كان أسهل ما انحنى القوس في يد راماً الذي ظل يشنيه حتى تلاصق طرفاه، ثم تحطم في صوت كالرعد، وهزة كالزلازل، حتى أن آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض سوى جاناك وراماً والأميرة التي فتحت عينيها في ذهول.

وأقيمت الأفراح، وأرسل جاناك إلى جاره الملك دأشارادا يدعو إلى حفل الزواج. فجاء ومعه أبناؤه الباقون، وعندما عادوا إلى أيوديا. كان مع كل منهم عروس أخرى رائعة من بنات ملك ميثالا الجميلات.

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا. حتى دخلها الشر عن طريق كاكي، الزوجة الثانية للملك.

ذات يوم أعلن الملك دعوته للشعب لحضور حفل تنصيب ولي عهده في اليوم التالي. وعُمت الأفراح كل «أيوديا» التي امتلأت قلوب سكانها جميعاً بحب «راما» وزوجته الأميرة «سينا» ابنة الآلهة، ما عدا قلباً واحداً امتلاً غماً وحسداً، هو قلب الملكة كاكي. فقد أحزنها، أن يكون العرش لابن ضرثها دون ولدها باراتا الحبيب.

ولعل تلك الثيرة التي ملأت قلب كاكي، لم تكن لترجيحها لولا خادمتهما المعجوز «متارا». فقد أشعلت المعجوز في أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد، وراحت تحرضها على التخلص من راماً ليكون العرش من نصيب ولدها باراتا.

وبكت كاكي غيظاً وياساً. فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من إعلان ولاية العهد لأي ولد، غير أن متارا ابتسمت بخبث وهي تقول:

— في إمكانك يا مولاتي أن ترغبي الملك على إعلان العهد لولدك. وإرسل ابن ضرثك إلى أعماق غابة الشياطين، فلا ينافسه على العرش أبداً.

قالت الملكة كاكي:

— كيف يكون ذلك يا متارا ؟

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمي الحقد، راحت متارا تذكر سيدها بذلك اليوم الذي أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال إحدى معاركه مع شياطين الجن. في ذلك اليوم كانت كاكي تعيش في المكان. وتصادف مرورها من نفس الطريق الذي سقط فيه

الملك غارقاً في لحي من الدم. وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت، جاهدت حتى استطاعت حمله بعيداً عن الميدان، وبذلت كل ما تملك ليرتد إليه الصواب. وراحت تمنني بجراحه فأقذته من موت كان لابد منه. وعندما شفي الملك، تزوجها، وأقسم أن يحقق لها أي أمنيتين تطلبهما منه، في أي وقت تريد. ومضت الأيام والشهور والسنوات، ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئاً بعد.

ودارت رأس كايكي بهذه الفكرة. وقد بدأت تدرك ما تقصد إليه متاراً واستمرت العجوز تقول:

— لقد حان الوقت لكي تطلبي من الملك أمنيتك. أطلبي منه أن يتخلى عن العرش لولدك بارتا. وأن ينفي راما إلى غابة الشياطين أربعة عشر عاماً. خلال تلك السنوات يكون بارتا قد استطاع أن يجتلب لنفسه حب الشعب، ولا يخشى منافسة أخيه.

وانطلقت كايكي إلى الملك تذكره بوعده، وأقسم لها أنه لم يخن فيه، وأنه سيقبل لها في الحال كل ما تطلب، كائناً ما كان. وهنا ألقت الملكة بقنبلتها على رأس الملك الذي وقف كالمدحور. فما خطر بباله قط أن تجرؤ على مثل ما تطلب الآن غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يخن بوعده.

ويقلب حطمته الأحزان، أحث رأسه للمرأة التي خدعته.

لقد كانت هذه هي أول مرة يحني الملك دأشاراداً فيها رأسه. وقد اضطر إلى إحتائها مرة ثانية أمام راما الذي وقف ومن حوله كل رجال البلاط في انتظار أن يباركه أبوه ويعلم له ولاية العهد. فإذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيراً محطماً وهو يولي العرش لباراتا. ويأمر بنفي ابنه راما إلى غابة الشياطين أربعة عشر عاماً.

وهتف الفتي في حيرة:

— ولكن ما الذي صنعت به يا أبته؟

وأشار الملك إلى كايكي وكأنه يشير إلى الشياطين. وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخيبتين والوعد الذي لم يكن يستطيع أن يخن فيه.

واندفع باراتا نحو أخيه راما وأمسك بيده وهو يقسم أنه لا يمكن أن يمس عرشاً من حق أخيه وحده. غير أن راما هز رأسه وهو يقول.

— أبداً أيها الأخ الكريم. لقد انتقل التاج إليك، ولابد من تنفيذ الوعد الذي أقسم به أبي. ستجلس أنت على العرش. أما أنا فأنطلق وحدي وفوراً إلى غابة واندك فلا أعود إلا متى انقضت الأعوام الأربعة عشرة كاملة.

واندفعت سينا نحو زوجها. وسجدت أمامه تتوسل وتقول له:

— خذني معك يا زوجي الحبيب. فما أستطيع أن أعيش في هذا المكان بعدك. إن العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث في حياة المرأة. وهي تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود، إن سينا ستهم معك في كل مكان في الغابة. فذلك عندها أسعد مقاماً من قصور العالم كله. إنها لن تفكر في بيتها لحظة أو في أهلها، ما دامت ناعمة بحب الزوج الذي اختارها لتشاركه الحياة. وستجمع الثمار الحوشية في الغابة الياينة العبقية. فطعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سينا الوفية.

وكذلك فعل لأكشمان. فقد راح يتوسل إلى أخيه أن يأذن له بمرافقته فإذا لم يكن يريد صاحباً فليكن حارساً له ولسينا من هجمات سكان الغابة الملاحين.

وحاول راما أن يثنى زوجته وأخاه عما صمما عليه. غير أنهما ظلّا يصران ويتوسلان. ولم يكن أمامه سوى أن يدعّن لرغبتيهما. وانطلق الثلاثة معاً في الطريق إلى واندك غابة الشياطين.

لم يكد الأمراء الثلاثة بمضون، حتى سقط الملك ميتاً لقرط ما ألم به من حزن. وبرغم أن كايكي ملأها الفرح لوفاء زوجها، إلا أن باراتا رفض العرش، وأقسم ألا يحكم باسم أخيه حتى يعود من مفاه.

ومضت أعوام عشرة طويلة. عاش الأمراء الثلاثة خلالها متفليين بين حنايا الغابة الوحشة، يقتاتون الفاكهة، ويجمعون عشباً، ويصطادون طيراً وحيواناً، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التي قيل إنها تسلا الغابة.

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم، إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاي. لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم وأقسم أن يستضيفهم لعدة أيام.

ولم يكن يد من أن يقبل راما ضيفاً للناسك. وخلال الأيام التي قضها لديه، عرف راما أن رافانا ملك الشياطين يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذي يقيم فيه الناسك. غير أنه لا يجرؤ على الاقتراب منه لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة

يخشاه الجن والشياطين ولعله كان أجدر براما أن يتبعد بزوجه وأخيه عن ذلك المكان، غير أنه وهو الشجاع الذي لا يعرف الجبن قط - أبى أن يستسلم للخوف، وأقسم أن يستمر في تجواله حتى تنقضي مدة النفي.

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يستمرا في طريقهما، أقسم أن يساعدهما ويزودهما بما يقيهما شر الطريق. فأخذ بأيديهما إلى مغارة تحت الأرض حيث آلت حرب فتاة أعداه لصراع الجن والشياطين. فأعطاهما شيئاً منها، كما منح راما قوساً ومهماً مسحوراً لا تحصى، ومنع لكشمان سيفاً ذهبي النصل يثير الرعب في قلب كل من يراه.

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد في أعماق الغاب وظلوا يسبرون حتى أخذ التعب سبيلاً وأحست بحاجة إلى الراحة وهنا فقط حط الثلاثة الرحال وقرروا أن يبيتوا مسكناً صغيراً يأوون إليه، وترتاح سبتا فيه.

ومرت الأيام سعيدة هائلة. حتى كان ذات يوم..

كانت «سورباناجا» أخت رافانا ملك الشياطين تنزه في الغابة حينما شهدت راما جالساً يناجي زوجته. وأحست «سورباناجا» نحو الفتى بهوى غريب. وراحت تنتهز الفرص لتفرد به. فلما انتهت الفرصة وراحت تصب في أذنيه ترانيم الهوى. سد عنها سمعه، ورفض أن يستجيب لعاطفتها.

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر أن صممت على قتل سبتا التي تمنع عنها. وراحت «سورباناجا» تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها. غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع إليها، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها. وصرخت الشيطانة، في غضب وانطلقت تجري والدم ينثش صاخباً من جروحها. حتى التقت بأخيها الصغير كارا، وعندما عرف كارا الأمر أقسم ليتقن لها، وأرسل أربعة عشر تينياً ضخماً ليقتلوا الأمراء الثلاثة.

غير أن الشيطان الصغير لم يقدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة. فإن التنانين لم تكد تهاجم مقر راما ورفيقه، حتى نهض هو فخنقها جميعاً بيديه بغير سلاح.

وهنا جن جنون كارا وأعلنها في الغابة حرباً شعواء على راما ورفيقه.

خرج كارا على رأس أربعائة ألف تنين يثير كل منها رعب عالم بأسره.

وعندما لمح راما طواير الجيش الزاحف، أمر زوجته وأخاه بالاخفاء ثم لبس درعه واستل سيفه وأخرج رمحه ووقف وحده ينتظر التانين.

وكانت التانين تزحف كأمواج البحر. وتحك حراشيفها فتخرج أصواتاً رهبة درع. وملأ الرعب قلوب كل من في الغابة إلا راما الذي وقف صامداً تطل النبال من منطلته. وظل سائكاً في وقفته حتى ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقتراباً منه. وهنا مد راما يده إلى نباله وسهامه وراح يرسلها نارية عنيفة على التانين التي ملأها الرعب والفرع. وبدأت تراجع وتتلوى تلتهم النجاة. غير أن سهام راما كانت تلاحق الهارين وراحت أرض الغابة ترتوي بالدماء، والتانين تتساقط واحداً إثر الآخر، حتى لم يبق سوى كارا وحده وليس حوله أحد قط.

واقرب كارا من راما. ونشبت معركة عنيفة مهولة، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تنطير خلالها لثماً لثماً جو الغابة. ثم فجأة، رفع راما قوسه وهزه كزلزال، ثم أطلق سهمه سريماً إلى قلب الشيطان.

غير أن المعركة لم تكن لتنتهي عند هذا الحد.

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشه فجن جنونه. ونهض عن عرشه وهو يقسم ليقتل راما ويمثل به.

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهبة قاسية مع راما وصاحبيه. غير أنه لم يكد ينهض حتى انحنى عليه أخوه «ماريشي» يحذره من قوة راما، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التي منحها له الناسك، ويقص عليه قصة الآلهة التي احتارته ليقتل على الجن والشياطين ويستتهم أجمعين.

وبدأ الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور. وانحط على عرشه ساخطاً يفكر كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه.

إن له عشرين ذراعاً يستطيع أن يحمل في كل منها سلاحاً جباراً، وعشرة رؤوس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر ولكنه مع هذا أحس بالجين. فقد أفته أخوه «ماريشي» أن النصر لن يكون حليفه إذا دارت المعركة بينه وبين «راما» وجها لوجه.

وإذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال.

وراح كل رأس من الرؤوس العشرة يبحث الأمر.

وفجأة قفز رافانا وفرح كبير. فقد خطرت له بعد طول التفكير فكرة خبيثة رائعة. فقتل «راما» لن يذل كبريائه وأفته أو ينال منه ولكن الذي يذله وينقص عيشه هو أن يفقد أعز شخص لديه.

وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه ماريشي ليخطف سيتا زوجة راما الحنون.

في ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يلتمسون الظل، ويتذكرون بلادهم وأهلهم. وفجأة لمحت سيتا منظراً أطلقت له صيحة فرح. لقد كان هناك ظبي يفتر على مدى البصر، رائع الجمال، له شعر يبرق كما يبرق الذهب.

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمرأى الظبي. وعندما تمت أن تملكه وتحفظ به لأيام عودتها، أقسم لياتيها به، حياً بغير جروح.

وقفز «راما» من مكانه يعدو وراء الظبي، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا، وألا يغفل الطرف عنها قط أو يتركها مهما جرى من الأحداث.

وأحس الظبي بالمطاردة فاندفع يفتق ويعدو، يظهر آناً ويختفي آناً آخر. والأمير من ورائه لا يريد أن يفقد منه، يخترق وراؤه الأشجار، ويسعى خلفه داخل الجحور، ويأبى أن يستعمل قوسه ومهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه.

وظل الظبي يخترق الغاب والأمير وراه حتى أنهكه الجهد واخذ به اليأس. وأطل خلفه فإذا هو قد ابتعد تماماً عن مكان زوجته وأخيه. وهنا فقط ملاه القلق وأحس أن في الأمر مكيده دبرتها له الشياطين. فقرر أن يعود، ولكن بعد أن يقتنص الظبي بهامه، ويحمل جلده البراق إلى سيتا الحبيبة.

وأرسل «راما» سهمه المسحور فأصاب الظبي، وأسرع يجري نحوه ليحملهم وعندما اقترب وجد شيئاً آخر ما كان يتوقعه قط. فقد كان الظبي يتلوى على الأرض، ويتحول شيئاً فشيئاً إلى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته. وحدث «راما» جيداً إلى حيث كان الظبي المحتضر، فإذا هو «مارتشي» شقيق ملك الشياطين.

وأحس «راما» فرحاً عظيماً عندما وجد أنه قتل الشيطان، غير أن هذا لم يدع فرصته

تطول، فقبل أن يلفظ النفس الأخير، أرسل في الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما، ليوهب بها من يسمعها بأنه هو «راما» نفسه، يطلب النجدة والغوث.

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى إليه. فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان، وخيل إليهما أن «راما» يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف.

ونسي لكشمان كل تحذيرات راما، وانطلق يجري إلى الجهة التي خيل إليه أن الصوت يصدر منها. وبينما جلست سيتا تنتظر، وفي قلبها هلع وذعر.

ومضت لحظات، راحت «سيتا» خلالها تلوم نفسها إذ أغرت زوجها بالسعي وراء الظبي. وبينما هي تفكر وتنتظر، طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكاً هراماً يتوكأ على عصا، وقد أحنت السنون ظهره، وقوست قامته، وقربت ما بين خطواته.

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها. وفي أدب ورفق، أذنت له سيتا، وأحضرت ماء وفاكهة، ثم راحت تنصت إليه وهو يسألها عن سبب وجودها في ذلك المكان. وبرغم الدهشة التي ملأها للسؤال الغريب، إلا أنها راحت تقص عليه كل الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبي.

وهنا توقفت في ذعر. فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق، ثم إذا بقامته تعتلد، وظهره يستقيم، وإذا به ينتفض ليصير شاباً قوياً، له عشرون ذراعاً، وعشرة رؤوس.

فقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه.

وانقض ملك الشياطين على «سيتا» وهو ينادي على مركبته، ودفع الأميرة إلى داخلها وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو في طريقها إلى جزيرة سرنديب حيث مقر عرشه.

ظلت المركبة تطير، والأميرة مشدودة حائرة لا تكاد تعي. وأطلت فإذا ملك السور يطير غير بعيد فاستغاثت به واتبته ملك السور إلى الاستغاثة فإذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة حملها في عربته السحرية الطائرة. وتحول السور الضخم يتبع العربة وينفض عليها. غير أن الشيطان كان أسرع منه، فطعنه في جنبه بخنجره طعنة قاتلة سقط السور على أثرها من ذلك علو الشاهق نحو الأرض، وقد غرق في بحر من الدم.

واستمرت العربة تطير، حتى اجتازت غابة واندك، ثم حطت قليلاً على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرد. وعندما استأنفت الطيران، كانت الأميرة قد عمدت إلى إلقاء وشاحها وعقدت ليسقطا على سفح الجبل بين أيدي القرد. لم ينتبه ملك الجن إلى سقوط الشاح والعمد على حين كان يسرع إلى جزيرته. أما هي، فقد ملأها الأمل أن يعثر راما عليها إذا كان قد نجا، وتدل القرد على المكان الذي اتجهت إليه.

بينما كان كل ذلك يحدث. كان «راما» قد انطلق في طريقه عائداً إلى الوادي بعد أن انتصر على الشيطان مارتشي. وفي طريقه التقى بأخيه لكشمان الذي كان قد انطلق في نجده. وصرخ «راما» إذ وجد أخاه وحده، وراح يؤنبه إذ لم يستمع لتحذيره وتوصيته بالابتعاد عن «سيتا» وحدها. فقد أدرك أن المؤامرة قد نجحت في إبعادها عنها، ليفرد بها «رافانا» ويخطفها. وأمرع الأخوان إلى حيث تركا الأميرة، فإذا المكان خال، وأثار المعركة بادية، ولا شيء هناك سوى السكون.

لم يستطع «راما» احتمال الصدمة. فسقط غائياً عن الوعي. وعندما انتبه إلى نفسه راح ييكي ويصرخ وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى. وأحس لكشمان بخطورة الأمر إذا ما طال انتظارهما في ذلك المكان إذ سيفقدان فرصة البحث ومنبهة أثر ملك الجن. فراح يدعو أخاه إلى مغالبة اليأس، والإسراع إلى الجنوب حيث تقع مملكة «رافانا» التي يتحدث عنها الجميع.

أخذ الأميران طريقهما إلى الجنوب. وبينما هما يسيران إذا بهما يصبران شيئاً ضخماً يتعد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم. واقترب الأخوان يتأملان، فإذا به ملك النور يحضر والدم لا يزال يسيل من جنبه ساخناً حاراً. واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح فقص عليهما القصة، وأشار إلى الطريق الذي سلكه ملك الشياطين.

وقبل أن يستأنف الأميران السير، شفا مدفنا للنسر الذي فقد حياته وهو يدافع عن فتاتها. ثم أمعنا في السير إلى حيث أشار لهما. وبلغا آخر الأمر شيئاً ضخماً وقفا لدى سفحه يفكران في وسيلة لارتقاته. وبينما الحيرة تأخذ بهما مأخذهما إذ بقرد كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ويسألهما عن سر وجودهما في ذلك المكان. وقال له راما:

— ومن تكون أنت. وما هو اسمك؟

قال له القرد:

— أنا هانومان سفير الملك سجريفا، الحاكم الحقيقي لهذا الجبل. فما الذي تبغيان من حضوركما إلى هذا المكان؟

وقص عليه راما قصته. وهز هانومان رأسه وهو يقول:

— لقد رأيت بنفسي مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب. لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة في أعياه بداحلها. وعندما مرت بالجبل أسقطت عمدة وشاحها وعقدتها. ربما لتدل الباحثين عنها إلى المكان الذي إليه تطير.

وأخذ هانومان بيد راما، وانطلق به إلى ملكه سجريفا لعله يمد له يد العون. وفي الطريق قص القرد على راما كيف أن سجريفا يعيش الآن مغلوباً على أمره، وحوله قليل من الاتباع، بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل، ووعد راما القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزمته الماضية وسهامه القاضية إذا هو وعد بمساعدته في الوصول إلى زوجته.

وكان هذا هو ما حدث بالفعل. فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة. وحمل راما قوسه وسهامه ونباله. فشن بها حرباً شعواء على ملك الجبل الذي اغتصب عرش أخيه. وبعد صراع عنيف استطاع «راما» الفوز بالنصر. فهزم الغاصيين وأعاد سجريفا إلى عرش الجبل.

ومن أجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه، وجه أربعة من جيوشه التي تضم آلافاً من القردة العملاقة الهائلة، إلى جهات العالم الأربع، وأمرها أن تسير في الأرض باحثة عن المكان الذي نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة.

وكان على «راما» و«لكشمان» أن ينتظرا في ملكه القرد عودة الجيوش الأربعة. وانتقضت أيام طويلة كأنها السنين عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة. ولم يبق غائياً سوى الجيش الذي كان قد توجه إلى الجنوب. وعلى رأسه هانومان سفير الملك. والذي أخذ معه خاتم راما.

والحق، أن جيش الجنوب ظل يلقي من الأهوال والمخاطر ما لم يتصوره أحد قط. ولقد بلغ إخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لا يهتم أبداً بما يقاسيه هو وجيشه في سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين. وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطئ المحيط وأطل. فإذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف.

الشياطين من كل جانب. وأطلق حوله فإذا هو وحيد وهم كثيرون. وأدرك بعد فوات الأوان مقدار خطئه وتهوره وعرف أنه واقع لا محالة بين أيديهم. وهنا خطرت له فكرة. فاقطع من يهو القصر عموداً كبيراً من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ففرق شملهم. ثم قفز في الهواء قفزة هائلة كأن وثاقاً أنها ستبلغه شاطئ المحيط. إلا أن سهماً أرسله أحد شياطين الجن أصابه. ومع أن الإصابة كانت خفيفة، إلا أنها كانت كافية لأن تهوي به قبل أن يبلغ الشاطئ. فجلبته الشياطين، وأوثقوه بالحبال، وقادوه إلى «رافانا» الذي كان ثائراً يريغي ويزايد ويهتز كزلزال.

وأصدر رافانا أمره في الحال بإحراق هانومان. ولَفَّ الشياطين جسم القرد بلفائف القطن، ثم أشعلوا النار في القطن حول الذيل. وبدأت تسرب بطيئة إلى جسد القرد.

وشهدت السماء ذلك العذاب الذي نزل بالمتقذ. فأشفقت عليه وتجمعت السحب وأمطرت مطراً غزيراً كان كافياً لإخماد قيده.

وتوقف المطر فجأة. فنهض هانومان وطرف ذيله لا يزال يشتعل.

فخطرت له فكرة جديدة: لقد كانت الأميرة في سردابي بعيد عن القصر، فلا خوف عليها إذا هو أحرق القصر.

فهبَّ من فوره وراح يقفز هنا وهناك، يدور بذيله في كل اتجاه ويشعل النار في كل شيء حوله. وأسكت التيران بكل جزء في القصر. ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول إلى شعلة كبيرة هائلة.

وفي نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة بلغ بها شاطئ المحيط. وأسرع بلمح البصر حتى بلغ الجبل، وقصَّ الأمر على «راما» الذي أسرع إلى الملك «سجريف» يطلب منه أن يمهده بباقي الجيوش.

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطئ المحيط، ووقفوا في مواجهة جزيرة سرنديب.

وأطلق الشياطين من بعيد وملاهم الرعب. لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم وإنزال الخراب بقصر الملك. فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القردة بالجزيرة التي ملاها هانومان وحده من قبل رعباً؟

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هي المكان الذي يسعى إليه. وبرغم طول المسافة التي تمتد بين شاطئ المحيط والجزيرة المسحورة، فقد قرر هانومان الوفي أن يقفز قفزة جبارة هائلة إما أن تصل به إلى الجزيرة وإما أن تورده الهلاك.

وكان «هانومان» يحب المخاطرة، فترك جيشه حيث هو، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطئ ثم قفز قفزة هائلة في الهواء.

كانت القفزة رائعة حتى كاد ظهر هانومان يصطدم بالسما. وإذا به قد عبر المحيط الواسع وحطت قدماه على شاطئ جزيرة سرنديب.

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح في الوصول إلى الجزيرة، استخدم سحره ليتحول إلى قرد صغير لا يلفت إليه الأنظار. وراح يتنقل بين بيوت الشياطين باحثاً عن قصر «رافانا» حتى بلغه. وعندما اجتاز أسواره شهد سرداباً (سرادقاً) صغيراً يمتد في حديقة القصر الواسعة. فاقرب منه. ومد بصره يتلصص في خفية، وإذا به يقف مبهوراً ممتلئاً عجباً. فقد كانت سيتا هناك. بارعة الجمال كملكاء، ترقد على فراش مريضة منهوكة. ومن حولها ماردات من الغفارت يحرسنها. ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعددها بأن صبره قد نفذ لظول ما أمعت في رفض الزواج منه، والتصميم على الوفاء لزوجها راما. وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا كما كان يعجز كل يوم، غادر السرداق وقد أقسم ألا ينتهي ذلك اليوم حتى يكون قد أذل كبرياءها. وما كاد رافانا يغادر السرداق حتى اقترب القرد الصغير من الفراش، ثم هس باسم راما.

فانتفضت الأميرة وتلفتت حولها، فإذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك. وظنت أنها كانت تحلم فأغمضت عينها. ولكن القرد عاد يذكر اسم راما. ففتحت عينها من جديد فإذا بالقرد يخرج خاتماً ذهبياً ما كادت تراه حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب. وقبل أن تصرخ من الفرح كان هانومان قد أشار إليها بسرعة خفية، يحذرهما من الصراخ، وأوما إليها أن تنتظر وتطمئن، وفهمت هي إشارته، وعرفت أنها النجاة.

غادر هانومان المكان مقررًا الرجوع سريعاً إلى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه نيزك «راما» لينزل النقمة بملك الشياطين. ولكنه لم يكذب بعد قليلًا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة، هي أن ينزل نقمته هو أيضاً بمملكة الشياطين ويحطم كبرياء ملكها ويذله.

وبلمح البصر رفع «هانومان» عن نفسه السحر فعاد قرداً ماردًا ضخمًا، وراح يحطم الأشجار ويقطع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر. ولم يكذب يفعل حتى أحاطت به

كان «رافانا» على يقين من الهزيمة بعد أن تحالفت ضده راما وهانومان. فجمع مستشاريه وراحوا يبحثون الأمر من كل الوجه.

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة. ونهض «فهبشان» شقيق رافانا الأصغر يطالب بتنحية أخيه وتسليم «سيتا» إلى زوجها ليحل السلام محل الحرب، غير أن «رافانا» ثار عليه وكاد يقتله. . فهرب هذا من أمامه، وقد أقسم أن ينتقم. .

وقفز الشيطان الصغير فصار على شاطئ الأرض، وانطلق إلى «راما» يقص عليه قصته ويعرض عليه خدماته. وظنه «راما» أول الأمر جاسوساً، لولا أنه أشار عليه بإقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر.

وفكر «راما» فيما أشار به الشيطان الصغير. واقتنع بصواب الفكرة ونفذها. .

ولم تكد تمضي خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر. وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش في جنح الظلام.

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا. ومن الجانبين سقط آلاف القتلى والجرحى. إلا أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش «راما» الذي استعمل سهامه المسحورة. فراحت تقصف بالشياطين قصفاً مخيفاً.

واستمرت الحرب طاحنة لعدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين. وعندما وجد «رافانا» أنها الهزيمة، امتلاً غيظاً وحنقاً، وانتفض مقسماً أن يقتل «راما» ولو كلفه ذلك حياته. ونشبت مباراة هائلة بالنبال بين راما ورافانا.

كان ملك الشياطين عنيفاً في مبارزته حتى شعر راما بأنه سينهار، وكاد يستسلم لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط عدوه على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من قومه. وأخذ السهم طريقه سريعاً إلى قلب رافانا فأرداه.

وردت نشوة النصر إلى راما قوته. وانطلق يجري نحو السرداق الذي تسجن فيه زوجته يقوده هانومان الوفي. ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعاقبان. إلا أنهما عندما انتبها كان الهدوء قد ساد المكان. وكان فهبشان الشيطان الحليف واقفاً على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران.

وانتصب «راما» قائماً من جديد. وأصدر أوامره بالعفو عن بقي من الشياطين، على أن يحكمهم فهبشان ويمنهم من الهبوط إلى الأرض بعد ذلك.

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة إلى الوطن. كانت الأنبياء قد سبقتهم إلى هناك على لسان هانومان. فخرجت أيوديا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا الذي رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة. وظل محتفظاً به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما وزوجته سيتا الحسناء.

الأساطير في بلاد الهند

عرف العرب الهند منذ فتحها محمد بن القاسم الثقفي، في أواخر القرن الأول للهجرة. وقد أخذوا منذ هذا الفتح يختلطون بأهلها، وينقلون عنهم عروض تجارتهم بحراً وبراً، كما نقلوا عنهم الكثير من حكمهم وكتبهم وأساطيرهم ومعتقداتهم. وبعض ما نقلوه عنهم أخذوه عن أسلموا منهم، أو عن الفرس، مثل كتاب كليلة ودمنة. وقد نقلوا عنهم في الرياضيات والفلك والنجوم كثيراً، كما عرفوا أطرافاً من تأملاتهم المتصلة بتزعاتهم الصوفية، وكان لهذه التأملات أثرها في التصوف الإسلامي. وكذلك عرفوا كثيراً عن نساكهم من البراهمة وغيرهم، وتعليمهم لأنفسهم تطهيراً لها من الآثام، وما اشتهر عندهم من حرقهم لأجسادهم أو إغراق أنفسهم في نهر الغانج المقدس.

واستمرى هذا الإحراق والإغراق نظر ابن وهب القرشي، فتحدث عنه، ولاحظ أن منشأ ذلك عندهم إيمانهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم، وزوال الشك عنهم وفي هذا الموضوع يقول القرشي: وإذا أحرق الملك نفسه أو مات، أحرق رجاله المقربون إليه أنفسهم بالنار، حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر ومنهم من - إذا عزم على إحراق نفسه - أوقدت له النار حتى يصير كالعقيق حرارة والتهاباً، ويدورون به في أسواقهم، وبين يديه الصنوج، وعلى رأسه إكليل من الريحان، يصبون عليه الزيت والنقطة وقد يمشي بين الناس وهو يحترق حتى تأتي النار عليه، ويصبح هشيماً تذرره الرياح ومنهم من يشق صدره قبل دخوله في النار أو يشق بطنه، ويتزع قطعة من كبده، استهانة بالموت وصبراً على الألم. ومنهم من يغرق نفسه في الغانج، كل ذلك ثقة منهم بالرجعة إلى الحياة بصورة أخرى.

ويقول ابن وهب: للهند عباد وأهل علم، بلاهوتهم يعرفون بالبراهمة ولهم شعراء يفسنون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان وسحرة، يظهرون ضروباً غريبة من السحر

والتيخيلات. ومن البراهمة قوم عراة غطت شعورهم أبدانهم، وأطفاهم مستطيلة كالحراب، وهم يسبحون في الهند، وفي عتق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم البشر، فإذا اشتد بواحد منهم الجوع وقف بعض بياب بعض الهنود. فإذا رآوه استبشروا به وأسرعوا إليه بالآرز المطبوخ، فيأكل في تلك الجمجمة، ومتى شبع انصرف، ولا يعود إلى طلب الطعام. ويهني ابن وهب حديثه بأن للهنود شرائع يتقربون بها - كما زعموا - من خالقهم جل الله وعز عما يقولون. ولهم هياكل كبيرة، وأصنام عظيمة يعبدونها، ومن أصنامهم ما يقصدونه في مسيرة أشهر كثيرة.

وتحدث مسعر بن مهلهل عن عجائب الهند وما بها من هياكل لعبادتهم، وقال إنهم لا يذبحون الحيوان، ولا يأكلون السمك ولا البيض وهم من عبدة الكواكب، ولهم حساب محكم، ومعرفة بالنجوم كاملة وتعمل الأوام في طباعهم، فمن ذلك ما يحكون من أن بعض ملوكهم بعث إلى أحد الأكاسرة (ملوك الفرس) هدايا فيها صندوقان مقلدان فلما فتحوها وجدوا في كل صندوق رجلاً، فسألوهما عن شأنهما، فقالا: «نحن إذا أردنا شيئاً همتنا إليه، يحدث» فاستنكر كسرى ذلك واستبعده، فقالا: «جربنا في عدو لك لا تستطيع قهره الحرب، فأننا إذا صرفنا همتنا إليه مات»، فقال كسرى لهما: «أصرفا همتكما إلى موتكما»، قالوا: «أغلغوا علينا صندوقنا فأغلغوهما، ثم كشفوا عنهما بعد فترة فوجدوهما ميتين.

ونزل مسعر في مدينة «الملائان» (في الجزء الغربي من البنجاب) وهي بيت حجهم، ودار عبادتهم، وبها صنمهم الأكبر الذي كانوا يحجون إليه، ويقدمون له القرابين والذور وهو مبني في هيكل كبير، وعليه قبة سماكتها في الهواء لثلاثمائة ذراع أما طوله فمئشرون ذراعاً، وصورته صورة إنسان جالس متربع على كرسي، وعينه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من الذهب، وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وجعلت أصابعه كالقباض على أربعة. وهو معلق في جوف القبة، لا تمسكه قامة من أسفله ولا علاقة من أعلاه، وهو ثابت في مكانه بتأثير مغناطيس يجذبه. وزعم مسعر أنه رأى في السند هيكلًا من ذهب، في صحراء قدرها أربعة فراسخ، والثليج لا يقع عليه بينما يقع على ما حوله!

وأكبر من تحدث عن الهند وأعظمهم شانا الريحان البيروني المتوفي سنة (440هـ). فقد مكث في الهند أربعين سنة درس فيها لغتهم السنسكريتية وثقافتهم ومعارفهم في الميثولوجيا وفي الفلك والتنجيم، وكان فيلسوفاً ناعداً بصيراً، فأحاط بكنههم المقدسة، وجملته أساطيرها وعلومهم ومعارفهم، ودون ذلك في كتابه تصديقاً.

ونحن لا نكاد نقرأ في هذا الكتاب، حتى ترانا ندخل في عبادة أو ديانة وثنية معقدة، تكثر فيها الآلهة والأرواح وتثبت في قوى الطبيعة، فإذا لكل قوة إلهها الذي يرمز إليها، مثل أندر ويرمز إلى العاصفة، وهو رئيس الملائكة، وسومى وهو يرمز لنبات مقدس يسكر عصيريه الآلهة والناس جميعاً، وأجنى رمز النار، وبراهما هو كبير آلهتهم. وكانوا يعتقدون أن الكون يمثل بالأرواح من حولهم، ومنها الخيرة والشريرة، وهي أرواح الشياطين، ولا ينبغي للإنسان منها إلا مهارته في السحر ومعرفته بالبرقي والتعاويذ. ولذلك كان للسحر عندهم شأن عظيم. ومن مزاعمهم في نشأة العالم أن إلهاً عظيماً شعر بالوحدة، فاشتق نصفين، وأوجد منهما كل الخلق، إذ انقسم إلى زوج وزوجة، ما زالت تختفي منه في صور الكائنات، وهو يمثل لها ذكراً سوياً في كل صورة تتحول إليها فإذا تحولت بقرة تحول ثوراً وإذا تحولت فرساً تحول حصاناً وإذا تحولت أنثاء تحول حمراء، وإذا تحولت نعجة تحول كبشاً، وهكذا خلقت الكائنات زوجين زوجين، وهي جميعاً ترجع إلى خالق واحد، إذ ليست أكثر من صور مختلفة له. وواضح ما تحمله هذه الأسطورة من فكرة وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، في صور مختلفة.

ويحكي البيروني عن مزاعمهم:

إن براهيم الأكبر رأى شرارة تحت الأرض، فأخرجها وجعلها أثلاثاً، الأول النار المعهودة التي توقد الحطب ويطفئها الماء، والثاني الشمس، والثالث البرق. وعندهم أن العالم ينقسم إلى علوي وسفلي وفي العالم العلوي الجنة وفي العالم السفلي مجمع الحيات وهو جهنم، وفي العالم الأوسط الناس، وهم يشابون بالصعود إلى العالم الأعلى، ويعاقبون بالهبوط إلى العالم الأسفل، كل حسب عمله وفي اعتقادهم أن النفس ترتبط بالعالم عن طريق وثاق جسدها ولذلك يتهاونون بالبدن ويحاولون فراقه بالحرق أو الغرق. وأجناس الخلائق عندهم ثلاثة: الروحانيون في الأعلى، والبشر في الوسط، وفي الأسفل الحيوانات، أما أنواع الخلائق فأربعة عشر، منها للروحانيين ثمانية هي براهيم وأندر وسوما إلخ. وللحيوانات خمسة: بهائم وحوش وطيور وحفافة ونابتة، هي الأشجار، أما البشر فروع واحد ومع كل هؤلاء الأبالسة والشياطين. ويتقدم الناسك وسدنة النار عندهم على الأطباء والمنجمين وأصحاب العلوم.

ويوغل البيروني في بحث شرائعهم وعبادتهم للأصنام، حاكياً لأساطيرهم في ذلك

كله.

ومن طريف ما قصه عن مبدأ عبادتهم للأصنام والتماثيل هذه الأسطورة:

«ملك يسمى أنبرش، نال من الملُك منه فرغب عنه، وزهد في الدنيا، وتخلّى للعبادة والتسبيح زماناً طويلاً، حتى تجلّى له إلهه في صورة «أندر» رئيس الملائكة، راكباً فيلاً، وقال له: سل ما بدا لك لأعطيك إياه.

فأجاب: أني سررت لرؤيتك، وأشكر ما بلّثت لي من مساعدة، لكني لست أطلب منك شيئاً، إنما أطلب ممن خلّقت.

قال أندر: إن الغرض من العبادة حسن المكافأة عليها، فحُصِّل الغرض ممن وجدته منه، ولا تقل: إني لا أريد منك بل من غيرك.

قال الملك: أما الدنيا فقد حصلت لي، وقد رغبت عن جميع ما فيها، وإنما مقصودي من العبادة رؤية الرب وليست إليك، فكيف أطلب حاجتي منك؟

قال أندر: كل العالم ومن فيه، في طاعتي فمن أنت حتى تخالفني؟.

قال الملك: أنا كذلك سامع مطيع إلا أني أعبد من وجدت أنت هذه القوة من لدنه، وهو ربّ الكل الذي حرسك من الغوائل. فخلني وما آثرته، وارجع عني بسلام.

قال أندر: إذا أبيت إلا مخالفتي فأني قاتلك ومهلكك.

قال الملك: قد قيل: إن الخير محسود والشر له ضد، ومن تخلى عن الدنيا حسدته الملائكة، فلم يخل من إضلالهم إياه، وأنا من جملة مَنْ أعرض عن الدنيا، وأقبل على العبادة، ولست بتاركها ما دمت حياً ولا أعرف لنفسي ذنباً أستحق به منك قتلاً. فإن كنت فاعله بلا جرم مني فهذا شأنك. على أن أني، إن أنا أخلصت لله ولم يشب يقيني شائبة لم تقدر على الإضرار بي. وكفاني الآن ما شغلني به عن العبادة وإني راجع إليها.

ولما أخذ فيها تجلّى له الرب في صورة إنسان، على لون النيلوفر الأكهب (الأسود) لباس أصفر، ركباً الطائر المسمى جرد، في إحدى أيديه الأربع الحلزون الذي ينفخ فيه على ظهور الفيلة، وفي الثانية سلاح مستدير حاد، وفي الثالثة حرز، وفي الرابعة نيلوفر أحمر. فلما رآه الملك اقشعر جلده من الهيبة وسجد وسبح كثيراً، فأنس وحشته وبشره بالظفر بمرامه.

فقال الملك: كنت نلت ملكاً لم ينازعني فيه أحد وحالة لم ينقصها عليّ حزن أو

مرض، فكأنني نلت الدنيا بحذاقها، ثم أعرضت عنها لما تحققت أن خيرها في العاقبة شر عند التحقيق، ولم أتمن غير ما نلت الآن، ولست أريد بعده غير التخلص من هذا الرباط.

قال الرب: هو بالتخلي عن الدنيا بالوحدة والاعتصام بالفكرة وقبض الحواس إليك.

قال الملك: هب أني قدرت على ذلك بسبب ما أملت له من الكرامة فكيف يقدر عليه غيري، ولا بد للإنسان من طعام ولباس، وهما من مظاهر الدنيا، فهل من طريق غير ذلك؟.

قال الرب له: استعمل من ملكك وبالدنيا الوجه الأجود والأحسن، وأصرف الأنية إلى ما تمعله من تعمير الدنيا وحماية أهلها، وما تصدق به وفي كل الحركات، فإن غلبك نسيان الأنسية، فاتخذ مثلاً كما رأيته عليه، وتقرّب بالطيب والأزهار إلى، واجعله تذكراً لي ثلاث سناني. حتى إن فكرت فبذكري، وإن حدثت فياسمي، وإن فعلت فمن أجلي.

ثم غاب الشخص عن عينيه، فرجع إلى مقره وفعل ما أمره به.

وقالوا: من حينها تعمل الأصنام، بعضها ذوات أربع أيد كما ذكرنا، وبعضها ذوات يدين. وأخبروا أيضاً أنه كان لرأس البراهمة ابن لم تكن له همة غير رؤية الرب، وكان يمسك عصا معه ويلقيها فتصير حية، ويعمل بها العجائب، وكانت لا تفرقه، وبينما هو يتأمل يوماً، رأى نوراً من بعيد، فقصده ونودي منه: إن ما تسأله وتتمناه ممنوع عن الكون، فلا يمكنك أن تراني إلا هكذا ونظر فإذا شخص نوراني على مثال الناس. ومنذ ذلك الوقت وضعت الأصنام والصور. ومن أصنامهم المشهورة صنم مولتان باسم الشمس، وفي عينيه ياقوتتان حمراوان، ويقولون إنه أقوم منذ مائتي وستة عشر ألف سنة»..

وينفخ البيروني في ذكر أصنامهم وهيئاتهم، وكيف يصنعونها، ويتحدث بالتفصيل عن كتبهم الدينية وسائر علومهم وشعرهم وعروضهم وحسابهم التي وضعها رأس البراهمة. وكان مترهباً، عقد مجعاً من الحكمة وسنّ شرائعهم. وهو الذي وضع نظرية أدوار حياة العالم، وكانوا يزعمون أنه قال: «إن عمر العالم اثنا عشر ألف دور مقدار كل دور ست وثلاثون ألف سنة».

وعرض البيروني لسحر أهل الهند الذي اشتهروا به وتخاليلهم بوجه من وجوه التنويه. وقال إن أصحاب هذه الصناعة مجتهدون في إخفاها، ومتقبضون عمن ليس من أهلها، وهي صناعة تقوم على معاجين وتراكيب أدوية، أكثرها من النبات وأصوله، ويزعم أهلها أنهم يستطيعون أن يعيدوا الصحة إلى المرضى والشباب إلى الشيب والشيخ. ومن أساطيرهم التي يروونها في هذا الباب أنه كان في مدينة «أوجين» رجل يسمى «بياري» صرف إلى هذا الفن همت، وأفتى فيه عمره وما ملكه، ولم يفده كل ذلك شيئاً يسهل عليه مقصده، فجلس على شاطئ نهر متحسراً ممتحماً ضجراً، ويبدد الدرج الذي كان يأخذ منه نسخ الأدوية، فجعل يطرح في الماء منه ورقة بعد ورقة. واتفق أن في أسفل الشاطئ امرأة بغى، فمرت الأوراق عليها فجمعتها وأطلعت منها على صناعته بالسحر وهو يراها، وما زال حتى فئت الأوراق، فأثت سائلة عن سبب فعله بكتابه، فأجابها: «لاني لم أتنفع به، ولم أصل إلى شيء من مرادي، وأقلست بسببه بعد الأموال الكثيرة، وشقيت بعد الأمل الطويل في نيل السعادة. قالت المرأة: لا تعرض عما أفتيت فيه عمرك، ولا تباأس من وجود شيء قد أثبت الصناعات قبلك، فربما كان الحائل بينك وبين الوصول إلى حقيقته أمراً نافهاً، ولي أموال كثيرة وكلها لك مبدولة لتنفقها على مطلوبك. فعاد الرجل إلى عمله، وكان يجد فيه صعوبة لأن كتب هذا الفن رموزة، فكان يقع له غلط من جهة اللغة في الدهن أو في دم الإنسان، فيختلف الدواء ولا يتجفع. وفي يوم أخذ في طبخ الأدوية، وأصابته النار رأسه وييست دماغه، فأدهن بدهن كثير صبه على هامته، وقام من عند المستوقد لشغل. فوافق سمّت رأسه من السمّ وتناثرت. فشجه وأدامه، وعاد مطرقاً للآلم الذي اعتراه وتطرق من يافوخه إلى وعاء الأدوية قطرات دم ممزوجة بالدهن، وهو لا يفتن لذلك، إلى أن تم مزج الأدوية، فظلى بها نفسه للإمتحان وصنعت صنيعه المرأة، فطارا في الهواء وعمل في ذلك الفن كتباً مشهورة، وهو معها إلى الآن حي لم يمت. هكذا يزعمون»

قال البيروني: ومن مشابه هذه الأسطورة أن في مدينة «دهار» على باب الوالي في دار الإمارة، قطعة فضية مربعة مستطيلة فيها تخاليل أعضاء إنسان، وقد ذكروا في أمرها:

«إن رجلاً في ماضي الزمان اشتهر بأدوية، من عملها بقي حياً لا يموت، مظفراً لا يغلب، قادراً على ما يروم ويطلب فسمع به ملكه، فأحضره، وأمر بإحضار جميع ما طلبه، وأخذ يغلي الدهن أياماً، ثم قال للملك: أرم بنفسك فيه حتى أتمم لك الأمر، فهال الملك ما رأى، وخاف من التغرير بنفسه. فلما أحس الرجل خوفه وفزع قال له:

«إن كنت لا تجترئ على ذلك ولا تريد لنفسك فهل ترضاه لو حتى أفعله بنفسى؟» قال الملك: «لكل ذلك» فأخرج الرجل صرر أدوية، وعرفه بعلامات تظهر منه، ليلقى عليه عند ظهور كل واحدة منها صرة معينة. وقام الرجل إلى الدهن وتردى فيه. فتنسخ وصهر جلده وجسده، وأخذ الملك يفعل مثله إلى أن قرب الشمام، وبقيت صرة، فأشفق الملك منه على ملكه، إذا أتبع كما ذكر. فتوقف عن إلقاء الصرة، ويرد القدر والرجل مجتمع فيه. فأخرج بما عليه وهو تلك القطعة من الفضة».

ولهم في التعاويذ والرقى اعتقاد بالغ، وأكثرها ينصرف إلى الملدوخ، قال البيروني: «ويبلغ من إفراطهم في هذا الباب أنني سمعت بعضهم يزعم أنه رأى مسلوعاً ميتاً قام بالريقة وتكلم وأرصى، ودل على الدوائع والأشياء، ولما استشق رائحة الطعام خرسيتاً هامداً».

ومن خرافاتهم أن ملكاً من ملوكهم ذهب إلى جبل قاف هراً قد حناه الكبر، وانصرف منه شاباً معتدل القامة معتلاً بالقوة قد اتخذ السحاب مركباً. وعقب البيروني على ذلك كله بقوله: «ولست أدري ماذا أقول في هذه الخرافات» ومما رواه منها: «زعم بعض الهنود أنهم شاهدوا ظلياً ذات أربعة أعين، وأن في بعض براريهم دابة ذات أربع قوائم، وعلى ظهرها أربع قوائم أخرى ذاهبة إلى أعلى، ولها خرطوم صغير، وقرنان عظيمان تضرب بهما القليل فتقطعه نصفين، وأنها ربما تطحت دابة، ورفعها إلى ظهرها، ف وقعت بين قوائمها العليا فتعنتت وحيثما تحك ظهرها في الشجر حتى تموت وأنها ربما سمعت صوت الرعد فظنته حيواناً وقصدته، وولبت إليه. ومما يزعمونه أنه نحو الشرق جبال القردة، وفي كل يوم يخرج ملكها مع الجماعات منها، ولهم مجالس مهينة، ويحمل أهل تلك الأرض للقرود الأرض المطبوخ على أوراق، فإذا طعمت رجعت إلى الغياض، وإن تناقلوا عنها كان في ذلك هلاك الناحية لكثرتها وشدة صولتها. وفي رأيهم أنها أمة من الناس ممسوخة».

وللهند في الأفلاك والكواكب والنجوم أساطير كثيرة عرضها البيروني، ونضرب لها بعض الأمثلة فمن ذلك ما كانوا يزعمونه عن نجم سهيل من أنه: «لما طلعت الشمس في المبدأ، وسامت جبل بند الشامخ في مرورها، أنكر علوها وبعثه الكبرياء على التعرض لها لينجمن عن مسيرها وقصدها، ويحبس عجلتها عن المرور فوقه، فارتفع حتى قرب من الجنة ومواطن الروحانيين، فأسرعوا إليه لطيه ونزعة بسائنه ورياضه واستوطنوه فرحين، يتردد فيه نساؤهم ويلعب أولادهم حتى إذا هبت الريح على ثياب بناتهم البيض تحركت

كالرايات الخافقة. والسباع والأسود تبدو في شعابه حالكة الألوان، والقرود تملو قممه، والزهاد في غياضه مقتصرون على التغذية بشماره. ولما رأى سهيل أنَّ ذلك الماء من فعل الجبل، عرض عليه الصبغة فيما قصده، وأقبل على البحر يبلغ ماءه حتى غاص، ويدت سفوح جبل بند، فقتشبت دواب الماء به تخدشه حتى ثلثته بالبحر، وفتيته أخاديد، احتفظت بالجواهر واللآلئ تزدان بها وبالأشجار والحيات. واعتاض البحر عن ذلك بحسن لمعان السمك فيه وظهور الجواهر في قراره التي يتزين بها، زينة السماء بالكواكب. وكل ذلك من فعل سهيل الذي يطهر الماء من الأوساخ الأرضية. ومهما زادت الأنهار ونقصت، فإنها تقدم ما على وجهها من أنواع التيلوفر والوانه إلى القمر وكذلك ما يسبح فيها من البط مثلما تقدم الفتاة الورود والتحف عند اقترابها. وما أشبه تردد البط الأبيض في الماء مصوتا بشفتي الحسنة وقد اقترتا عن أسنانها وهي تضحك ضحك الفرح، بل ما أشبه التيلوفر الأبيض والأسود بسواد حنقتهما وما يحيط بهما من بياض. فإذا رأيت الحياض قد أشرق عليها ضياء القمر وانفتح، ما أنظم من نيلوفر الأبيض والأسود ظلتها وجه حسنة تنظر بعين دعجاء من مقلة بيضاء. وقد تسيل الحيات والسموم والقاذورات في الحياض، ولكن طلوع سهيل عليها يطهرها من التجاسات والآفات. ومن أجل ذلك كانت خطيرة، ذكر سهيل، على بال الإنسان ماحية لآثامه الموجبة لعاقبة فانطلاق اللسان بمدحه أبغ في حط الأوزار عنه واكتساب الثواب. ويجب أن يعرف وقت طلوعه ويقدم القران إليه. وفي أول ظهوره يكون عسر الإدراك لا يهتدى له كل ناظر، فينبغي أن يسأل النجم عن سنته مطلع، وحينئذ تنقش التذور له، وتُفرش الأرض بما يتقن من الورود والرياحين، وتُكلى عليها ما توفّر من الذهب والياثاب والجواهر البحرية، ويُقدّم البخور والزعفران والصدل والسمك والكافور مع ثور وبقرة وطعام كثير وحلوى. ومن فعل ذلك سبع سنوات متوالية بنية صالحة واعتقاد قوي وثقة مَلِك الأرض والبحر المحيط بها من الجهات الأربع.

ولهم مع كل كوكب وكل جبل وكل شجرة كبيرة وكل ظاهرة في الطبيعة مثل هذه الأسطورة، بل ما يزيد عنها خرافة وتهريفا، فمن ذلك ما يزعمون من أنه: «كان في الزمن القديم ستة عشر جبلا تطير بأجنحة لها، فأحرق أجنحتها شعاع أندرو» رئيس الملائكة، فسقطت حول البحر المحيط، في كل جهة منه أربعة. وفيما بين الثالث والرابع من جبالها التي سقطت في الشرق نار تشترب ماء البحر، ولولا ذلك لامتلا فاض بدوام انصباب الأنهار فيه. وزعموا أنها نار ملك قديم لهم يسمى «أورب» ورث الملك عن أبيه وقد قتل

وهو جنين، فلما ولد وترعرع وسمع خبر أبيه غضب على الملائكة، وجرد سيفه لقتلهم، بسبب إهمالهم حفظ العالم مع عبادة الناس لهم، وتقربهم إليهم، فتضرعوا إليه واستعطفوه حتى أمسك. فقال لهم: «ماذا أصنع بنار غضبي؟»، فأشاروا عليه بإلقائها في البحر، فهي التي تشرب مياهه. ومن مزاعمهم في منازل القمر أنها بنات تزوج بهن، وأولع من يبهن بإحداهن وأثرها عليهن، وحملت الغيرة أخواثها على شكائته إلى أبيهن، فأغلظ عليه في التسوية بينهن ووعظه فلم ينح في وعظه وحينئذ لئنه فأصاب وجهه البرص. وندم القمر على فعله، فجاءه تائباً عن ذنبه، فقال له الأب: «إن قولي واحد لا رجوع فيه، ولكني أسر فقيحتك في كل شهر مدة نصفه فلا تظهر للناس؟» فقال القمر: «فالذنب السالف كيف يُمحى عني أثره؟» قال: «أَنْصَبْ مخدوماً لك» ونَصَّبَ له مخدوماً أو صاحباً، وهو الذي يرمز إليه صنم «سومنة» وسوم هو القمر، ونات صاحب، فهو صاحب القمر، وهو من أكبر أصنامهم». وقد قلعه محمود الغزنوي في سنة ست عشرة وأربعمائة.

ومثولوجيا الهند واسعة ومعقدة. وعلى هذا النحو يمضي البيروني في تصويرها من جميع أطرافها، وقد وقف طويلاً عند رسوم البراهمة في دينهم وصدقاتهم ومجاهداتهم، وما كانوا يبيعونه ويحرمونه من المطاعم كما وقف عند قرايبهم وتقديمهم إلى النار لتقدمها بدورها إلى الآلهة. وزعموا في سبب ذلك أنها خلجت في أول الزمان من ألهمتهم فسقطت إلى الأرض السفلى، وأقبل بعض الآلهة، يبحث عنها فدلته عليها الضفدع، فدعت عليها أن تكون ناقصة الصياح وتوارت في شجرة. فدلته البيتاء على مكانها، فدعت عليها بانقلاب اللسان. وأخيراً عثرت الآلهة عليها فأصلحتها وقومتها، وجعلتها واسطة بينهم وبين الناس، تأخذ قربانهم منهم وتوصله إليهم.

ويقص البيروني حجتهم إلى الأصنام المقدسة، والأنهار المعظمة، وعلى رأسها نهر الغانج، ويزعمون أنه من أنهار الجنة، حملته الآلهة إلى الأرض، وجميعهم يرون من حق الميت على الورثة أن يغسل ويعطر ويكفن ثم يحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر الغانج ليلقى بها في الجنة. ومن عجز عن الإحراق ألقي الجثة في الماء الجاري. وتحرق الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها، وكذلك يحرق كل من ملا حياته أو تبرك بجسده من مرض عيا أو شيخوخة وضعف، وكأنما يرون في النار باب خروجهم إلى عالم وجودهم الحقيقي. ومن شتماتهم الصوم، ومنهم من يطبله تقرباً إلى الله أيام شهر متواليه، لا يطر فيها البتة. ويعتقدون أن من واصل جميع الشهور

صائماً، فلم يفطر في السنة إلا اثنتي عشرة مرة، مكث في الجنة عشرة آلاف سنة ثم عاد إلى الحياة في أهل بيت شرف ورفعة وحسب.

ولترك البيروني إلى ما يقصه القزويني من عجائب الهند فمن ذلك شجرة كسيوس، وهي شجرة حلوة الثمرة يقع الحمام عليها، ويأكل من ثمرتها فيفشي عليه، وتراه الحيات فتقصده، تريد أكله ولا تستطيع الاقتراب من الشجرة ما دام على أحد أغصانها أو في ظلها. ومن ذلك البيش وهو نبات سام قاتل، إذا أكل منه أي حيوان مات، ومن غرائب أن فارة تتوالد تحتها، إذا أكلت منه لم يصبها أي ضرر. ويقال إن ملوك الهند إذا أرادوا الغدير بأحد عمدوا إلى الجوارى إذا ولدن وفرشوا من هذا النبات تحت مهودهن زماناً، ثم تحت فراشهن زماناً ثانياً، ثم تحت ثيابهن زماناً ثالثاً، ثم يطعمونهن منه في اللبن، حتى إذا كبرت الجارية وتتوالد منه شيئاً لم يضرها، يعيشن بها مع الهندايا إلى ما أرادوا الغدير بهم من الملوك، فإذا اقتربوا منها ومسوها ماتوا في الحال. وبها من يرقون من تسليعهم الحيات فيبرأون ولا يؤذيهم السم.

وفي الهند طير عظيم الجنة جداً، إذا مات اتخذوا من نصف مقاره مركباً يركبونه في البحر. وبعض أرضهم نوع كبير من النمل أسرع عدواً من الكلب، وهو يأكل من يقرب منه! بها جبل عليه صورة أمهتين، يخرج من قم كل منهما ماء كثير تدور عليه ساقيتان كل ساقية تروي قرية. وبها طائر على هيئة القمر، إذا أحضر الطعام وكان مسموماً دمت عيناه وجرى منهما ماء وتحجر، فإذا تحجر سحق، وجعل على الجراحات فتلتئم في الحال. وبها معبد سومنات (في شمالي الهند) يحجون إليه عند مفارقتها لأجسادهم فيمن شاء على مذهبهم المشهور في التناسخ ويؤمنون بأن مد البحر وجزره عياده له، وبينه وبين الغانج مائتي فرسخ وفي كل يوم يحملون إليه منه جراراً يفسلون به، ويقوم على سدائنه ألف رجل من البراهمة. وبيت المعبد مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصنح بالبرصاص، وقبه مظلمة وهي تضاء بقناديل الجوهر الفاقت. ومن عجائب الهند حجر إذا ألقى على النار ونظر إليه الإنسان انتفخ، حتى يصبح ضعف ما كان، ويروى أن بعض الهنود جلب منه عوداً ووضع في مجمره أمام بعض الناس، ففرج إذ رأى وجهه من كان قاعداً معه انتفخ، وشخصت عيناه وتغير في الحال. فأمر برفع المجمر، فرجع جلوسه إلى حاله الأول، فقال له: إني رأيته قد انتفخت انتفاخاً عظيماً، فقال له: وأنا أيضاً رأيته منك ذلك. ففرغوا أنه من خاصية العود الذي ألقى في المجمر.

وقد أقام ابن بطوطة في الهند ثماني سنوات تبدأ بسنة 734هـ واتصل بسلطانها

محمد بن تغلق، فأكرم وفادته عليه وولاه منصب القضاء، وقد وصف في رحلته مدن الهند وعجائنها وصفاً مسهباً، وزعم فيما زعم أنه رأى على بعد سبعة أميال من مدينة لاهري مدينة مسخ أهلها حجارة كما مسخت حيواناتهم وجوبهم من القمح والحمص والفول والعدس. وتحدث عن إحراقهم لأجسادهم، وإغراقهم لأنفسهم في نهر الغانج المقدس، كما تحدث عن السحرة الجوية، وأن منهم من يستطيع أن يتصور في صورة سبع ويهجم على الدور ليلاً ويفترس الصبية، وهم يقتدرون قدرة غريبة على الصيام حتى أن منهم من يقيم الشهور المتعاقبة لا يأكل. والناس يذكرون أنهم يعتمدون على حبوب خاصة يأكلون الحبة منها لأيام وأشهر معلومة، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب، ويخبرون بأمر مغية وسلاطينهم يعظمونهم. ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ولا يأكل اللحم البتة.

يقول ابن بطوطة: «والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة على ذلك، وهم يعزفون عن الدنيا وطبائنها، ويزعم أن منهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظرتة». وتقول العامة هناك: «إنه إذا قتل إنسان بالنظر إلى هؤلاء السحرة وشق عن صدره وجدّ دون قلب! وأكثر ما يكون هذا السحر في النساء، والمرأة التي تشتهر بذلك تسمى «كفتار» ويظل ابن بطوطة يبالغ على هذا النحو الذي يجعل رحلته في بعض جوانبها حديث خرافة.



أساطير فينيقية



من قبرص إلى لبنان: أسطورة أبدية

كان يعيش قديماً، في جزيرة قبرص التابعة لملك صيدون، شاب اسمه بكمليون لا يجد في نفسه هوى للنساء ولا ميلاً للزواج. فصمم أن يبقى عازباً مدى الحياة، وكان فناناً بارعاً يجيد نحت التماثيل الجميلة.

وقد ظهرت موهبته وفنه في صنع تماثيل لفتاة من العاج. فجاء التمثال آية من آيات الفن والجمال. وما إن انتهى بكمليون من عمله حتى وقف مشدوهاً أمام فتاته العاجية، وراح يتلمسها برفق وحنان ويتساءل إن كانت معدناً ميتاً أم بشراً حياً. ثم أخذ يحدثها عن حبه لها وإعجابه بها، ويقدم لها الأزهار والعطور حيناً والحلي والملابس أحياناً.

وبقي هذا العاشق المسكين على هذه الحال إلى أن حل عيد فينوس، إلهة الحب والجمال. وكانت قبرص بكاملها تقيم لهذه الإلهة التي ولدت على شواطئها، عيداً كبيراً، يحتفل به جميع السكان، فيزورون معابدها ويحرقون البخور لها ويذبحون العجول على مذابحها. وكان من عادات ذلك العيد أن يتقدم الناس من هذه الإلهة بطلباتهم وتمنياتهم، وبما تشتهي أنفسهم في هذه الدنيا. وكانت فينوس سخية مع عبّادها لا ترد لهم طلباً ولا تخيب لهم رجاء، خاصة في عيدها الكبير.

وجاء بكمليون بين جمهور المتعبدین لها، وقد وقف بخشوع وإجلال أمام تماثيلها وخطابها بلهجة غلب عليها التردد والحياء، قائلاً: «أيتها الإلهة الكريمة، أنت التي تمنحين السائل حاجته، والجاعع خبزه، والعاشق حبه، أتوسل إليك أن تعطي الحياة للفتاة العاجية التي عندي، وتجعلها زوجة لي» أصغت فينوس لبكمليون. وحنّت عليه وأظهرت استجابتها لطلبه بأن جعلت النار في موقدها ترسل ثلاث مرات السينة عالية نحو السماء.

وهنا عرف أن فينوس استجابت لطلبه.

عاد بكمليون إلى منزله مطمئن البال، وما إن وصل حتى أسرع نحو فتاته العاجية.

وانحنى فوقها وهي ممددة في سريره، ولشد ما كانت دهشته حين أحس بحرارة تطفئ منها، فمد يده إلى أنفها فحس بأنفاسها تلمح أصابعه. فبهت ورفض قلبه فرحاً، وراح يجس جسدها من هنا وهناك، ببصية وانفعال، حتى تأكد له أن فينوس قد حولت تماثلاً إلى جسم بشري تجري الدماء الحارة في عروقه. فرجع على ركبتيه ورفع صوته بآيات الشكر والثناء للإلهة الحنونة. ونهضت، على وقع كلماته، الفتاة من السرير، ونظرت إليه بحياء وخفر نظرات ملؤها الحب والحنان.

وما إن حل الليل حتى هبطت فينوس إلى منزل بكمليون، مصممة على إتمام عملها. وظهرت له ولفاتها، وأفهمتهما أنها جاءت لتحقيق أحلامهما وسعادتهما. وعقدت لهما الزواج بحضور ابنها كويديون إله الحب، ليكون شاهداً على زواجهما. وعاش بكمليون هانئاً سعيداً مع زوجته، وبعد مضي تسعة أشهر ولدت لهما بنت أسمياها بافوس، أعطت اسمها فيما بعد للجزيرة التي ولدت فيها.

وعندما بلغت بافوس سن الشباب تزوجت من ملك آشور، في بلاد العراق وولدت له صبياً دعي سينيراس، تولى بعد أبيه. وكان سينيراس ملكاً عادلاً، عاش مدة ملكه ناعم البال حتى كبرت ابنته مرة، فسيبت له المرأة والشقاء.

ومفاد ذلك، أنه عندما أصبحت مرة فتاة ناضجة، ظهرت عليها ملامح الفتنة والجمال. وشعرت فينوس بالغيرة منها، وشاءت أن تحرمها من المتع بجمالها، وتجعلها شقية تيمية فظلت المساعدة من ابنها كويديون، وأطلق على قلب مرة سهماً من سهامه التي ما أصابت قلباً إلا وأشعلته بالحب. إنما الحب الذي اشتعل في قلب مرة كان حباً مجنوناً لوالدها. وفهمت مرة أنَّ حبها لوالدها حبٌ غريبٌ عجيبٌ لا تقره أديان وعادات شعبها. وحاولت عبثاً أن تقاوم هذه العاطفة الأثيمة، لكن سهم كويديون لا يرد. ويسبب هذا الحب غير الطبيعي رفضت مرة شبان ممالك الشرق الذي تراكضوا طالين يدها. وصدهم دون اكترأث لما هم عليه من جمال وثراء وجاه. وكم تمت لو ولدت في بلاد الفرس حيث يسمح للآباء بالزواج من بناتهم لتتخلص من هذا الوضع المؤلم وهذا العذاب المرير.

أخيراً، وبعد أن فكرت طويلاً بالحالة التي تنخبط فيها، لم تجد مخرجاً لها سوى الانتحار، فأخذت زناها الحريري الطويل وربطته حول عنقها وشدته شداً قوياً، فأزرق وجهها وجحظت عيناها، وراحت تغغم غمغمة الموت. وصدف أن مرت هيبوليت

مريبتها العجوز أمام غرفتها، وسمعت زفراتها، فاضطربت ودفعت الباب وشاهدت مرة على تلك الحال، فأسرفت إليها وحلت زناها عن عنقها وخلصتها من موت محتم. بعدئذ راحت تواسيها وتخفف عنها، وتسالها برفق وحنان عن سبب انتحارها، فلا تجيبها مرة بغير البكاء والتنهيدات. أخيراً باحت مرة بسرها الرهيب للمربية بعد أن أقسمت لها بالأمان تبرح به لأحد، وأن تساعد على الخروج من ورطتها. اضطربت المربية واستعظمت الأمر في البداية، لكنها تماكنت نفسها، وهي العجوز المحنكة التي ذاقَت مرَّ الحياة وحلوها، وأعملت فكرها في ما ينقذ ربيبها ويوصلها لغايتها.

وجاء عيد سيريس، إلهة الخصب والنبات، وكانت الأمهات يحتفلن به احتفالاً مهيباً، فيلبس ثياباً بيضاء كالثلج، ويقدمن للكاهنة السنايل خصلاً خصبلاً. وكان من عادات ذلك العيد أن تبعد النساء عن منازلن لمدة إثني عشر يوماً. ومشت الملكة كولشريس، والدة مرة كعادتها، على رأس المحفلات لتقوم بطقوس العيد.

وبحلول العيد، اخترمت في ذهن المربية العجوز، خطة جهنمية لإبصال مرة لمخدع أبيها. فما إن خرجت الملكة الأم من القصر للإشتراك بموسم العيد، حتى جاءت العجوز الشمطاء إلى الملك سينيراس وأخذت تحدثه عن فتاة رائعة الجمال أحبته حباً قوياً، دون أن تذكر له اسمها. فسألها الملك بشغف عن سنها، فأجابته بأنها في سن ابنته مرة. ارتاح الملك لهذا الخبر، وعادت إليه روح الشباب، وأمر العجوز بأن تقودها إليه الليلة. اتبست العجوز ابتسامة النصر وذهبت إلى مرة تزفها البشري السارة. لكن مرة لم تستسلم للفرح، ولبت متخوفة قلقة.

ولما خيم الظلام وساد السكون جاءت العجوز وأمسكت بيد مرة اليسرى تقودها إلى غرفة أبيها. وتركزت لها اليمنى تلمس بها الجدران. وقد تعثرت ثلاث مرات وكادت تقع، وسمعت اليوم تنق ثلاث نغقات منكرة، كأنها تريد أن تنبيهها إلى فظيع فعلتها وتنصحها بالدول عنها، لكنها لم تراجع، واستمرت مائتة حتى أوصلتها المربية إلى غرفة أبيها، وقدمنها إليه في الظلمة الحالكة قائلة له: «هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها، خذها فهي لك» وهكذا توصلت هذه العجوز بدعاتها وخبيثها إلى جمع الأب بابته دون أن يعرفها. وتجددت علاقة مرة بأبيها في الليلة الثانية. واستمرت خيانتها كل ليلة من أيام موسم العيد.

وقد تضايق الملك سينراس من توارى هذه الفتاة عن عينيه، إذ كانت تأتيه في
الليل وتسبب قيل الفجر. وفي الليلة الأخيرة جسم أمي يتنهج خارج على أن يعرف
وجهه. وعندما دخلت إلى غرفته، أحاح قديلاً كان له من قبل، وأذناه
من وجهه. وسأ عرفها وأدرك نزل جريسيه، صمويل، الذي كان من قبلها،
واستدار واستل سيفاً معلقاً في الجدار، ليبدو به مشهوراً. إلى حين، حيث لم يجر لها
أثراً، إذ خرجت بسرعة البرق من الغرفة، وهربت من الباب، حيث لم يملكها، ورجعت
بنفسها.

وراحت مرة تضرب في السهول والبراري والصحاري، وابتعدت عن أرض آشور،
ومضى عليها تسعة أشهر وهي تائهة في الأرض حتى وصلت أخيراً إلى مملكة سبأ، في
بلاد اليمن. فانطرح أرضاً تن من التعب، وقد ثقل الطفل في أحشائها، وازداد شعورها
بفطاعة العمل الأثيم الذي ارتكبه، فطلبت من الآلهة ألا تبقىها حية لتلا تجلس الأحياء،
وآلا تميتها لتلا تلوث الأموات.

وسمعت الآلهة صلوات مرة وأشفقت عليها، فساعدتها على ولادة طفلها، وحولتها
بعد ذلك إلى شجرة حملت اسمها «شجرة المر» وتركزت دموعها تسيل من الشجرة حبواً
عطرة يجمعها الرعاة والمارة، هي حبيبات البخور.

أما الطفل، فقد احتضنته عرائس الماء وأضجته على مهد من العشب الطري.
وكان طفلاً فاتناً يشع النور من وجهه. وقد اختارت له اسم «أدونيس».

وشاهدت فينوس من عليائها الطفل أدونيس، وسحرت بجماله، وأجبت أن تشرّف
هي بنفسها على تربيته، فهبطت بمركبها الطائرة على أجنحة حمامم بيضاء، وأخذت
أدونيس من عرائس الماء، ووضعت في صندوق أحكمت أقفاله، وسلمته إلى شقيقتها
برسيفون، إلهة الجحيم، بعدما أخذت منها وعداً ألا تفتحه، وأن تعيده إليها ساعة تطلبه
منها ثم عادت طائرة من حيث أتت.

بعد ذهاب فينوس، لعبت الوساموس في نفس برسيفون بشأن الصندوق، ودفعها
حب الاستطلاع إلى فتحه. ورأت ذلك الطفل بوجهه العتير، فانفتحت به، وصممت أن
تحتفظ به لنفسها. وعندما جاءت فينوس لتستعيده منها، رفضت إعادها إياه رفضاً
قاطعاً. فلذبت فينوس وشكت الأمر إلى زوس، سيد الإلهة، فقضى بأن يتقاسما تربية

الطفل. فيكون ستة أشهر لبرسيفون وستة أشهر لفينوس. وهكذا نشأ أدونيس برعاية
الإلهتين الشقيقتين حتى بلغ سن الرشد، فتحرر من وصايتها وأصبح طليقاً حراً. وراح
يتجول في الغابات يطلق السهام على الوحوش، ويجد متعة كبرى في ملاحقتها وصيدها.

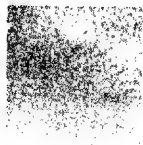
واتفق مرة، وهو يصطاد في جبال لبنان، أن مر أمام مغارة أقفا، فشاهدته الإلهة
عشتروت التي كانت تغتسل تحت شلال هذه المغارة، فسحرت بجماله وتعلقت به. أما
هو فلم يأبه لها، وتابع طريقه ساعياً وراء صيد كثير. وتعلقت عشتروت بأذياله فنسيت
موطنها ولحقت به أينما حل، في الغابات والجبال والأودية، دون تعب أو ملل، وراحت
تحدثه عن إعجابها به وحبها له، وهو مندفع وراء الصيد لا يهتم لما تقول. وعندما رأت
فيه هذا الولع بالصيد، قررت أن تعاونه في هوايته، عليها بهذه الطريقة تكسب وده،
وصارت تقود كلابه وتسد على الطرائد السبل، فيصطادها أدونيس دونما خطر. وكانت
تخشى عليه من السباع الضاربة، فتصمحه قائلة: «لا تردد أمام كل ما يفر أمامك من
طرائد، كالآرانب والغزلان والبط، لكن حذار الحيوانات المفترسة من أسود ونمور
وخنازير بريّة، فهي خطر عليك، وإياك يا حبيبي أن تصارعها».

أوصت عشتروت أدونيس وصيتها واعتلت مركبتها التي تجرها طيور البجع،
وانطلقت في الفضاء نحو قبرص لقاء أمر عاجل. وكان أدونيس شجاعاً مغواراً، فلم
يكثر لتحذيرات عشتروت. وأطلق كلابه نحو الغابة وراح يجري وراءها، فالتفتت آثار
خنزير بري وتبعته حتى وصلت إلى مرقد، فأيقظته وأهاجته بنباحها المتواصل. واندفع
الخنزير من مخبئه يسعى إلى الخروج من الغابة، فشاهده أدونيس وعاجله بهم جرحه
جرحاً طفيفاً فحن جنونه وانقض عليه، وحاول أدونيس الهرب منه، لكن الخنزير الهاج
أدركه وطمع بنبابه في جنبه طمعه أوقعه أرضاً والدّم يسيل منه.

ولم تكن بعد عشتروت قد بددت كثيراً، فسمعت أنين أدونيس، وافتتت نحوه
ورأته مضرباً بدمائه، فعدت بسرعة إليه وعانقه بحرارة وحنان. وأسلم الروح بين
يديها، فراحت تلمم وجهها وتدب حظها، ثم خاطبته قائلة:

«تموت يا حبيبا رغبت فيه، ورغبتني تبخرت كحلّم. ملك ذهبت لؤلؤة جمالي،
لكن عليّ أن أعيش، أنا الخالدة، ولا يمكنني أن أتبعك. مرة أخرى قبلي، قبلي قبلة
طويلة حتى أرتشف روحك بين شفتي، وأرتوي من حبك».

قالت هذا، وأخذت من دمه قطرات مكبتها على الوادي، فتولدت منها زهرات شقائق النعمان، ووقع بعضها في النهر، فتحولت مياهه إلى أرجوانية حمراء. ثم غطت جسده الجميل بورق الخس والخبازي، ودفنته في أفقا. بعد ذلك نهضت وهامت على وجهها، ومشت دون وعي فوق الورود والأشواك، وسال الدم من قدميها، وتشربت منه الأزهار البيضاء، فاصطبغت بلونه وأصبحت حمراء.



أساطير ألمانية



ملحمة فاوست الألمانية الخالدة

للشاعر العظيم غوته

تبدأ الملحمة فإذا «الله» و«الشیطان» يتنازعان روح الإنسان. الخالق يؤمن بمخلوقاته، والشيطان الجاحد يكفر بكل شيء، ويرتاب في كل شيء، فهو المتشكك الخالد الذي يفضل الفناء على الوجود، ولا يرى معنى «لمسرحية القدر التي لا تنتهي» التي تخلق البشر لكي تهلكهم بعد ذلك» فهو يفضل على الدنيا ذلك الفراغ الدائم الذي بدأ منه الكون رحلته العقيمة خلال الزمان والمكان. . ومن ثم فهو يرى مهمته في أن يحبط الخليفة وينكر حكمة الله وطيبة البشر:

الله: ألا تجد إنساناً واحداً طيباً على الأرض؟

مفيستو (الشيطان): ولا واحد. . البشر جميعاً أشد وحشية من الوحوش.

الله: حتى «فاوست»؟

مفيستو: حتى فاوست. . إنه مثل بقية البشر.

ولكي يثبت الشيطان نظريته يعرض على ربه أن يتخلى له عن فاوست فترة كي يجربه: «أعطني إياه فترة قصيرة وأنا الكفيل بإفساد روحه إلى الأبد».

ويقبل «الله» الرهان، واثقاً بأن الشيطان سوف يخسره.

الله: عندما تنور في الإنسان شهواته، لا يستطيع إلا أن يخطئ ويضل. لكنه في غمار ضلاله في دجى الليل، يتجه بغريزته نحو النور.

وما إن قبل الطرفان «الرهان» هبط الشيطان إلى الأرض كي يجرب ويمتحن «فاوست».

ليلة عيد الفصح، وقد أوغل الليل وسيطر على غرفة كالقبر، يطل نور القمر من خلال نوافذها القذرة التي يلمط التراب زجاجها. فلا يكاد يضيئ أكوام الكتب والمؤلفات الضخمة القديمة التي تراكم صفوفها لصق الجدران التي سودها الدخان. وهنا وهناك يقع ظل القمر على أجهزة فلكية وأوان وأنايب كيميائية. وعلى منضدة صغيرة مصباح يضيئ وجه رجل في ثياب العلماء القائمة الوقورة، قد جلس إلى مكتبه يطلع بعينين توهجت فيهما نار الحماس للبحث عن الحقيقة، النار الملتهمية التي لا تشبع ولا تنق، ولا تخمد أو تراجع، وإنما تنظر دائبة على الاستطلاع والبحث عن الجوهر المخفي وراء كل مظهر من مظاهر الكائنات الحية.

إنه «فاوست» العالم الألماني العلامة، الذي اشتهر في جميع الآفاق بعلمه وطيبته ونزوعه الدائم إلى الخير. لكنه يحس في ليلة عيد الفصح هذه بغضب من المرارة في قلبه فإن جهاده المتواصل خلال ربع قرن قد أظهر له نفاة وعقم العلم والمعرفة البشرية. فإذا بعينه لترتفعان عن صفحات الكتاب المبسوط أمامه، كي تجوساً خلال غرفته - ذلك المخزن العفن لأبحاث العقل البشري - فيسائل نفسه: «لقد تحمقت في الفلسفة والقانون والطب والدين. وأرقت عليها عصارة دراساتي الطويلة بحمية ونشاط وحماة لا تعرف الملل، وما أنذا في النهاية أتبين أنني لا أكاد أعرف شيئاً، ولا أكاد أصل إلى نتيجة. وأن معارفي كلها لا تساوي كثيراً. ليست سوى قطرة من بحر. فيا لهجلي وغبائي وحماقتي.. هذه هي الفكرة التي تحرق القلب».

ويحس فاوست أن كل تلك السنوات التي قضاه في جد وعمل متواصل قد ضاعت سدى. وأنه بإنفاقه إياها مغموراً بين الكتب، غارقاً في دراساته العقيمة، لم يستمتع يوماً بحياته، لم يعيش. وهو لا يعني «بالاستمتاع بالحياة» تلك المشاركة في ملذات الدنيا، بالحب، والفضح والرقص. فإن أوان ذلك على أي حال قد انقضى وهو الآن قد شاخ وإنما هو يعني ذلك الطريق الآخر إلى الحياة إلى المشاركة الداخلية مع قوى الطبيعة نفسها إلى الحياة البشرية السامية وفق المثل العليا، وهذا الطريق يرسمه الكتاب الفلكي الذي أمامه «طريقة (نوستراداموس) السحرية». وفيما هو يقلب صفحاته، يقف عند رسم بياني غامض، وفجأة يخيل إليه أن سر الكون قد اكتشف لقلبه. ثم يعود فيدركه اليأس الذي يعقب رضى التصوف الروحي، فيعود إلى قلب صفحات الكتاب. ومرة أخرى يعصف بصدرة أمل جبار حين يعثر على علامة ترمز إلى «روح الأرض» فيشعر بأنه يكاد يصل إلى

فهم أسرار القوة التي تربط بين القلوب البشرية، وتنسج تلك الخيوط المتقاربة التي تسبب الفرح والألم.

ويستعين فاوست بعلمه ومعارفه المكتسبة طيلة ربع قرن، فينطق بتعوذة خاصة يستدعي بها إليه روح «الأرض». لكنه يفرغ حين يبتقي في الحجرة نور يخطف البصر، تظهر الروح على أثره أمامه. ثم يتماثل نفسه فيتحدى الروح في تفاخر، متادياً بنفسه ندا لها:

فاوست: أيتها الروح التي تحيط وجودها بالأرض الواسعة. كم أحس بالتقارب بين طبيعتي وطبيعتك.

الروح: أيها الإنسان. إنك مثل المخلوقات التي يستطيع عقلك أن يصورها. ولست مثلي.

ثم تخفي روح الأرض كما ظهرت، تاركة صدى كلماتها يدوي في عقل فاوست، فيقضي على آخر آماله من الحياة: إنه قد يستطيع - إذا بذل أقصى محاولات التأمل الصوفي - أن يقف على «حافة» المعرفة القصوى. لكنه لن يستطيع أن «يعبر» الهوة التي تفصله عنها: «من أنا حتى أطاول الألهة؟. إنني أرتجف وأنا أحس وطأة الشعور بضالتي. إنني كالدودة الحقيرة، من التراب خلقت، وفي التراب أعيش. فهل أجد هنا العلاج الذي أبحث عنه؟».

ويرنو ببصره الشارد - وهو غارق في التأملات - إلى قارورة صغيرة بها سم، فيفكر في الانتحار.. ويناجي القارورة مرحباً بالشواطئ المجهولة التي سوف تنقله إليها محتوياتها المميتة. وفيما هو يشرع في جرح ما بداخلها تدق أجراس عيد الفصح دقائقها النضية المرحية، ويسمع في سكون الليل صوت جوق من الفتيات يغنين لحناً ملائكياً فتعاوده ذكريات صباه ومشاعر فرحته بالعيد. ويلعب الدمع في عينيه. فينحي قارورة السم بعيداً ويصغي إلى دقائق الأجراس.

وفي صبيحة يوم العيد يخرج فاوست وتلميذه المفضل «فاجنر» - الذي يرى فيه فاوست شيا به المفقود - كي يتجولا في أنحاء المدينة التي تغص بالجماهير، مارين بمختلف الفئات من الناس: طلبة يهرعون إلى الحانات ليشربوا العنبر ويتبادلوا مع فتياتها الثيابات. ونسوة عابثات، وعوانس وفورات على استعداد لنسيان وقارهن إذا وجدن أزواجاً. ورجال في منتصف العمر يشجعون الحروب في الخارج ما دام السلام يعمر

بيوتهم. وجنود يغنون أناشيد الحب والمجد في ساحات القتال. ومتسولون يجدون أعيادهم الحقة في أيام الأعياد وفلاحون يرقصون كل جماعة في حلقات. وشبان يملكون بقواربهم على صفحة النهر. إلخ.

ويتأمل فاوست تلك المظاهر الصاخبة للهجة فيحس أنه حقاً في يوم عيد، وأنه إنسان. ذلك الإحساس الذي حرم منه طيلة أعوام دراساته الصارمة. ثم يلح كلباً أسود في الطريق، يدور حوله ويقرب منه بالتدريج، فيأخذه معه إلى البيت. وهناك يعكف على ترجمة فقرات من الأناجيل، وفيما هو يجهد ذهنه باحثاً عن التعبير الصحيح، يأخذ الكلب في النباح. ويتبين فاوست أنه ليس كلباً عادياً، وإنما هو روح شريرة فيحاول أن يجري عليه تجاربه السحرية. وفي اللحظة التي يوشك فيها أن يستخدم أقوى تعاويذه ينفض الكلب عن نفسه، فإذا هو الشيطان «مفيسو» وقد ظهر الآن في هيئة طالب علم قادم من سفر. لكنه يقدم نفسه لفاوست على اعتبار أنه «متعهد توريد جميع ملذات الدنيا» ثم يعرض على العالم الشيخ خدماته..

فاوست: إنني أكبر سنّاً من أن أستسلم للملذات. وأصغر سنّاً من أن تفارقني شهتي. فماذا تستطيع الدنيا أن تعطيني الآن؟ كفى، كفى.

لكن «مفيسو» يعد فاوست بحياة جديدة، وآمال جديدة، ومعرفة جديدة، ومطامع جديدة، ومغامرات جديدة إنه سوف يعيد إليه شبابه ويخدمه، ولكن بشرط:

مفيسو: سوف أكون عبدك المطيع في هذه الدنيا، وتكون أنت عبيدي في الآخرة.

فاوست: وكمن من الزمن سوف تخدمني على الأرض؟

مفيسو: هذا أمر متروك لك.

فاوست: إذن فقد اتفقتنا.. أعيش متقللاً من متعة إلى متعة في نشوة متزايدة، حتى أبلغ لحظة المتعة القصوى، التي أحس فيها بالشبع.

ويوقعان الميثاق بدمهما. وبفضل وسائل الشيطان السحرية يتحول فاوست إلى شاب في مقتبل العمر، ثم يبدأ الإثنين مغامراتهما الشائقة بحثاً عن المتع والملاذات.

وتقومهما مغامرتهما الأولى إلى حانة «أورباخ» حيث يلتقيان بجماعة من الشبان العابثين، فيعبد الشيطان إلى تسليتهم بالعابة السحرية، فيخرج كافة صنوف الشراب من منصدة جافة بواسطة نقبها بمثقب «بريمة» ثم يخفيهم بتحويل الشراب الفوار إلى لهب متقد.

ومن حانة أورباخ يأخذ مفيسو فاوست إلى «مطبخ الساحرات» حيث يسقيه محلولاً سحرياً يوقد في عروقه نار الحب الجنسي وأستهتاره. وبعد ذلك يقوده إلى شارع عام، حيث يقدر له أن يعثر على سعادته الأولى الفاتكة، ويصادف مأساته الأولى المفجعة إذ فيما هما يراقبان المارة، تمر بهما «مرجريت».

فاوست: أيتها السيدة الحسنة، لا يسوءك أن أعورك ذراعي ورفقتي..

مرجريت: لست سيدة، ولا حسنة. أما بيتي فاستطيع أن أبلغه بغير رفقتك (وتخلص ذراعها منه وتضفي).

فاوست: كم أتوق إلى امتلاك هذه المرأة.

مفيسو: لكنها آتية لنوها من حيث أدت فريضة الاعتراف؟.

فاوست: لا تنطق أمامي بكلمة عن الدين. لئن لم تبت هذه الفتنة بين ذراعي الليلة، فاعتبر ميثاقاً مفسوخاً ابتداءً من منتصف الليل.

مفيسو: أن شهوتك لأشد عنفاً حتى مما عهدته في الشياطين لكنني سوف أحقق أمانيك. سوف أجد غرفتها وأقودك إليها.

ويحاول الشيطان أن يقوي «مرجريت» بمجموعة فاخرة من الحلبي والجواهر يضعها خلسة في غرفتها. فتتهيج لدى رؤيتها وترتاع في وقت واحد. ثم تعرضها على جارة لها تدعى «مارتا» غاب عنها زوجها منذ أعوام:

مرجريت: أنظري يا مارتا.. وتأملي.

مارتا: يا طفلي، أي حظ هذا الذي أتاك؟.

وفيما هما تفحصان الحلبي في انفعال يدخل مفيسو متكرراً في هيئة سائح فينيي مارتا بأن لديه أخباراً عن زوجها.

مفيسو: سيدتي. إن زوجك قد مات..

مارتا: أوافق أنت؟

مفيسو: كل الثقة. فإن لي صديقاً رأى نهاية زوجك وسوف أحضره هنا.

مارتا: أرجوك أن تشعل يا سيدتي.

مفيسو: وهذه السيلة الشابة سوف تكون موجودة أيضاً؟ إن صديقي شاب رائع كثير الأسفار، يحظى دائماً بإعجاب النساء.

مرجريت: أخشى أن يحمر وجهي خجلاً في حضرته
مفيسو (في لباقة): هذا الحسن لم يصنع لحمة الخجل.

مارتا: في حديقتي الخلفية سوف نتظركما الليلة ..

وليتني فاوست بمرجريت في حديقة مارتا. وبينما الشيطان يشغل مارتا بحديثه، ينازل فاوست مرجريت فيقننها بشبابه، ووسامته، وأناقته، وحضور بديته. وحين يذهب يتركها لاهثة الأنفاس، تحدث نفسها: «يا إلهي .. كيف يوجد رجل يفكر هكذا ويعرف إلى هذا الحد؟» وتضلي ملتزمة أن تنفحها السماء بزيارة أخرى منه.

وتستجاب صلاتها فيلتقيان مرة أخرى في حديقة منزل مارتا، ولكن على أفراد هذه المرة فيناشدها أن تسمح له بدخول غرفتها بعد أن تمام أمها. لكن مرجريت تبدي تردداً.

مرجريت: إن نوم أمي جد خفيف. ولن تلبث أن تشعر بوجودك.

فاوست: لا تخشي يا محبوبتي مرجريت، يا كترتي الجميل أن يقطع متعتا شيء فإليك هذه الجرعة التي لو شربتها أمك لغابت في أعماق نعاس.

فتناولت مرجريت منه القارورة الصغيرة التي تحوي المخدر، ووعده أن تفي بموعدها.

مرجريت: لست أدري ما الذي يرغمني على إطاعة رغبتك فمهما طلبت مني، سوف أعطيك.

وتتم مرجريت بخلوتها مع فاوست. بينما يحقق المخدر الذي سقته لأمها، الغرض الذي قصد منه، وأكثر فلقد كفل للام النوم الأبدي .. وهكذا يسفر حب مرجريت لفاوست عن إنطفاء شملة حياة. وانبثاق حياة أخرى في أحشائها.

ويعود شقيق مرجريت - المدعو «فالتين» - من الجيش بعد أن سمع بعارها. وفيما هو أمام الباب يلحح شبحين يقتربان.

فالتين: أواه، أكاد أمزق شعري غيظاً، وأحطم رأسي بأساً. سوف يلتقي أحقر صعلوك بأنف شامخة، ويلاحقني الناس بالقدح والتقريع اللاذع. ولكن ما هذا الذي أراه يقترب ملتصصاً؟ إذا لم أكن مخطئاً فهما اثنان. إن كان «هو» أحدهما فلن يبرح المكان حياً.

ويقرب الشبحان فإذا هما فاوست ومفيسو .. الأول يحمل إلى حبيبه سلة أخرى

من المجموعات .. والثاني يحمل قيثارة يغني على أنغامها. .. يحطم فالتين القيثارة. فينشب بين الثلاثة شجار وتحد ومبارزة تنتهي بأن يطعن فاوست فالتين فيقتله. ويسقط الجندي الشاب مضرباً بدمه. وشفاته تلعبان أخته التسعة، التي تخرج مع جيرانها على صوت الضجيج، بينما يلفظ شقيقها أنفاسه الأخيرة وهو يحشرج لها: «إني لأرى منذ الآن اليوم الذي يشيع فيه الناس بروجهم عنك كما يفرون من طاعون .. وأسمع أهات الندم التي سوف تفرقها حين تصيرين منبوذة شديدة في الطرقات. كيف ستحتملين نظرات المارة إليك؟ لن ترتدين صليبك الذهبي بفخر بعد الآن. لن يشرق وجهك الفاتن في أبرز مكان سن الكنيسة كما كان. وإنما حيث تعيش العاهرات ستمعيشن. وحيث تموت المتسولات ستموتن. فلئن كان الله غفوراً رحيماً فليس الإنسان بغفور ولا رحيماً».

وفي ليلة أول مايو، يأخذ الشيطان فاوست إلى قمة مرتفعات «بروكين» حيث تحتفل الآبالسة وجميع قوى الشر برقصة السبت فيشاهدان جميع شروخ الأفكار، والنظريات والأشخاص، والأشياء والزعات، والأفعال، ممثلة كلها ومختلطة في تلك الرقصة الجهنمية. وينسى فاوست مرجريت في غمار بحثه عن المتع الأخرى. وينضم إلى الأرواح الشريرة في عيدها فيصني إلى أغانيها ويلعب معها، ويراقصها. لكنه بعد أن ينصرف من عيد العريدة والتهتك والفجور، يعلم أن مفيسو يخفي عنه نأ: أن مرجريت قد وضعت طفلها، ثمرة خطيئتها مع فاوست. لكنها في نوبة ندم قتلت الطفل الوليد كي تخفي عارها، فاكشفت جريمتها. وحوكت. وحكم عليها بالموت. وهي الآن في زنازنتها بالسجن تنتظر مصيرها النعس.

ينهش الندم والشفقة قلب فاوست فيأمر مفيسو بأن يقوده إليها في السجن، ويعاونه على إنقاذها من الموت. وحين يصلان يسمعاها تنغي أغنية مجنونة. وتسمع هي صليل سلاسل الباب وهو يفتح، فتخفي وجهها في حشية فراشها صائحة:

أواه، لقد أتوا. أتوا ليقتلوني. ما أفظع الموت.

فاوست (هامساً): صه .. بل جئت لألقذك.

مرجريت (ترتمي عند قدميه): هل أنت إنسان؟ إذن فارحمني.

فاوست (هامساً): مرجريت! مرجريت!

مرجريت (تسرق السمع في انتباه): أين هو؟ أين؟ سمعت صوت حبيبي بعينه

(تهب واقفة) سأعانقه، سأتكى على صدره، لقد سمعته ينادي، إنه واقف على عتبة الباب.

فاوست: مرجريت.. ها أنذا!

مرجريت: أهو أنت؟ (نضمه إلى صدرها)

فاوست: مرجريت، تعالي معي.

مرجريت: بل أمكت معي برهة، لكم أحب أن أبقى معك. وهكذا - بمعونة الشيطان - يعرض فاوست على مرجريت أن ينقلها. لكنها - بمعونة الله - تفضل أن تبقى وتواجه عقوبتها.

ولا يكاد الشاب يخرج حتى يقبل الحراس فيسوقونها إلى حيث ينفذ فيها حكم الإعدام.

مفيستو: لقد هلكت المسكينة.

صوت من أعلى: بل لقد خلصت.

فإذا كان القسم الثاني من المسرحية وأينا فاوست يواصل بحثه عن سر السعادة، بعد أن جرب الملذات والمتع الحسية فلم يصل منها إلى مبتغاه: إلى المتعة القصوى. وإنه ليتوق إلى تجربة كل ما تنطوي عليه الحياة: «إلى تعريض صدره لكل الكروب ومعرفة جميع أفراح البشر وأحزانهم» بل أنه يريد أن يكذب ويعمل مثل سائر الناس، ويشاركهم نهايتهم حين تغرق سفينة الإنسانية.

وهكذا يجرب معه الشيطان نوعاً آخر من الإغراء. يستثير فيه شهوة الشهرة والسلطان. فيقدمه إلى إمبراطور ألمانيا، الذي يمينه مستشارا في البلاط الإمبراطوري، ويتيح المنصب الخطير لفاوست أن يحصل على المجد والثرف، دون السعادة، فيغريه تدمره من حياته الحاضرة بأن يسمي إلى استحضار أرواح فانتات الماضي، عن طريق استخدام فنون السحر. وهكذا يستحضر روح هيلين من أكفانها في طروادة ويحقنها بدم بشري حي ثم يحاول أن يعقد زواجه عليها. لكنه حين يعانقها يفاجأ باختفافها من بين أحضانها تاركة مطبقها بين ذراعيه.

وعلى هذا المنوال يتخبط فاوست من مغامرة إلى مغامرة دون أن يجد السعادة المنشودة، فكل محاولاته تنتهي إلى الفشل، أو إلى نجاح أجوف أمراً من الفشل. وحتى حين يربح لإمبراطوره معركة هامة يجد النصر أشد مرارة من الهزيمة.

ويقدم إليه الشيطان القصور الشامخة، والنساء الجميلات، والمدن الكبرى، والممالك الضخمة، والمجد الدائم، ولكنه يزهّد فيها كلها. فإن متع الشباب وتوفّر السن المتوسطة لم تتكشف له إلا عن سراب زائف. والآن تبدأ حياته في الإرباب وتذاهمه الكهولة بما تحمل في طياتها من ضعف في الجسد والروح. إن نيران ورغبات شبابه قد صارت إلى رماد وحطام، والوحدة الموحشة قد تربعت على عرش قلبه الخاوي وحياته العقيمة.

ثم تأتي ثالثة الأثافي حين يطفئ العمى نور عينيه، فيكف عن مطارده السعادة التي أنقذ حياته في السعي وراءها. ويدرك أخيراً عقم محاولاته، وسخف بحثه عن شيء ليس له في الواقع وجود.

ولكن هنا تحدث المعجزة. فإنه ففي اللحظة التي ينبذ فيها السعادة يجدها. فقد شرع في تنفيذ مشروع ضخم يرمي إلى ردم المستنقعات القريبة من البحر وإنشاء مساكن صالحة نظيفة مكانها، مجاناً لعمالين الناس، كي ينعموا بحريتهم عن طريق اكتسابها من جديد يعرق جيئهم وعملهم اليومي. وتملاً الفكرة نفس فاوست فرحاً وغبطة. إنها الهدف الذي اتفق حياته سعيّاً إليه، دون أن يشعر أن ينسى كل إنسان ذاته، ويعمل من أجل الآخرين مثلما يعملون لأنفسهم، تلك هي ذروة السعادة البشرية، واللحظة الذهبية التي يستطيع فاوست أن يتمنى بقاءها إلى الأبد، لحظة المتعة القصوى.

أما وقد بلغ فاوست حلم حياته فإن حياته تبلغ نهايتها. وقد ربح الشيطان الرهان، فيما يبدو.. فهو يطلب روح فاوست ثمناً لانتصاره، لكن الملائكة تنكر عليه زعمه فتعيط وسط طوفان من الأزهار وتحمل روح فاوست إلى السماء، إلى الفردوس، فثمن كان فاوست قد ضل أبشع ضلال إلا أنه خلال جميع مراحل ضلاله كان يتوق ويهفو بوحي من غريزته.. إلى الثور.

وفي الفردوس، كانت أول روح تستقبل وتحيي روح فاوست هي روح مرجريت، التي أخطأت وماتت شريكة له في خطيئته، لكن الله قد غفر لها. فإنه غفور رحيم.

أما رسالة مرجريت الآن فهي أن ترشد فاوست إلى الطريق. فلطالما كانت المرأة رائدة الرجل في طريق الخلاص ومنقذته الخالدة.



الأساطير الإسبانية



الساحر وابنته

حدث هذا في قرطبة. فعندما تبدأ شمس النهار في الاختفاء وراء الأفق الغربي، مرسلّة أشعة ضعيفة خافتة لا تكاد تبين، كان هناك عملاق ضخّم غريب، في عباءة رمادية، ينحدر في الطريق إلى الفندق، وكأنه يعرف الطريق كواحد من أهل تلك المدينة.

وعجب «دون لويس» - أكبر مقامر عرفته أسبانيا - حين فوجئ بذلك الغريب المجهول، القادم من حيث لا يدري أحد، يتجه صوبه، ثم يشاركه مائدته من غير دعوة أو استئذان، وكأنهما صديقان حميمان، وازداد عجبه عندما أخرج ذلك الغريب من بين طيات ملابسه أوراق اللعب، وثروة هائلة من الذهب والفضة واللازورد.

وأسال الذهب لعاب «دون لويس» إلا أنه قال للغريب: أنا لا ألعب إلا بورق يقدمه الفندق. ولم يعترض الرجل، وأعاد أوراقه إلى جيبه في هدوء، واستعد للمباراة.

وكانت مباراة من جانب واحد: القادم الغريب يربح دائماً، والمقامر الشهير يخسر باستمرار وتشعل الخسارة المستمرة رغبته في الثأر، وإصراره عليه. فيمضي بالخسارة دائماً، وأمواله تنهاوى قطعة قطعة لتتضم إلى رصيد الرجل القادم من حيث لا يدري أحد.

واستغرق اللعب الليل كله. ومع اتبلاج الصباح كان «دون لويس» قد خسر كل شيء: أمواله، وسيفه، وحصانه. . ولم يعد لديه ما يقامر به، ومع هذا، صرخ بالغريب عندما رآه يتقشّ يديه استعداداً للقيام:

- أيها الغريب. . إنني لم أنهزم بعد ولا تزال لدي «روحي» أقامر بها.

وعادت المباراة. وخسر «دون لويس».

ونهب الرجل من مكانه مودعاً. وأفاق المقامر الشهير إلى نفسه حين رأى صاحبه يربح المكان، فجثا أمامه هاتفاً:

- أيها السيد الغريب. أنا لا أملك أن أمنعك، ولا أملك أن أطالبك برد شيء مما ربحته. كل شيء أصبح ملكك: مالي، وسيفي، وحصاني.. ولكنني أتوسل إليك أن ترد لي روحي.. روحي فقط أيها السيد الغريب.

وجذب الغريب طرف رداة، وهز رأسه قائلاً:

- إن «مركز الشمس» لا يرد أبداً شيئاً أصبح من حقه. ومع ذلك فسوف أعيد لك روحك عندما تبلي هذا الحذاء.

ثم ألقى إلى الفتى بحذاء غريب الشكل مصنوع من الحديد، ثم اختفى فجأة كأنما ابتلعه الأرض.

قضى «دون لويس» أياماً، لم يذق خلالها طعم الراحة ولا الاستقرار. واضطربت حياته، واسودت الدنيا في عينيه. حتى غذا لا يدرك من أمر نفسه شيئاً. وكيف يحس طعم الحياة أو يدرك معناها؟ وهو يعيش على الأرض، شبحاً بلا ظل، وجسداً بلا روح.

إذن.. قالى هذا الحذاء الحديدي الملعون. ووضع «دون لويس» الحذاء في قدميه، وانطلق سائراً على غير هدى إلى حيث لا يدري، وكل همهم أن يفتي الحذاء ليصل إلى المكان الذي يجد فيه مركز الشمس، فيسترد منه الروح التي سلبها بالرغم منه.

وظل الفتى سائراً على قدميه سيراً لم يسره أحد من قبل - من قرطبة إلى برشلونة، ومن مرسية إلى ستياجو - والحذاء الحديدي لا يتأثر بطول السير، والمركز المجهول لا يظهر له أثر. والأمل بين هذا وذاك ضائع منهار، لا يبدو منه إلا سراب خادع.

وبلغ الفتى ذات مساء، بلدة صغيرة مجهولة، ورأى أناساً مجتمعين في صحب وضجيج أمام فندق صغير. يكادون في ثورتهم، أن يحطموا كل شيء. واقترب الفتى من صاحب الفندق، يستفسره الأمر. فعلم منه أن أحد التزلاء قد مات فجأة وهو مدين له بأجر ثمانية أيام. ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان هيناً. ولكن الرجل كان مديناً أيضاً لعدد كبير من التجار، وعندما علموا بموته، وفدوا إلى الفندق يطالبون صاحبه بديونهم، ويتهمونهم بإخفاء متاع الميت، برغم أنه أخرج أمامهم كل ما خلفه الرجل من ملابس، لا تساوي أكثر من ثلاثة ريالات. ولا شيء آخر.

وأخذ صاحب الفندق يبيكي ويصيح:

- أيها الناس.. لست غنياً حتى أدفع ما على الرجل من ديون، ولست مسؤولاً عن موته حتى أدفع نفقات دفنه. ماذا أفعل بجثته يا رب؟ هل أتركها للدلائن يمزقونها، ويأخذ كل منهم قطعة فتهم روحه حائرة لا تستقر في مكان؟ ماذا أفعل. ما الذي أستطيع أن أفعله؟

وأخرج «دون لويس» كيس نقوده في صمت، وقدمه لصاحب الفندق قائلاً:

- خذ.. مدد ديون الميت، وما يتبقى انفق منه على جنازته، حتى يرقد هائناً مطمئناً، وتستقر روحه فلا تشترد ولا تهيم.

ومد الرجل يده وتناول الكيس في لهفة، وتمتم بعبارات العرفان قائلاً:

- ليباركك الله يا سيدي. وكن على يقين أن الله لا يضيع أجر المحسنين، وسيجزيك على عملك خير الجزاء.

واستأنف «دون لويس» سيره من جديد، ولم تمض ساعة أو بعض ساعة حتى فوجئ بأن إحدى نعليه قد تآكلت. وارتاح لذلك راحة كبيرة، وأندفع مواصلاً سيره. فلما جن عليه الليل، سمع وقع حوافر جواد آت من خلفه، وملفت بعناية طويلة سوداء. واقترب الفارس منه، وترجل عن جواده وحيّاه في صوت عميق كأنه آت من عالم آخر، وقال له:

- أنا أيها الفتى روح الميت الذي سددت عنه دينه ونفقات جنازته، وأطلقت بذلك روحه من عقاب الأسر، وأصبح لزاماً علي أن أكافئك على الصنيع الذي قدمت فلتستمر في سيرك حتى تصل إلى النهر، وأجلس هناك ساكناً على الضفة تحت شجرة الصفصاف، فإن طيوراً ثلاثة سيهبط هناك، ثم تخلع ريشها وتتحول إلى ثلاث فتيات رائعات الجمال، ينزلن إلى النهر للاستحمام.. عندما يحدث هذا، أسرع بالاستيلاء على ريش أحدهن ولا ترده إليهما إلا إذا منحتك ما تريد.

واختفى الفارس في غمرة الظلام، ومضى «دون لويس» إلى النهر لينفذ نصيحته، واستلقى تحت شجرة الصفصاف، وراح في سبات عميق.

واستيقظ من نومه على أشعة الشمس الذهبية تدغدغ عينيه، وتلفت حوله في سكون

فأبصر أمامه ثلاثة طيور بيض تخلع عنها ريشها وتقلب إلى حسناوات، ورائعات الجمال. رحن يتسابقن إلى الماء، ويرتمين بين أحضانها.

وتسلل الفتى في خفة، واختطف أقرب الأردية إليه، فانتبهت الفتيات، وأمرعن إلى الضيقة، وارتدت اثنتان منهن ريشها، وتحولتا إلى طائرين رفرفا بأجنحتهما في فزع، وطارا بعيدا في الجو، وهما ينظران إلى شقيقتهما الصغرى التي حاولت أن تستر من الغرب، وأخذت تتوسل إليه أن يرد لها ريشها، وهو يأبى. ولم تنتظر الفتاتان فانطلقتا في السماء.

وأخذت الفتاة الصغيرة تستدر عطف الفتى، قائلة: أنها بدون هذا الرداء لا تستطيع العودة إلى قصر أبيها. ولكن «دون لويس» لم يعر توسلاتها اهتماماً، وقال لها: - لن أعيد إليك الريش إلا إذا أخبرتي أين أجد «مركز الشمس».

فشهقت الفتاة فزعاً، وقالت:

- لن تستطيع أن تجده. وأنا لا أستطيع أن أشي بمكانه لمخلوق.

فhez الفتى كتفيه وقال:

- إذن لن أعيد إليك الرداء.

وعادت الفتاة إلى توسلاتها، وانهمرت على خديها العبرات. إلا أن الفتى لم يلب قلبه، فقد كان حريصاً على ألا تضيق منه فرصة استرداد روحه الشاردة.

وقالت الفتاة بعد حين:

- إن «مركز الشمس» أبي، وهو ساحر قوي يعرف كل شيء. وقد أقسمنا على ألا نخونه أو نشي بمكانه.

فقال «دون لويس»:

- لن تخشي في يمينك يا صغيرتي. يخفي أن تطيري قريبة مني على مهل، في طريقك إلى قصره، دون أن تخبريني عن مكانه، وسأبتعك بمفردتي. وهكذا أعرف أنا المكان، وبترين أنت بقسمك!

واقترنت الفتاة، وقبلت رأي الفتى. ومد إليها الفتى يده بريشها فتناوله وارتدته، وحلقت في السماء، وراحت تطير في بطنه وهو يتبعها سائراً على الأرض، وظلا على

هذه الحال يوماً كاملاً، إلى أن بلغا قصرأ شاهقاً، يحوطه سور ضخيم قائم على سفح جبل كبير. . ورُفرف الطائر بجناحيه ليلدله على مكان الباب، ثم اختفى. وظل الفتى سائراً حتى بلغ مدخل القصر. فولج، واندفع إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المكان، ووقف في وسطها حائراً لا يدري ماذا يفعل.

ودوى في سمع الفتى الذي تسمر في مكانه، صوت كالرعد يسأله في غضب:

- كيف بلغت هذا المكان أيها الدخيل؟

واستدار الفتى في بطنه ورهبة إلى مصدر الصوت، فرأى المركز جالساً على عرش ضخم من ذهب. تأمله طويلاً، ثم أجاب:

- لقد سرت في طريقي مستعملاً الحذاء الحديدي الذي أعطيتني إياه. ولما تأكل وجدتي قد بلغت هذا المكان. فدخلته، وهكذا وجدت.ك. وإني أطلب إليك أن تعفي بوعدك وترد لي روحي.

فأجاب الساحر: سأردها إليك غداً. أما اليوم، فاسترح من عناء السير الطويل.

وفي الصباح عاد «دون لويس» يطالب بروحه، فماطله المركز قائلاً:

- لن أعطيك روحك قبل أن تهدم هذا الجبل الذي يحجب النور عن قصري.

وخرج الفتى من القصر، واطل أمامه إلى الجبل في يأس. إن ألف عملاق لا يمكنهم أن يهدموه في أقل من ألف عام! ليس أمامه أذن إلا أن يعود من حيث جاء.

وارتمى الفتى على الأرض في يأس مرير. وفجأة أحس بلسعة نملة على ساقه. وعندما مد أصابعه لیسفحها، سمعها تقول:

- لا تقتلني يا «دون لويس». . إنني «بلانكفلور» ابنة مركز الشمس التي فاندتك إلى هذا المكان أساعدك مرة أخرى فلا تيأس. وما عليك إلا أن تنام حتى الصباح.

واطمأن «دون لويس» فنام. ولما أصبح الصباح، واستيقظ من نومه. أطل أمامه فلم يجد للجبل أثراً! كان قد اختفى وكأنه لم يكن!

وانطلق الفتى إلى داخل القصر، حيث جلس المركز. وقال له:

- ها أنت ترى أنني قد نفذت أوامرك، وأنزلت الجبل من مكانه. فنفذ الآن وعدك،

وامنحني روحي.

ولكن المركز قال له:

- لا أعرف كيف استطعت أن تقوم بهذا العمل، ولكني مع ذلك لن أعطيك روحك حتى تترك الحبوب التي تملأ هذا الكيس كلها، وتأتيني بشمارها لأكلها ساعة الإفطار فهتفت الفتى بسخط:

- ولكنك قلت لي أنك سترد روحي إذا أزلت هذا الجبل. ولقد فعلت، فلماذا لا ترد لي روحي على الفور؟

وهز الساحر كتفيه كأنه لم يسمع شيئاً. وخرج الفتى يائساً مرة أخرى. وكان يحمل كيس البذور فوق كتفيه ويعجب: كيف يتسنى له أن يلد تلك البذور كلها في الحقل، ويسقيها، ويجعلها تنبت، وتورق، وتثمر. ثم يقطف ثمارها ويأتيه بها قبل موعد الإفطار؟.

والتقى الفتى بالكيس على الأرض، وارتدى فوقه ينذب حظه السيئ. وفجأة، سمع طائراً يغرد ويناديه باسمه:

- يا «دون لويس».. إنني «بلانكفلور» التي ساعدتك مرتين، سأمد لك يد المساعدة للمرة الثالثة، وليس عليك إلا أن تهدأ وتنام.

وعندما استيقظ «دون لويس» قيل موعد الإفطار، وجد نفسه غارقاً في حقل مليء بالأشجار المثمرة، تتدلى من فروعها جميع أنواع الفاكهة، من خوخ وبرتقال وعنب ورومان. وأخذ الفتى في فرح غامر يقطف الثمار، وانطلق بها إلى المركز ووضعها بين يديه، وصاح:

- الآن.. أعطني روحي.

فتناول الساحر فتاحة قضمها في لذة، وقال:

- غداً.. بعد أن تحضر لي خاتمي الذهبي الذي سقط مني في قاع النهر!

وانفجر «دون لويس» صائحاً صاخباً. ولكن المركز أصر على ألا يعطيه روحه إلا بعد أن ينشد ما يريد واندفع الفتى إلى الخارج حتى بلغ ضفة النهر، واطل إلى قاعه العميق، ثم انكأ باكياً متحجباً.

ولمح الفتى على وجه الماء سمكة فضية صغيرة تقترب منه، وسمعتها تقول:

- لا تيك يا «دون لويس».. إن «بلانكفلور» لن تترك. ولكنك لن تنام هذه المرة، بل عليك أن تلتقطني الآن، وتقطعتني إرباً إرباً، وتلقي بدمي في النهر. فإذا ما أزيد الماء، مد يدك تجده الخاتم فوق الزبد، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تبحث عن أجزائي الممزقة من جديد، وتلتصق بعضها ببعض. واحذر أن تنسى مني قطعة واحدة ولو كانت صغيرة.

ونفذ الفتى ما طلبته «بلانكفلور» فمزقها أربعين قطعة، تدفق الدم منها إلى الماء فأرغى وأزبد. ومد الفتى يده إلى الزبد، فإذا الخاتم بين أصابعه. فأخذه ثم جمع أجزاء السمكة فأعادها إلى حالتها الأولى. وعندما انتهى من الصاق آخر جزء، هتفت به أسفة:

- لقد نسيت جزءاً من خنصر يدي اليسرى، وسأعيش دائماً بخنصر قصير.

واندفعت السمكة، واختفت في الماء.

وانطلق الفتى إلى القصر، ووقف أمام مركز الشمس وفي يده الخاتم، وقال له:

- لن أعطيك الخاتم قبل أن تسلمني روحي الآن.

فقال المركز:

- سأرده لك الآن، وقد أعددت لك جواداً من أحسن جيايدي ليحملك إلى بلدتك. انذهب إلى فناء القصر، تجده هناك مسرجاً على أتم الاستعداد.

وفرح «دون لويس» وسلمه الخاتم، وأسرع إلى الفناء ليشهد الجواد. وبينما هو في طريقه إليه، اقترب منه فأر أشهب، وهتف فيه:

- أن «بلانكفلور» توسل إليك ألا تصدقه.. إنه يريد أن يغدر بك. فالجواد ليس سوى المركز نفسه، يريد أن يحملك حتى تطمئن إليه، ثم يلقي بك إلى الأرض، ويطأك بحوافره. ولكنك ستنتصر عليه إذا أخذت المهماز والسوط المعلقين على الحائط. وعليك أن تستعملهما في قسوة بالغة، حتى يصرخ طالباً منك الرحمة والغفران.

وشكر الفتى الفأر الأشهب الذي لم يكن سوى «بلانكفلور» نفسها. ومد يده إلى الحائط فانتزع المهماز والسوط، وأمسك بعنان الجواد، ووثب فوق ظهره. وانطلق الجواد في سرعة هائلة، وراح يقفز قفزات جبارة فيرتفع إلى السماء فجأة ثم يهبط إلى الأرض هبوطاً مروعاً. إلا أن «دون لويس» أمسك بالعنان جيداً، وراح يضرب الجواد بالسوط في قسوة، وليكزه في جنبه بغلاظة صرخ لها مستعظفاً:

— كفى، كفى أيها الفتى. إنني «مركز الشمس».

فهوى الشاب بالسوط على وجهه في قسوة وقال:

— ردّ لي روعي الآن أيها الخائن، وإلا قضيت عليك

فأجاب المركز في ذلة وتوسل:

— ستكون روحك لك. أطلق سراحني.

وترجل الفتى، وانتفض الجواد فصار بشراً سوياً. هو مركز الشمس نفسه. وأخذ بيد الفتى إلى غرفة مظلمة قد اكتظت بزجاجات احتفظ فيها الساحر بأرواح ضحاياه، وتناول زجاجة منها سلمها للفتى فارتدت إليه روحه.

وغمرت الفرحة قلب «دون لويس»، ويذا كمن يهفو إلى من يشاركه فرحته، وأخذ يجول في الحديقة باحثاً عن «بلانكفلور» التي صنعت له هذا النجاح كله.

ولما يس من العثور عليها، استلقى إلى جوار شجرة ورد، وقطف منها وردة. وما كاد يفعل حتى سمعها تهمس إليه:

— عمن تبحث بين الأخوات الثلاث يا «دون لويس»؟

إنني أبحث عمن مدت لي يد العون منذ أول يوم.

فقال له الوردة:

— أصح إليّ أذاً. إن الغيرة تمزق قلبي شقيقتي. فعليك أن تتجنب فتاتك، وتتحاشى إثارة الريبة في نفس المركز بأن تختار واحدة منا دون أن ترانا.

فقال دون لويس:

— وكيف أستطيع اختيار من أحب؟

فأجابه الوردة:

— تذكر أن «بلانكفلور» فقدت عقله من خصرها بسبب خطئك.

وانطلق الفتى في فوره إلى المركز، وباده بقلبه:

— أنا عائد فوراً إلى بلدي، ولكني أشعر بحاجتي إلى رفيق في سفري. فهلا زوجتني إحدى بناتك، فتكون رفيقتي في العودة؟

وأرتاب المركز، وأجابه في شك:

— أية واحدة منهن تريد؟

قال الدون:

— أنا لا أعرفهن، ولا أستطيع أن أميز بينهن. ولا مانع لدي، تجنباً لإثارة الغيرة بينهن، أن تقف بناتك وراء ستار ويخرجن من فتحاته أيديهن، فأمسك أنا بيد من اختارها عروساً لي دون أن أرى وجه واحدة منهن.

ووجده الساحر حلاً موقفاً. فأمر بناته الثلاث بالوقوف من وراء ستار، وأن يخرجن أيديهن من فتحاته. وسرعان ما ميز «دون لويس» يد عروسه ذات الخنصر القصير.

وئارت الشقيقتان، وانطلقتا إلى أبيهما تقصان عليه كيف ساعدت «بلانكفلور» ذلك الفتى الذي سرق رداءها الريشي فوق الشاطئ، وكيف خرجت على طاعة أبيها وخاتنه.

وكانت «بلانكفلور» تقف غير بعيد، فسمعت وشاية أختها، وعرفت أنه لم يعد أمامها من سبيل إلا الهرب في سرعة مع الفتى الذي اختاره قلبها، وانطلقت الفتاة إلى «دون لويس» صائحة:

— أسرع الآن قبل أن يتزل بنا أبي عقابه ونقمته. . أذهب إلى الإسطنبول، وامتنط الحصان الأبيض المربوط هناك وعندما تمر به من الباب مد يدك لثلاثيني فساكون في انتظارك هناك.

وفى الإسطنبول، وجد «دون لويس» الحصان الأبيض هزلاً لا يكاد يقدر على العدو، فأشفق عليه، واختار جواداً آخر تد عليه معالم القوة، وانطلق به إلى باب القصر. فعندما رآته بلانكفلور صرخت قائلة:

— لماذا اخترت هذا الجواد الأسود أيها التمس؟ ألم أنصحك بأن تختار الحصان الأبيض؟ إنه مسحور يجري أسرع من الضوء. ومع هذا ليس أمامنا مفر الآن، لأن الوقت قد فات. هيا بنا، فلا تزال أمامنا بضع ساعات لكي نهرب. لقد تركت أحد أردتي المسحورة في حجرتي، وستتوَّى الإجابة عني إذا ناداني أبي.

وامتنط «بلانكفلور» الجواد وراء «دون لويس» وقد أمسكت في يدها اليمنى صندوقاً مملوءاً ذهباً وجواهر، وبالياد الأخرى رداءها الريشي الأبيض.

وسمع الساحر صَوْت انطلاق الحصان، ولم يتبادر إلى ذهنه قط أن ابنته فرت مع الفتى. ولكي يقطع الشك باليقين، ذهب إلى حجرة ابنته ونادى عليها، فأجابته بأنها موجودة، فهذا باله، وعاد إلى مكانه.

إلا أن غير الشقيقتين أثارت شكهما في الأمر، فأخذتا تتاديان على أختهما بصوت مرتفع. وكان الرداء يجب عليهما في كل مرة. إلا أنه عجز عن فتح الباب عندما طلبتا منه فتحة، وتأكد لهما أن أختهما غير موجودة. وذهبت إحدهما فأحضرت بعض المفاتيح عالجت بها الباب حتى انفتح. فاندفعت الشقيقتان إلى الداخل فوجدتا الحجرة خالية إلا من الرداء الذي كان يجب.

وجن جنون الساحر، وأسرع إلى الإمطيل، حيث امتطى الفرس الأبيض، وانطلق به خلف العاشقين الهارين.

وانتهت «بلانكفلور» إلى صوت الجواد الأبيض من خلفهما، وأطلت فإذا عاصفة من الغبار تظهر غير بعيدة فصرخت في خطيئها:

— أسرع يا «دون لويس». إن أبي يكاد يلحق بنا.

ولكن الفتى لكز الحصان بمهمازه. إلا أن الساحر كان قد أصبح على بعد خطوات منهما، ومدت «بلانكفلور» يدها إلى شعرها، فانتزعت مشطاً وألقت به بسرعة وراءها قائلة:

وصار المشط جيلاً عالياً يفصل بينهما وبين الساحر، واستمر العاشقان في اندفاعهما. ولكن الساحر كان قد اجتاز الجبل في لحظات، وأوشك أن يلحق بهما من جديد.

وانفتحت الفتاة إلى الخلف وألقت بمندليها وهي تقول:

— كن ضباباً، واسترنا عن عيني أبي!

وانتشرت غمامة كبيرة من السحب فصلت بين الساحر والعاشقين، ولكن الرياح سرعان ما بددتها، وانكشف الهارين للساحر الذي استشاط غضباً وثورة، فاندفع بالجواد فكان منهما على بعد خطوات.

وتعثر الجواد الأسود بالهارين، ووقع على الأرض، ولم يجدا من الوقت ما يكتفيهما لإنهائهما على قوائمه المرتعشة المنهكة، فتمتعت الفتاة بضحك كلمات، فإذا

الحصان قد تحول إلى شجرة جوز، وإذا بهما يتحولان إلى ثمرتين تتدليان إلى جوار باقي الثمر. ومر الساحر بالشجرة فلم يعرفها، وفوجئ باخفاء ابنته وصاحبها، ومضى يذرع المكان، ويتطلع في كل الأنحاء، إلى أن أدرك أنه فقد أثرهما تماماً. ولما يس من العثور على أي أثر لهما، كَرَّ عائداً أدرجه.

وترث الفتى والفتاة حتى اطمانا إلى ابتعاد الساحر تماماً، فدخلتا في كوخ قائم بجانب الطريق ليأخذتا قسطاً من الراحة بعد هذا الجهد الشاق. وعندما استردا أنفاسهما قاما فاستأنفا رحلتها الشاقة إلى قرطبة.

وانتبه الساحر المائد إلى وقع حوافر حصانه الأسود تظهر مرة ثانية، فاستدار بسرعة إلى الطريق الذي أقبل منه، واندفع متبعاً صدى الصوت، وفي لحظات كان قد قطع المسافة الفاصلة بينهما، وأصبح منهما على بعد خطوات. وكان اقترابه منهما مفاجأة لم تتمكن الفتاة معها من استخدام سحرها. فيكت. وإذا بدموعها تتحول إلى نهر أخذ يتسع، ويرغى ويزيد، ففصل بينهما وبين الساحر، الذي ارتد إلى الخلف مذعوراً مسرعاً قبل أن يغرقه الطوفان!

وغضب الساحر عندما وجد ابنته تكاد تغرقه، فصرخ فيها:

— لقد أَكَلَتْني مني يا لعينة. إلا أن القوة التي منحتك إياها ستصبح منذ الآن خواء، وستعودين منذ هذه اللحظة امرأة عادية كغيرك من النساء. أما الرجل الذي فضله على أهلك، فسوف ينسأك في أول عناق لأول شخص يلتقه!

وهتفت «بلانكفلور» في خطيئها «دون لويس»:

— دون لويس... دون لويس... هل ستساني كما تنبأ أبي برغم أنني تبعتك بعد أن تخليت عن أبي، وشقيقتي، وسحري، وقواي؟

وكان جواب الفتى قبلة طويلة ساخنة على شفيتها أغنتها عن الكلام.

واستأنفا السير...

أقرب الحبيبان من قرطبة، وعجز الجواد عن مواصلة السير، فاضطر «دون لويس» أن يأخذ فتاته إلى حديقة زيتون صغيرة، وطلب منها أن تسريح ريشها يبحث عن حصان آخر يستبدله بالحصان المنهك الذي عجز عن مواصلة السير إلى قرطبة.

وانطلق الفتى في طريقه، وخلفه الحصان الأسود، حتى بلغ المدينة. ولم يكد يتجه إلى فندق صغير يؤجر الخيل، حتى فوجئ بعجوز تحففته وتماثفه، وهي تهتف في فرح - «دون لويس»... «دون لويس»

وكانت العجوز هي مريته القديمة، وكان لابد أن يقبلها ويعانقها. وفي تلك اللحظة تحققت نبوءة الساحر، ففقد «دون لويس» ذاكرته، وانسدل عليها ستار كيف من النسيان، فصل بين حاضره وماضيه، وقطع كل صلة تربط بينهما. فما عاد يذكر شيئاً على الإطلاق عن خطيته وحبيبه «بلانكفلور».

واستقبلت المدينة من جديد «دون لويس».. أكبر مقامر في أسبانيا. وعاد هو إلى حياته السابقة بعد أن ورث ثروة ضخمة تركها له عمه خلال غيبته، وعاش كما كان يعيش من قبل. عيشة الشاب الثري المغامر، الغارق حتى أذنيه في القمار المجنون.

و ذات يوم.. دخل «دون لويس» إسطنبول الصغير في قصره الكبير، واصطدمت قدمه بصندوق صغير في إحدى زواياه، وتأمل الصندوق طويلاً، فإذا برأسه يدور.

لقد تذكر أنه كان قد ألقى بهذا الصندوق الصغير في زاوية الإسطنبول يوم وصوله إلى قرطبة ومعه حصانه المتعب المنهوك. ولكن، ماذا يضم الصندوق؟. هذا ما لم يستطيع تذكره أبداً.

وانحنى «دون لويس»، والتقط الصندوق. وعندما فتحه، ارتفع في الجو نسيم رائع من الريش الأبيض. ريش خفيف ناعم مثل الحرير.

حاول أن يتذكر أين رأى هذا الريش، فأصيب بدوار شديد، واثابته إغماءة، لم يكد ينهض منها حتى استعادت ذاكرته صورة «بلانكفلور»!

وكاد الأسى يقتله، وانطلق يصرخ في كل مكان، ويصيح مردداً اسمها في نشيج مؤلم:

- بلانكفلور... بلانكفلور... أين أنت أيها الحبيبة الغالية؟ لتتصب على رأسي لعنات هذا العالم كله.. كيف نسيك يا بلانكفلور؟.

وهرعت إليه مريته العجوز، ولكنها لم تستطع أن تفهم شيئاً. إنه يعدو هنا وهناك ويصيح في ثورة، ويبدو هاتجاً كالمجنون.

وأقبل المساء، وهذا «دون لويس» قليلاً. واستطاعت العجوز أن تستدرجه حتى نهمت كل شيء، فهذأت من روعه قائلة:

- اهبط يا «دون لويس» فستجد فتاتك الحلوة الطيبة.. لا تغضب لأنك عانقت عجوزاً مثلي، فإن هذه العجوز هي التي سترد إليك فتاتك!.

وسكت الفتى. واستطردت العجوز قائلة:

- أعطني الآن ريالين لأشتري بهما شموعاً للقديس أنطونيو، وأذهب أنت إلى القصر القديم القابع في طريق الملائكة، واسأل هناك عن الأم ماريوزا. أنها امرأة من النجر سكنت ذلك المكان منذ بضعة شهور، وقدمت حتى الآن ستا وثلاثين معجزة للأهالي.. فلعلها تفيدك، ولعلها - ببركة القديس أنطونيو - تقدم لك المعجزة السابعة والثلاثين.

وعادو الأمل «دون لويس» فانطلق إلى طريق الملائكة، يسأل في لهفة عن الأم ماريوزا.. وقادروا إلى حجرة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة لم يكد يرى فيها شيئاً عندما وليج بابها الصغير.

وفوجئ «دون لويس» بصوت يسأله:

- عم تبحث أيها الشاب؟

فأجاب وهو يفرك عينيه محاولاً أن يخترق حجب الظلمة:

- أبحث عن فتاة فقدتها

قال الصوت:

- هل ترغب كثيراً في رؤيتها؟!

أجاب «دون لويس»:

- إنني أهب حياتي كلها من أجلها.

قال الصوت:

- ولماذا أذاً تخليت عنها؟!

فأجاب «دون لويس»:

- إن لعنات أييها حلت علينا فافقدتني الذاكرة، فنسيتها.

وفوجئ «دون لويس» بالأم ماريوزا تعانقه في لهفة ووجد. وكانت هي حبيبت «بلانكفلور» نفسها!

وحمل الفتى خطيئته - ابنة مركز الشمس - طوال الطريق إلى قصره. أما هي فمما شعرت بالأسف قط على حياتها القديمة. وأما رداؤها الريشي الأبيض، فقد صار بعد ذلك غطاء لسرير أول أبناءها من دون لويس!

الأساطير البابلية



جلجاميش

كان جلجاميش - حاكم أوروك - طاغية في الأرض، سعيداً بقامته الممتدة
العلاقة، وجسمه الضخم، وجماله الباهر الذي يفتن الناس..

وكان ثلاثة إلهاء وثلاثة الآخر آدمياً. فهو من نسل شمس نيشتين، المخلوق الخالد
الوحيد الذي نجا من الطوفان. ولم يكن أحد يشبهه بصورته، وإطلاعه على أسرار
الغيب، ورؤيته جميع الأشياء ولو كانت في أطراف العالم المجهول.

وكان في قلبه شوق ظامئ إلى الحب. وبسبب مغامراته لإطفاء ظمأه الدؤوب، راح
الآباء والأزواج يشكون كل يوم لربة الحب والجمال «إيشتار»، محاولة جلجاميش
التعرض للزوجات والعذارى، ويطلبون منها حمايتهم وحماية زوجاتهم وعذاراهم.

واستجابت إيشتار لتوسلات المخلوق. وذهبت إلى الآلهة أرورو - عرابة جلجاميش -
تزوجها أن تخلق ابناً آخر في قوة جلجاميش وجبروته، يكون قادراً على أن يشغله في نزاع
طويل، حتى يستريح بال الأزواج والآباء في كل أنحاء أوروك.

وقبلت أرورو رجاء إيشتار، فعمجت قطعاً من الطين نفخت فيها ثم صورت
«أنجيدو».

فجاء رجلاً له قوة الخنزير، ولبدة الأسد وبأس الطير، يغطي جسده شعر كثيف
وفوق كتفيه شعر طويل كامراً.. ذهبي كشعر إله القمح.

ولم يكن أنجيدو منذ خلق ليعباً بصحبة أبناء البشر، بل اعتزلهم وابتعد منهم.. ثم
عاش مع حيوانات الغاب، يرعى العشب مع الظباء، ويلعب مع مخلوقات البحر، ويروي
ظمأه مع وحوش الحقول..

و ذات يوم أراد صياد يدعى تسايو اقتناصه بالشباك، غير أنه عجز عن ذلك، وكرر الصياد محاولته يوماً آخر، ولكن أنجيدو كان بارعاً دائماً في الإفلات منه و ملا العتظ قلب الصياد. و انطلق إلى الحاكم جلباميش يشرح له الأمر. و يقول له: إن أنجيدو لم يقع في الشباك المصنوعة قط. ولكن شباكاً أخرى تستطيع وحدها أن تفتنسه. . هي شباك النساء.

و أجاب جلباميش:

– وما الذي تريد مني؟ المرأة أم الشباك؟

قال له الصياد:

– إن أنجيدو يدعي أنه أعظم منك قوة، وأنا أريد أن أحضره هنا أمامك لثبث له أن قوته هي الضعف نفسه بجوار قوتك. . ولهذا فانا أتوسل إليك أن تعيرني كاهنة حسنة تستطيع إيقاع أنجيدو في شباك غرامها. . لتقوده إليك

وقال جلباميش:

– إذهب اذن أيها الصياد وخذ معك الكاهنة «أخوتي». وعندما تحضر الوحوش ومعها أنجيدو إلى مورد الماء تستقي، فاجعلها تكشف عن وجهها وساقها. . واختف أنت. وسيتم بعد ذلك كل ما تريد.

و انطلق الصياد والكاهنة «أخوتي» إلى حيث يستقي أنجيدو مع صحبه من الوحوش.

وعندما جاء الوحش الآدمي، مدت الكاهنة الحلوة يدها، وراحت تخلع أرديتها واحداً بعد آخر. ثم وقفت أمامه عارية، في جسدها رعشات ظامئات.

و أدار أنجيدو رأسه ناحية الحسنة وتوقف. . ثم بدأ يختلس إليها النظر في شوق ولهفة واشتعل في أعماقه لهيب النار. .

وحث الصياد من مخبئه الكاهنة أخوتي على أن تقترب من أنجيدو، وتمنحه كل ما ينسبه نفسه. . وأصدقاه وغابه.

وبقي أنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال. . يعب فيها السعادة. حتى إذا جاءه الملل وانتبه إلى نفسه، أطل فإذا كل حيوانات الغابة من أصدقائه قد انقضوا من حوله وتركوه.

وملا الحزن قلب أنجيدو. غير أن الكاهنة راحت تهزه وتقول:

– أنت يا من بلغت عظمة الآلهة. كيف يطيب لك العيش بين وحوش الغابة وتسائها. تعال معي نطلق إلى مملكة أوروك حيث يعيش جلباميش الذي لا يذانيه أحد في جبروته. تعال معي أفودك إلى القصر الرائع الذي يعيش فيه الإله أونو والإلهة إيشتار بمنحانك سر القوة وسر العفوان.

ووجد أنجيدو العرض مغرياً. وبدأ يتوق إلى لقاء جلباميش فأعلن موافقته على اتباع المرأة إلى مدينة أوروك. وقال لها:

– تعالي بنا إلى حيث أرى المكان الذي يعيش فيه جلباميش. أقاتله وأهزمه وأظهر له قوتي وعفواني.

وسار الثلاثة في طريقهم إلى أوروك. أخوتي وأنجيدو والصياد.

في ذلك الوقت كانت أوروك تحتفل بعيد «إيشتار» والناس يصخبون ويضجون ويشربون عندما بلغهم نبأ وصول أنجيدو، منافس جلباميش.

وزاد رقص الناس، وابتهاج الآلهة. فقد سرهم أن يهزم جلباميش. سارق الزوجات والعذارى، وأن يهبط عن العرش الذي دنسه.

والحق يُقال: كان لأنجيدو من القوة ما يستطيع أن يهزم بها جلباميش. غير أن شيئاً آخر كان قد جد في الأمر. فقد كانت إيشتار قد رأت جلباميش فأعجبتها. وقررت أن تمنع الصراع الوحشي الذي كان عليه أن يخوضه. وبدت لأنجيدو في الحلم تهمس في أذنه أن جلباميش أكثر منه قوة، وأن خيراً له أن يركن إلى الحكمة وأن يتعد عن الصراع. ومع جلباميش حدث الشيء نفسه. بدا له كأن أمه قد جاءت في الحلم تحذره من منازلة أنجيدو وتطلب منه أن يكون أصدقاء.

وهذا ما كان. . والتقى من أريد لهما أن يكونا عدوين، فإذا بهما يصبحان صديقين وفين. وإذا بهما يسيران كل يوم جنباً إلى جنب يحميان أوروك من هجمات «عيلام» ويعودان معاً ظافرين بعد أن يقوموا بأحسن الأعمال.

غير أن أنجيدو لم يطق حياة المدينة طويلاً. وبدأ يضيق بها ويتمنى الرجوع إلى الغابة حيث كان يعيش. وظهر له في الحلم طيف شمس نيشتن، وراح يحجب إليه البقاء في الأرض ويهديه إلى الأرباب التي تعود عليه من الحياة فيها. وقال له شمس:

- إن جلجاميش صديقك وأخوك.. وسيمنحك فراشاً ضخماً تنام فيه، ومقعداً كالعرش إلى جانبه الأيسر، وسيجعل كل ملوك الأرض يركمون تحت قدميك إعجاباً وتقديراً.

وهز الإغراء رأسه واقتنع بالبقاء إلى جوار جلجاميش. ولم يعد يشكو بعد وجوده في مملكة أوروك.

وحتى جلجاميش. سره وجود أنجيدو إلى جواره وأعلن أن السلام قد حل وخلع عدة الحرب ولبس الثياب القدسية البيضاء، وزين نفسه بالشارة الملكية، ولبس التاج.

وفي تلك اللحظة أطلقت «إشتار» فراها جمالها وجبروته. وراحت ترنو إليه بعينيها الكبيرتين وتقول له:

- تعال يا جلجاميش وكن لي زوجاً. تعال تبادل كؤوس الهوى والحب، أضعك في عربة من لازورد وذهب. ذات جوانب مطعمة بالعقيق، تجرها سباع سبعة، وتدخل بيتنا وحوالك البخور المنطلق من خشب السدر. تعال أمنحك السلطان.. وأجعل قدميك تحتفزان كل الأراضي المجاورة للبحر، وأحتي رؤوس الملوك لهم سجداً لك يأتونك بشمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها صاغرين.

غير أن جلجاميش كان يعرف إشتار، وكان يعرف لها قصصاً عنيفة مخيفة. فhez رأسه وهو يقول:

- أنت خائنة يا إشتار. ولن يطعنن رأسي فوق كتفي إذا أنا آمنت بحبك واستسلمت لفنون عشقك.

قالت إشتار:

- وما الذي تعرف عن خياناتي يا قتي؟

أجاب جلجاميش:

- أن الجميع هنا يتحدثون عما فعله عشقك الخائن بكل من وقع في شباك غرامك. أحبت النسر ثم قصصت أجنحته. وعشت الحصان حتى نفق. وملأت كؤوس الحب للأسد حتى فقد لبدته.

وقاطعت إشتار:

- ولكن هل سمعت عن تضحياتي في سبيل من أعشق وأحب.. هل سمعت عن قصتي مع حبيبي تموز؟.

وهز جلجاميش كتفيه. وراحت آلهة الحب والجمال تحكي له القصة.

كان تموز الفتى الراعي المملوء بالعنوان من نسل الإله العظيم آي. ولقد شاهدته إشتار ربة الحب والجمال وهو يرعى غنمه تحت شجرة «أريد» المقدسة التي تغطي بظلالها الأرض، فشغفت به حباً واختارته زوجاً لها وهي بعد في إبان الشباب.

وعاش الحبيبان أمداً طويلاً في قصة حب ندية رائعة، لم تشهد مثلها السماء قط. حتى كان يوم خرج فيه تموز يرعى غنمه. وإذا بخنزير بري يهاجمه ويضعه في مقتل. فهوى تموز كما يهوي الموتى إلى «أرالو» الجحيم المظلم في العالم السفلي.

وكانت الإلهة «أرشكجال» أخت إشتار هي التي تحكم مملكة أرالو الممتدة في أعماق الأرض. إلا أنها كانت تغار من أختها وتمتلي منها حسداً. فما كاد الفتى يهبط إلى مملكتها حتى أحكمت غلق الأبواب وأقسمت ألا يعود إلى الأرض حياً قط.

والحق أن إشتار كانت قد قررت أن تهبط إلى أرالو في محاولة يائسة لاسترداد زوجها الحبيب.

وانطلقت إشتار في رحلة طويلة قاسية، مرت خلالها بألوان مخيفة من الأخطار. حتى بلغت أبواب أرالو وطلبت الأذن لها بالدخول.

وسعت أرشكجال في طلب أختها إشتار فأمرت خازن النار ألا يفتح لها الأبواب أبداً.

وصرخت إشتار غاضبة. وراحت تدق أبواب أرالو وتهدد وتتوعد وتقسم أن تحطمها وتسحق أبقائها وقضائها إذا لم يسمح لها.

وامتلاً حارس الأبواب رعباً وفزعاً. وأسرع إلى أرشكجال يتوسل إليها أن تنقذه بالسماح لأختها بالدخول.

وبرغم المرارة والحقد اللذين نكتهما أرشكجال لأختها. فقد اضطرها الأمر أن تخفي ما يعمل في أعماقها أمام الحارس وسمحت له بفتح الأبواب. غير أنها عندما أذنت له قالت أن هذا الأذن لا يمنع أن تعامل أختها بما يقضي به قانون الآلهة الذي يحرم دخول أرالو إلا للمرأة.

وسمح حارس النار لإيشثار بالدخول وراح يخلع عنها جزءاً من ثيابها وحليها عند كل باب تجتازه من أبواب مملكة الظلمات.

ولم تغضب إيشثار فقد كان حسبها الوصول إلى حيث وضع تموز، ولا شيء بعد ذلك.

وعند الباب الأول خلع الحارس عن إيشثار تاجها، وعند الباب الثاني خلع قرطها. ثم عدها، ثم حلية صدرها، ثم منقطة ذات الجواهر القدسية، ثم رداءها المزركش البراق الذي يغطي يديها وقدميها.

وبرغم كل ذلك فما اكتفى الحارس. بل طلب منها قبل اجتياز الباب الأخير أن تخلع آخر الأتواب. وتمتعت إيشثار أول الأمر في رقة، ثم خضعت له واستسلمت.

وهبط إيشثار عارية إلى أعماق أراو.

وفتحت أرشكجال عينها في غيظ وحقد. لقد كانت أختها فاتنة خلافة رائعة. أما هي فديمية قبيحة عرجاء. من حقها أن تنزل بأختها غضبها وتقمئتها.

وانتفضت أرشكجال وهي تصدر أمراً جديداً لرسولها «نمتار»:

— إنهب يا نمتار واسجنها في قصري. وسلط عليها ستين مرضاً. مرض العيون على عينيها، ومرض الجنب على جنتيها، ومرض الأقدام على قدميها، ومرض القلوب على قلبها، ومرض الرؤوس على رأسها. سلط كل ما تعرف من الأمراض على كل جزء من أجزائها جسمها البهيف.

ونفذ نمتار أمر مولاته.

ووجدت إيشثار نفسها داخل سجن أختها، وفي كل أعضائها مرض خبيث.

وأطلت الأرض حولها. فما وجدت فوق ظهرها أثراً لإيشثار ربة الحب والجمال والربيع، ولا شعرت أنها فقدت كل ما كان يوحى وجود إيشثار. فنسيت جميع الفنون وطرق الحب، ولم تشعر الحيوانات بحرارة الرغبة قط. حتى سكان الأرض من رجال ونساء انفصل كل منهم عن الآخر، وما عاد هناك من سبيل لإنتاج جيل جديد.

وأخذ البشر يتناقصون، وروع الآلهة حين رأوا نقص ما يرسله لهم البشر من قربانين. واستولى عليهم اللعز حين شهدوا عدداً كبيراً من الناس قد انصرفوا عن عبادتهم منذ اختفت إيشثار بين قضبان السجن المقيت.

وكان إله الشمس هو أكثر آلهة السماء حزناً على أهل الأرض، فذهب إلى إله الأرض آي بيكي، وهو يحمل إليه قصة الخراب والدمار التي حلت على كل المخلوقات. كما يشهدا كل يوم بين الشروق والغروب.

وحزن آي للمصائب التي حلت بأرضه. فخلق رسولاً سماه أشوشونامير انطلق يحمل رسالته إلى أراو ويطلب من أرشكجال باسم كل الآلهة إطلاق سراح إيشثار.

وغضبت أرشكجال عندما وصلها الأمر المقدس باسم الآلهة على لسان أشوشونامير، فراحت تسبه وتلعنه. ثم أمرت به فألقي في جيب مظلم في أعماق أراو حتى يموت.

ومع ذلك فكانت أرشكجال تستطيع الوقوف في وجه كل الآلهة. فلم يمض وقت حتى أمرت رسولها نمتار بأن يطلق سراح أختها الإلهة إيشثار.

وانطلق نمتار صاعداً بأمر مولاته، غير أنه فوجئ بإيشثار ترفض الخروج من السجن. وتقسم ألا تغادره وتعود إلى الأرض إلا إذا سمح لها بأن تأخذ معها زوجها تموز.

ورفضت أرشكجال، واستمرت الأرض قاحلة تبكي.

وغضب الآلهة، وأرسلوا أمراً آخر إلى أرشكجال بالإفراج عن تموز، إجابة لطلب إيشثار وبالرغم منها أرسلت ربة الجحيم رسولها نمتار ليصب ماء الحياة على جسد تموز، ويطلبه خارج أسوار أراو ومعه إيشثار.

وهكذا انطلقت إيشثار تجتاز وهي ظافرة ومعه زوجها أبواب أراو السبعة. وتسلم عند كل باب ما خلعه من قبل. ملابس ما فوق الساقين. والمنطقة، وحلي الصدر. والقرطين. والناج.

وأطلت الأرض فإذا إيشثار وتموز يعودان. فعاد معها النبات ينمو والحيوانات تكاثرت، وانطلق كل امرئ يبيح الإكتار من تسله. وجلس إيشثار من جديد على عرش الحب والجمال والربيع.

كان جلعاميش يستمع بذهول إلى قصة إيشثار وتموز. غير أنه عندما انتهت من سرد قصتها، هز كتفيه وهو يذكر النهاية القاسية التي انتهى إليها تموز نفسه. فقد سمع أنه ظل يفقد كل يوم بعض أعصابه حتى انتهى الأمر به إلى الجنون ومات.

وأقسم جلعاميش أنه لن يستسلم قط لغرام إيشثار، وقال لها وهو يمضي عنها:

— إنك تجبنني الآن.. ولكنك ستقضي عليّ بعد ما قضيت على كل هؤلاء.

وصرخت إيشثار وهي تضرب الأرض وتتدفق نحو السماء. وانطلقت في غضبها الصاخب إلى أوتو الإله الأعظم تطلب منه أن يخلق من الوحوش ثوراً مارداً يقتل جلعاميش. غير أن أوتو رفض طلبها وهو يقول:

— ألا تستجن يا إيشثار وقد ذكرك جلعاميش بكل مخازيك وفضائلك والوان غدرك؟

وعادت إيشثار تصرخ وأنذرت بتعطيل كل ما في الكون من غرائز الحب والنسل حتى يهلك كل شيء.

وكانت ذكرى خراب الأرض لا تزال ماثلة في رأس أوتو، فاضطر إلى الخضوع لإرادة إيشثار، وأرسل ثوراً ضخماً اسمه «آلو» ليتنازل جلعاميش..

والقى آلو بجلعاميش..

خلال الصراع العنيف الذي نشب بينهما، كاد جلعاميش يسقط ميتاً، إلا أن صديقه أنجيدو سعى إليه وأنقذه من براثن الثور الوحشي واشترك الاثنان معاً في القضاء عليه.

وأطلقت إيشثار من علياتها في غضب مجنون. فرأت الثور يحتضر وجلعاميش يقف من فوق جسده يضرب بالرمح كل أطرافه. وهنت إيشثار:

— ملعون أنت يا جلعاميش. أثرت غضبي أنا التي لا أغضب. ويا من قتلت ثوري الذي أرسلته من السماء

وسمع أنجيدو لعنات إيشثار. فانقض على الوحش ومزق أحد أطرافه ثم ألقى به على وجه ربة الحب والجمال وهو يهتف:

— أغلقي فمك يا مأكرة، وإلا هاجمك وحطمتك وفعلت بك مثل ما فعلنا برسولك.

ولما العار رأس إيشثار، وأقسمت أن تتقم.

ولم تمض أيام حتى كان أنجيدو قد سقط وهو في عفوان مجده، ضحية داء عضال. صرعه بعد اثني عشر يوماً مقبلاً..

وكانت إيشثار هي التي أرسلت إليه داء الموت.

ملأ الحزن قلب جلعاميش، وبدت له صورة الموت بشعة مخيفة. وراح يفكر في وسيلة للفرار من المصير المحتوم.

وبلغ به التفكير إلى شخص واحد عزيز، لا يستطيع الموت أن يقرب منه. إنه جده الأكبر شمس نيشين الخالد الذي يعرف سر الخلود.

وقرر جلعاميش أن ينطلق للبحث عن المكان الذي يقيم فيه شمس نيشين. ولو اضطره البحث إلى التطفوا حول الأرض.

وانطلق جلعاميش في طريقه للوصول إلى أول الأرض حيث تغرب الشمس.

وبعد أن قطع في الجبال والسهول مسيرة أيام، بلغ جبلاً ضخماً تقف دونه حيوانات ووحوش، لم تأذن له بالمرور إلا بعد أن سلط عليها الإله، سُرّ رب القمر قدرته فاستسلمت للنوم. واجتاز جلعاميش الجبل المهلول ليقف عند جبل آخر أكثر منه هولاً وارتفاعاً، هو جبل الغروب حيث ينتهي الأفق الغربي بين الأرض والعالم السفلي.

وكان يحرس الجبل ماردان مهولان يلمس رأساهما قبة السماء، ويصل ثدياهما إلى أعماق الأرض.

واقرب منهما جلعاميش، وعلى وجهه تتمثل كل ألوان الرعب والخوف وأوقفه الماردان يسألانه عما يريد باقترابه من بداية العالم السفلي. وأجابهما جلعاميش بأنه يريد الوصول إلى حيث جده الأكبر، شمس نيشين.

ونصحه الماردان بالعودة. فقد كانا يعلمان أن سر الخلود لا يمكن أن يصل إليه واحد من البشر. ولكن جلعاميش راح يتوسل إليهما وهو يبكي، ورنقاً له قلباهما، وسمحا له بالمرور.

وسار جلعاميش اثني عشر ميلاً داخل نفق غارق في الظلمة. وعندما وصل إلى نهايته كان النور قد بدأ يشرق، ووجد نفسه أمام شاطئ بحر عظيم، ينهض فوق مائه عرش سبتو العذراء، ربة البحار.

وناداهما جلعاميش وهو يطلب منها أن تعينه على عبور الماء، فرفضت ربة البحر. وراح يبكي ويتودع، وينذر الربة بأنه إذا لم يفلح في الوصول إلى جده شمس نيشين

فسيلقي بنفسه من فوق قمة الجبل ليموت. وأشفقت عليه سبتو، وسمحت له باجتياز البحر في قارب يقوده واحد من خدامها الأتناء.

وبدأ جلعاميش رحلة طويلة مرعبة، استغرقت من الأيام والليالي أربعين، وجد نفسه في نهايتها يقف أمام جزيرة صغيرة، هي التي يقيم فيها شمس نيشتين، المخلد أبد الدهر..

عجب شمس نيشتين عندما رأى جلعاميش يقترب من الجزيرة وكان البطل في ذلك الوقت قد سقط في القارب فريسة داء عضال. فراح يتوسل وهو في رقده إلى جده الأكبر أن يمنحه سر الخلود الذي اجتاز من أجله كل هذه المخاطر والأهوال.

وهز شمس نيشتين رأسه، وراح يقول له:

- إن الموت هو نهاية كل بشري. وإنه لمحرر على إنسان أن يعرف سر الساعة التي تنتهي عندها حياته. ففي السماء تجلس آلهات القدر تغزل خيوط الحياة لكل إنسان وترسم نهايته. ولكن متى ينتهي الغزل الخاص بحياته؟. وفي أي ساعة؟ هذا ما لا يدريه أحد قط. حتى الغازالات أنفسهن..

وأجاب جلعاميش:

- أنا لا أريد تعدياً على سلطان الآلهة. ولكني أعجب لماذا تخلد أنت وأموت أنا. على حين أن مظهري لا يختلف عن مظهرك؟. إنني أشبهك تماماً. ولست أكثر مني حكمة ولا أرحح عقلاً. ولي قلب مثل قلبك جريء قوي. فكيف تدخل أنت مجمع الآلهة ولا أدخله أنا.. كيف تجد سر الخلود ولا أجدّه أنا؟.

ولم يجد شمس نيشتين لكبي يقنعه، سوى أن يقص عليه قصة الخلق والطوفان والخلود.

وعندما انتهى شمس من قصته. كان جلعاميش قد سقط من اليأس والإعياء في أعماق قاربه.

ونال شمس نيشتين وأشفق على حفيده، ووعد أن يعيد إليه صحته ويشفيه.

ونام جلعاميش ستة أيام وسبع ليال. وخلال نومه العميق كانت زوجة شمس نيشتين تمتلئ عطفاً عليه ورحمة، وتطلب في النهاية من زوجها أن يرده سالماً إلى ابنته.

واستجاب شمس نيشتين لرجائه زوجته. وطلب منها أن تحضر له مادة سحرية تحتوي على سبعة عناصر مقدسة، فطرها بين شفتي جلعاميش النائم في أعماق قاربه.

ومرت أيام ستة وفي اليوم السابع، عندما استيقظ جلعاميش عاد يطلب من جده الأكبر سر الخلود..

وأذن له شمس بالنزول إلى الشاطئ ثم أرسله إلى ينبوع ماء ليزيل عن نفسه مفاسد حياته الماضية. وتطهر جلعاميش بالماء المقدس، ثم عاد مرة أخرى إلى جده وقد أيقن أنه سيمنحه سر الخلود.

وهذا ما حدث. فإن شمس نيشتين أخذ بيد البطل إلى حيث يجد نبتة الخلود.

وكانت هذه النبتة القدسية التي تعيد الشباب وتمنح الخلود لمن يأكلها، نوعاً من حشائش زاحفة، ذات أشواك تدمي من يحاول جمعها.

وحصل جلعاميش على النبتة، وطلب من جده أن يسمح له بالعودة إلى اوروك.

وهكذا بدأت رحلة العودة، في القارب القدسي، الذي يقوده ملاح سبتو المخلص، ويحميه طوال الطريق.

وقطع جلعاميش من الطريق الأول ما مقداره ثلاثون قسمة. وعندما بلغ ذلك المكان وجد جزيرة صغيرة في وسطها بئر، قال له الملاح أن به ماء عذبا يغري بالاستحمام.

وخلع جلعاميش ملابسه.. وهبط في البئر يستحم.

ولم يكن جلعاميش يدري أن ثمة حبة رقطاء كانت ترقد إلى جوار المكان الذي خلع فيه ملابسه، شمت رائحة النبتة القدسية فتقدمت منها، وانقضت عليها في لحظة، ثم اختفت.

وصرخ جلعاميش إذ وجد نبتة الخلود تضع، وعاد يكي كطفل، وجرت الدموع على خديه شقية مدراة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً.

واستأنف جلعاميش رحلته حزناً نحو الأرض. وعندما بلغ اوروك راح يطوف بالهاكل، ويدعو الآلهة أن ترد الحياة لأنجيدو ولو للحظة واحدة يكلمه فيها.

وبرغم القرايين التي راح يقدمها للآلهة ومن ومردوك.. إلا أن أحداً منهم لم يستجب له.

وذهب جلجاميش آخر الأمر إلى الإله آى . فعطف عليه وأمر رسوله نرجيل أن يحضر له روح أنجيدو العزيز .

وانشقت حفرة في الأرض . وانطلقت من خلالها روح أنجيدو كنفحة الطيب . وراح جلجاميش يحدث صديقه :

- أخبرني يا صديقي عما رأيته . فما عدت أستطيع الخلود على ظهر الأرض ، وسأنتقل عاجلاً أو آجلاً حيث تقيم . فما الذي تراه هناك حتى أستعد له ؟

وأجاب أنجيدو :

- لا أستطيع أن أخبرك بسر العالم السفلي .

وبكى جلجاميش . . وراح بلح على صديقه أن يجلس إليه ويحدثه . ورق له روح أنجيدو . فراح يحكي له قصة الأهوال في أروالو . وكيف تجري الأمور في العالم السفلي .

قص أنجيدو كيف ينال الشهيد الذي يقتل في المعركة . إنه يرقد على السرير ، ويشرب الماء النقي ، تحيط به أمه وأبوه وأبنائه وزوجته . أما الرجل الذي يموت ، وجثته ملقاة في الحقول لا تجد من يقيم على جسده مراسيم الدفن بعد الوفاة . . فليس له إلا اختيار طعامه من النفاية والأقذار التي يلقها الآخرون .

وختم أنجيدو حديثه وهو يقول :

- لقد مت شهيداً . . فسعدت في العالم السفلي . أمامك الآن الخيار .

وفي لحظة انشقت الأرض من تحت أنجيدو فتلاشى . أما جلجاميش . فقد راح يطل حوله ذاهلاً . ثم غرَّ على الأرض . وقد ملأته الحيرة بين الرغبة في الموت والرغبة في الحياة .

الأساطير اليابانية



ابن السماء

ابن السماء.. هو الاسم الذي يطلقه اليابانيون على الميكادو، الجالس على عرش اليابان. ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكادو يمتد بضعة آلاف من السنين إلى زمن لم يكن فيه شيء قط.. سوى آلهة تولد ذكراً وأنثى، ثم تموت.. حتى جاء يوم تعلم فيه إلهان شابان سر اتصال الذكر بالأنثى من الضفادع. فبدأت قصة المخلوق وجاء ابن السماء.

على رأس قوس قزح.. ذلك الجسر الرائع الذي ينحدر من السماء إلى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائي، وقف الإله الشاب إيزاناجي وفوق رأسه إكليل من النور، يطل في حيرة على رفيقته الإلهة إيزانامي، بجمالها الرائع وشعرها المسترسل على كتفيها كأسلاك الذهب.

وكانت الحيرة تملأ رأسي الإلهين الشابين، فقد كانا يدركان خطورة المهمة التي عهد بها إليهما مجتمع الآلهة، حين أصدروا إليهما أوامره بالهبوط من السماء ليخلقوا أرضاً يقيمان على سطحها الحياة.

ووقف الإلهان الشابان يحذفان في المياه الصاخبة التي تهدر عند نهاية الجسر. أيمن أن يكون هناك شيء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقراً للعالم الذي كلنا بأن يخلقنا فوقه الحياة؟.

وبدا لايزاناجي يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجواهر صفحة الماء عله يجد الأرض، غير أن شيئاً صلباً لم يخطك بالرمح قط، وئس الإله فرقع رمح. ولم يكد يفعل حتى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتكتف وتصلب وتمتد فوق صفحة المحيط، لتصبح أرضاً صلبة واسعة. كانت هي نفسها جزيرة أوجورو.

وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلهان وبدأت قصة المخلوق.

لم تكد أقدام الإلهين تمس الأرض الجديدة حتى أحس كل منهما برعشة كبيرة وهو ينظر إلى عين الآخر. وشعرا كان شيئاً غريباً حاراً يضطرب في صدرهما. وبدا لهما كأن كلا منهما يرى الآخر لأول مرة.

لقد كان هناك شيء جديد غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض.. شيء اسمه الحب.

وكما لم يحدث لهما في السماء من قبل، بدأ إيزانامي يرى في إيزانامي أشياء أخرى جديدة رائعة، أحسها جيداً وهو يتأمل شعرها الطويل وعينيها السوداوين، وشفتيها الساخنتين وذراعيها الممتلئتين وقوامها الفارع المشقوق. ولم تكن إيزانامي هي الأخرى بأقل منه إعجاباً به. فقد وجدت أمامها شاباً رائعاً، في صدره قوة، وفي ذراعيه عفوان وفي نظراته دعوات كمثل السحر.

وراحت الربة الحسنة تأمله في إعجاب وهو يقيم نصباً ضخماً يبدآن منه دورتين يكتشفان خلالها هذه الأرض الجديدة. ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى.

وبدأ كل منهما دورته فأخذ إيزانامي أحد الاتجاهين وسارت إيزانامي في الاتجاه المضاد.

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة، راحا يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكتشفان سر اتصال الذكر بالأنثى. وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل

وهكذا لم تكد إيزانامي تصل إلى النصب وتلتقي بإيزانامي، حتى بادرته وفي عينيها فرح كبير.

— ما أقولك يا إيزانامي! وما أشوقني إلى أن أتزوجك كما تتزوج هذه الضفادع.

واضطرب إيزانامي.. فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام. وبدا على وجهه غضب كبير وهو يهتف فيها:

— كيف.. وأنت امرأة. تتكلمين أولاً؟ إنني أنا الرجل. وبهذا الحق كان يجب أن أبدأ أنا الكلام. إن هذا لغال سبب.

وبكت إيزانامي، وطمطأت برأسها إلى الأرض. وبدأ الهدوء يعود إلى إيزانامي، وهو يرى دموعها الإلهية لأول مرة. وقال لها:

— لنستأنف الدوران من جديد، واحذري أن تبدي الكلام متى التقينا.

وعاد الإلهان يستأنفان الدوران حول الأرض. وفي هذه المرة عندما التقيا عند النصب الكبير بادرها إيزانامي بالحديث وهو يقول:

— إيزانامي.. ما أبهجني إذ التقى بعروس حسنة مثلك. فهل تقبل الحسنة أن نكون زوجاً وزوجة؟.

وأومات إيزانامي برأسها..

وهكذا تزوج الإلهان.

ولم يكد يمضي من الوقت سوى القليل، حتى أنجبت إيزانامي أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابناً هم مجموع جزر اليابان، بكل ما فيها من جبال وصخور وأنهار. وبكل ما يعمرها من أناس وحيوان ونبات.

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان. وقالت إيزانامي لزوجها إيزانامي:

— لقد أنجبتنا هذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأها بالحياة.. فلم لا نخلق ابناً جديداً يكون سيداً لكل الأرض؟.

ولم يكن هناك ما يمنع التنفيذ.

وولدت إيزانامي أنثى هس أماتيراسو.. ربة الشمس التي بلغت من الروعة والجمال حدا جعل والديها يقرران إرسالها على الجسر الإلهي إلى السماء لتستقر هناك ولترسل أشعتها الذهبية البراقة لتثير الأرض.

وعاد الإلهان يتحبان من جديد.

وكان الابن الثاني هو تسوكي يومي، إله القمر الذي كان تألقه الفضي أقل روعة من تألق شقيقته. إلا أنه بدا جديراً بأن يكون رفيقاً لها، فأرسله أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر في السماء.

غير أن الأخوين ما أسرع ما تشاجرا واختلفا. وصرخت اماتيراسو في أخيها تسوكي يومي ذات يوم:

— إنك مُدع محتال.. إنني أكرهك.. ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن..

وذهب تسوكي يومي إلى أبيه يشكو أخته. فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن

الآخر. ومنع اماتيراسو مملكة النهار، كما منح أخوها تسوكي يومي مملكة الليل.

واستمر الأب والأم ينجبان.

وكان الوليد الجديد هو سوزاتو، الذي لم يكده يهبط على الأرض، حتى أثار صخباً وضجيجاً وزوايج جعلت منه رب العواصف. واضطر أبوه أن يسلمه مملكة الحيار بامواجها التي تبلغ ثمانمائة ألف موجة.

ولم تكن ايزانامي قد اكتفت بالأبناء بعد.

وكان الوليد الجديد الذي أنجته هذه المرة هو كاجوتسوشي، رب النار، الذي لم يكده يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة أحرقتها.

وكان لا بد لـ ايزانامي بعد ذلك أن تنحدر إلى العالم السفلي بعيداً عن الأرض التي خلقتها

اختفت ربة الأرض، وبقي زوجها وحيداً شقياً لا يحس لحياته معنى على الإطلاق. وكان ايزانامي يعلم أن الأموات عندما يتقلون إلى العالم السفلي لا يدركهم الفناء، بل يقضون هناك حياة أخرى جديدة. وكان يعلم أنه سيأتي يوم يذهب هو الآخر فيه إلى العالم السفلي حيث يلتقي بزوجته.

غير أن ايزانامي، لطول ما حزن وتألم لفراق زوجته، لم يطق انتظار ذلك اليوم، وقرر أن يذهب بنفسه إلى أرض الجحيم ليراها وليحاول انتزاعها من هناك والعودة بها إلى الأرض.

وانطلق ايزانامي إلى المنفذ الذي يفصل بين الأرض والعالم السفلي، وانحدر منه إلى مملكة الجحيم، حيث الظلمة تطغى على كل شيء، وراح يجوب الطرقات المظلمة محاولاً اختراق حجب الظلمة ببصره بحثاً عن زوجته الحبيبة. ولكن دون جدوى.

وإذ ملا اليأس قلب ايزانامي من العثور عليها قرر العودة إلى سطح الأرض ليحبس نفسه حتى يقضي عليه بالذهاب إلى عالم الظلمات.

وبينما هو يدير قدميه ليعود لإدراجه، فوجئ بصوت رقيق يهمس في أذنه ويقول له:
- هذا أنت يا زوجي الحبيب. ألا ما أسعدني بليقائك. وما أعظم الشرف الذي أضفيته علي بمجيئك بحثاً عني في عالم الظلمات.

وتلفت ايزانامي إلى حيث مصدر الصوت، وحاول أن يرى زوجته، ولكن الظلمة الحالكة لم تكن تبدي له شيئاً قط.

وقال يخاطب صوت ايزانامي:

- زوجتي الحبيبة.. تعالي إلي. اقتربي مني أنا الذي اخترقت من أجلك كل هذه الظلمات. عودي معي إلى عالم النور.. إلى الأرض التي لا تزال تنتظر منا الكثير.

وسمع ايزانامي صوت ايزانامي يقول:

- أبداً يا زوجي الحبيب لقد مضى الوقت الذي كان يمكن أن أعود فيه إليك.. فقد جئت متأخراً جداً.. إذ أكلت منذ لحظات طعام الجحيم الذي لا يمكن لمن يتناوله إلا أن يستلقي ليسترخ في عالم الظلمات. فاذهب أيها العزيز.. اذهب ولا تحاول الاقتراب مني أو النظر إلي أو رؤية وجهي. فالقانون هنا صارم مخيف.. لا يسمح فيه للأموات أن يراهم الأحياء قط.

وصرخ ايزانامي.. أيمكن بعد كل تلك المتاعب التي لقيها خلال رحلته الشاقة عبر العالم السفلي، أن يعود دون أن يراها؟ أبداً.. إنه لن يستطيع العودة دون رؤية زوجته الحبيبة.

وبرغم الوعد الذي قطعه على نفسه ألا يحاول رؤيتها، فقد وجد نفسه آخر الأمر، مدفوعاً بفضوله وعاطفته معاً، إلى أن يتقضى الوعد..

وببطء مد ايزانامي يده إلى مشطه المخروّز في شعره فانتزعه من مكانه، وكسر أحد أسنانه.. ثم أشعل فيه النار..

وكان المشهد الذي طلعت عليه عيناه مروّعاً مخيفاً.

ففي نفس اللحظة التي استارت فيها الجحيم، سقطت ايزانامي في عنف، وتحول وجهها الجميل في سرعة ليصير بشعاً مخيفاً عفناً، وانطفأ البريق الرائع الذي كان ينبثق من عينيها فإذا بهما تقيان غائرتان مخيفتان، يسري فيهما الدود وينطلق منهما ليشتري على كل جزء من الجسد الذي ملأه العفن.

وانطلق صوت ايزانامي، وهي تتلوى مرعداً رهيباً:

- اخساً أيها الشقي. ألا فلتنصّب عليك كل لعنات السماء جزاء ما نقضت عهدك فألقيتني إلى العذاب ولوثتني بالعار.

- اصنعي ما تريدن فلن أعود.. وسوف أعمل على أن تستقبل الأرض ما لا يقل عن ألف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة عن العدد الذي سوف تهلكينه.

وهكذا هرب ايزاناجي من الجحيم.. وقدر لسكان الأرض أن يموت منهم كل يوم ألف شخص، وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد.

وبينما كان كل ذلك يجري في أعماق الجحيم، كان سوزانو - رب العواصف - قد انتهز فرصة غياب والديه وراح يلعب دوراً آخر على الأرض.

والحق أن «سوزانو» كان ذا خلق عنيف ميال إلى الشر، وبرغم لحيته الطويلة البيضاء التي تبعث على الاحترام لا يدع وقتاً يمر إلا ويرسل فيه عويله الطويل ونحيبه الذي يثير الشاؤم في كل النفوس، ولا يعبأ خلال هذه بتحطيم كل ما يعترض سبيله بسيفه الطويل البتار.

وعندما عاد ايزاناجي ووجد ولده «سوزانو» ساردا في غيه، قرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم.

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض. غير أنه أجاب أباه:

- أنا طوع أمرك يا أبته.. وسأهبط فوراً إلى العالم السفلي. ولكنني أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لي بالصعود إلى السماء لأرى أختي المزيبة اماتراسو قبل أن أختفي من هذا العالم إلى الأبد.

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها ما يضر، فأذن له بالصعود إلى السماء..

وتحرك «سوزانو» في طريقه إلى السماء.. وفي صعوده عوت السماء والأرض والبحار والجبال بعواء رهيب مخيف..

وبلغت الأصوات الرهيبة إذن اماتراسو.. ربة الشمس.. ولما أطلت من عليائها فإذا أخوها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعد ووبروق.

وارتعدت ربة الشمس وهي تحدث نفسها:

- لماذا يزحف أخي الشرير إلى مملكتي؟ لخبر قدم أخي يا ترى أم لشر؟ ولكن أي خير يمكن أن يفكر فيه هذا الجحود؟ إنه ولا شك يهدف إلى أن ينحني عن عرشتي..

وعادت جثة ايزانامي تتلوى بجثون. فقد انقضت عليها آلهة الرعد الثمانية منبقة من رأسها وتلديها وبطنها وكفها وقدميها، وهي ترد بأصوات قوية بشمة صاخبة، يهتز لها الجحيم.

واندفع ايزاناجي يجري برعب مذعور.. على حين أن صرخات ايزانامي الغاضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذي خدعها وألقى بها إلى التهلكة.

واندفعت من أعماق الجحيم زبانية مخيفات بصورة نساء يمثلن القبح والدنائة والشراسة، وأسرعن خلفه. واستمر هو يجري أمامهن هارباً في منحنيات الجحيم.. حتى إذا وجدهن قد كدن يلحقن به أسرع فخلع الإكليل الذي يحيط برأسه وألقاه نحوهن. ويلحظن.. تحول الإكليل إلى عناقيد من العنب، لم تكد الزبانية الشباعات تربتها حتى توفقن.. ثم انحنين فوقها يأكلن في شراهة وجوع.

وعادت ايزانامي تصرخ في مسوخ أخريات أن يتبعن الهارب.. واندفعت المسوخ خلفه بقوة حتى كدن يبلغته، فمد يده يخلع مشطه وألقاه نحوهن. وفي الحال انقلبت أسنان المشط إلى عيدان طويلة من القصب سال لها لعاب المسوخ فتوفقن ورحن يلتهمته بلذة وبأصوات كهزيم الرعد.

واستمرت ايزانامي تصرخ، وفي هذه المرة انطلق خلف الإله الهارب ألف وخمسمائة من جنود الجحيم فاخرج ايزاناجي سهامه وراح يلقي بها إلى الخلف على حين أنه يندفع إلى أمام، حتى وجد نفسه آخر الأمر يقترب من المنفذ الذي يقوده إلى خارج عالم الظلمات.

وفي ذلك الوقت كانت جثة ايزانامي هي التي تجرى بنفسها مندفة خلفه. وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به في الوقت الذي كان هو ينطلق من الثقب الذي يفصل بين العالمين ويمد يده إلى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون.

وسمع ايزانامي تصرخ من الناحية الأخرى:

- انتظرني يا زوجي العزيز.. لا تذهب.. لا تقل الدواع. عد إلي.. فإني إذا هجرتني فسوف أهلك في كل يوم ألف رجل على الأرض.

وأجاب ايزاناجي وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم:

البذور في الربيع إذا بسوزانو يفاجئها يوماً بتخريب كل القنوات التي صنعتها وإذا ثغرات الري قد سدت، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميراً.

وثارت ربة الشمس، غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة.

لكن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ما صنع، وإذا به يفاجئها ذات يوم على حين أنها جالسة في غرفة النسيج السماوية ترقب صناعة أودية الآلهة، فتقب سقف الغرفة وألقى عليها وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسد غزير.

وذعرت ربة الشمس، واضطربت حتى كادت تجرح نفسها بإبرة الغزل. وملاها غضب جبار، وتحول وجهها إلى لون أحمر قاقع الكدم. وأطبقت قبضتها من جديد تلوي كل خيوط شعرها الطويل، وأتسمت في صوت كالرعد إلا أن ترك عرشها احتجاجاً على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقي الفظ بالبقاء في مملكتها.

وأُسِّرعَت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء وإندفعت إلى كهف ضيق دخلته وأحكمت إغلاق باب خلفها، وقبعت بداخله تبكي وتنتحب.

وغمر الظلام العالم، ولم يعد هناك ليل أو نهار، ولا نور أو ضياء.

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بألهة السماء. واجتمع الآلهة الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين إله على شاطئ نهر السماء. وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب الهول الأعظم الذي حل على الأرض.

وكان لا بد للجمع أن يفكروا في وسيلة يمكن بها إقناع ربة الشمس بالعودة إلى عرشها العظيم. واستمرت المناقشات طويلة هادئة لم تستقر وتهلأ إلى حين خرج عليهم رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جدية بالنجاح.

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته أن ربة الشمس أنثى، وكل النساء يمكن التأثير عليهن إذا شحذت غيبرتهن وأثير فضولهن وأغرين بالزينة والكلاّء والجواهر البراقة. . . وكل ذلك يمكن أن تقدمه لربة الشمس إذا أتيتنوني بمرآة لماعة أضمرها في مواجهة باب الكهف وزودتوني بعقود علوية من الجواهر والكلاّء.

وجمع بعض الآلهة نجوماً من السماء صُغت إلى بعضها البعض لتولف مرآة لماعة رائعة. وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيوراً صدّاحة من كل جوانب العالم الخالية، على

برغم أن أبويناً حددا لكل منا حدوده. . . ليكن إذن ما يريد. . . وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقاباً صارماً لا ينساه مدى الحياة.

وأخذت أماتراسو أهبثها لمعركة عنيفة رهيبية. فجلذبت شعرها الذهبي الطويل وجمعتها في عقد كثيرة متألقة، وثبتت كل جواهرها وآلاتها في العقد الذهبية، ثم وضعت فوق ظهرها كائناتها وفيها ألف سهم، وأمسكت بإحدى يديها درعاً قوياً صلباً على حين أن اليد الأخرى تمسك بقوس عظيم رهيب. وانطلقت وهي في ذلك الاستعداد الضخم إلى حيث وقفت على ضفة نهر السماء وأزاحت طبقة من الثرى لتجمل لنفسها فيه خندقاً، وغاصت في الخندق حتى الركبتين. . .

على أن كل ما فعلته كان عبثاً. فعندما وصل أخوها ووقف على الجانب الآخر من النهر لم يكن يبدو على وجهه شيء من نوايا الشر التي توقعته. وتحدث إليها سوزانو في هدوء وراح يقول:

— ما هذا الذي أراه أينها الأخت. . . ولأي سبب تستقبليني هذا الاستقبال العدائي على حين أني قادم إليك وكلي شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب

وأجابت أماتراسو:

— ولكن ما الذي جعلك تحضر إلى مملكتي بغير إذن مني؟

أجابها سوزانو:

— لقد قرر أبى نفي إلى عالم الظلمات. ولم أطق الذهاب بدون أن أرى شقيقتي الكبرى الحبيبة. ولقد اجتزت على قدمي كل تلك السحب والغيوم من أجل أن أراها وصعدت كل هذا الارتفاع الشاق بغير سلم أستعين به. فكيف لا تملؤني الدهشة عندما أجدك تستقبليني هذا الاستقبال العدائي؟

وتقبلت أماتراسو حديث أخيها بشيء من الشك، فما كانت قسوته أو خداعه ليخفيها عنها، وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر حتى تتأكد من حسن نواياه.

والواقع أن الغطاء البراق الذي كان «سوزانو» يضعه على وجهه سرعان ما انكشف. وكانت أماتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز في السماء بعضها ضيق قصير وبعضها واسع طويل. وما كان أسعد بها بهذه الحقول التي زرعها بيديها. وعندما جاء وقت بذر

حين راح آخرون يتدعون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاماً لا تصدر إلا من السماء.

وعندما تم إعداد كل شيء انطلق الآلهة مجتمعين إلى الكهف الذي تخفي بداخله ربة الشمس، وتجمعوا أمامه في حفل صاخب عريض. على حين كان رب الحيلة يغطي فروع شجرة السكاكي التي تواجه الكهف بعقود من أئمن المجوهرات وعناقيد من أروع اللآلئ. وفي وسط الشجرة فيما يواجه باب الكهف أقام رب الحيلة المرأة السماوية اللعامة.

ومن كل جانب انطلقت الألحان شجية صعدت بها طيور الخلود، وعلى أنغامها راحت ربة الرقص أوزوم في روائها القدسي ترقص رقصاً هازلاً عريضاً انفجر له الآلهة جميعاً ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون.

ومن وراء باب الكهف كانت ربة الشمس تنصت إلى الصخب والضجيج في استغراب وعجب كبيرين. وعندما ازداد فضولها واثارت بها الرغبة في كشف سر ذلك السرور الذي يملأ المكان فتحت الباب قليلاً في هدوء. وفي هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذي كانت الظلمة تغمره. وامتدت خيوط الذهب في الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذي يبعث الحياة.

وشهدت ربة الشمس المجتمع الإلهي الذي كان يصخب بسرور وانطلاق. وراحت تسال عن سره. فأجابتها ربة الرقص أوزوم:

- تسأليننا عن سر صخبنا وفرحنا ؟. إذن فاعلمي أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالاً وروعة.

وفتحت ربة الشمس عينها في استغراب وقلق.

وبدأت تدور بعينها في الجمع الحاشد عليها تستطيع أن ترى منافستها. ومن أجل أن ترى المجموعة كلها كان لا بد أن تفتح الباب كله وتطل أمامها. وغندلت عكست المرأة اللعامة الصورة الرائعة لربة الشمس، تتألق حسناً وروعة وبهاء.

وملأ القلق الربة وهي ترى أمامها هذه الحسناء الرائعة التي تواجهها. وبدأت تغادر الكهف لتزاد قريباً من الربة الجديدة. وهي لا تدري أنها إنما كانت تقترب من المرأة.

ومد أحد الأرباب ربة الشمس الخدعة. لم تغضب ولم تصمم على العودة. بل أبدت موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف.

وفي لحظة. كان الملايين الثمانية من آلهة السماء يهجمون على «سوزانو» ويلقون به على الأرض ويحلقون لحيته ويتزعون أظفار يديه وقدميه ثم يحملونه جميعاً ليلقوا به من السماء إلى الأرض.

ومنذ ذلك اليوم لم تغب ربة الشمس عن عرشها قط.

وعادت الحياة إلى الأرض وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجد التي كانت تنبعث من أهلها.

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد. ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم السبب. ولكن الضيق الذي أخذ الآلهة كان مبعث ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ما على الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار. فقد كانت كل هذه الأشياء لا تزال تتكلم تماماً كأنها البشر. وكان الطنين الذي يحدثه كلامها وخاصة في سكون الليل، يوزق آلهة السماء. فاجتمع شملهم للبحث عن وسيلة يقضون بها على هذا الضجيج. وينشدون الهدوء والسلام على الأرض.

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة خلال مناقشتهم، تقدمت ربة الشمس تعرض أن ترسل حفيدها نينجي ليحكم هذا العالم المضطرب ويعد إليه المجد والسلام. على أن يرسل الآلهة قبل ذلك رسولا يمهّد له الطريق. وأعجب الآلهة بفكرة إرسال واحد من أبناء السماء ليكون سيداً على الأرض. وانفتحت كلمة الجميع على أن يهبط إلى السماء ليكون سيداً على الأرض. كما اتفقوا على أن يهبط إلى الأرض الرسول امانوهر، ليمهد الطريق لأبناء السماء، لحفيد ربة الشمس.

ومضت سنوات ثلاث ولم يعد امانوهر. وأرسل الآلهة من بعده ولده يبحث عنه ويعيده. ولكن الابن أعجبه الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط. وتتابع الرسل إلى الأرض وتتابع خياناتهم للسماء. فلم يكن بدّ بعد ذلك، من أن يهبط حفيد ربة الشمس وابن السماء. نينجي بنفسه ليضع حداً لكل تلك الخيانات.

وقربت امانراسو حفيدها منها، ومنحته بركاتها وخصائنها، وزودته بهدايا قيمة ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء، وكرات شفافات من قبتها، وسيف خالد وجد في قلب التنين. ولم تكف ربة الشمس بهذه الهدايا، بل منحت أيضاً المرأة السماوية التي أهداها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة.

وودع نينيجي جدته، وأخذ طريقه إلى الأرض، يحيط به موكب من الآلهة، بينهم ربة الرقص أوزوم، تلك التي أنارت رقصاتها المريدة ضحكات الثمانية ملايين إله.

وراح موكب الآلهة يخترق السحب حتى بلغوا مفرق الطرق الخالد حيث يتفرع الطريق الرئيسي إلى ثمانية فروع. وهناك توقف الجميع فجأة، وبدأوا يتراجعون إلى الخلف في ذعر.

عند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تيرق عيناه بلهب صاحب فحيح مخيف.

بدأت أقدام الآلهة وبينهم نينيجي تضطرب وتراجع، عدا أوزوم التي وقفت في جراءة وتقدمت من الوحش تسأله عن يكون وماذا يريد وكيف يجرؤ على اعتراض الموكب الإلهي. وأجاب الوحش:

«أنا رب حقول الأرض. وقد قدمت لأكون في استقبال ابن السماء «نينيجي» سيد الأرض كلها. ولأكون مرشده الأمين. عودي إلى سيدك، أي أوزوم، وارفعي إليه رسالتي.

وإبلغت أوزوم رسالة رب الحقول إلى ابن السماء. وعاد الموكب يستأنف طريقه عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذي تم عبوره وبلغ الموكب بده أرض تكاشبي.

وبدا رب الحقول يرشد ابن السماء في رحلة طويلة رهقة حول الأرض التي كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السلام. وفي إحدى المناطق القدسية استقر رأيه على إقامة قصره.

ووجد ابن السماء أن من واجبه أن يقدم شكره لمرشده الأمين. فمنحه زوجة رائعة. إلهية.. هي أوزوم ربة الرقص نفسها. وعندما شهد فرحة العروسين. أحس هو الآخر برغبة قوية في أن يفرح كما فرحا. وراح ينظر حوله باحثاً لنفسه عن عروس حتى شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور.

وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون. وأجابت الحسناء:

«أنا كونوهانا.. ابنة ملك الجبل المقدس.. ومهمتي أن أصنع الزهور التي تغطي الأشجار على هذه الأرض.

وسرعان ما وقع «نينيجي» في هوى كونوهانا، فانتقل إلى أبيها.. «أروياما» وطلب منه يد ابنته.

وكان لملك الجبل المقدس ابنة اسمها إيهاناجا، طويلة كعمود من الصخر، تكبر كونوهانا، ولكنها كانت بالغة الدمامة والقيح. ومع ذلك فقد أراد أوهوياما أن يكون لابناء «نينيجي» أعمار طويلة خالدة كعمر الصخور. ومن أجل هذه الرغبة أبى إلا أن يقدم ابنتيه معاً زوجتين لابن السماء.

ولم يجد «نينيجي» بدا من الزواج بالأختين. غير أن كل حبه كان يتجه إلى الزوجة الحسنة. بينما بدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة.

وملا الغضب قلب إيهاناجا.. ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم في نينيجي:

«لو أنك اخترتني وأحببتني.. لجعلت عمر أبناك خالداً مثل عمر الصخور. أما وقد فضلت على أختي الصغرى. فإنكما وأبناءكما ستذوون سريعاً كما تذوي الزهور.

وقد كان..

وعاش «نينيجي» ابن السماء سعيداً مع زوجته الحبيبة كونوهانا. غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً، فقد أعمت الغيرة قلب نينيجي ذات يوم.. وملا رأسه بالجنون. ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التي شقيت بها كونوهانا. فما كان هناك من يفار منه زوجها. فانطلقت إلى كوخ أغلقت على نفسها. ثم أشعلت فيه النار..

ومن بين السنة اللهب خرج ثلاثة أطفال، من بينهم كان «هورى». الذي تسلت منه سلسلة متصلة مقدسة الحلقات من «الميكادو». هم الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.



الأساطير الصينية



المقص المسحور والسמكة الناطقة

في مكان بعيد جداً عن العالم لا يخطر على البال في قطعة من الأرض تقع بين جبال عالية وبحيرة شديدة الزرقة، كان يعيش صبي صيني اسمه ليونتشو، كان الولد يعيش مع أمه وأبيه في كوخ صغير صنع من الغاب. وكان سعيداً في حياته يقضي يومه بين اللعب في الرمال والجلوس في الشمس يراقب الطيور والأزهار أو يهتم باستذكار الدروس التي كان يتعلمها على أبيه من آن لآخر.

فإذا أحس الجوع قدمت إليه أمه سلطانية مملوءة بالأرز فأكلها بشهية وسرور دون أن يهمنه أن يراه أحد وهو يأكل بيديه. وفي أحد الأيام قالت له أمه:

اسمع يا ليونتشو ليس لدينا اليوم أرزٌ ليكفيتنا، فاذهب إلى البحر واحضر لنا بعض السمك لتأكله عند الغذاء.

وكان ليونتشو ولداً طيباً يطعم أمه، فدخل الكوخ وأخذ شبكة الصيد ثم ذهب إلى البحر. وكان اليوم حاراً والبحيرة بعيدة عن الكوخ. ولكن ليونتشو لم يهتم لأنه تعود الجلوس تحت أشعة الشمس وسار يصفر في الطريق حتى وصل إلى البحيرة ورمى بالصنارة في الماء ثم جذبها، فإذا بها تحمل سمكة جميلة ذات ألوان حمراء وزرقاء ولكن السمكة الحمراء الزرقاء قالت له: يا صديقي أرجوك أن تدعني أعود إلى الماء وأنا أعطيك مقصاً سحرياً كلما قصصت به شيئاً أصبح حقيقة، فرق الولد لرجائها وتركها تعود إلى الماء، وإذا به يجد نفسه يمسك بمقص جميل بدلاً السمكة.

وسر ليونتشو كثيراً ونظر حوله فوجد قطعة من الورق الذهبي فقص منها جزءاً، ولم يكذب ففرغ من صنعه حتى وجهه يكبر ويكبر. وكم كانت دهشته عندما رآه يتحول فعلاً إلى قصر حقيقي مصنوع من الذهب، ولكن القصر كان خالياً مما يعث على الردى، فيجب أن يحاط بحديقة. وهنا أمسك بالمقص وقطع الورق وجعل يقص شجرة بعد أخرى. وزهرة

وكان القمر يلمع في السماء يجعل للدنيا منظرًا ساحرًا، وأحس ليونتشو ببرودة الليل ولكنه تشجع واستمر في سيره حتى وصل إلى البحيرة وهناك ظل يبحث عن صديقه السمكة صانعًا: أينها السمكة الحمراء الزرقاء الفضية ثم ناداهما وهو ييكي: أنا ليونتشو جئت أخبرك أنني لم أعد أحس بالسعادة، وأسألك هل في استطاعتك أن تساعديني. وأطلقت السمكة من الماء وقالت: يا صديقي الصغير لقد صرت على درجة كبيرة من الثراء والحياة، إن الثروة حقًا لا تجلب السعادة دائمًا. خذ مقصك وعند شروق الشمس صفر ثلاث مرات ثم ألقي به في البحيرة فسوف تجد أنك لم تعد غنيًا وربما رجعت إليك سعادتك.

ثم سكت السمكة وجلس ليونتشو عند شاطئ البحيرة ينتظر شروق الشمس. فلما بدا الفجر يقترب تدريجيًا من وراء الجبل وأخذ العالم يمتلئ بالنور والحرارة أمسك ليونتشو بالمقص وألقى به في الماء، بعد أن صفر ثلاث مرّات.

ثم عاد إلى بيته يتسم قلبه بالأمل وعند عودته ظهر له كوخه المصنوع من الغاب في مكانه الأول، ووجد أمه في ملابسها القديمة تنتظره وفي يديها سلطانية الأرز وعلى وجهها ابتسامه الرضى. ولما جلس ليونتشو على الرمل الأصفر الدافئ ليأكل أرز أمه أحس مرة أخرى أنه أسعد ولد في العالم.

بعد أخرى وكلما فرغ من واحدة وجدها تتحول إلى شيء حقيقي، وقص ليونتشو طيورًا صغيرة لم تلبث أن دبّت فيها الحياة وجعلت تملأ الجو بموسيقاها الجميلة وغنائها اللطيف.

وأخيرًا جرى ليونتشو إلى الكوخ ليحضر أبويه ولكنه وجد ملابسهما قديمة بالية فقرر أن يقص لهما ملابس جديدة أولًا، وفي الحال صنع لأبويه ملابس فخمة من الأطلس والحرير لبسهما ثم قادهما إلى ما قصه، فامتلا قلباهما بالدهشة والعجب. ثم قادهما إلى الداخل ليريهما ما فيه، ولما عاد إلى الحديقة وجده سفيرًا بالوحشة فأخذ يصنع أطفالًا صغارًا يؤنسون وحدته ويلعبون معه بعرائس من الورق ولكنها كانت تتحول شيئًا فشيئًا إلى أولاد وبنات راحوا يرقصون ويغنون.

وظل ليونتشو يصنع كل شيء يدخل على نفسه السرور وأصبح القصر منزله الجديد وكانت غرف القصر كثيرة واسعة فيها أثاث ضخم ليس في أي قصر آخر في العالم.

وكان يملك لعبًا كثيرة وكتبًا جميلة، ولكنه مع ذلك كلما زادت ممتلكاته أحس أنه أقل سعادة من قبل لأن كل الأشياء التي كانت تجلب له السعادة من قبل كان يفقدها الواحدة بعد الأخرى، فإذا أراد أن يأكل بيديه كما كان يفعل أولًا، كان أبوه ينهره قائلاً: كل بالمعلقة ولا تأكل بيديك أيها الولد العنيد.

وإذا لعب في الرمال آتته أمه بقولها، يا عزيزي ليونتشو فكّر في ملابسك الجميلة يجب أن تحافظ عليها.

وأكثر ما كان يضايقه أنه لم يعد لديه وقت للقص بل يقضي وقته ويومه في الصباح حتى المساء في مذاكرة دروسه، وقد أحضر أبوه المدرسين ليعلموه الحساب والجغرافيا والتاريخ وكثيرًا من المواد الأخرى الكثيرة المتعبة. وكان ليونتشو يشعر أنه لن يتذكر شيئًا مما يتعلمه أو يسند له بينما تصل إليه أصوات الأولاد والبنات وهم يلعبون ويضحكون فيتحسر ويفكر في الأيام السابقة، عندما كان يجلس في الشمس يلعب كما يلعبون ويضحك كما يضحكون، ويراقب الطيور والزهور، وهكذا شعر ليونتشو بأن سعادته تقل شيئًا فشيئًا كلما مرّت به الأيام.

وفي إحدى الليالي لم يستطع النوم وظل يتقلب على جنبه، وأخيرًا قفز من على السرير وخرج من حجرة النوم على أطراف أصابعه ومر بغرف القصر والكل نيام. ثم نزل إلى الحديقة الساكنة ومنها إلى الباب.

السوط (الكرباج) السحري

كانت حياة البشر في قديم الزمان صعبة وقاسية. كانوا يتسلقون الجبال، ويمخرون عُباب المياه، غير عابئين بالشمس اللاهبة في الصيف ولا بزمهرير الشتاء. ويقومون باصطياد الطيور والحيوانات، ويجمعون الثمار البرية، مخاطرين بأرواحهم من أجل سد الرمق وتهلئة الجوع. لم يكن البشر حينذاك يعرفون الآلام الناجمة عن الأمراض، ذلك أنهم لم يكونوا يصابون بالأمراض إطلاقاً.

فلماذا إذاً أخذ البشر يعانون أشد المعاناة من عذاب المحن الناجمة عن الأمراض والأوبئة في وقت لاحق؟. ثمة أسباب كثيرة تلخصها الحكاية التالية:

في الغرب البعيد جبل كونلون، قامت عليه بلدة «شيتو» تحكمها إلهة تدعى «شي وانغ مو» وتسكن في مركز البلدة، الواقع على جبل البشم الشافق الذرى. وكان في جبل البشم ينبوع، يتدفق منه ماء عذب، وتتكوّن منه بحيرة «ياوتشي» التي ذاع صيتها في الأفاق. أما المناخ هناك فربيعي معتدل طوال العام، والمناظر طبيعية خلابة فاتنة. وقد نمت في الجبل وقرب البحيرة أزهار وأعشاب عجيبة في أشكالها، متنوعة في ألوانها. وعاشت هناك طيور وحيوانات نفيسة مختلفة. وقيل إن الدواء الخاص بإطالة عمر الإنسان قد جاء من هذا المكان. وهذا «الدواء الخاص بإطالة العمر» ما هو إلا ثمرة لشجرة الخوخ التي نمت من مسحوق البشم المأخوذ من جبل البشم، والممزوج بماء بحيرة ياوتشي. والجدير بالذكر أن أشجار الخوخ هذه تزهر وتثمر مرة كل ثلاثة آلاف سنة. وإذا ما تناول الإنسان خوخة واحدة من هذا النوع طال عمره. والمعروف أن الإله الكبير هوى كان قد طلب مثل هذا الدواء السحري من شي وانغ مو، حاكمة بلدة شيتو، واجتاز في سبيل ذلك طريقاً شاقاً وعرة.

كان على قمة جبل البشم المتلألئ قصر فخم عاشت فيه الحاكمة شي وانغ مو،

فقلن بصوت حزين:

— لا يمكن ذلك. كن مطمئناً، لن نخدعك أبداً، لا ينبغي إلا التنفس.

ولكن هذا الطائر صدق قولهن، فطار إلى غرفة نوم الحاكمة شي وانغ مو للحصول على المفتاح.

وألقي الحاكمة شي وانغ مو نائمة، فدخل خلسة، وفتح علبة حجرية كبيرة، ثم أخرج منها مفتاحاً حجرياً كبيراً يزن عشرات الكيلوغرامات. وعاد إلى باب الكهف الأول، وحاول فتح قفله. ولم يكدهم يفتح الباب قليلاً حتى تدفقت إلى خارج الكهف جموع من الحشرات والحيوانات الضارية. وحاول إغلاق باب الكهف، ولكن الألوان قد فاتت. فقد اندفعت تلك الحشرات والحيوانات بسرعة، وفرت هاربة في كل اتجاه، ولم يبق في الكهف ولو حشرة واحدة أو حيوان واحد.

صدمت الحاكمة شي وانغ مو صدمة كبيرة حين علمت بالأمر، وغضبت أشد الغضب. وسرعان ما سجدت ذلك الطائر، وأرسلت اثني عشر مسؤولاً، من بينهم تشيونغ تشي وتنغ قن اللذين يجيدان الطيران، لمطاردة تلك الحشرات والحيوانات، ولكن الوقت لم يسفهما، فقد سبقتهما الحشرات والحيوانات إلى الانتشار بين صفوف البشر واختفت تماماً.

ومنذ ذلك الوقت نشأت الأوبئة، وبدأت تنفث بين الناس تفشياً واسعاً. ومن حسن الحظ أنه لم يفتح إلا باب كهف واحد من الكهوف الثلاثة، ولو فتح أكثر من باب لما استطاع البشر إحصاء الأمراض التي يصابون بها.

إن الأوبئة تضر بصحة الناس وتهدد حياتهم. إنها لمأساة كبيرة للبشرية.

في ذلك الوقت كان شن نونغ شي، معروفاً بذكائه واجتهاده وعمله من أجل مصلحة الجماهير. وقيل إنه ابتكر فن الزراعة. فالتاس في العصور القديمة كانوا يعتمدون على الصيد لتحصيل لقمة العيش. وعند تزايد أعداد السكان فيما بعد، قلت أعداد الحيوانات. فاضطر الناس إلى ملأ بطونهم بالأعشاب والحبوب البرية. ولكن طريقة عيشهم هذه لم تكن مضمونة أيضاً، مما دفع شن نونغ شي إلى تجربة حراثة الأرض وزراعة المحاصيل، فحقق النجاح في ذلك، إذ شهدت المحاصيل نمواً جيداً، وتم إحراز حصائد وافرة، وحفظت الغلال في الأهواء. وبهذه الطريقة تم التوصل إلى ضمان سد حاجات الناس طوال السنة. لذلك خصه الناس باحترام فائق.

حيث تحضر لها طعامها يومياً ثلاثة طيور كبيرة، كل منها ذو رأس أحمر وعينين سوداوين وریش أخضر. وكان أحدهما يدعى دالي، والآخر شاولي، والثالث تشينغ نياو. فالطائر دالي يحضر كل يوم الفواكه اللذيذة لتتناولها الحاكمة شي وانغ مو، والطائر شاولي يحضر بكوب يشمى ماء من بحيرة ياتوشى لشربه، أما الطائر تشينغ نياو فكان ينقل لها الرسائل. وإضافة إلى ذلك كان ثمة طائر عجيب حاد البصر حليدي المخالب، له ثلاث أرجل، يحوم ليل نهار حول مسكن الحاكمة ويقوم بالحراسة عند بوابة المسكن.

كلف الإمبراطور السماوي الحاكمة شي وانغ مو بأن تمتني بالدواء السحري وحراسة ثلاثة كهوف كبيرة في جبل كولون. فقد احتجزت في هذه الكهوف الثلاثة المغلفة أنواع مختلفة من الحشرات السامة والحيوانات الوبائية التي تنقل الأوبئة إلى البشر وتلحق بهم الأذى إذا اقتربت منهم. وقد أقل كل من الكهوف الثلاثة بقفل حجرى كبير، وشدت الفتحات الضيقة بين أبواب الكهوف وإطاراتها وعيون الإقفال بالطحلب الكثيف والصدأ الحجري الأصفر. وظلت هذه الأبواب موصدة آلاف السنين.

وفجأة وقعت الحادثة.

ذات يوم مر الطائر المسؤول عن الحراسة بباب أحد الكهوف، فسمع أصواتاً حزينة تطلقها الحشرات السامة والحيوانات الوبائية داخل الكهف. استغرب ذلك، ونظر إلى الداخل عبر فتحة ضيقة بين باب الكهف وإطاره. وحين أحسّت هذه الحشرات والحيوانات الضارة به عند باب الكهف، طلبت منه أن يفتح القفل الحجري، ويطلق سراهما.

فاجاب الطائر:

— لا، فسوف تؤذين البشر إذا خرجت من الكهف. إن الإمبراطور السماوي هو الذي أصدر أمراً بحبسكم. ومفتاح القفل عند الحاكمة شي وانغ مو، فلست قادراً على فتح القفل.

قالت الحشرات والحيوانات:

— إذن افتح الباب قليلاً لتنتفس نحن في ضيق شديد. إنك معروف بفعل الخير.

رد الطائر قائلاً:

— كلا! لسوف تقتنمن هذه الفرصة وتهربن.

ملك الرياح

قلق شن نونغ شى لرؤية الناس يعانون من آلام الأمراض التي أصيبوا بها. فما العمل؟ يا له من عمل جميل لو اكتشف بعض الأعشاب الخاصة وابتكر منها دواء يخفف به من آلام المرضى. ولكن في الأرض مئات الآلاف من الأعشاب والأشجار. فأي نوع منها يصلح لأن يتخذ دواء لمعالجة المرض؟ لا أحد يدري. فشحن شن نونغ شى عزمه على تذوق مئات الأعشاب وابتكار الأدوية لإنقاذ البشر.

بدأ يتجول في الجبال والحقول طوال السنة يجمع عينات من الأعشاب والأشجار. ثم راح يتأملها، ويتذوق طعمها مختبراً طبيعتها الطيبة، فوجد لها متنوعة المذاق ما بين حامضة وحلوة ومرة ولاذعة ومالحة، وبعضها يزيد من حرارة جسم الإنسان وبعضها يخففها، وبعضها ينعش، وبعضها يخفف الورم ويسكن الألم. ولكن بعض هذه الأعشاب والأشجار كان يحمل سموماً حادة. إذا تذوقها الناس تسمموا فوراً، وغابوا عن الوعي. وكاد شن نونغ شى أن يصاب بالتسمم سبعين مرة في اليوم خلال تذوقه الأعشاب، ولكنه استطاع أن يستيقظ من الإغماء في كل مرة. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه كان يتذوق قدرًا ضئيلاً من الأعشاب. لذلك تأثر الناس تأثراً شديداً بروح الأيتار التي انتصف بها.

كما تأثر الإمبراطور السماوي أيضاً حين علم بهذا الأمر. فأرسل رسولاً ينقل «سوطاً سحرياً» إلى شن نونغ شى. وقد أطلق على هذا السوط السحري لقب «سوط الحمرة» لأن لون السوط أحمر. وقد عاد عليه هذا السوط بفوائد سحرية حيث أمكنه الوقوف على الفوائد الطيبة الخاصة بالأعشاب عن طريق تمييز لون السوط المتغير بفعل ضرب الأعشاب به. فمثلاً إذا ضرب بهذا السوط عشياً، وأظهر السوط لوناً أحمر، فهذا يعني أن العشيب يمتاز بالحدة. وإذا ضرب به عشياً، وأظهر السوط لوناً أبيض، دل ذلك على أن هذا العشيب ذو طبيعة باردة. وإذا ضرب به عشياً ولم يتغير لونه الأحمر، فمعنى ذلك أن هذا العشيب ليس مفيداً، ولا يعالج الأمراض، وإذا تغير لون السوط فجأة إلى لون أسود، تبين أنَّ هذا هو النوع من العشيب المطلوب.

كان حوض النهر الأصفر في قديم الزمان فائق الجمال، ومهداً لأمتنا الصينية.

ومياه النهر الأصفر المتعرج المتوجج ورواقه التي لا تعد ولا تحصى تروي الأراضي على جانبيه، حيث السهول مترامية الأطراف، خصبة صالحة للزراعة، والأحراش البدائية الكثيفة لا تغيب عن البصر. والجدال تشتت حولها المراعي. وكان المناخ في ذلك المكان أكثر دفئاً بالقياس إلى أيامنا هذه. كما كثرت هناك الحيوانات وتنوعت، وما نزال نراها حتى الوقت الحاضر. وعلاوة على ذلك أخذت الأفيال تظهر في الغابات من حين إلى آخر.

لقد زاول الصينيون القدامى رعاية المواشي وزراعة الحبوب، وتحلوا بالنشاط والشجاعة، وعاشوا عيشة هائلة سادها الاستقرار.

وظهر زعيم يدعى «هوانغ دى»، تولى الإشراف على شؤون الناس في هذه الأرض. ويعتبر هوانغ دى أول سلف للأمة الصينية.

كما كان يعتبر في الواقع كائناً سماوياً، يتسم بالذكاء والفضيلة والشجاعة.

وباعتبار هوانغ دى كائناً سماوياً فقد أقام في السماء، له قصر سماوي على الأرض، يقع في جبل كونلون غرباً. وهذا القصر مهيب فخم، تحيط به حديقة جميلة، هي «الحديقة المعلقة». وكان هوانغ دى يتناول الأرز الذي ينمو من شجرة خاصة. ويشرب الماء العذب السلسيل من بحيرة ياتوشي.

أما ملامحه فكانت عجيبة إذ له أربعة وجوه. وهذا معناه أنه يستطيع أن يرى في الجهات الأربع في آن واحد، الشرق والغرب والشمال والجنوب. وعلى هذا النحو

استطاع أن يراقب الجهات الأربع مراقبة دائمة، مما جعله يدير شؤون الدنيا بسهولة ويسر.

كان هوانغ دى يقيم في الأوقات العادية في السماء أو في قصره الغربي، وينزل أحياناً إلى الدنيا يقدم لأبناء شعبه المساعدة حين يشد شوقه إليهم.

في ذلك الحين لم يكن الناس قد اخترعوا السفن ولا العربات، لذلك عجزوا عن عبور الأنهار والبحيرات التي تعترض سبيلهم، وعاشوا في عزلة على ضفاف الأنهار. وكانت أقدامهم هي وسيلتهم الوحيدة في التنقل، فلم يتمكنوا من الارتحال بعيداً. فما كان من هوانغ دى إلا أن بدأ يعلمهم كيف يقطعون الأشجار، ثم يجرفونها ليجعلوا منها قوارب، وكيف يصنعون هياكل العربات بالأخشاب المستقيمة، وعجلاتها بالأخشاب الملتوية. وبفضل نجحتهم في صنع عربة ذات عجلتين، مما يسر عليهم المواصلات.

وكانت معرفة الناس مقتصرة على ما يلمسونه من تغير الجو من بارد إلى حار ومن حار إلى بارد، وهكذا دواليك، كما هم على علم أن الإنسان ينمو ويشب ويشيخ، وتثبت له لحية ويبيض شعره. أما طريقة حساب السنين فلا يعرفون عنها شيئاً. لذلك لم يعرفوا على وجه اليقين كم من الأزمان مضت عليهم، أو كم أصبحت أعمارهم. غير أن هوانغ دى توصل إلى طريقة خاصة لحساب السنين فسمّى الناس السيقان السماوية والأغصان الأرضية باسمها المختصر وهو «قانتشى». للسيقان عشرة رموز تشبه ألفاظها حروف ا، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي، وللأغصان اثنا عشر رمزاً ألفاظها شبيهة بحروف ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت. وهذه الرموز تستعمل في ترتيب الأعوام والشهور والأيام. ولحساب ذلك يجمع رمز من السيقان ورمز من الأغصان لتكوين رمز ثنائي يمثل سنة معينة. ومن جمع هاتيك الرموز يكون هناك ستون من الثنائيات، تمثل ستين سنة. وهكذا أصبح لدى الناس «تقويم» أولي استفادوا منه كثيراً في الحياة والإنتاج.

إلى جانب ذلك طلب هوانغ دى من أحد مساعديه، واسمه تسانغ جيه، إن يصوغ بعض الكلمات. كما طلب من آخر، ويدعى لينغ لون، أن يضع أنظمة موسيقية. وتعاون هو نفسه مع تشى بره يوضع كتاب عن الطب بعنوان «هوانغ دي ني جينغ» (كتاب الإمبراطور الأصفر للطب الداخلي). واكتشف علاوة على ذلك فن بناء المساكن وصناعة

القدور، وعلم الناس كيف يستعملونها. كان هوانغ دى يمتلك الحكمة، ويفعل الخير، ويحب مساعدة الناس.

ولقد تعرض هوانغ دى للخير والشر، تماماً كما يتعرض لهما الناس في حياتهم. وفي إحدى السنين ظهر فجأة في الجنوب شيطان يدعى تشى يو، سبق له أن كان «ملكاً» يحكم الجنوب. وكانت ملامحه مرعبة ومعقفة. فنصف جسده شبيه بجسد الإنسان، ونصفه الآخر شبيه بجسد الحيوان. وله رأس إنسان بأربع عيون وستة أذرع. وقدمه شبيهة بظلف البقرة. وكان يعدد إلى قتل الناس واغتصاب ثرواتهم والانغماس في ارتكاب مختلف أنواع الجرائم. وإلى جانب ذلك كان واحد وثمانون أخاً وجماعة من الخدم من أنصاره. فباشر هؤلاء الأشرار بارتكاب أعمال وحشية في غاية القسوة. وفي البداية قاد تشى يو شركاءه وأتباعه في التزاع الأراضي في الجنوب، كما باشروا السيطرة على الناس هناك واضطهادهم. ثم اشتدت مطامعهم فغزوا الشمال، ومارسوا الفتك والدمار أينما حلوا. فقتلوا الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وانتزعوا منهم المواشي، وحرقوا بيوتهم ومزروعاتهم. فما أكثر الناس الذين هلكوا وما أشد سوء الوضع الذي أصبحوا عليه.

لم يحتمل هوانغ دى هذا الأمر، وقرر مقاومة تشى يو، لذلك شب بينهما قتال عنيف.

وذات يوم قاد الشيطان تشى يو أتباعه الذين ارتكبوا أبشع الجرائم، وتسللوا إلى الضفة الشمالية للنهر الأصفر، واستولوا على ساحة تشولفو. فهول هوانغ دى مع أتباعه لصد هجماتهم. كان لدى هوانغ دى عدد كبير من القوات الجيدة والقادة الشجعان، من بينهم تشاو ينغ الملاك الذي يشرف على حراسة حديقة هوانغ دى. وكان تشاو ينغ بوجه إنسان وجسد فرس. وقد خطط جسده فبدأ كجسد الثور، ويوسعه أن يحلق بجناحيه الكبيرين مثل الطائر ليظهر بسالته. وكان بين صفوفهم أيضاً لى تشو الذي يقوم بحراسة شجرة لانغقان - شجرة نفيسة تثمر ثماراً تشبه الأحجار الكريمة، وهو بجسد واحد وثلاثة رؤوس، ويستطيع أن يرى ببصره الحاد كل شيء، كما يستطيع أن ينام بكل من رؤوسه الثلاثة بالتناوب. وعلى هذا النحو تمكن من مواصلة الحراسة ليل نهار. فما جرؤ شخص على الاقتراب من تلك الشجرة النفيسة التي عهد إليه بحراستها.

وكان مع هوانغ دى أيضاً قادة مشاهير مثل تشى قو وشيانغ وانغ وشن تو ويو لى،

بالإضافة إلى مياو لونج ابن هوانغ دى وشو جون حفيده، ولكل منهما براعة خاصة. أرسل هوانغ دى قطيعاً كبيراً من الدببة والأسود والتمور خصيصاً لخوض القتال بنية مواجهة تشى يو والعدد الهائل من أتباعه.

ولكن قوة الشيطان تشى يو لا يستهان بها أيضاً. فتعارك الفريقان، واشتد القتال وأخذت كتل الدخان والغبار تتدفع في سماء ماحة تشوهلو حيث دوى الصباح والزئير. فالتمور تنفض والأسود تب. وقد أدى هذا القتال إلى اهتزاز الأرض والجبال والشمس وسقوط النجوم. وقامت قوات هوانغ دى بهجمات شرسة، وأخذت تتقدم بثبات، بينماواصلت جماعة تشى يو تفهقها وبدا عجزها واضحاً عن القتال. فأنبرى تشى يو برفع رأسه من الحصار الخائق، ويفتح فمه، ويلفظ كتلاً من الضباب. فأصبحت السماء بعد برهة قصيرة مفعمة بالضباب الكثيف الذي خيم على الأرض، واشتد الظلام في السماء. وهنا فقدت قوات هوانغ دى الاتصالات بعضها ببعض، وولست اتجاهاها.

عندما رأى هوانغ دى ذلك، أسرع في استدعاء ملك الرياح. وعند وصوله، فتح كيساً كبيراً، انطلقت منه رياح شديدة. ولكن لتشى يو براعته الخاصة، ذلك أن الضباب الذي لفظه كان كثيفاً كثافة لا توصف، فتعذر على الرياح الشديدة التي أثارها ملك الرياح تبديد الضباب. وظلت قوات هوانغ دى محاصرة في ظل الضباب، فلم تستطع أن تميز الاتجاه، مما أحدث الفوضى والاضطراب، وأصبح الوضع متوتراً لا يطاق.

ومن حسن الحظ أن تذكر هوانغ دى الذكي من خلال مزاولته المراقبة الفلكية في الماضي أن النجم الساطع ثابت في جهة محددة. فابتكر على الفور عربة مجهزة بثمان خشبي موجه دائماً نحو الجهة الجنوبية. وهذه العربة بدولابين، يقف عليها «ملك» يمد ذراعه إلى الأمام، فذراعه متجهة دائماً نحو الجنوب بغض النظر عن الاتجاه الذي تسير فيه العربة وبالاعتماد على ذلك عرف أفراد قوات هوانغ دى الجهات، فتخلصوا من الحصار الشديدة

ذهل تشى يو حين رأى أفراد قوات هوانغ دى يتخلصون من الضباب الكثيف، فحاول أن يغتنم فرصة عدم ثبات أقدامهم ليشن هجومًا مباغتًا عليهم. فدعا قطيعاً من وحوش الغابات لتطوق هوانغ دى تطويقاً محكمًا. كان لبعض الوحوش وجه إنسان وجسد حيوان وصوت مربع. وقسم آخر قصير القامة كبير الأذنين أحمر العينين طويل الشعر أسود الجلد مع ميل إلى الاحمرار. وكان الإنسان يُخدع إذا ما التقاه، ولا يستطيع

التخلص منها. ومن حسن الحظ أن هوانغ دى أدرك أن هذه الوحوش مهما كانت شرسة، تخاف من صوت التنين. فسرعان ما قاد أفراد قواته ليفخروا في الأبواق مطلقين أصواتاً شبيهة بصوت التنين. فارتعشت تلك الوحوش فعلاً حين سمعت تلك الأصوات، ولم تجرؤ على التقدم.

ولكن كيف يمكن التغلب على تشى يو؟ حاول هوانغ دى أن يصنع طبلًا كبيراً لتشجيع جنوده ورفع معنوياتهم. وتذكر أن عند البحر الشرقي جبلاً يدعى ليوبوه، حيث يعيش حيوان يدعى «كوى» ولهذا الحيوان جسم ضخم بني اللون، ولامحه شبيهة بملاحم البقر من دون قرون، وله رجل واحدة فقط، لذلك يمشي قافزاً ويستطيع أن يلقى بنفسه في البحر ويخرج منه بصحبة الرياح الشديدة والمطر الغزير. أما صوته فيشبه هزيم الرعد، وعيانه تطلقان أشعة قوية. فلو تم صنع وجه الطبل من جلد هذا الحيوان، وضرب عليه بمقرعة من عظم حيوان الرعد، أطلق الطبل صوتاً مدوياً يهز أركان الأرض، وتردد أصداء صوته على بعد مائتي وخمسين كيلومتراً. فحاول هوانغ دى أن يصنع طبلًا من هذا النوع.

واندلعت المعركة بين هوانغ دى وخصمه تشى يو مرة أخرى. وحين ضرب الطبل زلزل صوته الأرض فعلاً، مما رفع معنويات جنود هوانغ دى، فشنوا هجوماً عنيفاً ضد تشى يو، فيما ذُهل أفراد جيش تشى يو خوفاً وهلعاً من هوانغ دى، ولم يجرؤوا على خوض القتال.

كان لتشى يو ستة أذرع وأربع عيون، فحمل حينذاك خنجرًا بيديه وقوساً بيديه الآخرين وسيفاً بيديه الثالثتين، كما استعمل القوس والنشاب والرمح برجله. ولشدة شراسته لم تستطع قوات هوانغ دى الاقتراب منه ولا التغلب عليه.

وتعددت بينهما الجولات في ميدان القتال. ولم يستطع هوانغ دى أن يهزم تشى يو ويقضي عليه. فقرر أن يَدْعُ ينج لونج للاشتراك في القتال معه ضد تشى يو. كان ينج لونج حيواناً ذا مقدرة وكفاءة كبيرة، يستطيع أن يطلق من فمه أعمدة من الماء ويحتاج بذيله جيشاً جراراً. وصل ينج لونج، وفتح فمه الكبير، فنفذت المياه من فمه كالأمواج المتدفقة. ولم يستطع أفراد جيش تشى يو تثبيت أقدامهم. وحالما تهيأ هوانغ دى للقتال لم يتوقع أن تكون لتشى يو مقدرة على إثارة الرياح والعواصف فقد قفز إلى الأعلى صائحاً صيحة مدوية، فهبت على الفور الرياح والعواصف الشديدة، ونزل المطر بغزارة، ففاضت

وأصدر أمراً بطرد نيوابا إلى شمال نهر تشى. ولكن نيوابا العنيدة كانت تخرج في الخفاء أحياناً لتحدث الجفاف في العالم. أما البشر الأذكاء فقد أوجدوا سبلاً للتغلب على كوارث الجفاف، فحفرُوا المجاري والأخاديد وشقوا القنوات قبل وصول نيوابا. وبهذا لم تعد نيوابا تظهر براعتها الخاصة، عندما عرفت أن البشر قد اتخذوا الإجراءات والتدابير للوقاية من الجفاف.

المياه على الأرض متحركة إلى بحر هائج، مما جعل جنود هوانغ دى في حصار من الفيضانات، كادوا يواجهون بسببه الهلاك. فاضطر هوانغ دى إلى دعوة ابنته نيوابا التي كانت تسكن في جبل شيكون لتساعده في القتال ضد تشى يو. كان نيوابا ملكة للجفاف، تستطيع تبديد السحب وإيقاف المطر، تمتلك قدراً كبيراً جداً من الحرارة في جسمها، وتستطيع إخراج الشمس اللاهبة ونشر أرض قاحلة تغطي مساحة خمسمائة كيلو متراً مربعاً. ولهذا تركها هوانغ دى تسكن في جبل شيكون في الشمال ولم يسمح لها بالخروج كما يحلو لها. في هذه المرة أظهرت نيوابا مقدرتها وكفاءتها، بينما فقد أسلوب تشى يو الخاص في إثارة الرياح والمطر فاعليته. واقتحمت نيوابا ميدان القتال حيث قوات تشى يو، فكادت الموجات الحرارية التي أحدثها جسمها تحرق جنوده. وذهل تشى يو، وسرعان ما تراجع. فاغتنم هوانغ دى هذه الفرصة وانطلق في أثرهم، ثم قطع بسيقته رأس تشى يو.

وهكذا انتهت المعركة الطاحنة. وأحرز هوانغ دى الانتصار النهائي، ولكن جنة تشى يو اختفت بعد فصل رأسه عن جسمه. وكان ذا جناحين ضخمين من اللحم ورأس ضخم، في مقدمته فم كبير يعادل حجمه الكهف العادي. فأدرك هوانغ دى بمعرفته الواسعة أن هذا الوحش هو تاتو، ومنعاهما الطعام. فلا شك في أن جماعة تشى يو قد مارسوا أعمالاً شرسة وارتكبوا مختلف أنواع الجرائم.

وتحسنت الأوضاع عن ذى قبل. فقد قتل تشى يو العدو اللدود للشعب، واستطاع الشعب استئناف العيش في سلام واستقرار. وعند الاحتفال بالانتصار على تشى يو أعد هوانغ دى إناء طيخ نحاسياً يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، على كل من جانبيه عروة، وله ثلاث أرجل. وقد نحتت على هذا الإناء مشاهد مختلفة من تلك المعركة، وخاصة صورة رأس تشى يو القبيح المقطوع، وذلك لإبذار الأشرار من الأجيال اللاحقة بمصيرهم المحتوم وعلاوة على ذلك صاغ الألحان أطلق عليها اسم «الحنان طبل قانع» تضم عشرة فصول، منها «فصل غضب الرعد الهادر» و «فصل زفير الملاك المحلى كوى». . . ونطق الطبل بهذه الألحان التي بدت في غاية المهابة.

أما نيوابا فأصابها الغرور بعد أن تغلبت على تشى يو، ولم تعد تعمل بناء على توجيهات هوانغ دى. فأخذت تتجول مبهجة في كل مكان. وأينما حلت. ذبلت المزروعات والأعشاب. وأصبحت الأرض قاحلة، ذلك لأنها كانت ملكة للجفاف. فقدم شو جون أحد أتباع هوانغ دى بشكوى إليه. فغضب هوانغ دى غضباً شديداً،

صائد الشمس

يحكى أنه حصل في عصر الإمبراطور ياو جفاف بالغ الخطورة بسبب ظهور عشر شمس في آن واحد في الفضاء

فماذا حدث ؟ حدث أن انجبت أم الشمس شئ خه عشرة أبناء، أقاموا في الشرق وراء البحار، في البحيرة الكبيرة تانغفو، حيث راحت تستحم وتلعب كل يوم، لذلك أصبح ماء هذه البحيرة يغلي على مدار العام. ونمت في قلب هذه البحيرة شجرة كبيرة، أطلق عليها اسم «فوسانغ» وارتفعت هذه الشجرة إلى عنان السماء، وبلغ محيط جذعها أكثر من ثلاثة آلاف متر. وكانت لهذه الشجرة عشرة فروع، تستريح على كل منها شمس من الشخوس العشر. والواقع أن هذه الشمس لم تكن تلهو جميعها في يوم واحد، بل كانت تنزل واحدة منها كل يوم بالتناوب إلى الدنيا للعمل. فتطلع من الشرق صباحاً، ثم تتجول في الفضاء الواسع خلال النهار، وتغيب في الغرب مساء. كل هذا لكي تقدم للدنيا نورا وحرارة. وعلى هذا المنوال كانت كل منها تعمل مرة واحدة كل عشرة أيام.

ما أجمل الدنيا فيها: الجبال الشامخة والأنهار المائجة والأحراش الكثيفة والأزهار الزاهية، على جانب الحقول التي يحرقها البشر بكل أوتوا من قوة.

هذه الشمس كانت بطبيعتها تحب اللهو. وفي أحد الأيام، وفيما الشمس تتبادل أطراف الحديث، قالت إحداها: إن بحيرة تانغفو هذه مملة، لا نشاط فيها. وكل منا تقضي تسعة أيام من الأيام العشرة دون عمل، إنه ليصعب البقاء هنا.

فقالت أخرى:

— صدقت. لا يسمح لنا أن نذهب إلى مكان بهيج، فنحن تحت سيطرة صارمة. إنني لست مقتنعة بهذا.

وقالت الثالثة :

– ربما هذا القانون صحيح . فمن الصعب أن تبقى الدنيا على حالها إذا نزلنا جميعاً إليها كل يوم .

غضبت الشمس الأولى وقالت :

– القانون! القانون! إن قضاء الأوقات في فرح وسرور هو قانوننا ليس غير . هل يمكننا أن نبقى دائماً حبيسات البيت ؟ اقترح أن نخرج من القد ونلعب كما نشاء .

ويتحريض هذه الشمس وافقت الشمس الأخرى قائلة

– حسناً، لنذهب ونلعب قدر إمكاننا!

وفي اليوم التالي، غادرت الشمس العشر بحيرة تاتفغو متوجهات إلى الدنيا دون اكتراث بأمر الإمبراطور السماوي.

وحين ظهرت شمس واحدة منها في الفضاء استقبلت الأرض نوراً ودفئاً لا حد لهما . ولكن عندما ظهرت الشمس العشر في الفضاء تغير الوضع كل التغير . فشوهت في الأرض ظاهرة مخيفة للغاية .

لقد ألقت الشمس ضوءاً شديداً على الأرض التي أصبحت براقاً . ولم يبق فيها أي ظلام لأن كل شمس ألقت ضوءها على الأرض من زاوية مختلفة . وازدادت درجة الحرارة بسرعة فائقة ، فاحترقت الأشجار والأعشاب . وقذبت المزروعات، وجفت الأنهار ، وأخذ الناس يلهثون من شدة الحرارة ، فدخلوا الكهوف ، ولم يجرؤوا على الخروج منها .

غير أن الشمس العشر ظلت تلعب غير عابثة بشيء ، بل سرّت أيما سرور بما فعلته من أعمال شنيعة .

وفي ذلك الوقت كان زعيم الشعب ، الإمبراطور ياو يسكن في كوخ بسيط ، ويتناول كل يوم الأرز الخشن ، ويشرب حساء الأعشاب البرية . كان إمبراطور جليلاً يعتني بالشعب كل العناية . فخرج وطلب من الشمس أن تغادر الدنيا فوراً وإلا فلا يمكن للناس أن يبقوا أحياء . ولكن الشمس تجاهلت هذا المطلب العادل واستمرت في اللعب هناك ، رافضة العودة إلى بيتها .

فلم يسع الإمبراطور ياو إلا أن يطلب المساعدة من الإمبراطور السماوي ، الذي ما إن سمع أن الشمس قد خالفت أوامره ، ونزلت مما إلى الدنيا تعيث فساداً وتلحق بها

الخراب ، حتى اتباه غضب شديد . فاستدعى المحارب هو يى على الفور . وقال له :

– لقد خالفت بنات شى خه أوامري ، أنهن يعثن فساداً في الدنيا ، مما جعل الناس هناك يعانون من عذاب الجفاف ويفقدون وسائل عيشهم . إني أهديك قوساً وعشرة سهام يضاء لتنزل بهن العقاب .

نزل هو يى إلى الدنيا حاملاً القوس والسهام متصاعاً لأوامر الإمبراطور السماوي .

تألم كثيراً لرؤية ما أصاب الناس من الآلام الناجمة عن قبط الشمس اللاهية . ورفع رأسه بنظرة غاضبة إلى الشمس المستهترّة الغارقة في اللعب ، ووضع سهماً حاداً في القوس ، وأطلقه نحو واحدة من الشمس العشر فتناهى إلى السامع صوت مدوى ، وسقطت كرة نارية . أما الشمس التسع الأخرى فوجدت أن الوضع لم يعد في صالحها . فحاولت الهرب . غير أن السهام التي أطلقها هو يى أصابتها الواحدة بعد الأخرى ، ولم تبق إلا واحدة .

ولما أخرج هو يى آخر سهم من الكنانة ، هروا الإمبراطور ياو إليه قائلاً :

– أوقف الرماية من فضلك ! إن الشمس مفيدة جداً بالنسبة للبشر . إلا أن عددها الفائض عن الحاجة يجلب النكبات . لم يبق لنا الآن إلا شمس واحدة ، فلا تسقطها .

إنصاع هو يى للأمر فجمع قوسه وسهمه . أما الشمس الأخيرة فامتقع وجهها . وعادت الحرارة الطبيعية إلى الدنيا فور سقوط الشمس التسع . وخرج الناس من الكهوف . وأصبحوا في غاية السرور ، حيث استأنفوا حياتهم الطبيعية بعد القضاء على الجفاف ، فاستعاضوا بزراعة الأرض وقطع الأشجار واضطياذ الحيوانات وبناء وترميم المساكن .

أراد البطل هو يى أن يرجع إلى السماء بعد القضاء على الشمس التسع الشريرة ، غير أن الأهالي ألحوا عليه بأن يبقى عندهم . لقد شكروه على إنجازهم المهمة العظيمة ، وتمنوا أن يقضي معهم أوقاتاً سارة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانوا بحاجة دائمة إليه ، فقد ظلت النكبات قائمة في الدنيا ، وظلوا بحاجة إلى مساعدته للتغلب عليها . فوافق هو يى على أن يبقى مؤقتاً .

بعد أن لقيت الشمس التسع مصرعها لم يعد من الممكن أن يحدث الجفاف مرة أخرى . ولكن ملك الماء أطلق العنان لملك النهر ، فأصبح النهر يحول نفسه دائماً إلى

شكله شبيه بالبقرة، ويغطي جسمه شعر أحمر طويل، بوجه إنسان وحافر فرس. أما صوته فمثل صياح المولود، كتيب ومخيف. ولهذا الوحش الشرس قوة جبارة وسرعة فائقة. إذا التقاه إنسان فمن الصعب أن يتخلص منه. كان يسلك أحياناً إلى القبائل في منتصف الليل، فيدمر المساكن، ويأكل البشر. فأصبح عدد الضحايا لا يعد ولا يحصى.

فزعز هو ي الذي أحب الشعب وامتلك البراعة الحربية على القضاء على هذا الوحش. وذات يوم صعد، بناء على المعلومات التي قدمها إليه الأهالي، جبلاً للبحث عن أثر الوحش يا يوى. وعندما وصل إلى واد من وديان الجبل اكتشف فجأة أن منحدرات الجبل وسفوح الوادي ملأى بجماجم البشر وعظامهم. وألقى بنظره أمامه، فوجد ذلك الوحش يجثم على صخرة كبيرة يلتهم جسم إنسان كان قد أتى به. فانتابه الغضب عندما رأى هذا المشهد، وأطلق سهماً إلى جبين الوحش الذي عوى أثر ذلك عواء كئيباً، ثم سقط متدحرجاً إلى قاع الوادي. ومنذ ذلك الوقت زال الذعر من نفوس الأهالي.

في تشوها بالجانب وحش آخر يدعى «تساو تشى»، في فمه أسنان حادة متقطعة النظير، الواحدة منها كالإزليل، ويبلغ طولها حوالي مترين. ويلزم هذا الوحش في الأوقات العادية الماء أو شاطئ البحيرة، وإذا مر به إنسان انقضض عليه وراح يعضه ويبتلع. وقد صعب على الناس أن يجابهوه، لأن جلده البالغ من السماكة عدة سنتيمترات قوي مثل الدرع، هذا بالإضافة إلى أسنانه الحادة. لذلك استطاع هذا الوحش بجلده السميك أن يصمد لضربات السيف القاطع وطعنات الرمح، كما صمد للسهام وضربات الفأس الحجرية، ومن حسن الحظ أن هو ي يمتلك براعة خاصة في الرماية. فحين فتح الوحش فمه الكبير ليقبض على هو ي أطلق سهماً إلى حنجرته، فسقط الوحش على الأرض لا قنطاً أنفاسه في الحال.

وكان في الجنوب نهر أطلق الناس عليه اسم «شونفوشى». لكن ثمة وحش يدعى «جيونغ» يسيطر على هذا النهر. وقد دأب هذا الوحش على القضاء على الناس الذين يصلون إلى ذلك النهر. وحش ذات تسعة رؤوس، يطلق ألسنة من النار، ويتدفق الماء من فمه. ولشدة وحشيته لم يتمكن أحد من مجابهته. ولو قطع أي رأس من رؤوس التسعة فإنه لا يموت، بل يزداد شراسة ووحشية. فأطلق هو ي عليه تسعة سهام في آن معاً، فأصاب كل منها رأساً من رؤوس التسعة إصابة قاتلة.

تبن أبيض يعتطي السيول ليتجول في كل مكان. ففاضت السيول حيثما وصل ملك النهر، وأغرقت المزروعات والبشر والحيوانات، ودمرت المساكن محدثة نكبات عظيمة للبشر.

اشتكى الناس إلى الإمبراطور ياو. فانتابه القلق والحزن وطلب من هو ي أن يساعده في القضاء على تلك المصيبة. فما كان من هو ي إلا أن نزل من غرته، ووصل خفية إلى ضفة نهر، واختبأ وراء شجرة كبيرة منتظراً وصول ملك النهر. بعد برهة قصيرة وصل التين الأبيض مع الأمواج الهائجة في النهر. ففاض النهر في الحال. وكان هو ي على أمة الاستعداد فأطلق سهماً نحو عينه اليسرى قبل وصوله إليه، فهدر التين الأبيض بصوت عال، وألقى بنفسه في عمق النهر.

قدم ملك النهر شكوى إلى الإمبراطور السماوي بسبب الجرح الذي أصابه، وقال:

«إن هو ي غير عادل. إنني أعيش في النهر ولا اعترض طريقه أبداً. ولكنه جرحني في عيني بسهمه. إنني أتوسل إلى الإمبراطور السماوي أن يتقنم لي ويقتل هو ي فوراً. وإلا فما فائدة القوانين واللوائح السماوية؟

ولكن الإمبراطور السماوي علم بحقيقة الأمر، فقال مستكراً:

«أنت ملك الماء.. عليك أن تأتي للبشر بالسعادة، ولكنت أصبحت تبن أبيض يتجول، ويشير الرياح والأمواج، وينزل بالبشر نكبات شديدة. أليس إنزال المقاب بك أمراً لازماً؟

صمت ملك النهر، وعاد إلى قاع النهر يعالج جراحه، ولم يعد يسمى لنشر الخراب.

وعاش هو ي في الدنيا عيشة سعيدة، يحترمه الناس ويحترمهم. وقضى على المصائب كلها مخاطراً بنفسه. وكان قد أحب صيد الحيوانات. فراح يخرج دائماً إلى الغابات لصيد الحيوانات. وفي ذلك الحين كانت هناك حيوانات كثيرة جداً تسيء إلى البشر وتلك إحدى النكبات الكبرى، وخاصة الوحوش الضارة التي عجزوا عن مجابهتها. فاختار هو ي على عاتقه مسؤولية القضاء عليها.

وكان في منطقة تشونغنيوان حيوان من أشد الحيوانات وحشية، يدعى يا يوى. قيل أن

وكان على شاطئ بحيرة دونغتينغ قرب نهر شيونغشوى شعبان مريع، يدعى «الشعبان باه». له جسم غليظ وطويل مقطع النظير، يمكنه أن يتلعق فيلاً، ثم يهضمه رويداً رويداً داخل معدته، ويلفظ عظامه بعد ثلاث سنوات من ابتلاعه. وقيل أن هذه العظام تصبح دواء فعالاً لمعالجة أمراض الأعضاء الحيوية في جسم الإنسان. ولكن هذا الشعبان كان فظيعاً شرساً جداً، إذا مر بمكان أخلاء من البشر. فقتل هو يى هذا الشعبان بعد معركة ضارية بينهما، وتكدست عظامه مثل جبل، وأطلق على هذا الجبل المكون من عظام الشعبان اسم تل با.

عاد هو يى إلى الشمال بعد أن قضى على تلك الوحوش في الجنوب. وعندما مر ببحيرة «تشنغتشو» أخبره الأهالي إن في هذا المكان طائرًا مفترساً ضخماً، يزاول أعمال العنف. اسم هذا الطائر «دافنغ». إذا طار ستر جناحه نصف أركان السماء، وإن حرك جناحيه أثار عواصف تتناصل الكثير من الأشجار الكبيرة، وتدمر مئات المساكن. كان يلحق أضراراً جسيمة بالبشر والمواشي أيضاً. أدرك هو يى أن هذا الطائر يمتلك قوة جبارة ويجيد الطيران. فإذا لم يتمكن من إبادته بسهم واحد وقُرّ جريحاً، صعب القضاء عليه فيما بعد. فخطرت له فكرة ربط مؤخر السهم بحبل، فإذا أصيب الطائر بهذا السهم، لم يستطع التخلص. ونجح هو يى في ذلك فعلاً، وقضى على الطائر «دافنغ» المفترس. وقد أطلق القدماء على هذا الأسلوب الخاص من الرماية اسم «القبض بالقوس» وراحوا يستخدمونه في صيد الحيوانات الكبيرة نوعاً ما. والفضل في تعلمهم هذا الأسلوب يرجع إلى هو يى.

كما ذهب هو يى إلى سانغسون في الغرب، حيث قضى على كثير من الوحوش. لقد قضى البطل هو يى على هذه الوحوش الفتاكة خدمة للبشر، فساد بذلك مآثر عظيمة. فلو لم يسقط الشمس التسع التي ألحقت بالأرض تخریباً شديداً لاحتوت الأرض من شدة الحرارة وأصبحت غير مأهولة بالسكان. ولو لم يقض على الوحوش لظلت خطراً بالغاً يهدد البشر. لذلك ظلت الأجيال البشرية على التوالي تعرب عن بالغ احترامها وامتنانها كلما ذكر البطل هو يى.

تشانغ تطير إلى القمر

في ليلة النصف من كل شهر قمري يتألق في السماء بدرًا منيرًا، كأنه امرأة فاتنة تطل برقع على الأرض، ثم يغمر الكون بنوره الهادئ. ويحكى أن هذا البدر الجميل تسكنه الإلهة تشانغ - زوجة البطل هو يى الذي أسقط الشمس بالسهم. فلماذا تعيش معزولة وحيدة في قصر القمر؟ أحداث كثيرة دارت حول هذه المسألة تلخصها الحكاية المؤلمة التالية:

لقد أسقط البطل هو يى بناء على أوامر الإمبراطور السماوي تسع شمس ثم أنزل العقاب بملك النهر بالإضافة إلى قضائه على كثير من الوحوش الضارية في مختلف أنحاء البلاد، فلقى بذلك تقدير شعوب العالم واحترامهم الشديد. وأصبحت العلاقة حميمة بين هو يى والشعب. وراح يتجول في الجبال والأنهار. وعاش في سعادة وهناء.

وذات يوم عاد هو يى من الصيد في الغابة. وعندما مر بنهر صغير رأى على ضفته فتاة تجلب الماء بأنوية من الخيزران. وكان قد أصابه الظمأ بعد أن سار مسافة طويلة. فأتجه إلى الفتاة طالباً منها شيئاً من الماء. عندما رأت الفتاة أمامها بطلاً جميلاً مفعماً بالقوة والنشاط، يحمل قوساً أحمر وسهاماً بيضاء، عرفت أنه البطل هو يى عينه الذي قضى على الوحوش لخدمة البشر. فاستقبلته بالباشاشة والسرور، وقدمت له باقة من الأزهار التي جمعتها من ضفة النهر، تعبيراً عن احترامها لهذا البطل. كما اختار هو يى من غنائمه جلد ثعلب فضي نفيس، وقدمه هدية لها. وأثناء الكلام عرف هو يى أن هذه الفتاة الجميلة تدعى تشانغ، وأن والديها قد توفيا بسبب إساءة الوحوش إليهما. كما عرف أنها تعيش وحيدة في عزلة، وتلبس الملابس البيضاء تعبيراً عن حداثتها.

أحس هو يى بالعطف حيالها، فقال لها كلمات تواسيها وتحفّف عنها. كانت تشانغ

قد شعرت بحب إزاء هذا البطل، وحين لمست منه هذا المطف والاهتمام هامت به حباً. ولم يمتض إلا وقت قصير حتى تزوجا، وأصبحا زوجين متحابين.

ومنذ ذلك الوقت أصبح هو ي يصطحب تشانغ كل يوم عند خروجه للصيد، وعاشا عيشة سعيدة. وأصبحت عودة هو إلى السماء في زاوية النسيان.

مرت الأيام بسرعة، فقد مضى على هو ي ثلاث سنوات على الأرض. وأصدر الإمبراطور السماوي أمراً يحث هو ي على العودة إلى السماء. فتألمت تشانغ لسماعها هذا النبأ، وراحت تذرف الدموع. أما هو ي فقد عز عليه فراق زوجته كذلك.

وحين علم الإمبراطور السماوي إن هو ي قد تزوج على الأرض، ولا يرغب في العودة، اتناه الغضب، وعزله عن منصبه، وحرمه من العودة إلى السماء إلى الأبد. لم يندم هو ي على ما أنزله به الإمبراطور السماوي من عقاب، بل شعر بأنه أمتع بكثير على الأرض مما كان في السماء. لقد أحب هو ي الجبال والأنهار والأشجار، كما أحب الناس البسطاء، وهام حباً بزوجه الجميلة الوفية، لذلك واصل بقاءه على الأرض مسروراً غاية السرور.

ولكن حياة الإنسان محدودة في الدنيا. فمهما امتدت أعمار الناس، وبلغوا السبعين أو الثمانين، أو حتى تجاوزوا المائة. لا بد أن يتركهم الموت في النهاية

وذاذ يوم قال هو ي لزوجه تشانغ:

— عندما كنت في السماء سمعت أن شي وانغ مو التي تعيش في جبل كونلون في الغرب لديها دواء يطيل عمر الإنسان، فلماذا لا نطلب منها شيئاً من هذا الدواء ؟.

اتتاب تشانغ السرور الغامر وهي تسمح كلام زوجها هذا. فأسرعت في تحضير أمتعته وأوصته بأن يمتني بنسبه في السفر، وأن يرجع بأسرع وقت ممكن. وكانت هذه أول مرة يبتعد فيها الزوج عن زوجته بعد زواجهما. وعلى الرغم من أن الفراق أحزنهما، إلا أنهما فكرا في أنه إذا تم الحصول على ذلك الدواء الخاص بإطالة العمر وتناوله، فسيخلدان إلى أبد الأبد، حتى إن إله الموت الفظيح لا يستطيع أن يهدد حياتهما. ثم ودعت تشانغ زوجها بحزم وعزم. وركب هو ي جواده، وحمل قوسه وسهامه وانطلق متوجها إلى الغرب.

لم يكن من السهل الوصول إلى شي وانغ مو. فذلك يتطلب اجتياز جبال شاهقة

وأحراج كثيرة لا حصر لها، بالإضافة إلى صحراء شاسعة مقفرة جوها شديد الثقل. وفوق ذلك يتصب قرب جبل كونلون حازجان يصعب عبورهما. أحدهما نهر روشوى، والآخر جبل اللهب. فلا يستطع حتى الأوز أن يطفو على مياه هذا النهر. أما جبل اللهب فكان يطلق لهيباً مستطيراً، لا يمكن للإنسان أن يقرب منه بسبب ألسنة النار التي تنصاعد منه مع أعمدة من الدخان، يبلغ ارتفاعها عشرات الأمتار. وهذه سرعان ما تحرق جلد الانسان إذا اقترب منها ولو قليلاً

اجتاز هو ي الجبال والتلال قاطعاً مسافات طويلة. وأخيراً وصل إلى ضفة نهر روشوى. فما العمل حيال هذا النهر الواسع؟ الواقع أنه ليس في الدنيا شيء مهما كان قوياً وشديداً إلا وهناك ما يسيطر عليه ويهره. فمن الواجب أن يبدل الإنسان الجهود في تلمس واكتشاف السبل لتذليل العقبات.

تذكر هو ي فجأة أنه قد وجد «خشباً لا يفرق» خلال صيده الحيوانات في الجنوب سابقاً. وهذا النوع من الخشب من أشجار نادرة في الجبل. إنه خشب صلب خفيف الوزن. وكان في ذلك الحين قد قطع بيده بعض أغصانها ورمى بها في بحيرة قريبة، فوجد الأغصان تطفو على سطح الماء كأنها الهواء يحملها ويجعلها لا تلمس سطح الماء، بل تدفعها الرياح فوق سطح الماء عدة سنتيمترات.

اعتقد هو ي انه إذا استخدم هذا الخشب الذي لا يفرق، فقد يتغلب على الصعوبات التي تواجهه في عبور نهر روشوى.

ركب جواده ووصل إلى الجنوب، فغمر على هذا النوع من الخشب. فقطع جذع شجرة وجوفه، وصنع منه قارباً، ثم نقله إلى ضفة نهر روشوى. وعندما دفع هذا القارب إلى داخل النهر لم يلمس القارب سطح الماء، بل ارتفع قليلاً فوقه. فسر غاية السرور وركب القارب مع جواده، وراح يجدف بأقصى سرعة نحو الضفة الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا النهر شديد الاتساع، إلا أن هو ي اجتازه إلى الضفة الأخرى بأمن قاطعاً مئات الكيلومترات، مستغرقاً وقت وجبة واحدة ليس إلا.

بعد أمد قصير من عبور نهر روشوى وصل هو ي إلى جبل اللهب. كان الأمر محسباً في ذهن هو ي بخصوص مجابهة هذا الجبل، إذ سبق له أن قضى على الحيوان «جويونغ» الذي يقذف النار، ويدفق الماء من فمه في نهر شيوغشوى. وعرف أن الجبل السميك الصلب لهذا الحيوان يقاوم الماء والنار. فحين غادر هو ي البيت حمل معه هذا

الجلد. وما هو ذا الآن يخرجوه ويصنع منه نفسه درعاً محكماً، كما صنع منه غطاء خاصاً لجواده.

ركب هو يى جواده وحته بالسوط، فاندفع الجواد نحو جبل اللهب مباشرة. وصعب على هو يى أن يتنفس في ظل الدخان الكثيف واللبه المتأرجح. ومن حسن الحظ أن الجواد الذي ركب هو يى كان جواداً سحرياً يمكنه أن يقطع خمسمائة كيلومتراً في اليوم. فاجتاز خلال برهة قصيرة جبل اللهب الذي كان يغطي مساحة تقدر بعشرات الكيلومترات المربعة. ترجل هو يى عن جواده، وأخذ يتفحص نفسه وجواده، فوجد أنه لم يحترق إلا جزء صغير من ذيل الجواد.

وهكذا تغلب هو يى بفضل ذكائه وشجاعته على أشد الصعوبات التي واجهته في طريقه إلى الغرب للحصول على الدواء السحري. وأخيراً وصل إلى موطن شى وانغ مو على سفح جبل كونلون.

كانت شى وانغ مو تقيم في جبل يسمى ناصع متلألئ يقع في مركز جبل كونلون. ولم يكد هو يى يصل إلى هذا الجبل البشمى، حتى انطلق الطائر تشينغ نيار المسؤول عن نقل الرسائل ليبلغ شى وانغ مو بقدوم هو يى. وعندما عرفت أن البطل هو يى كان إلهاً كبيراً في السماء، وأنه أرسل إلى الدنيا لإسقاط الشمس والقضاء على الوحوش لخدمة الشعب، استقبلته بكل احترام.

وعندما أطلعها على سر قدومه إليها وافقت على مطالبه. فأمرت الطائر ذا الثلاث أرجل المسؤول عن حراسة الدواء السحري بأن يحضر قرعة جميلة، فيها ثمار خاصة من «الشجرة التي لا تموت». فالدواء الذي يغطي عمر الإنسان مستخرج من الخوخ السحري الجاف الذي ينمو على «الشجرة التي لا تموت» والتي تنفتح أزهارها كل ثلاثة آلاف سنة، وتثمر كل ثلاثة آلاف سنة أيضاً. فما أصعب استخراج هذا الدواء السحري!

ناولته شى وانغ مو هذه القرعة قائلة:

— خذها من فضلك، فلم يبق من هذا الدواء إلا ما بداخل هذه القرعة. ولكنه على أية حال يكفيكما أنت وزوجتك. إذا تناول كل منكما النصف، طال عمره وإذا تناول أحكما هذا الدواء كله، صعد إلى السماء، وأصبح إلهاً.

فرد عليها هو يى:

— إنما جئت إلى هنا للحصول على الدواء الذي يطيل عمرنا معا أنا وزوجتي تشانغ. أما الجنسية السماوية فلا تهمني إطلاقاً.

تسلم هو يى من شى وانغ مو هذا الدواء السحري، وشكرها واستعد للعودة. قبل رحيل هو يى دعت شى وانغ مو الطائر ذا الثلاث أرجل للذهاب إلى بحيرة ياونتى ليحضر عشة ياونتى التي تحمل قطرات ندى هدية من شى وانغ مو إلى تشانغ. أن عشة ياونتى هذه عشة سحرية ثمينة جداً تحولت إليها ياونتى الابنة الكبرى للإمبراطور يان اله الشمس. عندما كانت الفتاة الفاتنة ياونتى في الثامنة عشرة من عمرها، أحببت تشى سونغ تشى إله المطر التابع لشن نونغ شى. كانا في البداية صليقين حميمين، ولكن تشى سونغ تشى في الواقع لم يكن مخلصاً لياونتى. ولم يمض إلا وقت وجيز حتى تخلى تشى سونغ تشى عن ياونتى، وذهب إلى مكان آخر. ولكن ياونتى كانت تمنى بشغف أن تلتقيه ليل نهار. فصارت تتجول في كل مكان تبحث عنه وعندما وصلت إلى جبل كونلون في الغرب عرفت أن تشى سونغ تشى قد أحب إلهة أخرى وأصبح يتجول معها في أماكن أخرى، فأتانها الحقد والغضب، وماتت بعد برهة قصيرة.

وبعد وفاة ياونتى، هذه الفتاة الجميلة الجديرة بالشفقة، تحولت إلى عشة من الأعشاب تنمو على ضفة بحيرة ياونتى بجبل كونلون، وأصبحت تنفتح وتثمر باطراد. ولم يكد يمضي وقت طويل حتى أصبحت متحدرات الجبل وضفة البحيرة مملأة بهذا النوع من الأعشاب. أخذ هذا العشب في البداية ينمو على ضفة بحيرة ياونتى، وأطلق عليه اسم «عشة ياونتى». وقيل أن هذه العشة تتجمع على أوراقها وأزهارها قطرات ندى باردة في الصباح أو في المساء طول السنة. وقطرات الندى هذه هي الدرع التي تدرفها الفتاة الحزينة بلا انقطاع. . . وعشة ياونتى ذات طبيعة سحرية أيضاً. فأي امرأة تشمها تصبح لطيفة الطبع جميلة الوجه أيقنة المظهر. ولذلك أطلق عليها اسم آخر هو «عشة الفتنة».

حصل هو يى على الدواء السحري من شى وانغ مو، وأسرع في العودة إلى موطنه. لقد مضى أكثر من نصف السنة على فراقه زوجته، فإله من لقاء سعيد بالنسبة للزوجين! وحين وصل البيت ناولها هذا الدواء السحري، وهو يحذنها عما لقيه في طريقه للحصول عليه. ثم قال:

— هذا هو الدواء السحري الذي حصلت عليه بعد التغلب على جميع الصعوبات والمشقات. إذا تناول كل منا نصفه، طال عمره. وإذا تناول واحد منا هذا الدواء كله

صعد إلى السماء حسبما قالت شى وانغ مو. ولقد قررت أن نتناول أنا وأنت هذا الدواء سوياً. فما دمتا نعيش سوياً إلى الأبد، فلن نكثر لمعيشة السماء! - تعالي وضعيه في مكان ما، واختاري يوماً سعيداً لتتناوله فيه.

وضعت تشانغ هذا الدواء السحري إلى جانبها بسرور. وبعد ذلك ناول هو إلى زوجته تشانغ عشة ياو قائلاً:

- انظري، هذه العشة السحرية قدمتها شى وانغ مو خصيصاً لك.

سرت تشانغ غاية السرور ودققت نظرها إلى عشة ياو هذه قائلة:

- يا لها من عشة سحرية لطيفة لم أرها من قبل إطلاقاً.

ولم تكذب تشانغ هذه العشة حتى أصبحت آية في الفتنه والجمال.

واصل هو إلى عيشه في الدنيا مدة طويلة وكان يأتيه دائماً كثير من الشباب، يتعلمون منه فن الرماية بالسهام. فعلمهم بجهد واجتهاد، وأصبح عدد غير قليل من تلاميذه رماة بارعين.

وكان اربع تلاميذه في الرماية شخص يدعى فنج منغ، ولكن أخلاقه كانت سيئة جداً. فأصابه الغرور والحسد، وأصبح يتمنى كل يوم أن يموت معلمه هو إلى بأسرع وقت ممكن، ليبقى أفضل رام في العالم.

وكان الدواء السحري الذي حصل عليه هو من شى وانغ مو صدمة شديدة لمطامعه هذه، فذبح مكيكة خسية ليشي بها إلى هو إلى.

وذات يوم اغتنم فنج منغ فرصة خروج معلمه هو إلى للصيد، وتسلسل إلى بيته ووجه السهم إلى تشانغ قائلاً:

- سلميني بسرعة الدواء الذي حصل عليه زوجك من شى وانغ مو، وإلا اخترق سهمي هذا حنجرتك على الفور.

أخذت تشانغ على حين غرة، وقالت في ذهول:

- أأنت تلميذ زوجي فنج منغ؟ ما بك؟

فقال فنج منغ بخبث وسخرية:

- منذ أمد طويل وأنا لا أعترف بأن هو إلى معلمي. كيف يتوقع أذاً أن أكون رامياً من الدرجة الثانية طوال حياتي؟ لكم أتمنى أن يموت في الحال.

وقفت تشانغ صامتة لا تحير جواباً من شدة غيظها. بينما شد فنج منغ قوسه بقوة أحدث صوتاً، وصاح بصوت عال قائلاً:

- بسرعة، ناوليني الدواء!

وفكرت تشانغ: هل يصبح الدواء الذي حصل عليه زوجها بعد التغلب على جميع الصعوبات والمشقات في يد هذا الخبيث فنج منغ بكل بساطة؟ كلا! - وأخرجت تشانغ الدواء خلسة من جانبها. وما أن مد فنج منغ يده ليتزج الدواء منها حتى أدخلته في فمها بسرعة، وابتلعت، ثم اندفعت خارج الغرفة.

وحين خرجت تشانغ من الغرفة شعرت على الفور أنها تنهادى كأن سحابة بيضاء رقيقة تحملها، وتصدع بها وتصدع. إلى أين تصعد أذن؟ قررت تشانغ التي تشنق إلى زوجها أن تصعد مؤقتاً إلى القمر الأقرب إلى الأرض. - وحين ظهرت مثل هذه الحسنة في قصر القمر، أصبح نور القمر أكثر بهاء وجمالاً.

أما هو إلى فأصابه ألم شديد عندما علم بالأمر بعد عودته من الصيد، ورفع نظره إلى القمر فاقداً رشده، وقد أمضه الشوق إلى زوجته التي لم يعد باستطاعته أن يلتقيها مرة أخرى، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه.

وحين تنبه هو إلى للخبيث الخائن فنج منغ تملكه غضب لا تحده حدود. فحمل قوسه وسهامه، ثم خرج من البيت على عجل. ولم يتوقع أن يكون هذا الخبيث المكار قد ترصد له في الغابة القريبة من البيت. فحين مر هو إلى في هذه الغابة مسرعاً اتبرى فنج منغ كالشبح، وأهوى على مؤخر رأسه بفرع غليظ من شجرة خوخ، فسقط هو إلى على الأرض ميتاً.

لقد ذهب هو إلى ضحية دسائس ومكائد فنج منغ، ومات ميتة مأساوية. إنها لفاجرة حقاً!

اكتشف الناس هذه الجريمة التي ارتكبتها فنج منغ، فقبض عليه تلاميذ هو إلى، وربطوه بشجرة كبيرة، ثم اطلقوا عليه السهام، فمات على الفور. ولم ينتج فنج منغ في أن يكون رامياً من الدرجة الأولى. إن كل طماع مكار لا يمكن أن يرجو مصيراً حميداً.

بعد وفاة هو يى علقت كل أسرة صورته في البيت تخليداً للذكرى مآثره العظيمة، واعتبروه الناس اله «تشونغ يو». وكلمة «تشونغ يو» تعنى إدارة شؤون الجهات الأربع وفعل الخير. يحكى أن هو يى قضى على الوحوش خدمة لمصالح الشعب قبل وفاته، كما أن روحه ظلت تعتني بالشعب بعد وفاته. فكلما واجه الشعب كوارث الفيضانات أو الجفاف انبرى هو يى يشارك وحوش الماء والجفاف، فظل بذلك إلهاً خاصاً يقوم بحماية مصالح الشعب، وظل خالداً مع الشعب. أما تشانغ فأقامت بعد وقوع هذه الحادثة في قصر القمر منزلة متوحدة. وعلى الرغم من أن قصر القمر قصر منيف، تقيم فيه تشانغ كبقية الإلهات اللاتي يعشن عمراً مديداً، إلا أنها اعتزلت عن الأرض، وفقدت قريتها، مما جعلها تشعر بالهم وحزن مريرين وعزلة لا حد لها.

كان يقيم مع تشانغ في قصر القمر أرنب يشمى يعد العقاقير الطبية. كان قد طرده الإمبراطور السماوي بسبب تناوله عشب سحري سراً، وأنزل به هذا العقاب. وفي وقت لاحق جاء إلى قصر القمر شخص آخر يدعى وو قانغ، طرده الإمبراطور السماوي إلى القمر وعاقبه بقطع شجرة الغار، ذلك لأنه ارتكب الأخطاء خلال تعلم الإلهية. وقد أصدر الإمبراطور السماوي أمراً بأن يعود بعد أن ينجح في قطع تلك الشجرة، غير أن شجرة الغار هذه الموجودة في قصر القمر لا يمكن قطعها إطلاقاً. فحين يهوى وو قانغ على هذه الشجرة بالفأس تشق ويظهر فيها شق. ولكن عندما يخرج فأسه منها يهوى عليها بضربة أخرى يلتحم الشق ثانية، وتعود إلى حالتها الطبيعية. وعلى الرغم من ذلك يواصل وو قانغ المسكين في ضرباته دون انقطاع، متمنياً أن ينجح في قطع هذه الشجرة يوماً ما، فيصفع عن ذنبه، ويغادر قصر القمر الهادئ. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك!

إن الأرنب وو قانغ يعيشان في قصر القمر عيشة تكفير عن الذنوب ولهذا السبب أيضاً جرى اعتقاد أن تشانغ تقيم في هذا القصر لتناولها الدواء السحري سراً، حسبما جاء في حكايات لاحقة. فعلى سبيل المثال نظم الشاعر المشهور لي شانغ ين من أسرة تانغ قصيدة جاء فيها أن الإلهة تشانغ تعيش داخل القمر في السماء الزرقاء عيشة ندم لأنها تناولت سراً الدواء السحري الذي من شأنه إطالة العمر. ولكن الحقيقة غير ذلك. فالواقع أن المصير المؤسف لكل من البطل هو يى والحسنة تشانغ جدير بالعطف والشفقة.

الإمبراطور السماوي

يحكى أنه كان للإمبراطور السماوي سبع بنات ذكيات وبارعات. وكانت الصغرى أجملهن وأكثرهن حباً للخير والاجتهاد، وكانت ماهرة كذلك في الغزل والنسيج، لهذا لُقبت «النساجة».

كانت النساجة دائمة الانشغال في العمل، تجلس عند منسجها، ترمى بيديها المكوك جيئة وذهاباً. أما الأقمشة التي تنسجها غير عادية، فهي عبارة عن سحب في السماء. ألم تر أنه كلما أوشكت الشمس على الزوال انبسطت في الأفق الشرقي سحب مشرقة زاهية الألوان. هذه السحب هي من إبداع فتاتنا النساجة. ولا يستطيع أي فنان ماهر في الدنيا أن يضاهيها في إبداع مثل هذه السحب الزاهية الألوان. وفي الصيف والخريف من كل عام تظهر في السماء الزرقاء سحب جميلة متفاوتة الأشكال، فتصبح السماء أكثر روعة وجمالاً. والفضل في هذا يرجع إلى هذه النساجة أيضاً. كانت تلازم منسجها طوال السنة بلا انقطاع. فقد نسجت «ملابس سماوية» مختلفة الألوان والأشكال حسب الفصول المتفاوتة. ولولا جهودها لكانت مظاهر السماء الشاسعة رتيبة إلى حد كبير إذا ما قورنت بمظاهرها في الوقت الراهن.

شعرت النساجة بعزلة شديدة بعد أن عاشت في السماء مدة طويلة. ولقد أعجبتها المظاهر الطبيعية الجميلة على الأرض وعمل البشر كذلك ومعشتمهم. وذات مرة شعرت بتعب من النسيج، فدعت أخواتها إلى النزول إلى الدنيا ليستحمن في نهر صافي المياه.

بالقرب من هذا النهر أقام شاب توفي والداه منذ طفولته، فعاش مع أخيه وزوجته يرضى بقرعة طول اليوم. فلقبه الأهالي «راعي البقرة». بلغ هذا الفتى العشرين من عمره ولم يتزوج بعد. كان يزرع الأرض كل يوم وكلما شعر بضيق تجاذب الحديث مع البقرة، التي

كانت تفهم كلام الفتى، ويفهم هو كلامها فأصبحا صديقين، يعتني أحدهما بالآخر ويتشاركان في السراء والضراء، وصارا مصيرهما مشتركاً.

وفي يوم من الأيام، بعد أن انتهى راعي البقر هذا من زرع قطعة من الأرض، جرى البقرة إلى النهر لنشرب، فوجد فجأة سبع حوريات يسبحن في النهر ويطاردن بعضهم بعضاً. وكن فائتات الجمال، وخاصة الصغرى بينهن، فهي أجملهن. لها وجه رقيق أبيض وضئ مشوب بالحمرة، فكانه زهرة اللوتس تتألق على صفحة الماء. حقد راعي البقر إليها مأخوذاً، وراح يتأملها مفتوناً بسحرها. حيث إذركت البقرة ما يجول في ذهن هذا الفتى فقالت له:

- يا صديقي العزيز، انقل بسرعة تلك الملابس الموجودة عند شجرة الصفصاف، ومن ثم تصحب هذه الفتاة زوجة لك.

تقدم راعي البقر يضع خطوات، ثم توقف خجلاً من فعل ذلك.

فقال البقرة:

- بسرعة، أيها الأحقر. أنتما خير زوجين!

جرى راعي البقر بسرعة، فأخذ الملابس من تحت شجرة الصفصاف، ورجع بها. اكتشفت الحوريات وجود فتى غريب فأسرعن إلى ارتداء ملابسهن. ثم طرن إلى السماء فلم تبق في النهر إلا النساجة التي لم تجد ملابسها. فكيف تصعد إلى ضفة النهر؟ أحمر وجهها خجلاً وانزعاجاً، ثم صاحت:

- يا راعي البقر أعطني ملابس بسرعة!

توقف راعي البقر عن السير، ونظر إلى تلك النساجة، فانتابته مشاعر عميقة وقال بصراحة:

- أريدك زوجة لي.

مع أن النساجة استطارت غضباً من هذا الفتى الطائش، إلا أنه خلب لبها. فقد شعرت أنه يغلب عليه الإخلاص والبساطة، وأحسنت من نظراته أنه يَكُنُّ لها حباً عميقاً. الواقع أن هذه النساجة لم تكن مقتنعة بالإدارة الصارمة للإمبراطور السماوي وبيحاتها الرتيبة التي تعاني فيها من العزلة والوحدة في السماء مع أنها حورية. لقد كانت تطمح إلى حياة سعيدة في المستقبل مثل فتيات الدنيا. فأومات برأسها موافقة عندما نظر راعي البقر إليها.

وهكذا أصبح راعي البقر والنساجة زوجين. وبينما انهمك الزوج في زراعة الأرض انهمكت الزوجة في الغزل والنسيج. ثم قامت إضافة إلى ذلك بتعليم الفتيات في القرى المجاورة فنون الغزل والنسيج. وعلى هذا النحو استوعب الناس فنون نسج جميع أنواع الأقمشة. وقامت كل فتاة بتعليم عشر فتيات، والفتيات العشر علمن مئات غيرهن. وهكذا انتشرت هذه الفنون بين أهل الأرض.

دارت عجلة الزمن بسرعة. وبعد عدة سنوات أصبح لراعي البقر والنساجة ابن وابنة. وعندما عرف الإمبراطور السماوي أن ابنته النساجة قد نزلت إلى الدنيا، أُرعد وأبرق، وأرسل على الفور حراساً لسنج هذه النساجة على مخالفتها «القوانين السماوية». فاضطرت إلى توديع زوجها وولديها. يا له من أمر مؤلم!

وعادت النساجة تحت الحراسة إلى السماء. واشتاق راعي البقر إلى زوجته، كما اشتاق الولدان إلى أمهما العزيزة. فحمل راعي البقر ولديه وانطلق في أثر زوجته. وقد أوشك على اللحاق بها، ولكن زوجة الإمبراطور السماوي العمة وانغ مو، أم هذه النساجة، أسرعت إلى الحيلولة دون لقاءهما. فلوحت بيدها، فظهر بين راعي البقر وابنتها نهر هائج عريض وعميق - (المجرة). وقف كل من راعي البقر والنساجة على ضفتي النهر مقابل بعضهما بعضاً، عاجزين عن الاجتماع معاً.

وظل الراعي على الضفة حزناً غاضباً، لا يرغب في الانصراف، وراحت النساجة تنظر إلى النهر الهائج والدموع تسيل من عينيها. إنها لم تعد تهتم بنسج السحب على الرغم من أوامر الإمبراطور السماوي، وهذا تمرد عليه. لذلك لم يجد بداً من مصالحتها، ووافق على أن يجتمعا مرة واحدة كل سنة. فكلما حلت ليلة اليوم السابع من الشهر القمري، تبني طيور المعقوق جسراً مؤقتاً ليلتقي عليه راعي البقر وولدها بالنساجة. وقد شعر الزوجان بسروى ممزوج بالألم في هذا اللقاء النادر. وقيل إن السماء في فجر ذلك اليوم تمطر دائماً رذاذاً هو الدموع التي تذرهما عينا النساجة لافتقادهما زوجها وولديها.

وتأثر الناس أيضاً لحياة هذين الزوجين تأثراً شديداً. فكان الكثير منهم في قديم الزمان لا يأوون إلى الفراش ليلة اليوم السابع من الشهر القمري، بل يطيلون النظر إلى السماء حيث يرون نجمين كبيرين على ضفتي المجرة (النسر الطائر والنسر الجاثم) ينتظران فرصة اللقاء بشغف تلك الليلة. وعلى جانبي النسر الطائر نجمان صغيران، هما ولده. ما أشد سرورهما بلقاء أمهما!

وفي ليلة اليوم السابع من الشهر القمري يسمح سحر الناس في أفنية دورهم أزهاراً وفواكه هدية للنساجة، تعبيراً عن شكرهم لها على تعليمها إياهم فنون الغزل والنسيج، وتعبيراً كذلك عن رغبتهم في أن تواصل تعليم فتيات الدنيا هذه الفنون الرائعة.

وفي تلك الليلة يقوم عدد من الفتيات اللعوبات بإخفاء أنفسهن تحت تعاريش العنب ينظرن خلسة، ويسترقن السمع إلى ما يدور بين راعي البقر والنساجة من همس الحب والمواطف المتأججة.

وعلى العموم، فإن الناس قد عبروا منذ سنوات عديدة عن تأثرهم العميق لحياة راعي البقر والنساجة، وعن بغضهم الشديد للإمبراطور السماوي الذي فرق بين هذين الزوجين السعيدين دونما سبب.

البلدان الأجنبية البعيدة

جاء في حكاية «دا يوى يروض الفيضان» إن دا يوى وإجته صعوبات، وصادفته مشقات كثيرة من أجل ترويض الفيضان. وقد أمضى نصف حياته متنقلاً من مكان إلى آخر في بطون الجبال وأعماق الغابات والساحات، إضافة إلى أنه وصل إلى جميع الأماكن داخل الصين وخارجها، حيث عرف حكايات عن كثير من الغرباء والأشياء الغريبة، لم يعرفها غيره. وقص دا يوى بعد إكمال ترويض الفيضان على مساعده بوه يى معارفه وخبراته هذه ليطلع عليها الآخرون ويستفيدوا منها. كما طلب منه أن يسجل ما يقصه عليه. وقيل أن «الكتاب المقدس عن الجبال والبحار» الذي جرى وضعه في وقت لاحق قد ضم حكايات دا يوى هذه.

وفيما يلي حكايات البلدان الأجنبية البعيدة التي جاءت في «الكتاب المقدس عن الجبال والبحار».

1 - بلد العمالقة

ذات مرة وصل دا يوى إلى مكان يدعى جبل بوقر شرق بحر بوهاي آملاً العثور على مكان خاص لتصريف الفيضانات إليه. كان هذا المكان جزيرة كبيرة في بحر الصين الشرقي قريبة من مكان طلوع الشمس والقمر. نزل دا يوى من الزورق الشجري إلى الشاطئ فرأى جبلاً صغيراً من بعيد. وتقدم أكثر من خمسة كيلومترات، فوجد أن ذلك ليس بجبل صغير بل هو قصر كبير بلون الجير، عُلقت فوق بوابته لوحة كتبت عليها أربعة مقاطع معناها «قاعة العمالقة»، وكان في مركز القاعة عملاق ضخم يحرك ذراعيه ويتكلم، يحيط به نحو من خمسة عمالقة. وعلى الرغم من جلوسهم القرفصاء، إلا أن الواحد منهم تراوح ارتفاعه من ثلاثة إلى ستة أمتار. وكان قد سبق لدا يوى أن سمع أن في جبل بوقر بلداً للعمالقة من أبناء وأحفاد التتين، قد أطلق عليه اسم «بلد الملك التتين» وقامة الإنسان

في هذا البلد تراوح عادة من ثلاثة وعشرين إلى ثلاثة وثلاثين متراً. وقد وضعتهم أمهاتهم بعد أن حملتهم مدة ست وثلاثين سنة. وولدوا بشعر أبيض وأجسام عملاقة على الرغم من أنهم كانوا حديثي العهد بالولادة.

كانت «قاعة العملاقة» التي وصلها دا يوى مكاناً لمشاورتهم في الشؤون الرسمية. وصوتهم أثناء الحديث يرتفع مدوياً كقرع الطبل. ولم يستطع دا يوى أن يتحمل ذلك الصوت الهادر، فرجع مسرعاً إلى الشاطئ.

وهناك رأى عملاقاً في قارب صغير يصطاد السمك، ويشبه هذا القارب الصغير السفينة الحربية التي استخدمها أبجدانا. كما رأى عدداً من العملاقة يصطادون السمك في مكان ضحل من البحر، لا ترتفع المياه فيه إلى أكثر من خصورهم. وفجأة، صرخ عملاقان بفرح، ورهما بسمكة كبيرة إلى الشاطئ. فانتكشف دا يوى أن هذه السمكة ليست إلا حوتاً مزعجاً متوسط الحجم. يا له من حصاد وافر! غير أن هذا الحوت يكفي العملاقة وجبة عشاء فقط.

كان دا يوى مأخوذاً بالنظر إليه. وفجأة تناهى إلى مسامعه صوت مدو، فرفع رأسه ينظر، فإذا عملاق يقترب من ورائه. وأوشك أن يطأه بقدمه التي تعادل في حجمها القارب. فقام دا يوى بحركة مفاجئة متجنباً قدمه وهو يصيح

— انتبه يا هذا!

بدا الدهول على العملاق، وانحنى ليرى مصدر هذا الصوت. صحيح أن دا يوى قد صاح بصوت عال، إلا أن هذا الصوت كان ضعيفاً للغاية بالنسبة للعملاق. لقد وصلت قمة دا يوى الذي يعتبر ضخماً بالمقارنة مع الناس إلى كاحل العملاق.

بدا العملاق مندهشاً، ولكنه سال بلطف:

— أنت! من أين جئت؟

أوماً دا يوى بيده إلى الغرب وقال:

— من بعيد.. كنت أبحث عن مكان خاص لتصرف الفضيانات، فوصلت إلى بلدكم.

لفت صوت حديثهما عملاقة آخريين قرب الشاطئ، فجاءوا وأحاطوا بهما. وبدأوا يتحدثون مع دا يوى، وبعضهم يجلس القرفصاء، وبعضهم الآخر يجلس على الشاطئ

الرملي فأخبروه أن في البحر القريب من جزيرة العملاقة مكاناً يدعى «قويشيوى» وهو واد من دون قاع لا يمكن ملؤه بالماء، إن تحقيق النجاح في ذلك ممكن ما دام تصريف الفضيانات إلى مجاري الأنهار ثم إلى البحر، لأن البحر لا يفيض أبداً.

فقال دا يوى:

— ولكن هناك مصب مسدود يحتاج تنظيفه إلى جهد جهيد.

فقال العملاقة بصوت واحد حماسي:

— يمكننا أن نساعدك!

ولم يمض إلا وقت قصير حتى وصل دا يوى مع العملاقة إلى مصب النهر الأصفر. فوقفوا في الماء، وأخرجوا بأذرعهم الغليظة وأيديهم الكبيرة الغرين الذي ملأ المصب، ثم ألقوا به في البحر البعيد. ولم يكد يمضي نصف يوم حتى تدفقت المياه الجارية من المجرى الأعلى للنهر الأصفر. سرَّ دا يوى بمساعدتهم غاية السرور، لكنه لم يجرؤ على دعوتهم لزيارة بلده، فقد خشي من أن يدمر هؤلاء العملاقة المساكن ويسببوا إلى الناس حين يدخلون بلده.

2 - بلد الأقزام

كان وراء البحار بالجنوب بلد خاص بالأقزام يدعى جياوياو. مر دا يوى بهذا المكان، وقد هدته متاعب الرحلة، فرقد على الشاطئ الرملي يستريح، فعليه النوم. وعندما استيقظ أحس بأشياء كثيرة تتحرك من حوله. ولما أمعن النظر، وجد أقزاماً، لا تزيد قامة أطولهم عن تسعة سنتيمترات، يتسلقون الجبال. كانت مظاهرهم تختلف عن مظاهر الناس وقاماتهم في غاية القصر.

دهش دا يوى بذلك، وراح يراقبهم دون حراك. تسلق هؤلاء الأقزام على ذراعيه ورجليه جماعة أثر جماعة، وبعضهم يمتطون خيولا، ويجرون كلاب صيد. أما خيلهم فيحجم الضفادع، وأما كلابهم فيحجم الجداجد.

استولى على دا يوى الدهول بادئ الأمر. وفجأة ركض قزم يلوح بعلم صغير نحو طرف أنه الذي يعتبر أعلى نقطة بالنسبة له لأنه كان راقداً. كان هذا القزم الذي تسلك أنف دا يوى كمناضل باسل، يركب حصاناً قزماً، ويرفع بيده العلم. ويمسك بالأخرى قوساً وصييح. ولكن صوته كان ضعيفاً جداً، فلم يستطع دا يوى سماعه بوضوح. وعندما

وصل إلى طرف أنه، حاول أن ينصب المعلم في منخره ليبين أنه أول من وصل إلى أعلى القمة. شعر دا يوى حينذاك بتمثل شديد، فغطس ثم اعتدل في جلسته، فوقعت كارثة غير متوقعة لكثير من الأقزام الذين تسلقوا وهم يصلون ويجولون بخيولهم، إذ سقطوا على الأرض.

وعندما تذكر دا يوى أن وراء البحار جنوباً بلداً للأقزام - بلد جياويو، ويدعى كذلك تشوراو. وعلى الرغم من أن المواطنين في هذا البلد قصار القامة، إلا أنهم أذكياهم مهرة، يستطيعون صنع آلات مختلفة، ويديرون شؤون بلدهم بانتظام. وقد بعثوا إلى الإمبراطور ياو رسولاً بهدية «سهام بغير ريش» والمعروف أن السهام في العصور القديمة سهام ذات ريش، أي كل سهم يحمل في مؤخره ريشاً يزيد من بعد اندفاعه وليحافظ على توازنه، مما يضمن إصابة الهدف بدقة. ولكن لم يكن أحد يعرف كيف تصنع السهام بغير ريش. لا شك أنه ابتكار جديد، لذلك حظيت هذه السهام بإعجاب الإمبراطور ياو.

وكان طائر الكراكي الأبيض ألد أعداء الأقزام. فكلما نضجت مزروعاتهم. وفدت أسراب الكراكي البيضاء من الجزر الأخرى وابتدت على هذه المزروعات، بل التهمت الأقزام أنفسهم كذلك. وعندما علم الإمبراطور ياو بذلك، أمر مواطني داتشين المجاورة له بمساعدتهم. وداتشين بلد المعالقة. فقامة المواطن في هذا البلد تبلغ ثلاثة وثلاثين متراً. أصبح هؤلاء المعالقة، كلما نضجت المزروعات يقومون بحراستها، ويطرودون الكراكي البيضاء الفتاكة، مما يضمن أمن الأقزام وسلامتهم. لذلك أعربوا للإمبراطور ياو عن عرفانهم بالجميل.

ويحكى أن في البلدان الأجنبية فيما وراء البحار بلاداً أخرى للأقزام خلاف جياويو. ف وراء البحر الغربي، مثلاً، بلد يدعى «التم»، لا تزيد قامته أطول الرجال أو النساء فيه عن عشرين سنتيمتراً. وأهالي هذا البلد أناس متحضرين، يعاملون الناس بأدب واحترام. وجميعهم متعلمون، وينحون احتراماً للملك وكبار السن كما كان يفعل القدماء. وعلى الرغم من أنهم أقزام، إلا أن لديهم مقدرة محيرة تجعلهم يفلتون بسرعة خاطفة. فهم يقطعون مسافة خمسمائة كيلومتراً في اليوم الواحد. وعلاوة على ذلك هم معمرين، يعيش بعضهم قرابة ثلاثمائة سنة. ويحكى أنه لم يكن يسيء إليهم إلا طائر انتم، ذلك الطائر الضخم المقترس ذو العينين الثقابتين والجناحين الكبيرين. فإذا ما هاجمته هذه الطيور، أمعت في مطاردتهم واقتناصهم. ولكن من العجب أنهم يظلون

أحياء في بطونها. فيحكى أن القدماء اصطادوا مرة طائر تم، وفتحوا بطنه، فوجدوا فيه أقزاماً أحياء. ولهذا أطلق على هؤلاء الأقزام لقب «رجال التم» وعلى بلدهم «بلد التم»، ذلك لأنهم اكتشفوا في بطن الطائر.

3 - بلد الشيوخ المعمرين

وصل دا يوى عبر البحار والمحيطات إلى كثير من البلدان المثيرة للإعجاب وهي بلدان الشيوخ المعمرين أو الشيوخ الخالدين.

يحكى أن وراء البحار شمالاً بلداً يدعى «ووجيقوه» حيث يخلد المواطنون دون تكاثر. كان هؤلاء المواطنون يسكنون في كهوف الجبل الواقع في جزيرة بحرية، يتغذون على سمك «تشى يوى» الذي لا يعرف أحد الفصيلة التي ينتمي إليها. فقد كان سمكاً غريباً نوعاً ما. ولم يكن لدى مواطني ووجيقوه فوارق تميز الذكر من الأنثى، أي لم يكن هناك أزواج وزوجات ولا أسر. وقد ماتوا أيضاً بعد أن عاشوا سنوات طويلة، إلا أن موتهم كان مؤقتاً. فكانوا إذا دفنوا لا تتوقف حركة قلوبهم، ولا تنطفئ جفونهم. وبعد حوالي مائة وعشرين سنة يعود هؤلاء الموتى إلى الحياة، ويستأنفون حياتهم كالمعتاد يحيون ويموتون، ثم يحيون من جديد وهكذا دواليك. فالمرت إذاً كان نوعاً ما بالنسبة لهم. لم يقل عدد سكان هذا البلد أبداً ولم يزد كذلك. وكان بلدهم مزدهراً مطوراً، مما جعله ممتعاً شقياً.

وكان وراء البحار بالجنوب أيضاً بلد للشيوخ المعمرين من هذا النوع يدعى «آشينغوه» أي أن هذا البلد كاسرة واحدة، فكل مواطن هناك ينسب لأسرة «آ». وقد تميز كل مواطن في هذا البلد بالوقفة وضخامة الجسم وسواد البشرة وعاش حياة خالدة. ومرد ذلك إلى أن في بلدهم جبلاً يدعى يوانتشيوشان، ينمو فيه شجر يدعى «قانمو» واسمه الآخر «الشجر الخالد»، وثماره لذيذة جداً. ويروى بمياه ينبوع تشى في هذا الجبل. فحين أكل المواطنون هناك من ثمار هذا الشجر، وشربوا من مياه هذا ينبوع، أصبحوا خالدين. وليست أعمار الناس وحدها هي التي طالت، بل طالت أعمار الحيوانات أيضاً. فأصبح من الممكن أن يرى هناك في كل وقت خفاش يعيش ألف سنة وعلمجوم تجاوز عدة آلاف من السنين. فكل الحيوانات هي الأخرى تأثرت بشار قانمو ومياه ينبوع تشى.

وكان وراء البحار غرباً بلد آخر لشيوخ المعمرين يدعى «شيوانبوان تشيشيو»

بالقرب من جبل أجرد. ومظاهر الأهالي هناك غريبة، فكل واحد منهم برأس إنسان وجسد أفعى. وقد ساعدتهم هوانغ دى على طرد تشى يو في أثناء القتال الذي اندلع بينهم في شيوانيان، وقد شادوا مأثر عظيمة في هذا القتال. عندما تغلب هوانغ دى على تشى يو، بنى في بلدهم منصة «شيوانيان تشيشيو» التي ترمز إلى أن مواطني هذا البلد وهوانغ دى هم المتصورون. لقد عاش مواطنو هذا البلد مدة ثمانمائة سنة على الأقل. وكثير منهم عاشوا ألفاً أو ألفي سنة. لذلك استحق بلدهم لقب بلد الشيوخ المعمرين.

وأروع الآلات التي ابتكروها في هذا البلد «العربة الطائرة» ولكن لم تدون طريقة صنعها في السجلات التاريخية بالتفصيل. فقليل أنهم قد صمموا هذه العربة الطائرة بعد أن استلهموا ذلك من «الطائر ذي الرأسين» والجراد المنجح «جي ليانغ».

كان للطائر ذي الرأسين ريش أصفر ضارب إلى الحمرة وجناحان كبيران، وفي مقدم جسده رأس وفي مؤخره رأس آخر. لذلك استطاع أن يطير بسرعة ومرونة إلى أية جهة دون أن يستدير. أما الجراد ليانغ فكان ذا جسد مخطط مكسو بشعر أحمر وعينين براتين كبيرتين الذهب، إذا ما اندفع حلق في الجو. وطار بسرعة خاطفة كأنه البرق. وعلى هذا الأساس استخدم المواطنون في هذا البلد الهياكل الخشبية والريش، وربما أشياء أخرى، في صنع هذه العربة الطائرة التي استطاعت أن تجري على الأرض وتحلق في الجو، فلا تعترض طريقها أنهار ولا جبال. إنها لعربة عجيبة حقاً.

ولما وصل دا يوى إلى هذا البلد، طلب إليه الأهالي هناك أن يركب هذه العربة الطائرة ليتجول في القطب الغربي كله. وأخيراً أرسلوه بهذه العربة الطائرة، عائداً إلى «ميدان ولاية خنان» البعيد عن ذلك البلد مئات الآلاف من الكيلومترات، فلم يستغرق في رحلته هذه أكثر من وقت وجبة واحدة. يا لها من أداة طيران سريعة غريبة.

5 - بلد ذوي الأذرع الطويلة

كان في جنوب بلد ذوي الذراع الوحيدة بلد لذوي الأذرع الطويلة. فعلى الرغم من أن قامة كل مواطن في هذا البلد تعادل قامة الشخص العادي، إلا أن طول ذراعيه قد تجاوز تسعة أمتار. فإذا نام، لم يجد مكاناً يضع فيه ذراعيه. فيضطر إلى الجلوس مستنداً على شجرة وذراعه معلقان على أغصانها. ولذلك بدا في مظهره شبيهاً بالقرد إلى حد ما.

اعتمد ذرو الأذرع الطويلة في معيشتهم على جني الثمار وصيد الأسماك. وبهذا استفادوا كثيراً من أذرعهم الطويلة. فمهما كانت الأشجار مرتفعة. رفعوا أذرعهم وجنوا ثمارها بمنتهى السهولة. أما صيد السمك، فكان سهلاً أيضاً. فإذا جلسوا على شاطئ البحر، مدوا أذرعهم إليه. وبعد وقت قصير يصحب في حوزتهم كثير من الأسماك

وعلاوة على ذلك كان بالغرب أيضاً بلد يدعى «بايميتوه». وكان كل مواطن في هذا البلد ذا بشرة بيضاء وشعر أشيب، ويعيش مدة طويلة جداً. ذلك لأن في بلدهم حيواناً سحرياً يدعى «تشنغ هوانغ»، له شعر ذهبي وذيل كبير مكسو بالشعر. يشبه الثعلب في مظهره، ولكن على ظهره قرنان، ويستطيع الجوي بسرعة خاطفة. لذلك أطلق عليه اسم آخر إلا وهو «هوانغ الطائر» إذا ما ركب شخص عمر ألف سنة على الأقل، وأحرز في عمله تقدماً ونجاحاً ملحوظين.

4 - بلد ذوي الذراع الوحيدة

كان في القطب الغربي البعيد بلد ليس للمرء فيه إلا ذراع وحيدة وطويلة جداً. فإذا قام مريحاً ذراعه على نحو طبيعي، استطاع أن يلمس يديه مشط قدمه. كما كان بثلاث عيون، لكل واحدة منها فائدة خاصة. فبعينه اليسرى يرى نهراً. وبعينه اليمنى يرى ليلاً. وبوسعه رؤية كل شيء بوضوح ومن غير نور. أما عينه الثالثة فكانت شبيهة بـ «المنظارة» يرى بها الأشياء البعيدة جداً، لا تحجبها عن بصره حتى السحب أو الضباب الكثيف إنه لأمر عجيب حقاً. وكان المواطنون في هذا البلد لا يتامون طوال السنة لأن كلا منهم كان له ثلاث عيون، يمكنه أن يستريح في النهار فاتحاً عينه اليسرى ومغمضاً اليمنى، كما يمكنه أن يستريح في الليل فاتحاً عينه اليمنى ومغمضاً اليسرى. وكذلك يمكنه أن يستريح مغمضاً عينه الثالثة إذا لم يكن بحاجة إلى النظر بعيداً. ولهذا كان كل منهم مفعماً بالحياة والنشاط على نحو دائم، يستطيع أن يعمل ليل نهار.

وكانوا أدكياء مهرة. وعلى الرغم من أنهم بذراع واحد، إلا أنهم ابتكروا وصنعوا أنواعاً مختلفة من الآلات والأجهزة. فقد استطاعوا إطلاق كريات لصيد الطيور، لم تقل منها حتى النشور السريعة الطيران. كما استطاعوا إطلاق مائة سهم متتالية دفعة واحدة

والجمبري. ولكن لا تكثر الأسماك الكبيرة في الأماكن الضحلة أو قرب الشاطئ. فلصيد الأسماك الكبيرة لابد لهم من التعاون مع مواطني بلد آخر.

وكان في مكان غير بعيد عن هذا البلد بلد لذوي الأرجل الطويلة. لا تختلف قاماتهم هناك عن قامات الأشخاص العاديين، إلا أن أرجلهم طويلة ورفيعة. فإذا قام أحدهم بدا شبيهاً بالفرجار المستخدم في الرسم. وكلما أراد ذوو الأذرع الطويلة اصطيد الأسماك في البحر العميق نوعاً ما، طلبوا من ذوي الأرجل الطويلة أن يحملوهم على ظهورهم إلى هناك. فلا تصل مياه البحر عادة إلى أعلى من ركبهم. وهناك يمد ذوو الأذرع الطويلة أذرعهم إلى الماء، ويصطادون الأسماك الكبيرة بسهولة. ولو نظرت إلى أشكالهم حينذاك لحسبتهم روافع تعمل في البحر.

وبهذا يتبين أن مواطني هذين البلدين كانوا أذكاء جداً لأنهم عرفوا كيف يستفيدون من نقاط القوة لديهم، إضافة إلى أنهم أحسنوا التعاون الوثيق فيما بينهم.

6 - بلد ذوي الأجنحة.

في الجنوب الشرقي بلد لطيف يواجه بحر الصين الجنوبي. وفيه سلاسل متصلة من الجبال وأحراش كثيفة وكثير من الطيور الجميلة الثمينة. وكان أثنى طائر من بين تلك الطيور عشاء ذات ذيل كبير ملون، تشدو بصوت أعذب من العزف على آلة موسيقية. ويحكى أن العقاء طائر مقدس لا نظير لها، لا تأكل إلا الخبز، ولا تشرب إلا ماء النبع. ولا تحط إلا على شجر البارسل. وفي الأوقات العادية نادراً ما يراها الناس، ولذلك كانوا إذا رأوها، اعتبروا ذلك بشير فال يرمز إلى السلام في الدنيا. وبالفعل كان في هذا البلد كثير من طيور العقاء، كما كان فيه أيضاً طائر آخر بجناح واحد وعين واحدة، لا يحلق منفرداً. بل مع طائر آخر. ولذا درج القدماء على جعل العلاقة الوثيقة بين هذه الطيور مثلاً للحب العميق بين الزوج والزوجة وتوثق الرابطة الزوجية بينهما. ولم يخل هذا البلد كذلك من طيور طريقة أخرى نادراً ما تظهر.

لقد وصل دا يوى عبر الغابات إلى هذا البلد، وقد أنهكه التعب، فجلس يستريح تحت ظلال شجرة كبيرة. وهناك تنأى إلى سمعه فجأة صوت حديث. نظر دا يوى فوقه فرأى رجلاً وامرأة يتجاذبان أطراف الحديث بمحبة. ولكنهما لم ينتهيا لدا يوى في أن يعرف منهما أحوال التضاريس والطرق، فصاح بصوت عال يهتبهما. ولم يتوقع أبداً أن يطيرا محلقتن حول الشجرة ثم يهبطا على الأرض أمامه بهدوء. لقد أدهشه أن كلا منهما

بجناحين. وإذا ما هبط الطائر من هذا النوع، وقف وأسدل جناحيه خلف جسمه.

وكان في هذا البلد أشخاص ذوو أجنحة مثل الطيور، يستطيعون المشي على أقدامهم كما يستطيعون الطيران أيضاً. وهذا أسهل بكثير من أمر ذوي الذراع الوحيدة الذين يقودون عرباتهم الطائرة. ولكل منهم إلى جانب ذلك، قم بارز كمنقار الطائر، وقيل أنهم يبيضون كالطيور أيضاً.

لقد عاش مواطنو هذا البلد على صيد الأسماك، فكانوا يحلقون فوق سطح البحر جماعات جماعات. وكانوا أكثر مرونة بالمقارنة إلى طيور النورس، يستطيعون صيد كثير من الأسماك في وقت قصير. وكلما اصطادوا كمية منها، حملوها إلى الشاطئ، ثم شوهوا بالنار، وتحلقوا حولها يأكلون.

وقد أحب مواطنو هذا البلد الرقص حباً جماً. فكلما حل الربيع، أقاموا حفلة رقص على المروج بين الأحراش ودعوا طيور العقاء لتغني لهم. ثم يبدأ المواطنون، رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفالاً، يرقصون على نغمات الغناء الذي تشدو به طيور العقاء حتى أنها تشاركهم رقصهم ومرحهم في جو حماسي مثير للمشاعر.

7 - أشخاص غريباء وحيوانات غريبة.

وصل دا يوى إلى كل مكان داخل الصين وخارجها من أجل ترويض الفيلسان. ولكن، لم تكن جميع الأماكن التي وصل إليها طريفة، بل كان في كثير منها أشخاص غريباء وحيوانات غريبة مرعبة للغاية.

كان وراء بحر الصين الجنوبي بلد يدعى «بلد النار البغيضة»، كل مواطن فيه بوجه إنسان وجسد حيوان مكسو بشعر طويل، يطلق من فمه لهباً مزوَجاً بدخان كثيف. لذلك خافت منه جميع الحيوانات. ويسكن مواطنو هذا البلد داخل الأحراج الكثيفة. يغضبون أحياناً من غير سبب، فيطلقون حولهم لهباً يشعل الغابات ويحرق الأرض. وهذا ما يجعل الطيور والحيوانات في الغابات تهرب في كل اتجاه. ولم يسلم البشر من أذاهم إذا ما التقوا بهم. لأنهم مخلوقات غريبة مخيفة.

وعلى شاطئ بحر الصين الجنوبي بلد يدعى «شياويانغقره»، كل مواطن فيه بوجه إنسان وفم تسماح. أما جسده فيكسو شعر أسود كثيف. وقدماه تتجهان إلى الخلف. كلما التقى إنساناً ضحك ضحكة رهيبية مفرعة، ثم انقض عليه على حين غرة وأبتلعه.

ترويض الفيضان. لقد تنقل دا يوى من مكان إلى آخر ممضياً نصف حياته في البلدان الأجنبية. ورأى كثيراً من الحشرات السامة والحيوانات المفترسة. ولتجنب الناس أضرار تلك الحشرات والحيوانات خطر بباله أن يطلب من حكام الولايات التسع إتاوات الحديد والنحاس. ثم صنع منهما تسعة آنية كبيرة، ونحت عليها الأماكن المشتملة على أي نوع من أنواع الحشرات والحيوانات الضارة بالإضافة إلى الوحوش والشياطين على اختلاف أنواعها، كي يتخذ الناس الإجراءات والتدابير الوقائية قبل التجول في تلك الجهات. فإيا لهذا الاهتمام الذي أبداه دا يوى تجاه الشعب؟.

وكان هؤلاء المواطنين يحملون معهم دائماً قصباً، يتفخون فيها خلال سيرهم مطلعين أصواتاً حزينة جداً.

ومن البلدان التي مر بها دا يوى بلد لذوي العين الوحيدة، تقع في وسط الوجه. وبلد لذوي الصدور، في كل صدر فتحة مستديرة كبيرة. وبلد لذوي العيون المقعرة، تبدو رؤوس أبنائه كجماجم الموتى. وبلد لكل مواطن فيه ثلاثة رؤوس، يواجه كل منها جهة خاصة. ويستطيع أن يصبح بثلاثة أنواع من الأصوات في آن واحد. وعلى الرغم من أن المواطنين في كل من تلك البلدان المذكورة آنفاً يمتلكون كفاءة خاصة، إلا أن مظاهرهم كانت رهبة رهبة لا توصف.

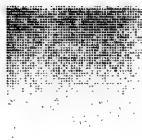
أما الحيوانات الغريبة في مختلف البلدان فكانت كثيرة أيضاً فهناك على سبيل المثال حيوان مفترس يدعى «تشيونغ تشى»، يشبه في مظهره النمر، ولكنه بجناحين. إذا لقيه إنسان، صعب عليه التخلص منه. فهو حيوان طماع شرس، وإذا ما انقض على الإنسان اتهمه من رأسه أو من قدميه.

وكان هناك ثعلب ذو تسعة ذيول. يبدو من حيث شكله ظريفاً وجميلاً، ففروه ذهبي وذيله طويلة ناعمة. إلا أنه مكار، بوسعه التحول إلى أشكال مختلفة كحسنة مثلاً تغري الإنسان، ثم ينقض عليه ويلتهمه.

وبالإضافة إلى ذلك في غابة الجبال شمالاً فراشة طائرة تدعى «الفراشة الحمراء»، يعادل حجمها حجم القليل. تصطاد الحيوانات، وتمتص دماءها، لذلك أصبحت ذات لون أحمر. وطنينها يصل إلى بُعْد عدة كيلومترات ولا نجاة للإنسان من الموت إذا ما مني بلسعة منها.

كما كان بجانب أحد الجداول في الجنوب حشرة تدعى «يوى»، تعتبر حيواناً ضاراً، يبلغ طولها عشرة سنتيمترات. وقد لفت نفسها بغطاء شبيه بالصدفة، تخفي نفسها في الأوقات العادية في الظلام. وكلما مر بها إنسان، أطلقت عليه هواء ساماً مثل السم. يصيبه حتى في خياله، كما يصاب بقرحة لا علاج لها فيموت. ومن حسن الحظ أن يقرب الغابة بلداً يجيد مواطنوه الرمي بالسهم. وقد أحبوا اصطياد هذه الحشرات ليأكلوها بالإضافة إلى الحبوب. ولولا ذلك لكثرت تلك الحشرات، وانتشرت في كل مكان، وأصبحت وبالا على البشر.

ويحكى أن الناس قد طلبوا من دا يوى أن يصبح حاكماً عليهم بعد أن نجح في



الأساطير الفارسية



ربما كان أول من تكلم بالتفصيل عن عجائب إيران وآسيا الوسطى أبو دلف مسعر ابن مهلهل الخزرجي، وكان - كما قدمنا - قد رحل من بخارى إلى الصين ثم رجع من الهند، وذكر بعض أعاجيب رآها في رحلته نقلنا أطرافاً منها في ما مر من حديثنا عن بلاد الهند والصين، وقد تغلغل في التركستان وإيران، وسجل في رسائل مختلفة مشاهداته الغريبة، ونقلتها عنه كتب الجغرافيا وكتب العجائب. وقد طبعت وزارة التربية والتعليم إحدى رسائله، وفيها يصف الكثير من مدن إيران وآسيا الوسطى، متحريراً ذكر المعادن والنباتات والحيوانات والمنتجات المختلفة. وأول مدينة تحدث عنها في هذه الرسالة مدينة شيز في شرقي إيران، وقد ذكر أن بها بيت نار لعبادة المجوم، على رأس قبة هلال فضة هو طلسمه، يقول إنه يوقد منذ سبعمائة سنة لا يوجد فيه رماد، ولا ينقطع عنه الوقود ساعة من الزمان. وفي وسط هذه المدينة بحيرة لا يدرك لها غور، وإذا قصدوا عدو ونصب منجنيقه على سورها، فكلَّ الحجارة التي يقذفها تقع في البحيرة.

والواضح من هذين الخبرين عن البحيرة وبيت النار مدى ما يدخله أبو دلف على وصفه من مبالغات، إذ كان خياله واسعاً يستطيع أن يقلب به الحقيقة إلى عجيبة غريبة، وهو أول من خط هذا الاتجاه ووسع فيه، وتحول فيما بعد إلى كتب العجائب التي نوهنا بها في القسم الأول من هذا الكتاب. وكان يكثر من ذكر الطلاسم التي تمتاز بها المدن، فكل تمثال وكل هيئة غريبة طلسم، كما تحدث عن تاريخ البلدان ومنشئها من ملوك الفرس أو من غيرهم، وهو كمدينة شيز وهرمز ملك الفرس.

والم أبو دلف بمدينة قرميسين وبجل بيستون القريب منها، والمعروف أنه نحتت بها صور وتمائيل هي من عجائب الدنيا من بينها تمثال عظيم لدارا الأكبر، يشير إلى انتصاراته على ملوك مائين بين يديه. وبالتقرب من ذلك طاق بستان وبه تمثال لكسرى الثاني أبرويز

وللفرس أساطير كثيرة، حول الجبل تتصل بملوكهم الأسطوريين، أمثال أفريدون، ويقال إنه سجن فيه الملك الظالم بيوراسب (الضحاك) بإحدى قممه وأنه لا يزال حيا به على الدهر لا يموت. كما ويظنون أن الأصوات الكتيبة التي تسمع من البركان هي أبنه وتأوهات، وأن الدخان الذي يتصاعد من شقوق الجبل والعيون التي عليه هي أنفاسه. وهناك أسطورة تزعم أن سليمان حبس به ماردا، وأخرى تزعم أنه الجبل الذي رست عليه سفينة نوح. ولتترك أبا دلف يحدثنا عنه:

«بندباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ، لا يفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا، لا يقدر أحد من الناس أن يعلو ذروته ولا يقاربها، يعرف بجبل بيوراسب. وتزعم العامة أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس فيه مارداً من مردة الشياطين يقال له صخر المارد. ويزعم آخرون أن أفريدون الملك حبس فيه بيوراسب، وإن دخانا يخرج من كهف في الجبل تقول العامة أنه أنفاسه. ويرون نارا في بعض كهوفه فيقولون أنها عيناه، وأن مهمته تسمع هناك. فاعتبرت ذلك ورصدته، ولزمت المكان وصعدت في الجبل حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس. وما أظن أحدا تجاوز الموضع الذي بلغت إليه، بل لم يصل إليه إنسان فيما أظن. فتأملت الجبال، فرأيت عينا كبيرة نقية وحولها كبريت متحجر، فإذا طلعت عليه الشمس والتهب ظهرت فيه نار، وإلى جانبه ماء (سيول) يمر تحت الجبل، تخرقه رياح مختلفة، فتحدث أصواتا متضادة على إيقاعات متناوبة، فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحمار ومرة مثل كلام الناس. وهي مثل الكلام الجهوري دون المفهوم وفوق المجهول، يخيل للسامع أنه كلام بدوي ولغة انسي، وذلك الدخان الذي يزعمونه بخار تلك العين الكبريتية. وهذا الحال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ما تدعيه العامة. وما رأى أحد رأس هذا الجبل في وقت من الأوقات منسحرا عنه الثلج، إلا وقعت الفتنة وأريقَت الدماء من الجهة التي يرون الثلج منسحرا عنها»

وقلما يذكر أبو دلف بلدا ألا يعود ببناها إلى ملوك إيران أو بعض التابعة للبيعة أو جن سليمان. وتكثر هذه النسبة الأسطورية في كتب المعاجيب، كما تكثر معها الخرافات.

ولنستعرض بعض ما جاء في كتابات القزويني، يقول عن «أبهر» إحدى مدن إيران أن سابور هو الذي بناها، وكانت كلها عيوناً، فسدها بالصوف والجلود وبني المدينة عليها. أما أصبهان فقد بناها الإسكندر المقدوني وعمرها باختنصر بأسراه من بيت المقدس. وقد نزل في قديم الزمان عسكري في «بروجرد» فمسح حجارة صلبة. ويقرب

على فرسه شديز وصورة شیرين زوجته لتمثال دارا والملوك القائمين بين يديه فقال إن هذه الصورة تمثل دارا أستاذاً، ومن بين يديه من الملوك تلاميذه، وزعم أن الانحناه البادي فيه هو انحناه الأستاذ في يده سوط.

ويمضي أبو دلف فيمر بهمدان ويذكر أنها كانت مدينة دارا الأصغر الذي هزمه الإسكندر، ولا تزال هذه المدينة في وسطها، ويقول في وصفها: «مدينة كبيرة مبنية على دكة (طوار فسيح) يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، ولها أربعة أبواب وطاقات عالية». ووصف أبي دلف للمدينة أو لقصر دارا غير دقيق، والمعروف أن ملوك الفرس في هذا التاريخ، كانوا يتخذون لقصورهم درجاً خارجياً يرقاه القادم إلى الطوار الواسع الذي شيد عليه القصر بيهو الفسيح، وغرفة ومقصوراته الكثيرة، ويتراوح ارتفاع الدرج بين عشرين وخمسين قدماً، ويستطرد أبو دلف فيذكر هذه الأسطورة التاريخية:

«قيل إن دارا لما زحف إليه الإسكندر شاور وزراره في مدينة حصينة يحرس فيها أهله وكنوزه، فقال له بعضهم: أعرف مدينة خربة بين جبال شامخة وطرق وعرة، إن بناها الملك وأحضر فيها ذخائره ووكّل بحفظها أربعة آلاف من ثقاته امتنعت على كل من رامها، ووصفها له، فسار إليها دارا حتى رآها وعلم أنها تمتنع على من أرادها، فبناها وجعل فيها خزانين جامعة لأمواله وكنوزه، وجمع فيها أهله ووكّل بها ثقاته. فلما كان من أمر الاسكندر مع دارا ما كان، أنفذ إليها جيشاً عظيماً، فأقام عليها مدة لا يقدر على فتحها، فهم رئيس الجيش بالانصراف، فقال له نصحاؤه: وكتب الإسكندر إلى مؤدبه أرسطاليس يعرفه أمرها، فأجابته: صورها لي بطرقها وجبالها وأنهارها. ففعل ذلك، وأنفذ الصورة إليه. فكتب يأمره بسد نهرا على نحو فرسخ منها ستة بطولها، ويوثق سده، فإذا كان بعد سنة فتح الماء، وقرن البقر والجواميس والبغال والدواب بعضها مع بعض وأرسلها في الماء فلأنها تفتح السد، وإذا فتحت حمل الماء على المدينة فهدم سورها ونهيا له دخولها. ففعل ذلك، فاقطع الماء بحدته لما افتتح السد سور المدينة وحمل معه صخوراً كبارا لا تزال في شوارعها، ودخل أصحاب الإسكندر المدينة واستولوا عليها».

ويصل أبو دلف إلى جبل دناوند في شمالي إيران، وهو أعلى جبالها، إذ يبلغ ارتفاعه نحو 21 ألف قدم، ولا يفارق الثلج قمته صيفا ولا شتاء، وهو يرى على مسيرة عدة أيام، ويبعد من طهران إلى الشمال الشرقي نحو خمسين ميلاً. هو جبل بركاني كان لا يزال يرسل حممه في العصور الوسطى، وقد وصفه جغرافيو العرب بأنه ينث الدخان نهراً والنار ليلاً، وسيوله غنية بالمواد المعدنية، وخاصة الكبريت، وبه عيون كثيرة.

نهاوند جبل عليه طلسمان: صورة ثور ومسكة، وجبل آخر عليه إيوان كبير يسع ألف نفس، وفي آخره أربعة أحجار تشبه أئداء النساء، يتقاطر من ثلاثة منها الماء. وبالقرب من قزوین جبل عليه صور حيوانات وأناس مسخت أحجاراً، منها راع متكئ على عصاه يرعى غنمه، وامرأة تحلب بقرة. وبجرجان عين بقرها دودة، شرب أحدهم من العين ومست رجله تلك الدودة فأصبح الماء مرا لا يمكن شربه. ومن عجائب جيلان أن المطر يسقط بها مدراراً، فإذا سمعوا بالليل صوت ابن آوى وأقبحه نياح كلب، بشر بعضهم بعضها بصحو الغد. وبالقرب من طبرستان حصن الطاق، وكان في قديم الزمان خزانة ملوك الفرس، وأول من اتخذها منهم منوچهر، وهو تقب في موضع عال في جبل صعب المسلك، والنقب يشبه باباً صغيراً، فإذا دخله الإنسان مشى نحو ميل في ظلمة شديدة ثم خرج إلى موضع واسع أشبه بمدينة قد أحاطت به الجبال من جميع الجوانب، وهي جبال لا يمكن صعودها لارتفاعها. وكان يحفظ هذا الثقب في أيام الفرس رجلاً من طبرستان يدلّاه من الموضع الذي هما فيه إن أراد أحدهما النزول، فلا يصل إلى الأرض إلا خلال دهر طويل!

وفي طبرستان على بحر الخزر شجرة إذا أقيمت شيتا من عياداتها في الماء يموت ما فيه من السمك، ويطفو على وجهه، وجبل به مغارة فيها دكة إذا لطخت بشيء انفتحت السماء وأمطرت مطراً شديداً. وفيها حشيش من قطعه ضاحكا وأكله، غلب عليه الضحك، ومن قطعة باكية وأكله غلب عليه البكاء، وكذلك من قطعه رافضاً، فكل من قطعه وهو على حال غلبت عليه. ويقولون أن بها طائراً يسمى ككوك، ذيله يشبه ذيل البيناء، يظهر أيام الربيع، فإذا ظهر تبعه صنف من العصافير موثاة الريش، يخدمه طول نهاره، ويأتي له بالغذاء حتى إذا أمسى المساء أكل ما حوله من تلك العصافير، وإذا أصبح صاح فجاءته عصافير أخرى، تقوم على خدمته حتى إذا جاء المساء أكلها، وما يزال هذا شأنه طوال الربيع، فإذا زال الربيع قفد ذلك النوع إلى الربيع القادم.

ومن بلاد التركستان طمناج وأهلها يتخذون من الذهب أوانيهم، وهم زعر لا شعر على جسد، ورجالهم ونساءهم. وفي مدينة تسمى الغور عين يذهب إليها الناس في يوم معين من السنة، فيرمون فيها مهامهم، فإذا أصبحوا وجدوا السهام خارج العين، وعلى نصل بعضها رؤوس الحيوانات من الذهب، أما رأس طير أو سمك أو أوز أو حيوان آخر، وبعض السهام تخرج وليس على رأسها شيء. وبها السمنلد وهو حيوان كالغار

يدخل النار ولا يحترق، ويخرج والنار قد أزلت وسخه وصفت لونه وزادته بريفاً، ويخذ من جلده مناديل ثمينة، وإذا استسخت أقيمت في النار فزال وسخها. وفي التركستان ثلج ويرد كثير، وحصى إذا حركوه سقط عليهم الأمطار الغزيرة.

ويروي القزويني إن في قزوین مقبرة، يأتيها الناس ليلة الجمعة، فيرون بها أنواراً غريبة تصعد من القبور وتزل فيها، يقول: ولقد رأيت في بعض الليالي عجايب، وذلك أنه قد طلع من بعض قبورها كرة قدر إبريق، وصعدت نحو الهواء أكثر من عشرين ذراعاً، وأضامت الجوانب بنورها ورأها غيري خلق كثر، ولم تكن على لون النار، بل كانت على لون القمر ضاربة إلى الخضرة، ثم عادت إلى مكانها. وبسمرقند جبل به غار يتقاطر منه ماء بارد صيفاً وحار شتاء، وفي طشقند جبل حجارت سود تحترق مثل الفحم، وإذا احترقت اشتد يابض رامادها، فيستعمل في تبييض الثياب، ولا يعرف شيء مثله من البلاد. وفي فرغانة نبات على صورة الأدميين، منه ما يكون على صورة الرجال، ومنه ما يكون على صورة النساء. وقد مرت بنا أسطورة جبل دناوند عند أبي دلف مسمر بن مهلهل، وانتهت عند القزويني وسط هذه الخرافات والتهويلات إلى هذه الصورة:

«ذكر محمد بن إبراهيم أنه شخص إلى دناوند ليقيم على المحبوس به، فوافي القرية التي في حضيض الجبل، ومعه بعض عساكر الخليفة المأمون، فظفروا أياماً يرومون الوصول إلى بيورايب ولا يبتدون إليه، حتى أتاهم شيخ كبير عمره نيف وتسعون سنة، فأعلموه مرادهم، فقال لهم: أما الوصول إلى هذا الملتسم فلا سبيل إليه، لكن أن أحيتم الوقوف على صخرة ذلك أريتكم برهانه. فاستحسن محمد بن إبراهيم رأيه وصعد الشيخ، قال محمد بن إبراهيم: وصعدنا خلفه إلى الجبل، وأوقفنا عند موضع، وقال: يا لغوا في حفره، فحفرنا حتى انفتح لنا عن بيت متقور من الحجارة وفيه تمثال على صورة عجبية، وهو يضربه على أغلاله ويقيده ساعة بعد ساعة من غير فتور. فسلنا الشيخ عن شأنه، فقال: هذا طلسم على بيوراسب المحبوس ههنا، ثلثا ينحل من وثاقه، فإنه لا يزال يشد في أغلاله حتى ترق وتلين، فإذا ضربتها بمطرقتي عادت أغلاله كما كانت في غلظتها وثخانتها. ثم أمرنا ألا نتعرض للطلسم وأن نرده إلى ما كان عليه، ففعلنا كما قال، ثم انتهينا إلى سلاطمة أطول ما تكون، فأمر الشيخ بشد بعضها إلى بعض، حتى بلغت قريباً من مائة ذراع، ثم أمرنا برفعها وبنقب موضع في الجبل، فظهر باب عليه مسامير حديد مذهبة ووفوه كتابة بالذهب تنطق بأن في قمة الجبل سبعة أبواب من حديد، وأن من فتح أحدها هجمت على الإنجليم أفة لا تندفع، وحادثة لا تمتنع. قال محمد بن إبراهيم، لمن معه: لا

تعرضوا لشيء حتى نستأذن الخليفة. وكتب إلى المأمون بما شاهد هو ومن معه من المسكو، فكتب إليه المأمون: لا تعرض لشيء من ذلك وأتركه على حاله.

وأكبر كتاب يعرض لهذا التاريخ الأسطوري لإيران وللفرس هو كتاب «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» لأبي منصور الحسين بن محمد المرغني الثعالبي، وهو غير الثعالبي مؤلف كتاب التيمية المشهور، وكان يعاصره كما كان يعاصر الفردوسي الذي نظم قصيدة قصصية طويلة تربو على أربعين ألف بيت من الشعر في تاريخ الفرس من أول نشأتهم وقد ضمنها كثيراً من الأساطير.

وكتاب الثعالبي المذكور يعرض كذلك تاريخ الفرس منذ نشأتهم الأسطورية وما اقترن بها من ملوك خرافيين، وهو يعرض هذا التاريخ عرضاً بديهاً، تسوده القصة والخرافة في كثير من جوانبه، وقد عرض في أوائل كتابه للملك الأسطوري بيوراسب الذي يسميه العرب باسم الضحاك، وكان ظالماً سفاكاً للدماء، بدأ حياته بقتل أبيه. وكان إبليس كثيراً ما يتصور له، وقد قُتل منكبيه يوماً ونفخ فيهما من خيئه وسحره، فخرجت بهما خيَّتان، كلما قطعتا عادتا كما كانتا وأكثتا جداً. وتصور له إبليس في صورة طيب، وقال له إن هاتين الحيتين لا تهدآن إلا إذا أطعمتا برؤوس الآدميين، فكان يقتل كل يوم شابين ليطعم الحيتين، وما زال يفعل ذلك بشباب فارس عشرات السنين، حتى ثارت عليه الرعية وعلى رأسها أفريدون، فقتله واستولى على الملك من بعده. يقول الثعالبي، «ويزعج الفرس إنه حمله إلى جبل دنباوند وحسبه في بئر هناك». ومن أكاذيبهم أنه لا يزال يعد من الأحياء بهذا الجبل وأنه من المنظرين كإبليس إلى يوم القيامة.

ويمضي الثعالبي على هذا النحو في كتابه يقص أخبار ملوك الفرس قصصاً أسطوريا خرافياً حيناً، وقصصاً واقعياً حيناً آخر، ومن أساطيره التي لا يقبلها العقل أسطورة اسفنديار الذي اخترق مدينة الصفرية بطريق لم يسلكه أحد، به ذئبان كالقيلين وأسدان كجبلين وثعبان يهجم من السحاب (التنين)، وساحرة تسحر من يمر بها وعقاة (الريح) قاتلة، ويقتحم اسفنديار الطريق ويقتل كل هذه الدواهي، فيدخل مدينة الصفرية ويتغلب على ملكها أرجاسف.

من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم

اسفنديار يقتل تنينا

لما شارف الأمير الفارسي اسفنديار المرحلة الثالثة في طريقه المخيف إلى بلاد الترك تقدم الجيش وأسرع بالسير حتى انتهى إلى موضع تنين، فلبس اسفنديار السلاح وأمر بتحول العجلة والصندوق إلى فرسين آخرين أقوى من الأولين، وركب في الصندوق وفتح الباب الأمامي وصاح بالفرسين فجريا وجرا العجلة بما عليها، وكأنهما اتخذتا الريح الأربع نعالاً لهما. وحين اقتريا من التنين سار إليهما كأنه سحب أسود فجذبهما بأفهامه، وأراد أن يتلعهما فقص بالصندوق ونشبت الصلوص في حنكه، فلم يقدر على البلع ولا على التخلص من الصندوق وفتح اسفنديار بابه المتأخر ووثب منه، وطلق يضرب التنين بسيفه، حتى قطعه، غير أنه سقط صمقاً من هول الرائحة الممتنة التي وجدها في جسمه. ولحق به جيشه، ورآه القواد كاشف الوجه فظنوا أن التنين قد عمل عمله، وأنه مات، وأمر بعضهم برش الماء البارد على وجهه وصدره، فأفاق، وقال: لا تهموا فأني سالم ولم يمسنني سوء، وإنما ساءتني الرائحة الممتنة للتنين. واجتمع الجيش ينظر إلى الثعبان الممول وهو لا يزال يتحرك، فتعجبوا من كبر جسمه وهول منظره وكثرة دمائه، وأثروا على اسفنديار ودعوا له.

اسفنديار يقتل ساحرة

أمر اسفنديار بالرحيل بعد قتله للتنين، وحين ارتفع الحجاب عن حاجب الشمس شارف المرحلة الرابعة، فتقدم الجيش كعادته، وأخذ معه بعض الطعام والشراب وعوداً لطيفاً، وسار مسرعاً حتى انتهى إلى منزل ساحرة كان سمع أنها تعيش في هذا الطريق

وتفتك بمن يمر فيه. ولما انتهى إلى منزلها رأى روضاً غديراً وأشجاراً كأن الحور أمارتها قدودها وكستها برودها، فنزل في ظل شجرة ملتفة الأغصان على غدير صاف، وقيد فرسه، وتناول بعض طعامه، ثم أخذ العود، فغره واستنطق وتره، وغنى غناء معناه: إلى متى تترامى المغاور والجبال بي، وتبوء الأوطان والأوطار عني؟ حكام خوض الحروب ومعاماة الخطوب؟ وأين السور بوجوه الحسان وغزالة الغزلان؟ إن الذي أنزلني هذا المكان الذي يحكي الجنان، قادر على أن يقر عيني بجارية وسيمة، تسرني بطلعتها وتؤنسني بمساعدتها. وكل ذلك على مرأى وسميع الساحرة، فقالت في نفسها: قد وقع الأسد في الحيلة، وجاءني الغنيمة، ولم تلبث أن برزت في صورة جارية كأنها فلقة قمر على برج فضة، وعليها من الحلبي والحلبي ما يروق ويشوق. وأقبلت فجلست بجواره، فرفع يده وقال: سبحانك ما أعظم شأنك وأتم سلطانتك وإنعامك إذ رزقتني في مثل هذه البقعة مثل هذه الصورة المقصورة على الجمال والكمال. وصب عصيراً كان معه كويأ، وشربه على وجهها، وملأ الكوب فتأوله إياها، فشرته، وأخذاً يتنادمان. وكانت مع اسفنديار سلسلة لا يعمل فيها السحر، فأخرجها في خفية منها، وأعدّها، حتى إذا عطست الساحرة ألقاها في عنقها، وأوثقها بها، فتحولت إلى صورة أسد، تخرج النار من فمه، وجعلت تجذب نفسها من يده، فقال لها: أني أنا اسفنديار، وهذه سلسلة لا يعمل فيها السحر، ولن تفلتي من يدي، فأظهري نفسك كما أنت لي. فظهرت عجوزاً شوها أقيح من زوال النعمة، وأوحش من موت الفجاءة، وقالت له: يا اسفنديار لا تكن ضيف سوء، ولا تنس حرمة المنادمة، وأطلقني أنفك، فضربها بسيفه ضربة فرقّت بين رأسها وجسدها، فثارت غبرة شديدة وانتشرت ظلمة أعادت النهار ليلاً، وتجلت عما قليل. ونصب رأس الساحرة على خشبة وركزها في تل حتى أقبل العسكر فنظروا إلى رأس كهول طلوع الروح، ووجه كفضاء السوء وشكروا الله على جميل صنعه.

اسفنديار يصيد العنقاء

ورحل اسفنديار بجيشه حتى قارب منزل العنقاء (أنثى الرخ) في المرحلة الخامسة من طريقه، فأمر بإعداد العجلة التي يركبها وتركيب السيوف الحداد والأسنة الشداد في الصندوق الذي عليها وأحكامها من الخارج، ثم حملها على فرسين مستوفيين شرائط العلق وجودة الجري، وقعد في الصندوق وصاح بهما، فجريا كالهواء العاصف، وانتهيا إلى شجرة باسقة، فوقفا في ظلها. وأقبلت العنقاء من الهواء كالسحابة المرعدة لمظلم

جسمها وحفيف أجنحتها، وانقضت على العجلة تريد أن تخطفها هي والفرسين، فلما أهرت إليها وضربت نفسها بها نفذت فيها السيوف والأسنة المركبة في الصندوق، وكلما زادت ضرباً بأجنحتها ازدادت النصول نشوباً في جسمها وأجزاءه. ووثب اسفنديار من تلك العجلة، فرشقها بالسهم المسمومة حتى ضعفت، ثم واصل ضربها بسيفه حتى سقطت وخمدت. ووصل الجيش، فرأوا العسكر ساقطة كالطود العظيم، ومنقارها كأعظم ما يكون من المعادل، ومخالبها كأطول ما يكون من الحراب، فتمجبوا من أمرها وأثروا على اسفنديار ثناء كثيراً.

عقاقير تحيي الموتى

كان لكسري أنوشروان مائة وعشرون طبيباً بين رومي وهندي وفارسي، وكان برزويه من أشهر أطباء الفرس وأكثرهم دراسة للكتب، فوجد في بعضها أن ببلاد الهند جبلاً، فيها من غرائب العقاقير ما يحيي الموتى فما زال ذلك يدور برأسه، ويسمو بهمة إلى طلبه وتحصيله، حتى أخبر أنوشروان بما في نفسه، واستأذنه للنهوض والسعي في الظفر ببغيته، فأذن له وأعانته على سفره، وزوده بكتاب إلى ملك الهند حتى يهتم بأمره، ويعمل على إنجاح مطلبه.

ولما دخل برزويه الهند وأوصل كتاب أنوشروان إلى ملكها أكرمه وحكمه في مناه، وأنهضه لوجهته في طلب العقاقير من مظانها. فما زال يجد ويجتهد ويتعب ويداب في محاولة اجتثاثها والتقاطها وتأليفها وتركيبها، حتى كان مثله بعد حين من الدهر كما تقول عامة بغداد: ما زلنا في لا شيء حتى فرغنا. واستشعر الكآبة والانخدال لما فاته من مراده وما ذاع من أيامه، وتصور الخجل من أنوشروان إذا عاد مخففاً إليه، فسأل عن الأطباء الأكثر شهرة والحكماء الأشد حكمة بأرض الهند، فدل على شيخ عالي السن، فأنابه، وقص عليه قصته، وذكر له ما قرأه في بعض الكتب من حديث جبال الهند واشتمالها من العقاقير على ما يحيي الموتى، فقال له: «يا برزويه حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء. أما علمت أن ذلك رمز للقدماء، والمراد بالجبال العلماء وبالعقاقير كلامهم الشافي الكافي. وبالموتى أن العلماء يؤدّبون الجهال بحكمهم، فكأنهم يحيون الموتى. وهذه الحكم موجودة في كتاب مَعْتُون باسم كليله ودمنة، لا يوجد إلا في خزنة الملك، فسرى عن برزويه وسُرَّ بما سمع.

ورغب برزويه إلى الملك في إعارته هذا الكتاب، وتقليد الملك أنوشروان بذلك مئة مشكورة، فقال له الملك: سأمر بإعارته لك إيجاباً لصاحبك، ورعاية لحقك، شريطة

أن تقرأه بين يدي، ولا تتخذ منه نسخة لنفسك فأجابه برزويه بالسمع والطاعة، وجعل يحضر في كل يوم مجلسه، ويدعو بالكتاب فينظر فيه، ويحفظ معانيه، ويقيدها بالكتابة إذا رجع إلى منزله، حتى أتى على جميعه. وأستاذن الملك للعودة إلى صاحبه، فأذن له وأهدى إليه وخلع عليه. وحين وصل إلى أنوشروان أخبره بقصته وبشره بحصول الكتاب لديه، ثم عرض عليه، فأعجبه به وأجزل صلته، وأمره بزرجمهر ينقله إلى اللغة الفترسية، فتلطف برزويه وتضرع إلى الملك في الأذن، بافتتاح الباب الأول منه باسمه وذكره، فأجابه إليه. ولم يزل الكتاب مخزوناً عند ملوك الفرس حتى نقله ابن المقفع إلى العربية.

صندوق السر الغامض

لما نكب كسرى أنوشروان بزرجمهر أمره بأن يختار لسكناه موضعاً لا يبغى عنه حولاً في الصيف والشتاء، ولطعامه شيئاً واحداً لا يستبدل به وللباسه ثوباً لا يتعداه إلى غيره، اختار السرب (البيت الذهب تحت وجه الأرض) لكونه في الصيف بارداً، واختار القرو، ليلبسه في الشتاء حتى إذا دخل الصيف قلبه. فظالت أيامه في المحنة حتى كف بصره. وأتفق أن أنفذ قيسر إلى أنوشروان صندوقاً صغيراً مقللاً مختوماً، وسأله أن يحاول معرفة ما فيه قبل فتحه. فسأل أنوشروان من يباه به العقلاء عن ذلك، فساوت أقدامهم في القصور عن الإجابة والإصابة. وعلم أنوشروان أن ليس له إلا بزرجمهر على عماه، فأمر بإطلاقه وإدخاله الحمام وإلباسه ما كان يلبس من ثياب الوزراء وأدخله. فامتلأ أمره، وأوصل بزرجمهر إلى مجلسه، فقربه، واعتزل إليه، وأخبره بحال الصندوق، وسأله عما فيه، فاستمهل ليلة. ثم ركب في الصباح الباكر وقدم أمامه رجلين وأمرهما أن يخبراه بأول من يستقبله، فاستقبلته امرأة فقال لها: أبكر أنت أم ثيب؟ فقالت: بكر، فانطلق فاستقبلته ثانية فقال لها: أليم (لأزواج لها) أم ذات بعل؟ فقال: ألك ولد؟ فقالت: لا، وانطلق فاستقبلته ثالثة فسألهما عن حالها، فقالت: ذات ولد. وانطلق بزرجمهر حتى دخل على أنوشروان، وسأله الأمر بإحضار الرسول والصندوق المختوم فاحضرا. فقال بزرجمهر: إن في الصندوق ثلاث درر إحداها غير مثقوبة والثانية منصفه، والثالثة مثقوبة. ففتح عنها، وكانت كما وصف. وتعجب أنوشروان من فطنته وتدم على نكتته، وعاد إلى قديم صلته والرفق به.

صقر وعصفور

يحكى أن خسرو بن فيروز، أحد ملوك الفرس، جلس يوم مهرجان للهدايا، فجاء منها طبق مغطى بمنديل حرير مويذان (من كهنة المجوس) فأمر بكشفه. وإذا في الطبق فحنتان محترقان، فتعجب من سخف الهدية مع شرف ظرفها (وعاتها)، ثم قال: ما أراها إلا مشتملة على حكمة فعلي بالمويذان. فلم يلبث أن قدم، وسأله خسرو عن الفحمتين، فقال: أعلم أيها الملك إنني اجتزت بروضة عالية الأشجار، قد اشتعلت فيها النار، ورأيت صقراً يتعقب عصفوراً، فهرب منه العصفور، واقتحم النار من خوفه، وتبعه الصقر حتى دخل في النار على إثره حرصاً على صيده، فاحترقا معاً، وسقطا فحمتين. فأخذتهما معتبراً بهما، وقلت في نفسي: لا ينبغي للإنسان أن يشعر خوف عدوه كل الاستشعار، حتى يقدم من شدة الخوف على الاستجارة بما يهلكه كالعصفور الذي أحرق نفسه لفرط خوفه. ولا ينبغي للإنسان أيضاً أن يحرص جداً على متاع الدنيا، حتى يمشي بقدمه على دمه في التوصل إليه، كالصقر الذي جنى على نفسه بشدة حرصه. فقال خسرو: ما أوعظ هديتك وما أحسن موقعها، وما أهديت إلى اليوم مثلاً، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه.

الأساطير الإغريقية

الأساطير الإغريقية



الاوليسه

للساعر الخالد «هوميرس»

ملخصه عن ترجمة للكاتب الإنجليزي «شابمان»

قد يكون من اللغو أن أقدم إليك هذه القصة وناظمها، وقد يكون اعتداء مني صارخاً على أدبك وعلمك أن اعتقد بأن «الاوليسه» اسم جديد أطلق به عليك. فأنت على الأقل قد عرفت ما عرفت الإلياذة وقرأت عن تأثيرها في أدب أوروبا وقصصها وخيالها الشيء الكثير، وأنت على الأقل تعرف أن نهضة القرن السادس عشر قد استمدت الوحي من هوميرس وشعره، وأن الشعراء والكتاب الذين نجموا في ربيع أوروبا، قد اتخذوا من تقليده أساساً يبنون عليه قصصهم وآدابهم.

وأنت بعد ذلك لا شك تطلع على قراءة هذا الشعر الذي ملأ ذكره الآفاق، فما أسعدني بأن أقدمه إليك أو أن أقدم لك شيئاً من روحه وعظمته، فإن أصبت الظفر فحسبي وإلا فإني أستحيك العذر.

قدم العهد بسقوط طروادة وأوبة أبطال حربها، بيد أن أوليس لم يعد إلى وطنه في أتيكا. فتقاطر نفر من المواسين على داره يرتدون لباساً مزخرفاً زائفاً من الأسف والأسى، وهم في الحقيقة كانوا يتوافدون ليذكروا الغائب بما يختلج قلب زوجته بنلوب وابنتها تليماكوس.

وما مات أوليس ولكن المقادير طوّحت به إلى جزيرة اوجييا حيث احتواه قصر كليسو سبع سنين، كان فيها ممتقلاً رغم الأنف وأخيراً أجازت له الآلهة أن يعود إلى وطنه.

ولقد استطاع هذا السائح الغريب أن يشهد من مدائن الدنيا عديداً، كما استطاع أن يختبر المخلوق وألوان حياتهم وصفوف أزيائهم، بيد أنه لقي في سبيل ذلك أهوالاً جساماً،

وجالد بنات الدهر وصروف الزمان جلادا. وكم وقف هو وصحبه على حافة الهاوية فجهد لخلاصه وخلصهم حتى سقط به الإعياء وعلبه، نقدر إليهم.

جاءت بالاس إلى تليماكس وتقدمت إليه بأن يحرق في سفينة يسقط أخبار سيده ثم أُنحت باللائمة على الجالسين فهب من بينهم أنطونيوس وأنشأ يقول: عطف كريم وقول محمود ينم عن نفس صافية وقلب فاش؛ ولكننا نكر منك هذا التعنيف لخير ما جرية ولا إثم.

وألح الجمع على تليماكوس بالسفر فنزل عند إرادتهم وسار متكررا في رفقة اثنين إلى نستور ثم إلى ميناوس في إسبرطة، فقص عليه هذا كيف اعتقل بروتوس وكيف ذبح أخاه أجاممونيون. ثم جاء ذكر أوليس فقال: «لقد رأيت ابن ليرتس في قصر كلبسو (آلهة الماء) محولا بينه وبين وطنه وهو بتلك الحيلولة مبيتس حزين لا ترى في وجهه يوماً من الأيام إشراقاً»

ثم أطلع تليماكوس إلى بلاده مزودا بالأعلاق والهدايا، فتأمر صحبة على أخذه غيلة في الطريق. وفيما هم في ذلك تقدم هرمز إلى الإلهة كلبسو ففكت عقال أوليس وغادر أوجيبا في زورق لم يقر على مغالبة الأنواء، فرسا في جزيرة فيكيما ونزل إلى الشاطئ حيث أوى إلى مامن بين الأشجار اضطلع فيه ليستربح من وعاء الطريق ويلقي عنه غبار السفر. وما هي إلا هنيهة حتى أخذ الكرى بمعاقد أفاعله وراح يغط في النوم غطيظا عميقاً.

تنفس الصبح عن يوم جديد جميل وخرجت الأميرة نوسيكيا في جمع من خادماها وخلتها إلى شاطئ النهر يغسلن ما اجتمع لديهن من ملابسهن فلما فرغن منها سبحن ورتعن ما شئن ثم دهن أجسامهن الناعمة البضة بالطيب والزيت وقمن إلى الكرة يتعمن بمداعبها مرحهن وسرورهن.

ولست بمحدثك عن نوسيكيا وجمالها بأكثر من أن أقول بأنها هي المثل الأعلى للحسن والنضرة. وقفت تتوسط جمع اللاعبات وتدفع الكرة هنا وهناك في رفق ولين، وتشد أغنية شجية بصوت عذب رخيخ حتى كانت مرة شدت فيها على الكرة فخرجت عن الدائرة هاوية وسط الأشجار بين الصباح والهتاف. وأفاق أوليس من نومه فهوول إلى مبعث تلك الأصوات الناعمة.

كان في مظهره شيء من الخشونة أورثه إياه أسفار البحر وركوب الأهوال، وأنى

للعذاري أن يشئن لمثل هذا المفاجئ الغريب. فطوت كل واحدة منهن ملابسها وأطلقت ساقياها في الهواء مدعورة ترى أين تختبئ، إلا نوسيكيا فإنها وقفت مستبلة رغم ما اعترأها من وجل وذعر. ولا غرابة فقد جاءت بها بالاس ونفخت فيها من الثبات ما يعوزها في هذا الموقف وكان لها ما أرادت.

تقدم أوليس نحو الأميرة ثم جثا بين يديها ذاهلا مبهوتا وهو يقول «هل لي يا سيدتي أن أمالك فتفصحي لي إن كنت من تلك الأحياء الفانية أو من ذلك الجنس الثوراني الخالد؟. إن كنت من الآلهة فأنت لا شك كوكبهم الوضاء، وأنت لا شك سيدها سكان السماء، وإن كنت بشرا تدبين على الأرض دبيبنا وتحيين في ربوعها حياتنا فسقياً ورعياً لأبوين أنجباك وهتياً لبعل يسعده الجد باحتضانك ورشف ماء الحياة من تلك اللقى والشفاء...».

ثم سأله أن تخلع عليه لباساً وأن تريه الطريق إلى المدينة. فهتفت بخادماها أن يجيئونه إلى ما يطلب فكسوه وأطعموه ومنحوه زيتاً وعطورا ثم انتحبن ناحية ريثما يصلح من هندامه. ووافته في تلك الآونة بالاس فأفرغته في جمال باهر شعرت نوسيكيا عند رؤيته بأن قلبها يخفق خفقانا غريبا. ولكنها انتهت إن هي الحقته بحاشيتها أن يتساءل الناس في المدينة، فأشارت إليه بأن يتبع أثرها وأن يكون منها على كذب ثم أنشأت تصف له قصر أبيها وتقول: إذا جئت الساحة فسل المتول بين يدي والدتي واجتهد أن تتال رضاها فقد تشرق بكلمة واحدة منها، شمس سعادتك وهنالك، قد يكون مطعم آمالك الساعة إن تركب إلى بلادك، فترى بيتك منظوما وترى ألك راتعين في حلل من الرقة وقد يكون غير ذلك ولكنها بلا شك تستطيع أن تدني إليك قطاف كل ما ترون إليه في سماء الأمل والخيال.

وسارت نوسيكيا بين ندمائها كالجوهرة في العقدة أو كالبلدر في صميم السماء وتبعهن أوليس بعد فترة ما. ثم قابلته بالاس في الطريق فحدثته عن الملك الكسينوس والملكة آرت ولكنه كان مأخوذا بالهيبة والجلال، فما زال في طريقه لا يلوى على شيء، ولا يفكر في شيء حتى دخل على الملكة فجثا أمامها وقبل الأرض بين يديها في تضرع من أثقلته الهموم. بيد أنه رغم ذلك قوبل بالتحية وأفسح له الجمع مكانا فجلس وجلسوا جميعا يصتتون إليه، ثم قام أحدهم ينغم أنغاما موسيقية ويشد عن سقوط طراوة نشيدا شجيا فبكى أوليس وانتحب فسأله الملك ما خطبه، فقص عليهم قصته وأخبار تجواله قال:

صخرة نائمة هوى من تحتها على السفينة ولكنه أخطأها. وهكذا استطعن أن نفلت إلى كهوف إيلوس إله الريح ثم إلى أرض المغاريت ومنها إلى جزيرة أيا حيث تقيم جماعة السحرة. فأرسلت طائفة من جندي يتحسسون الطريق، فاستطاعوا أن يروا في الأفق منزل الساحرة العظيمة ورأوا أمامه جمعا هائلا من الذئب والسياع. ثم رأوها تطعمهم ويأشرون منها واحدة يتقبلون هجوما. ولما سمعت ذلك هرولت إلى هناك ولكن هرمز اعترض طريقي ومنحتني أعشابا اتقي بها السحر وكانت منه رعاية جديرة بالشكران فأنى ما كدت أصل إليها وأتمثل أمامها حتى لوحث نحوي بعصاها فاستلكت سيفي على الفور وهددتها أن أضرب عنقها إن هي عادت إلى ذلك.

أجل. روعتها و أومض سيفي فانار بوميض ما أظلم من موقفها وأرغمها على أن تنزل منزلها فبحث بين يدي ضارعة خاشعة ثم قالت وقد جرت أمواه شؤونها «رباه، أي أرض أنجبتك. لا بد أن تكون أوليس بن ليرتس فما أحسب هذه الشهامة لأحد سواء».

فأجبتها «لقد صحت فراستك فانھضي إلى حل الرموز ودعيني أرى رقتي» وصعدت بالامر راضية أو راغمة وما هي إلا برهة حتى جاءوني يسعون. فتلاصقت الصدور والتفت الأذرع وارتفعت الأصوات بالتهته ولكن الساحرة لم تشأ أن تغادر الجزيرة تورا، فنزلنا عندها سنة كاملة زرت خلالها مساكن هيوز ثم سافرنّا تشيعنا بالأسى والأسف وتحذرتنا عما ينتظرنا من أهوال وصعاب، فذكرت السرينتز وهم قوم في السحر جدد ماهرين وذكرت السكيلا ذات الرقاب الست والأسنان الحادة ثم شارينديس التي تستطيع أن تغرق فاما تتبعل أمواج البحر جميعا.

وقد رأينا هؤلاء فارتعنا لمنظرهم وما زلنا نفر من مكان إلى مكان حتى نزلنا جزيرة تسوم فيها قطعان البقر. وما هو إلا أن جرو أحد رقتي على ذئب أحدها حتى حلت بنا التهمة وعمل فينا سيف الموت فلم ينتج منه إلّا أي.

انصت الملك فأحزنه أمر هذا الشريد ورغب في أن يعينه على العودة إلى بلاده. فزوّده بالهدايا ورحله في سفينة إلى شاطئ أثينا. فما نزل به حتى أعجله النوم فسقط به حيث كان ولما فتح مقلتيه رأى بالاس قد وافته لترشده إلى طريق يسلكها مع أعدائه. ثم نفخت فيه فبدلت من شبابه ونشاطه كهولة واسترخاء وجال أوليس فيما يكثفه. فأتى على الراعية الآمنة أمائس فتقبلته هذه قبولا حسنا وقصت عليه ما أتاه المواسون من المنكرات دون أن تعرف من هو. وفي هذه اللحظة كانت بالاس قد جاءت بتليماكس من إسبرطة

وبعد رحلة طويلة شاقة وصلنا جزيرة الأغوال وهبطت الأرض في اثني عشر رجلا من رقتي. ولما وافيّا كهف الغول الكبير ابتدلنا في لهجة المتكلم الساخر «بنح بنح للضيوف الكرام، ما الذي طوح بكم إلى هذه البحار النائية، أتجارة أم سياحة أم تلصصا أغراكم بارتياح أرض مثل هذه غريبة تعرضون فيها أرواحكم البرية للهلاك والدمار».

نحن نجاهد ابتغاء مرضاة الآلهة.

آلهة ؟! ذلك محض غباء وجنون تحاولون به أن توهمونى وتدخلوا الرهبة في قلبي. ولكني أسف شديد الأسف لطيش سهمكم دون غايتكم. فنحن الأغوال لا نحفل بآلهتكم الناعسين وأستطيع وحدي أن أقاوم إرادة جوف معبودكم العظيم.

ثم دنا والتهم اثنين من صحبي وانكفأ إلى مضجعه حتى إذا انفرجت لمة الظلام عن جبين الفجر وامتد لسان الصباح إلى حلقة الليل يمحو سوادها ويذهب بدولتها، خرج إلى سائمتها فاقادها ثم عرج فافترس اثنين آخرين. ولم يكن لنا بعد ذلك إلّا أن نصمت فحزمتنا أمرنا على فقه عينه عند أوبته.

مضت سحابة النهار فعاد الغول يتوسط غنمه عند الأصيل. وما انتهى إلينا حتى بطش باثنين منا وآوى يريد أن يهجع، ولكني اجترأت على حديثه وتقدمت إليه بكأس من النبيذ قائلا تفضل يا سيدى فاجرع هذا الكأس، فما سال ماؤه إلّا في النهر المقدس، نهر نكتار. ثم انظر ألا تريد أن تعرف اسمى فإنتى أدعى - لا أحد».

فخاطبني في غلظة... «لا أحد ؟! نعم سأكلك في النهاية حين لا يبقى أحد من إخوانك».

ثم انصرفنا وما هي إلا نهاية حتى هجع فأخذت حربة وطعته في عينه أقول من هولها عويلا دونه هزيم الرعود. واجتمع الغيلان يتساءلون ما خطبه ؟ فصاح بهم (لا أحد) أوردني مورد الحنظ فهزوا أكتافهم ساخرين. ثم قالوا «إذا كنت قد جلبت على نفسك الضر وإذا لم يكن أحد قد مسك بمكروه فمن العيب أن تصيح وتعمل. ولكنه قام متعشرا يتلمس الصخور والحوافز رجاء أن يمسك بإنسان. وكنا قد استلبنا ثلاثة خراف ثم أخذنا سمنا إلى البحر. فلما نزلنا في الماء صحت أقول «أيها الغول، إذا سألك سائل عن اسم الذي جرو على ثلم عينك فقل أنه أوليس بن ليرتس ربيب أثينا والحائز على لقب حامي المدينة. قل إنه نقأها وأخرجها على سن ورمحه».

فلما قرع هذا سمعه ولول ولولة حائقة تجاوزت بها أرجاء الجزيرة ثم صعد على

بعد فراق طويل جرجا فيه الألم من كأسين، كأس البين وكأس الأسفار، ثم كأس المومنين وحديثهم المزيج.

ثم سأل الزوج زوجته أن تكتم الخبر وأن تدعه ينقل الحيلة التي رسمها فأكرمت منه ذلك وأبت إلا أن تعاونه ما استطاعت. وفكر الاثنان في حيلة لطيفة عقدا النية على تنفيذها.

زالت دولة الظلام وخلع العالم إهابه الحالِك إلى ثياب العرس الناصعة البيضاء وأشرق النهار باسماء الجو رائقاً. فنزلت بنلوب إلى جماعة المومنين ولما توسّطت الجمع قالت: «لقد طالت غيبة أوليس (وهنا سقطت أمائس منتجة باكية) حتى نفذ صبري وما كان لملئي أن يصبر من هذا الأمد الطائل برهة واحدة. واليوم أريد أن أقيم بينكم مباراة، فمن كسبها منحت قلبي وعقدت على حبه خنصري. ذلكم قوس العزيز الراحل ستناولونه الواحد بعد الآخر، فمن أصاب هذا الهدف المتراني في الأفق البعيد أصاب بسهمه عصفورين ثانيهما قلبي الظامي» إلى غلالة يطفئ بها شوقه وعذابه.

ثم غادرت المكان وتقدم القوم للرماية فلم يظفر بالهدف منهم ظافر وأخيراً تقدم الطارق الغريب بقدم ثابتة حتى تلاقى القوس فتأبطه وجعل يقول: «أمائس عزيزتي، أيها القوم، ألا تعرفوني، ألا تعرفوني سيدكم أوليس. لقد حضرت بعد تجشم صعاب هائلة لأعود إلى الوطن فلم ألق منكم إلا العقوق والخيانة. سأشترك معكم في هذه المباراة.

وهنا ارتفعت الأصوات بالتلذذ فصاح خدام القصر وصاح تليماكس ودعز المتأفقون فسكتوا بلجدة الأنف وأخذ أوليس يميث بوتر قوسه فينغم نغماً دونه نغم الموسيقى شجوا ورقة ثم ما برح يمالح السهم في هواده حتى انطلق يصفر في أجواء الفضاء فأصاب صميم الهدف وأصاب إلى جانبه اثنته المومنين جميعاً.

ولم يقف أوديسس عند هذا بل تناول سهماً آخر وهو يقول في رزانة وثبات: «حسن جداً لقد أصبت الهدف الذي قصرتم جميعاً عنه، ولكن هناك هدفاً أدق فانظروني قليلاً حتى أضربه». وما كاد يصل من كلامه إلى هذا الحد حتى انطلق السهم من يده فصرخ أنطونيوس وسقط به في مكانه. وعلى أثر هذا ثار المومنين وحاولوا الوصول إلى سيفوفهم، فوقف أوليس وخاطبهم غاضباً «مكانكم أيها الجنابة الرعايد. لقد كنتم أمواتاً في طروادة وكنتم من ملطني تفرقون، فترتد فرائضكم وتتصلك أسنانكم فما الذي حدا بكم حتى تعيثوا في منزلي هذا العبث وتجروؤن على زوجتي هذه الجرأة؟ ألم تحسبوا

وسارت به متخيلة دور المومنين. وما كادت الراعية تراه حتى قامت له إجلالاً وحجته التحية الواجبة للأمرء، وقام الشيخ الأثيب يحيي الزائر، فسألته أمائس أن يجلس وألا يرهق نفسه بالقيام والقعود. ثم خرجت هذه هنيهة في بعض شأنها وخلعت بالاس على أوليس شبابه ونشاطه برهة فعرف الولد أباه وأشرق جبينه برويته. ثم طفق الرجل يقول «عد يا بني إلى وطنك فداهن الوائسين وراوغهم واصبر على كيدهم، أما أنا فسأذهب إلى المدينة في صحبة هذه الراعية الآمنة وسأحاول الظهور بمظهر الفقير البائس العاني، فلعلهم يستخفون بي ولا يفكرون في أمري، لا تجزع يا تليماكس إن رأيته بينهم خاشعاً وحذار إن تنس التأهب والاستعداد. ليكن معك نفر من خلعتك متدعراً بالأسيايف والأرماح حتى إذا أعوز الأمر مضينا ومضوا ذبحاً وتقتيلاً».

وما زال الحديث بينهم سجلاً حتى لعب الشيب بفردى الليل فاختلف الشاب إلى المدينة ينقل وصية والده. وتبعه أوليس والراعية بعد حين، فما كاد يقد على المدينة حتى لمح في ساحة من ساحاتها كلباً يسمونه أرجوس، فعرفه وعرف أنه اليون الذي دلّه وأعزّه وأين تلك المعزة والدلال مما هو فيه من شقوة وآلام؟ لقد كان ينام في الفراش الوثير ويشتر بالدعس والحريز فأصبح مهيناً يقوم على حراسة الثيران وينصب لكسب القوت نصباً لا عهد له به. وهكذا تدور الأيام حتى على الحيوان الأعجم فتعبت به ما تعبت وتذيقه من صنوف الآلام والأوان العذاب ما تذيقه.

تقطر قلب أوليس لرؤية كلبه وزاد به الوجد عندما انتصب الحيوان قائماً ودنا منه يتمسح بأرجله، فأسكت بين أهدابه دمعاً حائرة فكفنها الحياء، ثم مضى في سبيله متثاقلاً مضطرباً حتى وافى مجلس المومنين. فرحب به تليماكس ورحبوا هم به أيضاً إلا أنطونيوس. فإنه أخذ كرمياً ولطم به الطارق الغريب. فلم يابه أوليس لللمعة هذا النذل ولم يدب بها تيرماً أو شجراً وإن كان قلبه بين جناحيه قد تنجر لوفاقته.

تنجر الجميع ألباقون بهذه الفعلة الشنعاء وارتفعت من جوانب المكان أصوات استنكار سمعتها بنلوب. فأرسلت إلى أمائس أن يوافقها بهذا الزائر، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً إلا بعد أن لبس ستار الليل فادخل إليها ولم يفصح لها عن أمره بل لفق حوادث وحكايات ومخاطرات فقصّها في صوت متهدج حزين، حتى أسال عبراتها ونال من قلبها، فهتفت بالخادمة العجوز أركليا وأمرتها أن تغسل للزائر أقدامه وتزيل عنه بعض ما أصابه في تلك الأسفار الطوال. وما كاد يكشف عنهما حتى اقتضض السر وعرفت بنلوب كل شيء، وعرفت أنه زوجها أوليس من نذبة في إحدى رجليه. ولما انصرفت الخادمة تعافاً

للمستقبل حساباً ثم ألم تخشوا يوماً تحاسبون فيه على أعمالكم إن شرا فشر وإن خيراً فخير؟ لقد تناسيتم هذا اليوم مع أنه كان منكم قاب قوسين أو أدنى، وها هو اليوم قد جاء، فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون. إن الموت الزؤام عاقبتكم ولن تجدوا منه مفراً.

ثم حمل تليماكس وأبوه على الأعداء فذبحوهم رغم حصولهم على السلاح من خادم خائن وبقيت منهم بقية ولّت الأديار فاقضيا أثرها وأباداها.

طار الخدم بالخبر إلى سيدتهم بثوب فهللت له وكبرت وعاد أوليس فعانق زوجته عناقاً طويلاً سكبا خلاله دموع الفرح باللقاء والنصر المبين.

أما المواسون فقد طفق هرمز يجمع أرواحهم ويكدسها في منزل هينز كما تتكدس الخفافيش في ظلمات الكهوف، حتى إذا انتهى من عمله دعا ببعض الجهنميين وساروا إلى مقر أرواح الآلهة فرأوا أرواح بتروكلس وأنطلوكلوس وأجاسس تقدم الجميع أمام بليون.

ثيسوس.. بطل أثينا

لم يكن من أبطال أثينا من هو أعز على أبنائها من ثيسوس، ولا عجب، فقد صنع بطولته بيديه القويتين، وانتزعها انتزاعاً من بين براثن الأخطار. فحينما رحل أبوه إيجيوس إلى أثينا ليجلس على عرشها في عهد الملك الأول، تركه جنيثا في بطن أمه وقال لها وهو يودعها مشيراً إلى صخرة هائلة: «إذا كان ما في أحشائك غلاماً، وشبّ قوي البأس بحيث يقدر وحده على دحرجة هذه الصخرة، فسيجد تحتها سيفي الأعظم وخفيين يتعلمهما، ويستطيع حينئذ أن يلحق بي، ويكون خليفتي على العرش».

وجاء الوليد ذكراً، وشبّ قوياً غاية القوة، وما علم بقصة تلك الصخرة حتى رفعها بيديه من غير كبير عناء، ثم تقلد سيف أبيه، واتمل خفيه، وأعلن عزمه على اللحاق به. ولما أخبرته أمه بأن أباه أعد لرحلته سفينة جيدة قوية الشراع، أبى أن يركبها إلى أثينا، لأن الرحلة إليها بالبحر هيئة لا مشقة فيها ولا خطر. أما الطريق البرية إليها فتحققها المخاطر والأهوال، إذ يكثر فيها القراصنة والوحوش وقطاع الطريق. وجدير بمن كان مثله ينشد إكليل الأبطال أن يركب الصعاب ويتحدى الأخطار.

وهكذا ودع أمه وجده، ثم اتجه إلى أثينا وحده، لا يؤنسهُ إلا سيف أبيه الباتر، وقلبه الفتى الشجاع، فلقي في الطريق أولئك الأشرار الفاتكين، الذين أشاعوا الرعب في قلوب المسافرين، فقتلهم أجمعين.

وتحدثت بلاد اليونان كلها بما صنع «ثيسوس» البطل الشاب، فسبقته شهرته إلى أثينا واستقبله أهلها استقبال الغزاة، ودعي إلى مأدبة تكريم في قصر الملك أبيه، من غير أن يعلم هذا الأخير أنه ابنه الذي تركه جنيثا في قرية نائية بالجنوب.

وأوجس الملك خيفة من شهرة البطل الفتى الذي احتل أعلى مكانة في قلوب

وحلت نوبة الجزية عقب وصول «ثيسوس» إلى أثينا، فأبى إلا أن يكون من بين الشبان السبعة، وألح في ذلك إلحاحاً شديداً، حتى قبل والده على مضض كبير.

ولما حان وقت الرحيل، قال ثيسوس لأبيه:

— لقد نويت قتل الملك المينوتور بعون الآلهة، كي أخلصكم من هذه الجزية الشنعاء، وسأعود بعد ذلك في سفينة الورد الأثيني جاعلاً لها شراعاً أبيض، بدل الشراع الأسود الذي كان شعار الحداد على ضحايا أثينا الأبرياء.

ولما وصل شباب أثينا إلى كريت، عرضوا على الناس في موكب حافل قبل أن يلقي بهم إلى «المينوتور» وكانت «أرياند» ابنة مينوس الحسنة ممن شهدوا ذلك العرض، فراق في عينها «ثيسوس» الوسيم القوي، وأجته لساعتها، وانصدع فؤادها إشفاقاً عليه. نبعث من فورها إلى «دايدالوس» مهندس والدها البقري، ليهيئ لها وسيلة للخروج منه، ثم بعثت إلى «ثيسوس» خلسة بأنها ستعيته على النجاة إن هو وعد باصطحابها إلى أثينا حيث يتزوجها.

ولم يبد الفتى اعتراضاً. قدّمت إليه «أرياند» كرة من الخيط الرفيع المتين زودها بها «دايدالوس»، وأمرته أن يربط طرف الخيط في باب الحظيرة من الداخل، ثم ييسط الخيط من الكرة وهو ماضٍ في طريقه فيدله الخيط على طريق النجاة.

وفعل ثيسوس ما أشارت عليه به، ثم تقدم ثابت الجنان رابط الجأش يفتش عن ذلك الوحش مينوتور، إلى أن عثر عليه نانفاً في بعض الشعاب، فانقض عليه، وأخمد أنفاسه غير مستعين بشيء سوى قبضته القويتين، ثم عاد إدراجته مستهدياً بذلك الخيط، ورفاقه ورفيقاته من ورائه يهتفون فرحين.

وتحت جنح الليل اختطفوا «أرياند» وركبوا سفينتهم عائدين إلى أثينا، ولكن الأميرة المنكودة ماتت في الطريق فعزن عليها ثيسوس حزناً عظيماً.

وفي غمرة ذلك الحزن الفادح على مثقلة حياته، نسي ثيسوس ما وعد به أباه، فلم يستبدل الشراع الأبيض بالشراع الأسود. وكان الملك أبجيوس من سفرة وحيد فوق مربب الأكروبول الشاهق، لتقع عينه على السفن من أقصى الأفق. فلما رأى الشراع الحالك، أيقن بهلاك قرة عينه، وألقى بنفسه من فوق قمة الأكروبول فمات لساعته غريقاً في البحر. وسمي البحر منذ ذلك اليوم بحر «إيجيه» نسبة إليه.

الأثينيين، وأوحت إليه زوجته «ميديا» - وكانت ساحرة عرفت بسحرها حقيقة ثيسوس - أن يدس له السم في كأس الشراب أثناء تلك المأدبة. فلما هم الفتى يتناول الكأس المسمومة رافعاً سيفه بنحية الفروسية التقليدية، عرف الملك ذلك السيف وحامله، وسرعان ما اختطف الكأس من يده ثم احتضنه فرحاً فخوراً به، بينما فرت «ميديا» ناجية بنفسها إلى آسيا.

أعلن الملك على رؤوس الأشهاد ثيسوس ولده وولي عهده ووارث ملكه. فأقيمت معالم الأفراح، وزاد الشعب به تعلقاً، ولعرش والده ولاء.

ونسحت بعد ذلك فرصة مواتية كي يزداد ثيسوس في نظر الأثينيين قدراً ومكانة. فمن قبل ذلك بسنوات جاء ابن ملك كريت إلى بلاط أثينا زائراً، فافتقر الملك خطأ ما كان له أن يتورط فيه، إذ بحث بضيقة الشاب في مهمة خطيرة، هي اقتناص ثور وحشي هائج، فقتل الثور الأمير.

وغضب ملك كريت لمصرع ولي عهده، فاجتاح مملكة أثينا وأعلن أنه سيسويها بوجه الأرض فلا تقوم لها قائمة أبد الدهر، أو يعث إليه ملكها مرة في كل تسع سنين بجزية فريدة في بابها هي سبع عذارى وسبعة شبان من أعرق الأسر في المدينة، ليقدف بهم إلى وحش هائل يلتهمهم إلهاماً. ولم يكن هذا الوحش سوى «المينوتور» الرهيب نصف الأدنى ثور، ونصفه الأعلى بشر. وفي رأسه قرنان، وقوته قوة الضياغم، وشراسته شراسة النمر.

ولهذا الوحش الأسطوري تاريخ مسطور مشهور، فأبوه ثور أبيض رائع، أهدها الإله بوسيدون إلى مينوس ملك كريت كي يقدمه إليه قرباناً على مذبح هيكله. ولكن مينوس أفتن بجمال الثور وقوته فزع عليه أن يذبحه قرباناً، واستبقاه في قصره الملكي معزراً مكرماً فغضب الإله بوسيدون، وانتقم منه بأن أشعل في قلب زوجته «باسيفاي» الحسنة حب ذلك الوحش حباً جامحاً جعلها تمكث من نفسها، وتلد مسخاً يحمل آية عارها، وفضيحة زوجها الملك وذلة بين الناس. ولم يسع الملك وذلة بيت الناس. ولم يسع هذا أن يقتل ذلك الوحش، فعهد إلى مهندسه العبري «دايدالوس» بحبس داخل حظيرة هائلة ليس إلى الخروج منها سبيلاً وإلى هذه الحظيرة كان شباب أثينا والعذارى يقادون فيعجزهم الخروج، ويأتي عليهم المينوتور.

وتلا الرقعة مثنى وثلاث ثم صاح في حاشيته كالليث الهائج:

— ما أشقاني بالذي قرأت! اعلموا أن ابني قد اغتصب زوجتي عنوة، فقتلت نفسها تكفيرا وأسى. اسمعي أيتها الآلهة صوتي وأنا ألعنه، ونفذي لعنتي فيه.

وأقبل هيوليتوس مسرعا، فإذا أبوه يلقاه باللعنات ويعلنه بالنفي المؤبد. فخرج يتعثر إلى سفينة يركبها إلى منفاه. ولكن أفروديت لم تهمله، بل تلذعت بلعنة أبيه فأخرجت من اليم وحشا هائلا اقترمه. ثم ظهرت «ارتميس» آلهة الصيد لأبيه فأخبرته بالحقيقة فمات أنبل الملوك، بطل أثينا الأعظم حزنا على وحيدته البريء الشهيد.

وتسلم ثيسوس عرش أبيه، فكان أكثر الملوك حكمة وأزهم مقصدا.

ولكن هل يكف مثل ثيسوس عن طلب المخاطر ومصارعة الأهرال؟ وهل يلهيه الملك والسياسة عن هواية تجري في عروقه مجرى الدماء؟

لقد كان يخرج إلى المجاهل لصيد الوحش. فلما سمع ذلك خاطر بنفسه بالرحلة إلى بلاد «الأمازون» حيث سلاله النساء المسترجلات الفارسات اللاتي لا يفضعن لمشيئة رجل، ويمتن كما ولدن أبكارا. وهناك قصص وأحدهن منهن تدعى «هيوليتا» وعاد بها إلى قصره، فاستولدها ابنا دعاه «هيوليتوس». وحاول «الأمازون» الانتقام لذلك الغرق الفاضح لناموسهن، فاقترحن أثينا ليختطفن الطفل الوليد وأمه، ولكن «ثيسوس» ردهن على أعقابهن مدحورات ويعث بابهن إلى بلدة أمه في جنوب اليونان حيث نشأ هو ليشب في أحضان جدته.

وماتت «هيوليتا» بعد حين فانصرف ثيسوس عن الزواج إلى نصره، من يستنصره من الملوك والأبطال إلى أن عشق «فيدرا» أخت ارياند فتزوجها وعاشا في أرغد حال.

وكبر ابنه هيوليتوس، وصار شابا رائع الحسن والبأس، يحقر نعمة الترف، ويزدري هوى النساء فأعجب ثيسوس بولده أيما إعجاب، وتوثقت بينهما المحبة أيما توثق.

وشغف هيوليتوس بزوجة أبيه حبا، فأرقت ليلها، وعافت طعامها، والحق أنها لم تكن مذنبه في ذلك لأن ربة الحب «أفروديت» هي التي زينت لها ذلك العشق الأثم، كي تتقم من هيوليتوس لاتصرافه عن عبادتها.

وعولت «فيدرا» على الانتحار، ولكن مريبتها المعجوز ردتها، ووعدتها أن تنقع غلتنها وتشفي نفسها بطيب وصال من تحب. ثم ذهبت إلى الفتى تستعطفه لسيدتها، وكان والده على سفر، فأنكر عليها ذلك وغادر القصر معلنا أنه لن يعود إليه إلا وأبوه فيه.

ولم تمض دقائق حتى حضر «ثيسوس» من سفره، فاستقبلته النسوة في الحديقة مولولات، لأن سيدتهن الملكة «فيدرا» ماتت لثروها وفي يدها رقعة إلى زوجها الملك، فأنكب الملك عليها باكيا معولا، وهو يقسم لتكون رغبته التي انطوت عليها رسالتها أمرا مقدسا.

أبولون ودفنى

كانت «دفنى» أول من أحب «أبولون»، على أن هذا الحب لم يأت عفوا لحوادث وإنما كان نكابة من «كيوبيدوس» وكيدا، استطاع به إله الحب الصغير، أن ينتقم لنفسه من ابن «زفس» بل من إله من أكبر الآلهة الذين عرفهم المقام الأولمبي.

فقد رأى «أبولون» الصبي «كيوبيدوس» يلعب بقوسه وسهامه وكان «أبولون» قد انتصر في ذلك الوقت على «فوتون» وما زالت نشوة الانتصار تتأجج في صدره، وتضطرم سورتها في قلبه، فراح تياها فخورا. فلما رأى الصبي في لهوه، أكبر منه أمر اللعب بالقوس والسهم وقال له:

«ما لك ولآلات الحرب، وما أنت صانع بها ؟ إنما يجب عليك أن تركها للأيدي التي تستحق حملها، وللأبطال الذين يعرفون كيف يحملونها أيها الصبي الناشئ. أترك هذه الآلات للذين هم معتادون أن يقتحموا بها المعارك ويشقون بها طريقهم إلى النصر. أنظر إلى النصر الذي توجت به جيني، وإلى الفتح العظيم الذي نلته بانتصاري على الحية «فوتون» وكانت قد نشرت جسمها السام على ما شئت من فضاء الأرض. ألا فاقنع أيها الصبي بمشعلك فأوقده وأرسل لقاؤه ووجه ألسنته إلى حيث شئت، ولكن حذار أن تتخذ من أسلحتي ألعوبة تتلهى بها»

فلما سمع ابن «فينوس» هذا الكلام التفت إلى الإله الكبير وقال له: «إن سهامك قد تصيب حيث شئت أن تصيب بها، ولكن سهامى سوف تصيبك في الصميم».

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى اعتلى صخرة من صخور «فرناسوس» واستل من جعبته سهمين، كلا منهما يختلف عن الآخر، فأحدهما يثير الحب والثاني يقمعه وكان الأول مصنوعا من الذهب حديد اللسان وصوبه نحو الحورية «دفنى» ابنة «بنوس» إله النهر، وبالسهم الذهبي رشق «أبولون» فشك قواده.

وكانما ذلك السهم الذهبي كان لهيباً أضرم في قلب أبولون لظي الحب ناهم «بدفنى» هياماً وأغرم بها غراماً كان في قلب «دفنى» من اليغض له والاشفاق منه ما يعاد له ويزيد. وإنما كان لهذه الحورية الجميلة غرام بالجراح، الغابات الملتفة، وبالألغام التي في سكوت تلك الغابات متسعاً لها، ومجالاً يكفيها. وقد تبعها كثير من المحبين، وتبعها عديد من المغرمين بها فأقصتهم عنها ونفرت منهم نفوراً، ومضت تجول في الغابات منتقلة في فضاءها وتحت خمائلها، كأنها شعاع الشمس الضئيلة في غيب من الليل البهيم، ولم تفكر في «كوييدوس» ولا في سهامه التي يصيب بها القلوب ويضرم بها للأحشاء.

أما أبوها فكثيراً ما نهاها عما كانت فيه، فلم تنص، ونصحها فلم ترع. وذات يوم أنبل إليها يحدثها بلين ورفق قالت: يا ابنتي إن لي في عنقك حفيداً، بل حفيداً.

ولكنها كانت ترى أن الزواج جريمة كبرى. بل معصية عظمى، فاحمر وجهها الجميل خجلاً، ألقت بذراعيها حول عنق أبيها قائلة:

«يا أبي العزيز: هبني الهبة التي اطلبها، هبني الحرية في أن أظل عذراء، وأن أبقي بغير زواج، كما بقيت ديانا»

فلم يسمعه إلا الإذعان لمشيئتها، وانصرف عنها وهو يتمتم: إن وجهك يأبى أن تظلي كما تريد.

كان «أبولون» قد أحبها، ورغب في أن تكون له. غير أن «أبولون» ذاك الذي كان يقسم الحفظ على الدنيا بأسرها، قد أسس العجز في أن يصرف حظ نفسه، وأن يسعد بأمنية قلبه. ولقد رأى ذات يوم شعرها الفاتن مرسلًا من فوق كتفها الجميلتين فأهاب بها: «إذا كان هذا مقدار ما في جمال شعرك مرسلًا، فكيف بما إذا تمهدت يدُ الصناع، فأضفى عليه الفن جمالاً فوق جمال؟» ورأى في عينيها بريق النجم المتألق ورأى شفتيها الفاتنتين، ولم يقو على أن يتنقح برأها. ولقد جن بيدها المواسيتين، وذراعيها اللتين اتخذهما الفن مثلاً ينسج عليه، وكتفها العاريتين البيضاءين، ولقد خيل إليه أن ما احتجب عن نظريته من جسمها كان أوفى جمالاً. وأعظم فتنة مما ظهر منه.

وتعقبها «أبولون» وهربت «دفنى» فكانت أسرع من الريح وأعجل من السهم الضال، ولم تن عن التنقل فرعة خائفة لتستمتع إلى شيء من تساولاته: «قني يا ابنة «بنبوس»

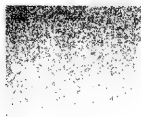
فلست عدواً ولا منتقمًا جباراً. لا تفري مني فرار الشاة من الذئب، أو فرار الحمامة من الباق، إنما أتبعك مسوقاً للحب. إن ما يسعدك يتعسني، وفرارك يؤلمني، حذار أن تزل قدمك فيصيبك من هذه الصخور أذى. أتوسل إليك أن تكوني في فرارك أكثر ترياً وأقل سرعة، وأنا أعدك أن أكون في طرادك كما تكونين في فرارك. إن أبي «المشترى»، وأنا سيد لدفوس وتندوس. إنني أعلم بكل الأشياء، شهادة وغيا. إنني إله الأغنية والإيقاع. إن سهامي لن تخطئ الغرض. وأسفاه، فإن سهاماً أشد من سهامي فتكا وأنفذ فعلاً اخترق قلبي. أنا إله الطب الذي يعرف خصائص جميع العقاقير الشافية. ولكن أشكو مرضاً تعجز جميع البلاسم عن أن تبرئه».

غير أن الحورية كانت تتابع الفرار، تاركة توسلاته إلى الرياح، تتولاهم بالشتات والتبديد. على أن فرارها كان يبعث إعجاب في قلب «أبولون». فقد كان الهواء يبعث برقع ثيابها، وينثر شعرها الجميل مرسلًا من ورائها. غير أن الإله ذهب صبره وقلت حيلته في إغرائها بالتوسل وشفاة الحب، فأسرع الخطي، مسوقاً بهام «كوييدوس» ليلحق بها ويقطع عليها شوط الفرار الدائم. فتبعها كما يتبع السلوقي فريسته فاتحاً ذراعيه، فاغراً فاه، مبدياً تواجده، والفريسة الضعيفة جادة في الهرب، مطلقة للريح ساقها، تطلب النجاة، وعلى هذه الصورة كان الإله يتبع الحورية الرابتية. هو يطير وراءها على أجنحة الحب، وهي تفر منه على أجنحة الخوف والإشفاق.

ولاحت بداية المنتهى، لما لحق بها أدركها «أبولون» فكانت أنفاسه في ظهرها، ثم مد يده فكانت في قبضته. وتراخت مفصلها واضمحلت قواها، فترنحت وكادت تسقط على الأرض إعياء ورعباً، ولكنها وجدت بقية من قوة اليأس فصاحت بأبيها: «أدركني يا بنبوس إفتح الأرض لتنشق فتبتلعني، ثم تستوي علي. أو فغير هبتي التي كانت سبباً في أن أقع فريسة هذا العدوان».

ولم تكد تتم صيحتها حتى يست مفصلها. وانقلب صدرها إلى جذع شجرة كبيرة يكسوه لحاء خشن كثيف، وتطور شعرها فأصبح أرواقاً، وذراعها فصاروا أغصاناً، وغاست رجلها في الأرض فأصبحت جذوراً وشعيرات، وتحول وجهها إلى قمة شجرة، فلم يصبح فيه من شيء مما كان، اللهم إلا مسحة من الجمال تذكر من يشهدا بجمال من كانت قبل أن تنقلب ذلك الانقلاب السحري، فقصر شجرة.

الأساطير الروسية



ووجع «ابولون» ينظر بتعجب فيما يرى، ولمس الجذع بيده، وأراد أن يتحقق الأمر، فلمس الأوراق بفمه، فكان نباتاً لا أثر للحياة فيه، بل تذوق فيها طعم نبات لم يعهده. وتفرس الشجرة ساعة ثم مضى يهمس بكلمات خافية:

أما وقد فاتني أن تكوني لي زوجة، فلن يفوتي أن تكوني شجرتي سأخذ منك إكليلاً ألبسه فوق رأسي. سأجعل بك قيثارتى وجبة سهامي فإذا جاء الوقت الذي سوف يقود فيه أبطال الرومان جحافلهم قافلين إلى الوطن إثر انتصاراتهم التي سوف يشهدونها، فهناك يعقد من أغصانك أكاليل تتوج رؤوسهم. وكما أنني خصصت بهبة الشباب الأبدية فكذا ستكون أوراقك دائمة الاخضرار، فلا تجف ولا تكون هشيمًا. أنت يا شجرة الغار.

إيفان وماريا تولستوى

ثاني أيام السباحة في الأسبوع العاشر من عيد الفصح.

آنذاك الشمس تلذع صدر الأرض بحرارتها، ويلتحم وهجها في قاع البحيرة الأخضر، تحت الجذوع المغمورة، وأعشاب الماء وعشب الشبح العجيب يأخذ بالازدهار.

وعرائس الماء لا تجد ما تحتجب به، فتخرج في الأماسي الهادئة والليالي القمرية من تحت مياه البحيرة، وتختفي بين الأشجار، فتسمى عندئذ عرائس الأشجار.

وهذا مدخل للحكاية التي شاعت آنذاك في روسيا:

في قديم الزمان كان إيفان وأخته ماريا يعيشان في كوخ صغير على شاطئ بحيرة ساكنة، لكن سمعتها سيئة. إذ يقال إن فيها جن الماء يعربد. وعندما يرتفع القمر فوق البحيرة يأخذ جن الماء بالقبقة، والقرقرة في أخوار القصب، ويضرب الماء بعنف، ويخرج من القصب وهو يجلس على جذع البلوط، وعلى رأسه طرطور مصنوع من طحالب الماء. وعندما يراه المرم يختفي خشية أن يفرقه في الماء.

وكان إيفان يحذر أخته ماريا بصرامة قائلاً:

- في غيابي لا تخرجي من الكوخ خطوة واحدة بعد هبوط الظلام، ولا تقني عند ماء البحيرة، واجلسي ودعية هادئة كالقتران. . . .

فتقول مارياً:

- سمعاً، يا أخي.

خرج إيفان إلى الغابة. واستوحشت ماريا في جلوسها وحيدة وراء ماكنة الغزل

فانكأنت على مرقعها، وإنشأت تغني:

«يا قمر الذهب أين انت؟ طلع القمر فوق الماء، على البحيرة الفيحاء، وغاص في اللجة السوداء»

وفجأة صدر طرق على مصراع النافذة.

— من هناك؟

ردت أصوات رقيقة وراء النافذة:

— أخرجي إلينا، أخرجي إلينا.

خرجت ماريا مسرعة، وأرسلت آهة عجب. إذ رأَت عرائس الماء يملأن الدرب من البحيرة حتى الكوخ. أمسكت إحداهن بيد الأخرى، ورحن يُكْرَن، ويضحكن، ويعين.

صفتت ماريا بيديها. لا جدوى! أحطن بها العرائس ووضعن إكليلاً على رأسها...

— إنضمي إلينا، يا أحلى الفتيات، وستكوني ملكتنا.

وامسكن بيد ماريا، ورحن يُكْرَن بها.

وفجأة طلع من وراء القصب رأس أزرق متفوخ وعليه طرطور.

قال جني الماء بصوت ابخ:

— مرحبا، يا ماريا. كنت في انتظارك منذ زمن بعيد...

ومد إليها يديه.

جاء ايفان في الضحى، وفتش عن أخته هنا وهناك فلم يجدها. ويعد قليل رأى حذاءها وحزامها على الشاطئ. فجلس ايفان، وأخذ يكي.

ومتضي الأيام، والشمس تدنو من الأرض. وجاء أسبوع السباحة. وفكر ايفان: «سأرحل، وأقضي بقية عمري عند الغبراء. وأصنع لنفسي خفّاً من ليف الشجر». ووجد وراء البحيرة شجرة زيزفون، وقطع بعض ليفها، وضفر منه حذاء، وخرج إلى الغبراء.

سار وسار حتى رأى أمامه شجرة زيزفون مسلوخة، هي التي قطع الليف منها وضفر حذاءه.

فكر ايفان مع نفسه: «أوه، كنت أسير في الجهة المعاكسة». وغير وجهه سيره. وسار عبر الغابة ودار فيها وإذا به يرى شجرة الزيزفون المسلوخة مرة أخرى.

قال ايفان في نفسه:

— روح شريرة.

وذعر، وراح يعدو، بينما خفّاه يستديران به من حيث جاء. استبد الغضب بايفان، فرفع الفأس يريد أن يهوى بها على شجرة الزيزفون.

فإذا بالشجرة تقول بصوت حزين:

— لا تقطعني، يا أخي العزيز.

وسقطت الفأس من يدي ايفان:

— أهذه انت، يا أختي؟

— أنا، يا أخي العزيز. تزوجني جني الماء، فصرت الآن شجرة عروساً. وفي الربيع سأعود عروسة ماء من جديد... وحين انتزعت الليف مني لتصنع لك خفّاً، سحرتك لكيلا تذهب من هنا بعيداً.

— وهل يمكن أن تخرجي من قبضة جني الماء؟

— ممكن، إذا جلبت عشب الشيع من مكان رجراج وألقيته في وجهي.

وما إن قالت هذا حتى حمل الخفان ايفان، وانطلقا به إلى الغابة.

الريح تصفر في أذنيه، والخفان يرتفعان به فوق الأرض، ويصعدان، وايفان منطلق في الأعالي في صحابة سوداء. فكر ايفان مع نفسه: «ربما أسقطه» وتشبث بغيمة رمادية لزجة رجراجة.

سار عبر غيمة، لا يرى حوله أجمة ولا عشباً. وإذا بقزم بطول المرقق يتململ تحت قدميه، ويخرج من ثغرة في الغيمة، عليه طرطور أحمر. وزقزق القزم بصوت عال كصوت الثور لا يناسب طوله:

— لماذا جئت إلى هنا؟

إنحنى ايفان له قائلاً:

— لأجلب عشب الشيع.

- سيكون لك عشب الشيح، اذا تصارعت معي كما يتصارع الفجر.
واستلقيا على ظهريهما، كما يفعل الفجر عند المصارعة، ورفق كل منهما رجلاً الى
الاعلى، وتشابكا بهما، وراح أحدهما يسحب الآخر بقدمه. والقزم بطول المرفق قوي
في المصارعة، ولكن الخفين يعينان إيفان.
وصار إيفان يسحب خصمه.

صاح القزم:

- حالفك الحظ، وإلا لكنت في السماء السابعة. فلكم أرسلت من أمثالك الى
هناك. هاك عشب الشيح.

وألقي له حزمة. اختطف إيفان الحزمة، وانطلق الى الاسفل، وإذا بالقزم بطول
المرفق يهدر، ويرعد، ويخرج لسانه الأحمر من السحابة، يومض تارة، ويخفت أخرى.
وصل إيفان إلى شجرة الزيزفون، فإذا به يرى شيخاً رهيباً يقتعد الأرض، ويحرك
شاربيه...

ويصبح إيفان:

- دعني أسير. فأنا أعرف من أنت. ألا تريد هذا؟

ووخز جني الماء في وجهه بعشب الشيح. وانتفخ جني الماء، وانفجر، وتحول
الى جدول سريع يمضي الى البحيرة.
وألقي إيفان عشب الشيح على شجرة الزيزفون، فخرجت منها أخته ماريا، وعانقت
أخاها، وراحت تبكي وتضحك في آن.

هجر إيفان وماريا الكوخ الصغير عند البحيرة، وخرجا الى ما وراء الغابة الكثيفة
السوداء، ليعيشا في حقل منبس، لا يفارق أحدهما الآخر.
وهما يعيشان سويا حتى الآن، والناس ينادون دائماً عليهما سويا: إيفان، ماريا،
إيفان، ماريا.

الشهور الاثنا عشر

هل تعرف عدد الشهور في العام؟ اثنا عشر شهراً.

وما اسمائها؟ يناير، فبراير، مارس، أبريل، مايو، يونيو، يوليو، أغسطس،
سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر.
وحالما ينتهي شهر، يبدأ آخر. ولم يحدث قط أن جاء فبراير قبل يناير، وسبق مايو
أبريل.

وتتعاقب الشهور واحداً وراء الآخر، ولا يجتمعان البتة.

ولكن الناس يزعمون أن فتاة في بلاد بوهيميا الجبلية، رأت الشهور الاثني عشر
كلها مجتمعة. فكيف حصل هذا؟ إليكم الحكاية...

في إحدى القرى الصغيرة كانت تعيش امرأة لثيمة شحينة مع ابنتها، وابنة أخرى
من زوجها. وكانت تحب ابنتها، ولا يروق لها شيء من ابنة زوجها، مهما فعلت، وأينما
حلت.

كانت الابنة لا تفارق فراشها الريش أياماً كاملة، وتلتهم الكعك بلا انقطاع، بينما
ابنة الزوج لا تستقر في مكان من الصباح حتى الليل، تنقل الماء، وتجلب الحطب من
الغابة، وتغسل الثياب في النهر، وتقلع الاعشاب الضارة في حديقة البيت.

كانت تعرف زمهرير الشتاء، وقظ الصيف، وريح الربيع، ومطر الخريف. ولربما
من أجل هذا أسعفها الحظ ذات مرة لترى الشهور الاثني عشر مجتمعة.

كان الفصل شتاء، والشهر يناير، والثلج يتساقط بكثرة، حتى اقتضى الأمر جرفه
بمكائس الثلج من باب البيت، وغرقت الأشجار على سفح الجبل في أكوامه إلى النصف
في الغابة، حتى لم تعد تمايل حين تعصف بها الريح.

ولزم الناس بيوتهم، وأدفاؤها بالموافد.

في مثل هذا الوقت فتحت زوجة الأب الخيئة باب الكوخ قليلاً عند المساء، وراحت زوجة الثلج تدوم، ثم عدلت إلى الموقد الدافئ، وقالت لآبة زوجها:

- حيناً لو خرجت إلى الغابة، وجمعت منها زهور الثلج الزرقاء، فغداً عيد ميلاد أختك.

نظرت الفتاة إلى زوجة أبيها لتعرف أهى هائلة أم جادة في إرسالها إلى الغابة؟! فما أربب الغابة الآن! ثم أي زهور ثلج في عز الشتاء؟ فهي لا تطلع من تحت الثلج قبل حلول مارس، ولن تجد واحدة منها الآن، ومهما نجولت في الغابة فلن تقع إلا على كنبان الثلج التي قد تنحدر بك فتهلك.

وتقول أختها لها:

- ذهبي، ولن يبكي أحد عليك حتى لو وضعت ولا تعودي بدون زهور. وهذه السلة فخذوها.

بكت الفتاة، وتذرت بمنديل رث، وخرجت من الباب.

الريح تنثر الثلج في عينيها، وتنزع المنديل من عليها. وهي تسير لا تكاد تخرج رجلها من أكوام الثلج. ويظلم المساء حولها، ويظلم. السماء قاتمة لا تطل منها نجمة واحدة على الأرض، والأرض بساط أبيض مضيء.

وها هي الغابة. الظلام فيها حالك لا يرى المرء فيه حتى يديه. جلست الفتاة على شجرة مطروحة، وبقيت جالسة. تقول لنفسها: سواء عليّ، في أي مكان سألتجمل. وفجأة لمحت قسماً يلعب بعيداً، بين الأشجار، وكان نجمة وقعت وتشابكت بين الأغصان.

نهضت الفتاة، وسارت نحو هذا القيس. تفحص بالثلج تارة، وتتخطى أشجاراً أوقمتها الزوبعة أرضاً تارة أخرى. وتقول في سرّها: «لا أخشى إلا أن ينطفئ القيس»، ولكن القيس لم ينطفئ، بل اشتد أكثر سطوعاً لحظة بعد أخرى. وفاج دخان دافئ، وسمعت الفتاة فرقة المساليج في النار. فسرّعت خطاها، وخرجت إلى فرجة في الغابة، لتقف مصعقة.

كانت الفرجة مئارة بنور كنور الشمس، وفي وسطها تشتعل نار كبيرة تكاد تبلغ السماء. وحول النار يجلس الناس بعضهم أقرب إليها، وبعضهم أبعد، يتحدثون فيما بينهم بهدوء.

نظرت الفتاة إليهم، وتساءلت: من هؤلاء يا ترى؟ فهم لا يشبهون الصيادين، وأبعد شبيهاً بالخطابين. فهم في حلل قشبية، فضية وذهبية وخضراء مخملية.

وأخذت تعددهم، فإذا هم اثنا عشر: ثلاثة شيوخ، وثلاثة كهول، وثلاثة شبان، والثلاثة الآخرون صبيان تماماً. الشبان أقربهم إلى النار، والشيوخ أبعدهم عنها.

وفجأة نظر أحد الشيوخ - وهو أطولهم قامه، ذو لحية وحاجبين كثيفين - إلى الناحية التي وقفت فيها الفتاة التي ارتعبت، وهمت بالفرار، ولكن الألوان كان قد فات إذ سألهما المعجوز بصوت عال: من أين جئت، وما غيتك هنا؟

أظهرت الفتاة له سلتها الفارغة، وقالت:

- على أن أجمع زهور الثلج في هذه السلة.

ضحك المعجوز، وقال:

- أي زهور ثلج في شهر يناير؟ أي مطلب هذا؟

فتجيب الفتاة:

- ليس طلبي هذا. بل زوجة أبي أرسلتني إلى هنا لأجمع زهور الثلج، وأمرتني بالآعود إلى البيت وسلتي فارغة.

وفي تلك اللحظة نظر الاثنان عشر إليها جميعاً، وراحوا يتكلمون فيما بينهم. والفتاة في مكانها، تصني، ولا تفهم كلامهم، كأن هؤلاء الناس لا يتكلمون، بل الأشجار فيما حولهم ترسل حفيفاً. وظلوا يتكلمون، ويتكلمون، ثم سكتوا.

والفتى الشيخ الطويل من جديد، وسأل:

- وماذا ستفعلين، إن لم تجدي زهور الثلج؟ فهي لا تطلع قبل شهر مارس.

أجابته الفتاة:

- سأظل في الغابة أنتظر شهر مارس. خير لي أن أتجمد في الغابة من أن أعود إلى البيت بلا زهور ثلج. قالت ذلك، وأخذت تبكي.

وفجأة نهض أحد الاثنى عشر، وهو أكثرهم شبهاً، مرج الأعطاف، وفروته على إحدى كتفيه، وتقدم من الشيخ قائلاً:

— يا اخي يثاير، تنازل لي عن مكانك ساعة واحدة!

فمسد الشيخ لحيته الطويلة، وقال:

— يمكن أن أتنازل لك، ولكن كيف يسبق مارس فبراير؟

فقال شيخ آخر أشعث تماماً له لحية منقوشة:

— طيب، يا شيخ. تنازل. أنا لا أعترض! نحن جميعاً نعرفها جيداً. نراها تارة عند فتحة الجليد تستقي الماء في جردلين، وتارة في الغابة تحمل حزمة من الحطب وهي أليفة لكل الشهور ويجب مساعدتها.

قال يثاير:

— حسناً، ولكن ما تريد.

وضرب الأرض بعصاه الجليدية الطويلة، وراح يقول:

«يا شتاء، يا زمهرير، يا أبيض الناب، لا تسلم القشرة من شجر الغاب، والإنسان من برده يغلق الابواب»

وسكت الشيخ، وساد السكون في الغابة. وكفّ الزمهرير عن تجميد الأشجار فتوقفت فرقعتها، وراح الثلج ينزل غزيراً بتف كبيرة ناعمة.

وقال يثاير:

— والآن، جاء دورك، يا أخ.

وأعطى العصا إلى أخيه الأصغر، فبراير الاشعث.

فضرب هذا الأرض، وحرك لحيته، وراح يردد:

«اعصفي، يا ريح. عربدي، يا زويعه. وارقصي في الليل، وانفخي في السحب، وهبّي الحقول، مارس عن كتب»

وما إن فرغ من ذلك حتى هزت الأغصان ريح عاصفة رطبة، ودارت دوامات من

نار الثلج، وسرت على الأرض زوايع بيض. وأعطى فبراير عصاه الجليدية إلى أخيه الأصغر وقال:

— الآن جاء دورك، يا أخ مارس.

تناول الأخ الأصغر العصا، وضرب بها الأرض.

ونظرت الفتاة إلى العصا، فإذا هي قد انقلبت غصناً كبيراً منظرماً بالبراعم.

إبتسم مارس، وغنى يصدح بكل صوته الصياني الرنان:

«أجري، يا جداول، سيلى، يا بُرك، وانت، يا نمل، أترك الحفر. إنما الشتاء قام وارتحل!»

واستغربت الفتاة، وبسّطت ذراعيها دهشة. فلين ذهبت اكوام الثلج العالية؟ وأين راحت دلالات الجليد التي كانت تتدلى من كل غصن؟ وتحت قدميها أرض ربيعية لينة. وحولها يقطر الماء، ويخرخر، ويتفرق. وانتفخت البراعم على الأغصان، ومن تحت القشرة الداكنة، تنفتق الأوراق الخضراء الأولى.

ونظرت الفتاة، ولم تشع من النظر فقال مارس لها:

— ما لك واقفة؟ أسرع، فإن اخوي لم يعطينا إلا ساعة واحدة.

أفاقت الفتاة من دهلها، وركضت نحو الغابة تبحث عن زهور الثلج الزرقاء. وما أكثرها! أينما وجهت بصرها تراها تحت الاجمات، وتحت الاحجار، وعلى تنوعات الأرض، وتحنها. جمعت ملة سلة منها، وملء مئزرها، وعادت مسرعة إلى فرجة الغابة، حيث كانت النار تشتعل، والاخوان الاثنا عشر يجلسون.

فلم تجد ناراً، ولا أخوة... وفرجة الغابة منوَّرة، ولكن ليس كما من قبل بضوء النار، بل بضوء القمر الذي ارتفع فوق الغابة.

تأسفت الفتاة على أنها لم تجد احداً لتشكره، وركضت عائدة إلى البيت، والقمر بلاحقها.

ووصلت إلى باب البيت دون أن تحس بالأرض تحت قدميها، وما إن دخلت البيت حتى أخذت زويعه الشتاء تعول وراء النوافذ، وأخفت القمر في السحب.

سألنها زوجة أبيها وأختها:

— عدت إلى البيت، إذا؟ فأين زهور الثلج؟

لم تجب الفتاة بشيء، واكتفت بأن سكبت زهور الثلج من مزهرها على المسطبة، ووضعت السلة إلى جانبها

تعجبت زوجة الأب والأخت، وقالتا:

— ولكن من أين جلبتها؟

قصت الفتاة عليهما كل ما حدث. زوجة الأب والأخت تسمعان، وتهزان رأسيهما بين مصدقة ومكذبة. والتصديق صعب ولكن ها هي كومة كبيرة من زهور الثلج على المسطبة طرية زرقاوية يفوح منها شهر مارس

تبادلت زوجة الأب وابتهتا النظرات وسألتاها:

— والشهور ألم يعطوك شيئاً آخر؟

— ولكنني لم أطلب شيئاً آخر.

فقالَت الأخت:

— يا لك من حمقاء! تسنح الفرصة لك للاجتماع بالشهور الاثني عشر جميعاً، ولم تطلبي غير زهور الثلج!.. آه، لو كنت في مكانك، لعرفت ماذا أطلب؟. أطلب من أحدهم نقاشة، وكمشري حلوة، ومن آخر عنباً برّياً ناضجاً، ومن ثالث فطراً لذيذاً، ومن رابع خياراً طازجاً!

وتقول زوجة الأب:

— يا لك من ذكية، يا ابنتي! العنب البري والكمش في الشتاء لا يقدران بضمن. فلو بعناهما لحصلنا على فلوس كثيرة! أما الحمقاء هذه فاكتفت بزهور الثلج، وجاءت تركض بها! إليسي، يا ابنتي، ملابس تدفئك أكثر، واركضي إلى فرجة الغابة. لن يخذعوك، ولو لم كانوا اثني عشر، وانت واحدة.

فردت الفتاة:

— وكيف يستطيعون!

ووضعت يديها في كميتها، والمندبل على رأسها، ومضت وصاحت أمها في أثرها:

— إليسي قفازين، وتدثري بالفراء!

ولكن الفتاة كانت قد غادرت البيت، وركضت إلى الغابة!

وسارت على آثار أختها، تتعجل الوصول. وتفكر في نفسها «ليتي أصل إلى فرجة الغابة في أقرب وقت!»

والغابة تتكاثر حولها، ويشند الظلام أكثر فأكثر. تزداد كثبان الثلج إرتفاعاً، وحطام الأشجار الذي خلفته العاصفة يقف أمامها كالجدار.

وتفكر الابنة المفضلة:

«أوه، لماذا خرجت إلى الغابة! ليتني بقيت في البيت راقدة في الفراش الدافئ»، وما خرجت أركض وأنجمداً وربما أضيع أيضاً!

وما كادت تصل إلى تفكيرها هذا، حتى رأت قسماً من بعيد، مثل نجمة صغيرة تشابهت مع الأغصان.

سارت باتجاه القيس، وظلت تسير حتى طلعت إلى فرجة في الغابة، في وسطها نار كبيرة تشتعل، وحولها يجلس الاخوة الاثنا عشر، الشهور الاثنا عشر، يتحدثون في هدوء.

تقدمت الابنة المفضلة حتى بلغت النار، دون أن تنحني بتحية، ولا تبادل بسلام، بل إختارت لها مكاناً أدفاً لها، وصارت تندفأ.

والشهور الإخوة لزموا الصمت، وهذات الغابة، وفجأة ضرب شهر يناير العصا بالارض. ويسأل:

— من أنت؟ ومن أين أتيت؟

أجابت الابنة المفضلة:

— من البيت. اليوم أعطيتم لاختي ملء سلة من زهور الثلج، فجئت على آثارها.

فيقول شهر يناير:

وعاشت ابنة الزوج عمراً طويلاً كبرت فيه وتزوجت وأنجبت أطفالاً.
ويقال أيضاً إنه كان لها قرب البيت حديقة رائعة لا مثيل لها على الأرض. كانت
الزهور تفتح فيها قبل تفتحها في كل الحدائق الأخرى، كذلك تبكر الأعناب والتفاح
والكمثرى بالنضوج. والصيف فيها أكثر طراوة، والعاصفة الثلجية أهدأ.
وكان الناس يقولون:

– الشهور الاثنا عشر يزورون ربة البيت هذه دفعة واحدة!
ومن يدرى، فلربما كان ذلك.

– أختك نعرفها. ولكن عيوننا لم تقع عليك قط. فلماذا تكرمت بالمجيء إلينا؟
– من أجل الهدايا. دح شهر يونيو يعطيني العنب البري، ويملاً السلة به، وبجبات
أكبر. ودح شهر يوليو يقدم لي الخيار الطازج، والفطر اللذيذ، وشهر أغسطس التفاح
والكمثرى الحامضة. أما شهر سبتمبر فليقدم لي الجوز الناضج، وديسمبر...
فاعترضها شهر يناير بقوله:

– على مهلك. الصيف لا يسبق الربيع، والربيع لا يسبق الشتاء. ما زال هناك وقت
بعيد إلى أن يحل شهر يونيو. والآن أنا ربّ الغابة. وسأحكم هنا واحداً وثلاثين يوماً.
فقالت الابنة المفضلة:

– أوه، يا حاد المزاج! أنا لم أجيء إليك. لا يُنتظر منك غير الثلج والجليد. أنا
أريد شهور الصيف.

فعبس شهر يناير وقال:

– إياحي عن الصيف في فصل الشتاء!

وهزّ كفه العريض، فإذا بعاصفة من الثلج تهب في الغابة صاعدة من الأرض نحو
السماء. وأكست الأشجار وفرجة الغابة بالجمد، وحتى النار التي كان يجلس الآخرون
حولها أخفت وراء الثلج، ولم يسمع غير صفير النار وفرقتها وتوهجها في مكان خفي.
إرتعت الابنة المفضلة، وراحت تصرخ:

– توقف! هذا يكفي!

ولكن من يسمع!

وحاصرتها العاصفة، وأعمت عينيها، وتقطعت أنفاسها. فازتمت على كومة ثلج.
أما زوجة الأب فقد انتظرت ابتها وانتظرت، ونظرت في النافذة فخرجت راكضة
لاستقبالها، ولم تجد أحداً. ولم تُعثر، فلقت نفسها بثياب دافئة، وذهبت إلى الغابة،
ولكن هل من المعتقد أن تجد أحداً في جوف الغابة في مثل هذه الزوينة والظلام!
سارت وسارت، وبحشت وقتشت، حتى نفذ البرد إلى عظامها، وغرقت في الثلج.
وهكذا بقيت كلناهما في الغابة إلى الأبد.



عجائب و خوارق
من التاريخ



النساء زهور نبتت في قلوبنا

غالباً ما تشبّه المرأة بالوردة، وتذكر الميثولوجيات القديمة أن الزهور لم تكن إلا فتيات قتلن الحب فتحوّلن إلى أزهار، لذلك فإن أول تعبير يقوم به المحب هو إهداء وردة لحبيبه.

وهنا أستعرض بعض الأساطير التي ارتبطت بالمرأة

زهرة النجمة: تقول الأسطورة إن (استيرا) ملكة السماء أخذت تبكي عندما نظرت إلى الأرض ولم تجد فيها نجوماً، فنبتت زهرة النجمة في المكان الذي سقطت فيه دموعها.

الزنبق: تقول الأسطورة إن (هيرا) زوجة (زيوس) نامت عندما كانت ترضع طفلها هرقل. وعندما استيقظت مذعورة، قذفت بالطفل بعيداً عنها، فتدقّق حليتها مكوناً مجرة درب التبانة (درب اللبانة)... ولكن بعض قطرات سقطت على الأرض فنبتت زهرة الزنبق.

البنفسج: تقول الأسطورة إن ملك الثلج شعر بالوحدة في قصره فبعث جنوده ليجثوا له عن فتاة جميلة تدخل الدفء إلى قلبه، فوجد الجنود فتاة خجولاً اسمها (فيوليت) أحضروها إليه. فوقع في حبها على الفور وتحول بفعل تأثيرها من رجل قاسي القلب وعيوس، إلى رجل دافئ ولطيف. وقد رجته فيوليت مرة أن تذهب لزيارة أهلها، فسمح لها شريطة أن تزورهم في الربيع على شكل زهرة ثم تعود إليه في الشتاء. وهكذا تحولت الصبية إلى زهرة حملت اسمها.

الزعفران: تقول الأسطورة إن (كروكس) كان راعياً شاباً يتمتع بروح نبيلة، وقد وقع في حب حورية اسمها (سميلاكس). وقد تأثرت الآلهة بعمق حبه وحيامه، فحولته إلى زهرة أبدية هي الزعفران حيث تعلق بها سميلاكس حتى الموت.

التوليب: تقول الأسطورة الإيرانية أن شاباً اسمه (فرهاد) أحب فتاة اسمها (شيرين)، وقد وصله يوماً خبر موتها، فذفعه اليأس إلى القفز بجواده من أعلى أحد الجبال، فلفي حلقه.. وحيث نزلت دماؤه نبتت من كل قطرة زهرة توليب حمراء، رمزاً لحبه المخلص، ولذلك أصبحت التوليب زهرة الحب عند الإيرانيين القدماء.

زهرة الربيع Daisy: بحسب أسطورة رومانية، فإن ملك الغابة غضب من حبيته عندما راقصت ملكاً غيره، ولكي تنفادي مواجهته ومنعاً للحرج حولت نفسها إلى زهرة الربيع لذلك ارتبطت هذه الزهرة بالتواضع والبساطة.

الغار: تذكر الأسطورة اليونانية أن (دافن) كانت أجمل نساء عصرها، حتى أن الأزهار النائمة كانت ترفع رؤوسها وتفتح أكمالها عند رؤيتها، إلا أن (كيوبيد) الذي اشتهر بسهامه أراد تحدي (أبوللون) فرماها بأحد سهامه القضيّة فكهرت الحب والمحبين ولكي يزيد من مرارة أبوللون رماه بسهم ذهبي فدخل الحب قلبه وهام بالصبيّة دافن فهرعت إلى أبيها (جوبيتر) مستغيّة من هذا الحب الجارف، وما كادت تنهي كلامها حتى تصلبت أعضاؤها وغارت قدمها في الأرض وصار رأسها أغصاناً متفرعة وارقة. وبينما كان أبوللون يلاحقها أراد أن يرتاح قليلاً في ظل الشجرة التي وصل إليها، فشر بلحم يرتعش خلف قشرتها، فعرف أن هذه الشجرة ليست إلا حبيبته الهاربة، فضمها بذراعيه وأقسم أمامها قائلاً: «مستكونين شجرتي المحبوبة والمفضلة، وعندما يعود الفائزون بسدة النصر ستكونين تاج رؤوسهم وكما أن الشباب الدائم من صفاتي فستكونين خضراء دائماً ولن يذبل ورقك» ولم تكن هذه الشجرة سوى الغار لذلك كانت من أشرف الأشجار على الإطلاق ولا تزال رمز المجد والانتصار.

الترجس: حسب الأسطورة اليونانية فإن إحدى حوريات الغابة واسمها (الصدى) هامت بحب (نرميس) الذي منحته الآلهة جمالاً فائقاً. وللحفاظ على جماله وشبابه لم يكن من المفترض أن يرى صورته معكوسة أبداً. ولكنه كان مغروراً ولم يابه بمواقف الصدى التي كانت من شدة حبه قد تلاشت ولم يبق منها إلا الصوت، فقررت الآلهة (نميس) أن تنتقم لها فقادتته إلى بحيرة مضيئة رأى فيها صورته تتلاشى، وتضمحل. ولكن الآلهة رأفت به فحوّله إلى زهرة الترجس.

إكليل الجبل: رفضت صبيّة جميلة الخضوع للقهر والدمار الذي كان يسببه (سيرس) إله الدمار والخراب لصقلية - فناشدت السكان أن يرموا أنفسهم في البحر.

وأثناء سقوطها تحولت المرأة ذات العيون الزرقاء إلى زهرة إكليل الجبل تذكيراً للرجال بالتجديد المستمر لقوة الخير في العالم.

الياسمين: في أسطورة عربية أن صبيّة بدوية كانت تعيش في الصحراء، وتغطي وجهها بخمار شفاف. وذات مرة مر أمير بتلك الصحراء فلفتت انتباهه الفتاة ذات الخمار وجذبه غموضها. فظليها للزواج وبعد أن أصبحت زوجته وعاشت معه سنوات في قصره وجدت نفسها سجنية جدران القصر، فهربت إلى واحة خضراء وهناك نزع خمارها فأخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى زهرة ذات رائحة شذية حملت اسم الصبيّة (ياسمين) التي كانت تشعر بالدفء والحرية.

وقع في غرام فتاة فلسطينية أصغر على الزواج منها رغم معارضة والديه الشديدة لذلك الزواج، إذ كيف سيتزوج ابنهم من فتاة لم يختن والدها. ولكنه أصّر على موقفه بعناد وقال لأبيه: «خذها لي لأنها حسنت في عيني». وهكذا لم يبق لوالديه سوى الرضوخ لرغبة الفتى المدلل. وغدا شمشون عريسا يتردد غالبا إلى بيت عروسه.

في أحد الأيام عندما كان شمشون يتجول في كروم تمنة، ظهر للقائه شبل أسد مزمرج فشقه شمشون بيديه العاريتين شقين، ومضى في طريقه وكأنه لم يفعل شيئا، حتى أنه لم يخبر أحدا في تمنة بما فعل. وفي طريق عودته إلى دار أهله رأى أن الشحل بنى في جوف الشبل المقتول وصنع عسلا فأخذ من العسل وأكل وحمل الباقي لوالديه ولم يخبرهما من أين أتى بالعسل.

وأخيرا حل يوم العرس المنتظر. كانت العادة الفلسطينية أن يستمر العرس سبعة أيام. في إحدى اللواتم التي ضمت شمشون وثلاثين فلسطينيا، أُلّف هذا أحجية وطلب منهم حلها قبل نهاية ولائم الزفاف فان استطاعوا ذلك أعطاهم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة، وإن لم يستطيعوا أعطوه مثلها. فقبل الشباب الرهان. وقال لهم شمشون: «من الأكل خرج أكل ومن القوى خرجت حلاوة».

ومضت ثلاثة أيام من أيام العرس ولم يستطيع الفلسطينيون حل الحجية فجاؤوا إلى زوجة شمشون وهددوها قاتلين: «تملّكي رجلك لكي يظهر لنا الأحجية أو أحرقناك وبيت أبيك بالنار. أنسلبونا دعوتونا؟». فأسقط في يد المرأة المسكينه وخافت على أملاك أبيها وأرزاقه. فذهبت إلى زوجها باكية وأخذت تتوسل إليه ولم تكف عنه إلى أن أطلعها على سر أحجيته.

في اليوم التالي عندما ضمت الوليمة شمشون والثلاثين فلسطينيا سخروا منه ومن أحجيته وقالوا له إن الحديث فيها يجري عن أسد مقتول وفي جوفه نحلة صنعت عسلا. فأدرك شمشون الذي حدث من فوره وكظم غيظه وقال لهم: «لو لم تحروا على عجائتي لما حزرتم أحجيتي». لكن الأسوأ من ذلك كله هو كيف السبيل إلى الانتقام: ثلاثون قميصا وثلاثون حلة ليست بالأمر السهل خاصة وإن والديه يعيشان عيشة متواضعة ولا يستطيع أن ينتظر منهما أية مساعده. وبينما كان يبحث عن مخرج من تلك الورطة خطرت له فكرة وجدها مناسبة تماما.

في الصباح قام وذهب إلى عسقلون حيث قتل ثلاثين فلسطينيا وسلب منهم ثلاثين

أسطورة شمشون الجبار

جاء الفلسطينيون إلى كنعان من جهة البحر واستوطنوا الرادي الساحلي في الجنوب. وبعد زمن قصير ضاق الساحل بالوافدين الجدد فاندفعوا باتجاه الداخل. كان الفلسطينيون مقاتلين مجريين تميزوا بالصرامة. أضف إلى ذلك أنهم متصفدون بالحديد الذي لم يكن قد انتشر في كنعان انتشارا واسعا حتى ذلك الوقت. لذلك ليس غريبا أنهم استطاعوا السيطرة على جيرانهم من القبائل الأخرى.

في ذلك الوقت عاش في مدينة صرعة رجل من قبيلة الدانين يدعى منوح وزوجته العاتق. وفي أحد الأيام جاءهما ملاك الرب وأخبرهما أنه قريبا سيولد لهما ولد، لكنه طلب منهما أن يمتنع ابنتهما المنتظر عن شرب العصير وألا يقص شعر رأسه إطلاقا لأنه (الولد) منذور للرب إلى يوم موته.

تحقق وعد الملاك وولد الصبي ودُعي شمشون. ترعرع الصبي ونما بسرعة حتى أصبح من أقوى الأقوياء. ومع أنه لم يكن يتميز ببديته إلا أنه إلتزم بالوعد الذي قطعه والده للرب، فلم يشرب العصير ولم يقص شعر رأسه. لقد وهبت الطبيعة ذلك الشاب قوة عضلية مذهلة ولم تبخل عليه بالمكر والدهاء أيضا.

كان شمشون يحب أن يظهر قوته العضلية دائما ويفتخر بها أمام الجميع ويميل دائما إلى مختلف ضروب الأعمال الجبوتية. وكانت قريته نبعلا لا ينضب منها، يحب المزاح الثقيل جدا. فبينما يستلقي هو من الضحك، كانت ضحايا مدياحاته اللفظة تتلوى ألما عموما كان الذين يحتكون به قلة نادرة. وعندما تعرض كيرياؤه للأذى يقدو خطرا جدا بالنسبة للمحيطين به. ومع ذلك كان الرجل ضعيفا جدا أمام النساء، فما إن تعجبه امرأة ما حتى يتحول إلى حمل وديع.

كان شمشون يحب التجوال في البلاد كثيرا فوجد نفسه يوما في مدينة تمنة وهناك

قيصا وثلاثين حلة ثم حملها وسلمها إلى جلساء السوء ورحل دون أن يلقى نظرة على زوجته المخادعة.

بعد أيام قليلة ذهب غضب شمشون فاخذ يقنع نفسه بأن زوجته لم تخدعه عن سوء طوية بل تحت التهديد. وما دام الأمر كذلك فلم يعاقبها وهي لم تخدعه بارادتها؟

وهكذا اخذ معه جدياً لإقامة وليمة الصلح وتوجه إلى مدينة تمته حيث تقيم زوجته مع أهلها. لكن إهانة أخرى كانت تنتظره هناك. فما إن وصل توجه من فوره إلى مسكن زوجته، غير أن حماء قطع طريقه بأن أعطى زوجته لرجل آخر، ثلثاً منه أنه هجرها إلى الأبد. واقترح عليه أن يزوجه أختها الصغرى التي هي أجمل منها بكثير. فغضب شمشون أشد الغضب ولم يشأ سماع أي كلام عن أخت زوجته الصغرى الأكثر جمالاً، لأن الأمر الواضح الوحيد بالنسبة إليه الآن هو أنه يفقد ذليلاً مهاناً أمام باب مسكن زوجته الحبيبة وأنهم عاملوه وكأنه مجرد عابر سبيل، وهو جبار الجبابرة الذي يفخر بقرته أهل ملته والغرباء. كيف يستطيع أن يواجه الناس بعد أن تلقى مثل هذه الصغعة؟ إذاً يجب أن يكون انتقامه صارماً. وبعد أن وضع خطته بدقه تجهه وجهه وقال والحمد يقطر من نظراته: «إني بريء الآن أمام الفلسطينيين إن عملت بهم شرّاً».

إذاً لقد بدأت معركة قاسية بين شمشون والفلسطينيين. فلم يذهب إلى البيت خجلاً من مواجهة أهله وأقربائه، بل بقي كاللثب حول مدينة تمته يستعد للانتقام منها. وأخيراً اهتدى إلى فكرة فريدة ولكنها بربرية. فقد اصطاد ثلاثمائة ابن آوى وربطها ذنباً إلى ذنب ووضع مشعلاً بين كل ذنين - ثم أشعلها وأطلق الحيوانات المرعوبة باتجاه المدينة فأحرقت في طريقها أكداًس الزروع وكروم الزيتون والعنب وتحولت أرزاق الفلاحين الفلسطينيين إلى رماد. فجن جنون سكان المدينة المنكوبة فقاموا وقتلوا زوجة شمشون وأبيها. وحينما وصل النبأ إلى سامع شمشون أقسم أن انتقامه سوف يكون مروعاً. وكان عند كلمته. فربض على الطرقات وكان يخرج وكأنه شق الأرض وظهر منها ليقتل المارة حتى زرع الرعب في طرقات المدينة وخاف أهلها أن يمدوا رؤوسهم خارج الأسوار. وسرعان ما حل الجوع بمدينة تمته وتوقفت حركة العمل فيها. ولم يعد لأهلها من خيار سوى أن يضعوا حداً لعريضة شمشون تلك. فزحف جيوشهم إلى أرض يهوذا واجتاحتها منذرة بالويل طالبة تسليم شمشون. فذعرت قبيلة يهوذا وأرسلت ثلاثة آلاف رجل إلى شق صخرة عظيم حيث تحصن شمشون. وحاوره قائد القليل بحدة قائلاً له: «ألا تعلم أن الفلسطينيين متسلطون علينا؟ فماذا فعلت بنا؟». فأجاب شمشون بحزن: «كما فعلوا فعلت

بهم» وأردف: «أحلفوا لي أنكم لن تقتلوني» فأقسموا له بذلك واستسلم لهم ثم قيدوه بالحبال دون أن يدي أي مقاومة.

استقبل الفلسطينيون الأسير بالسخرة والهزاء. لكنه تحمل الإهانات بصبر وأناة، لكن عندما أخذ بعضهم يكيل له اللكمات ثارت ثائرته فقطع الحبال التي قيدوه بها كما يقطع الخيوط وأخذ من الأرض فك حمار ميت وهجم به على الذين يعبثونه وأخذ يجول فيهم يميناً وشمالاً. وما إن رأى الفلسطينيون ذلك المظهر حتى دبّ الرعب في قلوبهم فولّوا هارين. استغل شمشون الفوضى التي دبّت بين الصفوف وقتل ألف فلسطيني. ثم عاد إلى وكره مزهواً وهو يفتني على وقع خطواته: «هناك حمار كومة كومتين. بفك حمار قتلت ألف رجل».

لم تطل إقامة شمشون في الجبال لأن أهل ملته اختاروه قاضياً عليهم حيث حكم فيهم عشرين عاماً.

كانت ثقة شمشون بقرته العضلية كبيرة لدرجة أنه كان يتجول في مدينة الفلسطينيين وحيداً، يخطو في شوارعها ويستعرض السلع المعروضة للبيع. وكان يهرج في بعض الأحيان على غزة، وهي مدينة كثيرة السكان وغنية بتجارها. وفي هذه المدينة قابل شمشون زانية في غاية الجمال أعجبته كثيراً فذهب إلى بيتها. وسرعان ما انتشر خبر مبيت شمشون في مدينة الفلسطينية. وعند المساء أغلقت أبواب المدينة ووضعت عليها حراسة مشددة وأعطيت للحراس أوامر صريحة بمباغنة شمشون عند الصباح وقتله، ولكن شمشون علم بطريقة ما أن خطة أعدت لمحاصلته وقتله فقام في منتصف الليل وغادر بيت البني ولم يكن الحراس في انتظاره في مثل ذلك الوقت بل ناموا بسلام. فقتلهم واقتلع بوابات المدينة وحملها معه إلى الجبل على طريق حبرون.

في المرة التالية أحب شمشون امرأة فلسطينية ثانية تدعى دليلة تعيش في وادي سوري. ولما انتشر الخبر جاءه القادة الفلسطينيون وقالوا لها: «تملقيه وانظري سبب قوته العظيمة، وكيف تتمكن منه ونوثقه ونذله فنعطيك كل واحد ألف شافل من الفضة» ففرقت عينا المرأة الأناثية عندما سمعت بتلك الثروة.

انتظرت دليلة لقاءها الجميم التالي مع قاتل هواها وسألته في لحظة صفاء وبراءة كاملة عن سر قوته العظيمة. لكن شمشون كان قد أصبح أكثر حذراً ولم يعد يبيع بأسراره بسهولة. فقرر أن يداعب المرأة الفضولية وقال لها بأنه سيفقد قوته كلها إذا ما ربطوه بسبعة

أوتار طرية. وانتظرت دليلاً هبوط الليل لتنفذ خطتها عندما يغفو شمشون وهكذا فعلت، إذ ما إن غفا الرجل حتى أوثقته بالأوتار إياها وانسحبت من البيت بهدوء وقادت الفلسطينيين إليه. ثم عادت إلى غرفة النوم وصرخت متظاهرة بالخوف: «شمشون! الفلسطينيون عليك!». فهب الرجل من فراشه وقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة إذا مسته النار، ففر المتآمرون مذعورين. وأما هي، فقد أقسمت أصدق القسم أنها كانت نائمة إلى جانبه وما تحذيرها له سوى برهان أكيد على براءتها. فظاهر شمشون أنه صدقها لكنه غدا أكثر حذراً وقرر أن يلعب لعبة الهر والفار وعندما شرعت تسأله ثانية عن سر قوته، فكان يقص عليها آتي رواية تخطر له ثم يغفو في أحضانها. وفي أحد الأيام أخبرها أنه يفقد قوته إذا أوثقته بحبال جديدة لم تستعمل قط، ومرة أخرى قال لها إن قوته تفارقه حالما يضفر شعر رأسه سبع ضفائر تشد إلى الورد. وكانت دليلاً تمنى بالهزيمة في كل مرة والفلسطينيون يفرون مذعورين وهو يهتفه ساخراً منهم. ولكن دليلاً ما فئات خلفه تعكر عليه صفو حياته إلى أن باح لها بالحقبة ليهدأ قلبه ويرتاح: «لم تصل موسى رأسي لأنني منور لله من بطن أمي. فإن قُصَّ شعر رأسي فارتقتي قوتي وضعفت حتى أغدو كأحد الناس».

خيانة دليلاً... وهلاك شمشون

قامت دليلاً من فورها وطلبت من أبناء جلدتها أن يأتوها ومعهم الأموال التي وعدوها بها. ثم أخذت رأس شمشون على ركبته وشرعت تداعبه إلى أن راح في سبات عميق، فأمرت الحلاق أن يقص سبع ضفائر من شعره. وبعد أن انتهى الحلاق من عمله أيقظت دليلاً شمشون ونظرت إليه باحتقار ثم طردته من بيتها. في الوقت نفسه جاء الفلسطينيون فهاجمهم ناسياً أنه حليق الرأس وأن قوة يهوه فارقت عقاباً له على مخالفته النذر. وبعد اشتباك قصير قتيده وعصبوا عينيه وقادوه إلى غزة حيث أوثقوه بسلاسل ووضعوه في بيت السجن يطحن الحب.

قرر الفلسطينيون أن يحتفلوا بانتصارهم على عدوهم الرهيب هذا بتقديم القرابين وإقامة وليمة كبيرة في معبد إلههم داجون. كان المعبد بناءً عالياً يقوم على أعمدة قوية عالية وداره واسعة محاطة بالأعمدة وثمة عدد كبير من الأروقة في الدور الأول والمقصورات في الدور الثاني. وكان قد اجتمع هنا عدد كبير من الفلسطينيين الذين أخذوا يرحلون بهرج. ومعروف عن هؤلاء جهلهم للاحتفالات والولائم كثيرًا.

سارت الحفلة بصخبها كله وتعالى الضجيج، أما العيد فبالكاد استطاعوا أن يلبثوا مطالب المحتفلين في الوقت المناسب. ثم طلب الضيوف أن يعزف لهم شمشون شيئاً فأتوا به من قبو السجن ووضعوا القيثارة بين يديه. ووقف الجبار الأعمى ذليلاً مهاناً مهبط الجناح بين اثنين من أعمدة المعبد وأخذ يغني لحناً كانت والدته تغنيه له في الماضي. ولكن المحتفلين لم يسمعوا شيئاً لأنهم إنما دعوه كي يستمتعوا بسقوطه ويتنعموا لكل لحظة خوف، لكل إهانة سببها لهم شمشون.

كان شمشون اصفر اللون كالأموات، محجراه خاليين من عينيه، وقف يتحمل الهزء والسخرية بصبر وأناة وكأنه فقد كل القدرة على المقاومة. ولم يكن بمقدور أحد أن يحزر معاناته في تلك اللحظة، كما لم ينتبه أحد إلى أن شعر رأسه عاد وتما من جديد، وهو مصدر قوته العظيمة.

حرك شمشون شفثيه ببطء وتمتم توسلاً إلى يهوه: «يا سيدي الرب أذكرني وشددني يا الله هذه المرة فقط، فأنقم مرة واحدة عن عيني من الفلسطينيين». ثم قال للغلام الذي قاده من القبو: «دعني ألمس الأعمدة التي يقوم عليها البيت لاستند إليها». فلبى الغلام طلبه. وعندئذ صرخ شمشون بصوت عال، بعد أن أمسك بالعمودين بقوة: «إتْمُتْ نفسي مع الفلسطينيين!». فساد في المعبد هدوء مرعب ونهض أناس من أماكنهم ينظرون إلى الأعمى الذي شد العمودين إلى بعضهما بقوة وفي اللحظة ذاتها سقط المعبد سقوطاً مروعاً ليدفن تحت أنقاضه أنطاب الفلسطينيين ومعهم ثلاثة آلاف فلسطيني جاؤوا إلى الوليمة.

أما اليهود فاشتروا جثة شمشون وصعدوا به حيث دفنوه في قبر أبيه منوح وتناقلوا قصة حياته جيلًا عن جيل.

وهكذا انتهت أسطورة شمشون الجبار.



متفرقات



حفيد الشيطان

«أذهب إلى الشيطان!»

كان هذا هو الدوي الهائل الذي يسد أذنيه، فلا يسمع سواه في أي مكان يذهب إليه.. كان يسمعه في الطريق، وفي المدرسة، وفي المعبد... بل وفي بيت أبيه.

ماتت أم «بيتر» ولم يزل طفلاً. وسرعان ما أحضر أبوه امرأة من المدينة لتكون ربة البيت وأظهرت زوجة الأب للطفل من أول يوم دخلت فيه البيت شعور العداء الغريزي، بالرغم من استقباله لها بمظاهر الحفاوة والفرح البريء.

ولم يكن يحلو للمرأة شيء قدر ما يحلو لها تعذيب الطفل وتحقيقه، والسخرية منه، والتلذذ بالكيد له عند أبيه.

ومضت السنوات، والطفل ينمو في هذا الجو الرهيب من القسوة والحقْد، صابراً على الأذى، متحملاً القسوة، يلوذ بهمهم إلى دموعه يذرفها في نشيج مكتوم، كلما خلا إلى نفسه.

وكلما مرت الأيام، ازدادت المرأة قسوة وجبروتا، حتى أحالت حياة الفتى الصغير جحيماً يصلى سعيه ليلاً ونهاراً.. فهي تؤلب عليه المدرسين في المدرسة فيعاقبونه دون ذنب أو جريرة ويذيقونه من العذاب ما لا يحتمله جسده الضعيف. وفي البيت، لا تفتأ تثير عليه غضب أبيه في كل مناسبة، وتقل إليه الوشائيات عن أخطاء فاحشة لم تجل يوماً في خاطر الصبي، حتى امتلأ قلب الأب غلا وحقداً على ابنه البريء المسكين. وفي سورة الغضب الجارف أمسك الأب بابنه ذات يوم من عنقه وجره عبر ردهة الدار إلى الباب الخارجي، وقذف به إلى عرض الطريق، وصاح في ثورة:

— اذهب عني... فقد أصبحت لا أطيق رؤيتك.

ووقف الفتى في دھول ذليلاً يسأل أباه في حيرة وأسى

— أين اذهب يا ابتاه ؟!

فصرخ الرجل الغليظ القلب في ابنه قائلاً :

— اذهب إلى الشيطان !

ثم انثنى المزارع إلى الداخل بعد أن جذب الباب فأغلقه في عنف في وجه الصبي الصغير .

ومشى الصبي في الطريق متاثلاً حزينا ، وأخذ يتلفت خلفه بين الحين والحين ليلقي نظرات الدواع على مزرعة أبيه التي نشأ في أحضانها ، ولعب في مراتعها ، حتى أصبحت قطعة من كيانه لا يسهل عليه فراقها . وكادت الدموع تطفرف من عينيه ، لولا أن تذكر أنه قد أصبح «رجلاً» لا يلقف به البكاء .

ومضى في طريقه مسرعاً ، حتى اختفت المزرعة عن أنظاره ، وعندئذ استعاد رابطة جاشه ، وقوة عزيمته ، وامتلاً قلبه ثقة ، فقرر أن يشق طريقه في الحياة دون معونة أحد .

وبلغ الفتى مع مغيب الشمس قرية ، فدخلها وسار في طرقاتها حتى وصل إلى دار كبيرة تتوسطها ، فوقف أمام حديقتها ، حيث كان صاحب الدار — ويبدو أنه من أثرياء المزارعين — جالسا وأمامه منضدة عليها أطياب الأطعمة ، وقطع كبيرة من اللحم الشهى . ورفع الفتى قبعته بحيه قائلاً :

— فلنحمد الله جميعاً .

وأجاب الثري وهو يلتهم طعامه بنهم :

— إلى يوم القيامة . ماذا تريد ؟ .

قال بيتر :

— أستطيع أن أقوم بأي عمل تكلفني به ، فهل أنت في حاجة إلى عامل نشيط قوي له خبرة بشؤون الحقل ؟ .

فابتسم الثري ساخراً ، وأشار إليه بطرف إصبعه أن ينصرف ، وقال :

— أنت . . . وبهذه الملابس الجميلة ! إنك في هذه الصورة لا تصلح إلا أن تكون

سيداً مترفا يجيد الجلوس إلى المائدة ليلتهم الطعام دون أن يعمل . ابتعد يا فتى ، فليس في مزرعتي مكان لك .

ولكن الفتى ألح في الرجاء قائلاً :

— ولكني أجيد العمل ، فلتجربني يا سيدي .

فغضب الثري ، ونفذ صبره من فضول الفتى وتطفله ، وتعطيله عن متابعة الطعام ، فصرخ فيه قائلاً :

— قلت لك اذهب من هنا . . . اذهب أنت وعبرتلك إلى الشيطان ، فلست في حاجة إليك .

وأحس الفتى بغصة في حلقه ، وقفل راجعاً وقلبه ينوء بالمرارة والهم .

وانطلق قاصداً قرية أخرى ، وسأل عن مقر الشريف ، ولم تمض لحظات حتى كان يقرع بابه في روية وحذر .

وفتحت امرأة الشريف الباب ، وسالت الطارق في حدة : من أنت ؟ وماذا تريد ؟

فأجابها في رجاء وهدوء :

— إنني أبحث عن عمل أتأت منه . فهل أجده في مزرعتكم ؟ إنني خبير في شؤون الزراعة .

ففضحته المرأة ، وهزت رأسها قائلة :

— انتظر . إن زوجي يلعب الورق مع بعض أصحابه ، فاصبر حتى أسأله . .

واختفت المرأة . ولم يطل انتظار الفتى ، إذ سمع صوتاً غاضباً يقول في خشونة وغلظة :

— كم مرة طلبت إليك ألا ترجعيني عندما أكون مشغولاً . ليس لدي عمل لأحد ، فأخبرني هذا الوغد أن يذهب إلى الشيطان !

وانسحب الفتى في هدوء ، وسار في الطريق إلى الغابة ، ومضى يخترق مسالكها في صعوبة . . وفي رأسه دأمة هائلة من الأفكار السوداء . وبين الحين والحين يطن في أذنيه صوت له صدى رهيب يردد في مسامعه كلما توغل بين الأحرار :

— اذهب إلى الشيطان . . . اذهب إلى الشيطان .

وتكالب عليه الأحزان، وآلام التعب، ووطأة الجوع. فتهالك إلى جوار حجر كبير، واعتمد رأسه بين كفيه، وأطلق لأفكاره العنان. ولم يستطع «بيتر» عندئذ كبث دموعه، فانهالت العبرات على خديه في حرقة ولوعة.

وسمع الفتى وقع أقدام تقترب منه في هدوء، ورفع رأسه فأبصر أمامه سيدا مهيبا يرتدي ثيابا فاخرة، ويلتف بعباءة موشاة خضراء زاهية اللون. اقترب الرجل منه وعلى شففيه ابتسامة غامضة، ومال عليه، وربت على كتفه في حنان وقال في رقة وعطف:

— ما هكذا تكون الرجولة يا بني! لعل أمرا خطيرا يبكيك. قل لي يا فتى، فقد يكون في وسعي أن أخفف عنك.

وكشف الفتى دموعه، ولاحظ له في حديث الرجل بارقة من الأمل، فأجاب في أسمى ظاهر:

— إن الناس جميعا يوصدون أبوابهم دوني. إنني لا أستجدي يا سيدي، وإنما أبحث عن عمل شريف أعيش منه. وكلما سألت أحدهم أن يسر لي هذا المطلب، لا أسمع منه سوى الزجر مشفوعا بجواب واحد لا يتغير «فلتذهب إلى الشيطان!» أين هو الشيطان لأذهب إليه، فقد يكون أرق قلبا من الإنسان.

وازدادت ابتسامة الرجل، وبدت أكثر غموضا من ذي قبل، وقال:

— رويدك يا بني.. ألا تخشى الشيطان إذا قابلته؟.

فأجابه الفتى على الفور:

— دلني عليه بريك، فلن يكون أسمى علي من أبي وأمراته... و...

ولم يتم الفتى قوله. فقد رأى الرجل ينتفض فجأة انتفاضة سريعة، وإذا به يتحول إلى مسخ رهيب، له عينان تشعان في ظلام الليل وميضاً من نار، وقرنان مرفوعان في حدة الرمح المسنون... وأشار بمخالبه إلى صدره الضخم، وقال من ثانيا أنيابه البارزة:

— ها أتذا أمامك... أنا الشيطان!!

وبالرغم من هذه المفاجأة الرهيبة، فإن الفتى لم يفرغ، وإنما تعجب، وقال في هدوء وجنان ثابت:

— أحقا أنت الشيطان؟! إنه لمن بواعث سروري أن تحضر إلي في الوقت الذي أبحت فيه عنك.. أيمكن أن يكون هذا حقيقة، أم تراني في حلم؟.

— إنها الحقيقة يا فتى: فأنا «لوسيفر» وأنا أرحب بك إن كنت لا تزال على رأيك. ولا شك أنني سأجد لك من الأعمال ما يرضي طموحك.

وسأله بيتر:

— ما نوع العمل الذي يمكن أن أؤديه؟

فأجاب «لوسيفر» باسمًا:

— عمل بسيط: ساعته قليلة، وأجره ضخم. إنه عمل لا يليق إلا بمن كان شجاعا غير هباب مثلك.

وأوماً بيتر برأسه موافقا، وقال:

— مرحبا بالعمل معك يا لوسيفر.. هيا بنا، فإني أتحرق شوقا لأثبت لك جداتي.

فقهقه الشيطان قهقهة صاخبة تردد صداها الرهيب في أرجاء الغابة، ومد يده للفتى قائلا:

— مرحى... مرحى... ساستبقيك في خدمتي سبع سنين، أمنحك بعدها هدية تفنيك مدى الحياة.

وشد كلاهما على يد صاحبه، وطوق الشيطان حليفه الجديد، وضرب الأرض فانشقت. فخابا في أعماقها حتى بلغا غياهب الجحيم. ولفحت الفتى حرارة المسعر المحرق، إلا أنه غالب إحساسه، ولم يبد عليه أنه يعاني شيئا. ففي سبيل أن يبتعد عن جحود الناس، رضي أن يقتحم الجحيم.

ونارله الشيطان عباءة من الجلد، أمره أن يلتف بها جيدا، وقاده إلى قاعة واسعة، تتوسطها ثلاث قدور هائلة، وتنعقد فوقها سحب من البخار تتخللها السنة زرقاء من الشر المتطاير.

وقال الشيطان:

— هذا هو المكان الذي ستعمل فيه.. إن عملك هو أن تمد النار تحت القدور

الثلاث بالوقود حتى تظل مشتعلة دائما. والحذر، كل الحذر، أن تتطفئ جذورها ولو ثوانٍ. وثمة أمر آخر: إياك أن تنظر إلى داخل قدر من القدر الثلاث.

ووجد بيتر أن المهمة سهلة ميسورة، فhez رأسه قائلا:

— اطمنن يا سيدي. . . ولن أنس تعليماتك قط.

وشمر عن ساعديه، ومضى يباشر عمله في غبطة وسعادة.

مرت الأيام والأسابيع. وبيتر عاكف على عمله يؤديه في إيقان ودأب دون أن يشعر بتعب أو ملل، محافظاً على الوعد الذي قطعه على نفسه: فهو يواصل مد النار بالوقود دون أن يحاول النظر إلى داخل القدور.

وكانت الشياطين الصغار التي ترح في أرجاء الجحيم، قد علمت بوجوده، وتوطدت بينهما الألفة، فكانت تقضي أغلب أوقاتها معه: تسليه بلعبها، وتعاونها أحيانا في عمله حين يشعر بالحاجة إلى شيء من الراحة.

واطمان الشيطان إلى بيتر، وإلى إخلاصه في عمله، فأضفى عليه من ضروب الرعاية والمعاملة الطيبة ما جعل الفتى يشعر وكأنه يعيش في الجنة لا في الجحيم.

ومضت السنوات أسرع مما يتصور، وبدأ بيتر يحن إلى حياة البشر، ويشعر بالشوق إلى مشاهدة الخضرة والماء، وتبادل الحديث مع القرويين. وخطر له يوما أن يسأل الشيطان عن المدة الباقية من السنوات السبع التي اتفقا عليها. فاجابه لوسيفر:

— غدا. . . . تنتهي المدة

وأصبح الصباح، وأقبل الشيطان على بيتر بحبيه ويشكره قائلا:

— لقد انتهت المدة التي اتفقا عليها. وقد أصبحت منذ الآن حرا. وأشهد أنك خدمتي بكل أمانة وإخلاص. فتمن علي ما تريد، وإني لك لمجيب.

فقال بيتر:

— أريد أن أكون غنيا!

وسأله لوسيفر:

— هل يكفيك أن تحصل على أي مبلغ من المال متى أردت وفي أي وقت من الأوقات؟

وتلهل وجه بيتر، وقال على الفور:

— أجل. . . . أجل. . . . هو ذاك

فقال لوسيفر:

— أذن خذ هذا الكيس السحري، واحتفظ به جيدا، فإذا احتجت إلى أي مبلغ من المال، فما عليك إلا أن تفتحه، وتطلب المبلغ الذي تريد، فتجده في الحال بداخله!

وانبسطت أسارير الفتى. واستأنف الشيطان قائلا:

— أحب أن أنبهك إلى شيء هام. . . إنك ستجد المتاعب عند عودتك إلى الأرض، فإن السنوات السبع التي قضيتها في الجحيم قد سودت بشرتك. ولا تنس أنك لم تغمض طوال هذه المدة، ولم تقص شعرك أو أظافرك، ومن ثم فإن الناس سيظنونك الشيطان.

وأجاب بيتر ذاهلا:

— أجل. . . هذا صحيح. لقد نسيت هذا الأمر. ومع ذلك فإن من الممكن إصلاحه حالما أصعد إلى الأرض.

فأجاب «لوسيفر» وفي لهجته شيء من الرثاء:

— إن أي حمام لن يجديك نفعاً، وماء الأرض كله لن يزيل عنك الأوساخ. فاذهب إلى الأرض كما أنت. وعندما تصل، اقنع أول ناقوس يصادفك، فإذا اجتمع الناس حولك، قل لهم إنك حفيد الشيطان، وإنك عشت معهم كما عشت معي، فلم تجد في أرضهم جزءاً ضئيلاً من السعادة التي نعمت بها في جحيمي. وسأراقبك دائماً، فإذا وجدت نفسك بحاجة إلي فنادني تجدني إلى جوارك على الفور.

ودفع بيتر الشياطين السود الصغيرة، وألقى بنفسه بين ذراعي لوسيفر، فاخترق به الجحيم عائداً على سطح الأرض، وإلى المكان الذي التقى به في أول مرة منذ سبع سنوات.

واختفى لوسيفر في باطن الأرض كما جاء، ووجد بيتر نفسه وحيداً في الغابة، ومعه الكيس المسحور!

ومضى بيتر عائداً إلى قريته، وقد قاض به الشوق إلى لقاء بني جنسه، وأبصر قوماً

قادمين في الطريق، فأسرع نحوهم في سعادة غامرة. وما إن وقف أمامهم ورفع يده لتحيتهم، حتى دوت في أذنيه صرخات الفزع، وفر القوم من أمامه، وهم يتعثرون في خطوهم، وصيحبتهم تحترق القضاء في رعب وفزع:

— الشيطان... الشيطان..

وأحس «بيتر» بحزن عارم يكاد يعصف به... إلا أنه تمالك شعوره سريعا، ومضى في طريقه غير ملتي بالا إلى الناس الذين يقرون منه كلما اقترب منهم، كما لم يعبأ بالنسوة اللاتي يجلبن أطفالهن إلى داخل الدور، ويحكمن إصباح الأبواب كلما رأيته. وتوجه من فوره إلى خان يعرفه وكان صاحب النزل وأمرأته يقفان على بابه فالترب منهما في خطو وثيد، وهمس قائلا:

— فلنحمد الله جميعا!

ولم يسمع ردا على تحيته، فما إن انتبه الرجل وأمرأته إليه وأبصرا بشاعة خلقتها، حتى هرولا إلى الداخل، وأوصدا الباب في وجهه، وصرخاتهما الفزعة تشق أجواز الفضاء.

ودفع بيتر الباب الذي نسي الزوجان، لفرط رعبهما إحكام رتاجه، فانتفع على مصراعيه، وحين ولج الباب رأى صاحب الخان وزوجته مطروحين على الأرض في غيبوبة.

ومضى الفتى إلى متضدة منزلة، وجلس بعض الوقت، ثم قام إلى الزوجين، فسكب على رأسيهما كثيرا من الماء حتى أفاقا. وعاد إلى المائدة بعد أن أمر الرجل بأن يوافيه بأطيب الطعام وأجود الشراب.

ونفض الرجل مرتجفا يكاد يقتله الفزع، ومضى ليلبي رغبة المارد الأسود الرهيب، في حين انطلقت زوجته إلى حجرات الخان الخلفية فتوارت فيها.

ونزل الرجل إلى القبو في خطوات متعثرة واجفة، وأطل من نافذة القبو على حظيرة الجياد، ودعا في همس أحد الغلمان في الحظيرة وناولوه زقا من الخمر الممتعة، وقال له في صوت مرتعش:

— أسرع بها إلى القاعة يا «بيريك» فهناك سيد غريب ينتظرها، ولا تخف من مظهره، فإنه لن يؤذيك.

وصعد «بيريك» بالزق إلى القاعة، وتقدم على مهل. ولم يكد يلمح الغريب الجالس إلى المائدة، حتى صرخ في فوز، وانهارت أعصابه، فسقط الزق من يده وتحطم على الأرض، وسالت الخمر على سلم القبو حتى وصلت إلى صاحب الخان. واندفع الغلام هابطا وكأنما في أثره ألف شيطان!

واستقبله الرجل وفي يده عصا ضخمة، وصرخ فيه:

— أهكذا تكسر الزق، وتريق ما فيه من خمر؟ يا لخسارتى، ويا لضياغ مالي، سأخضع لمنها من أجرك أيها المجرم. هيا يا لعين، خذ غيرها وأصعد بها إلى السيد ودفع الرجل الصبي الذي أخذ يصعد السلم حاملا إناء الخمر، ويجر ساقيه جرا إلى داخل القاعة وهو يتعثر.

وقال بيتر يدعوه في رقة وحنو:

— اقترب أيها الفتى الصغير... لا تخف! فإني لست شيطانا كما يخیل إليك. اقترب لا تخف لمن أؤذيك!

وتقدم «بيريك» والردة تسري في بدنه من رأسه إلى أخمص قدميه، وأحكم قبضته على الإناء خشية أن يسقط من يده، ووضع الإناء على المائدة محاذرا أن يرفع بصره إلى وجه السيد الذي يثير منظره الرعب في أشد القلوب ثباتا

وسأله بيتر وهو يعب الخمر في نهم:

— من أين لكم مثل هذا الشراب اللذيذ؟

— قل لي: ما اسمك أيها الفتى؟

— وأجاب الغلام وعينه على الأرض:

— بيريك اليتيم!

فقال بيتر:

— ولماذا تعمل في هذا المكان؟

فرد الفتى وقد بدأت الرعدة تزايله، ويحل بقلبه الاطمئنان:

— كان علي أن أجد أي عمل... أي عمل مهما يكن.

وسأله بيتر:

- ولكن يبدو لي أنهم لا يعاملونك هنا معاملة كريمة . . . أليس كذلك ؟

وأنت الفتى إلى السيد، وارتاحت نفسه إلى حديثه، وشعر بالأطمئنان والثقة، وأحس كأنه يتحدث إلى صديق قديم . . . وفعلت رقة السيد في نفسه فعل السحر، فأنحلت عقدة لسانه، وأخذ يحكي قصة حياته، وكيف لجأ إلى صاحب الخان الغليظ القلب . . . الذي يستنزف قواه كلها مقابل خمسة عشر شلناً في العام !

وأثارت قصة الغلام شجون «بيتر» وتذكر قصة حياته، وقارن أوجه الشبه بين القصتين، وحملق في الغلام متأملاً معالم البؤس التي تخيم على سماته الحزينة. ولم يلبث أن أخرج الكيس المسحور، وهمس بمبلغ ضخم من المال، وأشار للغلام أن يدخل قبعته، ثم أفرغ فيها الكيس، فامتلات القبة بالدوكات الذهبية.

وكاد الغلام يطير فرحاً، وهو يرى تلك الثروة الضخمة تهبط عليه من يدي هذا الملاك الكريم، وأخذ يقلب يديه ووجهه وثابته، ثم انثنى يرقص، ويقفز، ويجري في كل اتجاه . . . ثم هتف في سعادة:

- إنه ليس شيطاناً . . . إنه ملاك كريم . لقد ملأ قبعتي ذهباً . . . إنه ليس شيطاناً.

وأقبل صاحب الخان مهولاً على صيحات الغلام. ولم يكذب يرى الذهب في قبعته، حتى تبخرت الرعدة التي انتابته في الهواء، وانقضت عنه سحابة الجبن التي غشيته. انقلب هلعاً إلى جراحة منقطعة النظير، وقفز سالماً القبر في خطوات، وعاد في ثوان يحمل دنا مليئاً بالشراب معتقة منذ عشرات السنين، فوضعه أمام السيد في احترام كبير، وقال:

- إني لا أقدم من هذا الشراب لرواد خاني على الإطلاق، ولكنني أقدمها هدية مني إكراماً للسيد الذي يشرقني لأول مرة . . . وأقسم ألا أنقاضي عنها ثمناً.

وأطرب هذا التملق قلب بيتر، فأطلق ضحكة قوية، وقال للرجل:

- اعتقد أنني سأجد هنا غرفة ذات فراش وثير، أقضي فيها ليلتي.

فأجابه الرجل:

- الخان بجميع حجراته رهن إشارة من طرف بنائك . . . يا مولاي!

لم يكذب بيتر يتمدد على الفراش، حتى أحس بدأ قوية تهزه في رفق. ففتح عينيه وهو يتنأب، ففوجئ بـ «يوسف» كبير الشياطين يهيمس في أذنه قائلاً:

- أسرع إلى الحظيرة يا بيتر . . . إن صاحب الخان يوشك أن يقتل الغلام من أجل الدوكات الذهبية.

فقفز بيتر من فراشه في سرعة، وفي مثل لمح البصر كان يقبض بيد من حديد على عنق صاحب الخان، الذي رفع خنجره الحاد وأوشك أن يغمده في قلب الغلام النائم ليستولي على ذهبه. وصرخ الرجل، وأخذ يئن أنباً مغزوعاً. وأمسك بيتر بيده، ودفعه أمامه قائلاً:

- أيها القاتل، سأحملك إلى الجحيم، وألقي بك في الزيت المغلي، فظفل تصرخ إلى الأبد جزاء جرمك الشنيع

وما إن سمع الرجل تهديد السيد حتى خارت قواه، وانهار مغشياً عليه . . . فحذبه بيتر إلى خارج الحظيرة، وعاد إلى الغلام الذي هب من نومه فزعا على صوت الرجل الغريب وهو ينذر صاحب الخان. وأدرك الفتى ما كان يدبره صاحب الخان للاستيلاء على دوكاته الذهبية، فانكب على قدمي السيد يقبلهما في شكر وامتنان.

وخطا بيتر إلى خارج الحظيرة، ومعه الغلام، وأمره بإحضار بعض الماء ورشه على صاحب الخان لافاقته. وفتح الرجل عينيه، ثم استوى جالساً في جهده . . . ولم يكذب يسترد وعيه، ويدرك مغبة فعله الأحقر، حتى هرع صوب السيد الغريب والصبي، وارتسى تحت أقدامهما يطلب منهما العفو والمغفرة، وودع بالتنازل عن كل أملاكه مقابل ألا يحمله السيد إلى الجحيم.

فقال له بيتر:

- احتفظ بأملكك، وسأعفو عنك بشرط أن تحسن معاملة بيريك، وترسله إلى المدرسة ليتعلم . . . وسوف أنفذ تهديدي في الوقت الذي يشكو إلي فيه الغلام أنك أسأت معاملته، أو تراخيت في تعليمه!

فقال الرجل وهو يرتجف من فرط الرعب:

- أعدك يا سيدي بأن أنفذ كل ما تطلبه، وسأعامل بيتر وكأنه ابني الوحيد!

لم يغادر بيتير الخان بعد ذلك قط... فهو يقيم في أحسن حجراته، ويتمتع بأطياب الطعام، ويلقى من صاحب الخان وزوجته خدمة لم يكن يحلم بمثلها...

وكان لدوكانته الذهبية، وإنعامه بها على أهل القرية، فعل السحر في نفوس الجميع... فلم يكن لهم من حديث في سهراتهم واجتماعاتهم إلا عن السيد الثري ساكن الخان.

وتواترت أنباء السيد الثري حتى بلغت مسامع أمير المقاطعة، الذي كان يعاني منذ وقت طويل ضائقة مالية أخذت بخنائه، فلم يعد يملك منها مخرجاً...

وما إن تحقق من قصة التزويل الثري، حتى أبقن أنها فرصة أتاحتها له الأقدار، فإذا فاتته فلن يعوضها مرة أخرى... ومن ثم سارع بإيقاد رسول من طرفه يدعو السيد الثري إلى مقابلته!

واستقبل بيتير رسول الأمير في سخرية، وقال له في حزم صارم:

«قل لسيلك أننى لا أذهب إلى أحد. ومن يريد أن يلقاتني، فعليه أن يحضر إلي!»

وأدار ظهره للرسول، الذي انسحب في مرعة من أمامه عائداً إلى مولاه ليبلغه الرد العجيب!

واستشاط الأمير غضباً... فهو لم يتصور قط أن أحداً من الخاضعين لأحكام إمارته يجرؤ على رفض القدوم إليه... بل ويطلب أن يذهب إليه الأمير بنفسه!

وكان «بيتير» واثقاً أن الأمير سيحضر إليه مرغماً... فقد كان يعلم مدى ما يعانيه من ضائقته المالية التي أوقعه فيها نزق ابنتيه الكبيرتين، وإمراقفهما في بعثرة الأموال، حتى خوت خزائن البلاد، وأوشك الشعب على الثورة... ولولا حب الأهالي لصغرى بنات الأمير «أنجيلينا» وعطفهم عليها، وأعلنوا العصيان ضد الأمير، وخلعوه من منصبه منذ بعيد. فقد كان جمال الأميرة ورقتها وتجاوبها مع محبة الأهالي، وكرهها لتصرفات أختها، سبباً في تخفيف حدة الثورة ضد الأمير. وكلما فاض بهم الغضب، طافت بأذهانهم صورة الأميرة الجميلة، فهدأت ثورتهم، وصبروا أملاً في أن تنجلي الغمامة بوسيلة أخرى.

وملاً حديث صاحب الخان عن «أنجيليا» أسماح بيتير، وأدار رأسه ما سمعه عن

جمالها. حتى أصبح شغله الشاغل كل مساء، أن يدعو إليه الرجل، ويغدق عليه المال، ويستدرجه في الحديث عن أنجيلينا. وقال له صاحب الخان:

«آه يا سيدى لو قدر لك أن ترى جمالها الملائكي الطاهر. لا أظن أن في الوجود من تضارعها جمالاً ورقه، وعلى تقيض، قبح أختيها الشيريتين الحقودتين. إن أهالي القرية يا سيدى ليمنون أن يتخلصوا من هاتين الأميرتين في كل لحظة. إن الحديث عنهما يثير الغضب. ألا فليذهب إلى الشيطان.

واستدرك الرجل حين زل لسانه بذكر الشيطان فحسب بيده على قمه صائحاً في

ذعر:

«يا إلهي... أنا لم أقصد.

وقاطعه بيتير ضاحكاً:

«لا عليك. فانا لست الشيطان كما تظن ولكني حفيده الصغير.

واقتربت من الخان ضجة يثيرها وقع حوافر جياد كثيرة وصليل أسلحة. ولم تلبث الجياد أن توقفت أمام الخان، فقام صاحبه مهرولاً لاستقبال الوافدين، ففوجئ بالأمير وحرسه يلجئون الباب. وابتدره الأمير في لهجة متعالية:

«أين حجرة السيد الغريب أيها الرجل؟

فانحنى صاحب الخان، وأشار بيده إلى الأمير أن يتفضل بفتحه. وسار أمامه حتى بلغا حجرة بيتير، فطرق الرجل الباب، ثم دفعه في رفق، وأوماً إلى الأمير بيده، وانسحب عائداً.

وخطا الأمير إلى الداخل... وتوقف بغتة حين أبصر ذلك المخلوق البشع الذي قام ليرحب به. وارتعدت فرائص الأمير، وهم بالفراق... إلا أنه تذكر المهمة التي جاء من أجلها، فصالح نفسه، وتقدم ليصافح مضيقاً، محاولاً أن يبدو ثابت الجنان، رابط الجأش.

وجلس حفيد الشيطان والأمير يتحادثان في تكلف ظاهر. والأمير يحاول التغلب على خجله، ويتنظر الفرصة السانحة ليطرق الموضوع الذي جاء من أجله. وعندما بدا أنهما لا يجدان ما يتحادثان فيه، مال الأمير إلى مضيقه، وشرح له ما تمناه البلاد من جراء

الضائقة المالية، وطلب إليه أن يعاونه في علاج الحالة بمنحه قرضاً كبيراً يسد منه ديون البلاد، ويساهم في إنعاش اقتصادياتها.

وأصنى إليه يتر في اهتمام، ثم قال له بلهجة حاسمة لا تقبل النقاش:

— سأعطيك كل ما تطلب مقابل شرط واحد.

فسارع الأمير وأبدى استعداده لتنفيذ هذا الشرط مهما يكن.

وقال يتر:

— زوجني إحدى بناتك.

وبهت الأمير، وبدأ عليه التردد. إلا أنه سرعان ما قال:

— لا بأس... ولكن أي بناتي تريد؟

فاجاب يتر:

— أيهن سواء. وسأحضر إلى قصرك غداً لأعطيك المال وأشهد عروسي المقبلة.

وعاد الأمير إلى قصره وجمع بناته الثلاث وأطلعهم على الموقف الدقيق الذي تمر به البلاد، والإفلاس الذي يعانيه وينذر بأخطر العواقب. وأشار في حديثه إلى الفرصة التي أتاحها له الأقدار بنزول حفيد الشيطان في ضيافته وأفاض في وصف ثرائه وأكوام الذهب التي يبعثها دون حساب. ثم بلغ بالحديث بيت القصيد فصارح الأميرات بقوله:

— لقد عقدت اتفاقاً مع الضيف لأقراض أموالاً طائلة أسد منها جميع ديون البلاد وديوني وتوفر لنا جميعاً العيش في رخاء تام. ذلك كله سيفعله الرجل مقابل أن يتزوج إحداكن.

ومضى يشرح لبناته الثلاث حرج موقفه، والثورة التي بدت نذرها للإطاحة بعرشه، وقال:

— إن خلاصي في أيديكن. إن حفيد الشيطان على درجة من القبح حقاً. إلا أنه إذا قص شعره وقلم أظافره واغتسل فيصبح مقبولاً لا ضير في الزواج منه.

وكانت الأميرات قد سمعن الكثير عن بشاعة هذا النزول وقبحه، ففاجأت الأميرات الكبيرتان أباهما بإعلان رفضهما لهذه الزيجة، ورفضتا الرأي الذي رآه أبوهما، وأخذتا تلومانه لتضحيه بهما في سبيل المال.

وحز هذا الجحود في نفس الأمير وخاصة من إبتيه اللتين تسببتا بإسراف المال وفرض الضيق الذي تعانیه البلاد. وكادت الدموع تطف من عينيه أسفاً وحزناً.

وتقدمت أنجياليا الصغيرة، فطوقت عنق أبيها بذراعيها، وأعلنت بشجاعة أنها ستزوج من حفيد الشيطان مهما تكن بشاعته، وستذهب معه إلى أي مكان، ولو كان الجحيم.

وأغرقت الأميرتان الشريتان في الضحك، وقالتا للأميرة الصغيرة في سخرية:

— نعم، يا أختاه فإنك خير من تليق بحفيد الشيطان.

وأمسكتا عن الضحك والسخرية من أختهما عندما دخل أحد الخدم مهرولاً، وعلى وجهه أبلغ مظاهر الفزع، ليعلن للأمير وصول حفيد الشيطان.

وأسرع الأمير فاستقبل ضيفه، وصافحه في ترحاب وتكريم وقاده إلى القاعة الكبرى حيث جلسا يتحدثان. ودخلت كبرى الأميرات وما كادت تلمح الضيف حتى تراجعت إلى الوراء فجأة وندت عنها شهقة رعب، واستدارت لتغادر القاعة بأقصى سرعتها وهي تصرخ في فزع.

ودخلت الأميرة الثانية بدافع من الفضول لترى الذي أثار رعب شقيقتها ولم تلبث أن عادت في هلع وعلى قسماتها من مظاهر الفزع والرعب ما أعجزها عن النطق.

وتقدمت أنجياليا في ثبات وولجت باب القاعة ولم تعد كأختها صارخة مهرولة بل سقطت مغشياً عليها، ولم يطل إغماؤها فقد أفاقَت بسرعة ولكنها ظلت ترتعد. فقام أبوها وأستدأها وسار بها إلى حفيد الشيطان وقدمها إليه. وقام يتر ومد يده فصافحها وأخذ بين يديه كفها المرتعشة التي هربت منها الدماء فصارت ببرودة الثلج وقال في رقة يهدئ روعها:

— لا تخشى شيئاً يا أميري فلن أكون على هذه الصورة البشعة دائماً. بل سيتغير هذا المظهر إذا ما وثقت بي، وأطمأنت إلي وتأكدت من شيء واحد فقط: هو أنني أحبك وسأظل أحبك ما حييت.

وسرى صوته الرقيق في أعماق أنجياليا كالسحر وزال بها الرعب، وأحسّت بالراحة والأطمئنان وإن كان قلبها الرقيق لا يزال يشعر ببعض الرهبة.

وهم بيتر بالإنصراف واتحى بالأمير جانباً وسلمه مبلغاً من المال ثم أعلن أنه سيعود بعد أسبوع لإتمام الزفاف.

انطلق بيتر في الطريق إلى الغابة حيث التقى بالشيطان أول مرة. وفي نفس المكان الذي تقابل فيه نادى الشيطان باسمه، فانشقت الأرض عن لوسيفر وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وقال:

— لييك يا حفيدي الصغير .. أعودتي؟.

فقال بيتر:

— أرجوك يا لوسيفر .. بحث إخلاصي في أداء مهنتي لديك أعد لي صورتي الطبيعية وأعدك ألا أصابك بعد ذلك قط. أنى أحب الأميرة أنجيلى ولا أتحمل أن أراها تقاسي الألم من منظري المخيف.

وأجابه لوسيفر.

— لك ما تريد .. أمسك بمعطفي وسأذهب بك إلى حيث تنتسل.

وفرغ بيتر فرحاً شديداً وأسرع فنتشب بأطراف المعطف بكلتا يديه، ولم يلبث أن طار به الشيطان إلى عنان السماء وأخذ الشيطان بحلق فوق الجبال والوديان ويطير فوق غابات كثيفة ذات منظر عجيب ويعد وقت ليس بالقصير أخذاً بهيطان حتى استقرا على شاطئ بحيرة تلالاً مياهما كالفضة، وقال لوسيفر:

— انزل فاعتسل في هذه البحيرة وستخرج منها شاباً أكثر بهاء وروعة مما كنت

واندفع بيتر فألقى بنفسه في الماء وجعل يغطس ويطفو في فرح وسعادة غامرة، وعندما خرج من الماء كان قد عاد فتى جليلاً ناضراً، أملس الجلد، ناعم البشرة، حليق الذقن، مقلم الأظافر.

وأشار إليه لوسيفر أن يمسك بطرف معطفه، وطار به حيث أنزله في مدينة عظيمة تموج شوارعها بتناجر فخمة تعرض أجود أنواع الملابس وأفخرها، ومضى الفتى يتجول بين المتاجر ويتفتي نفسه أروع وأبهى ما فيها واشترى عربة فخمة مذهبة تجرها جواد ناصعة البياض، واستاجر حاشية من الألباع وانطلق في موكبهِ الرائع قاصداً قصر أميرته الحبيبة.

وكانت الأميرة تطل من نافذتها فأبصرت هذا الضيف يدخل في موكبهِ الرائع إلى

القصر فراغها جماله وأعجبت بأناته وحسن هندامه، وظنت جاء خاطباً لإحدى شقيقاتها فشعرت بالغيرة والحسرة، وأخذت تقارن بين جماله الساحر وبشاعة قبح خطيئها. وبين الحسرات والتنهات أحست بخطوات تقترب من باب حجرتها وسمعت طرقات خفيفاً على الباب فأذنت للطارق بالدخول. فإذا الأمير الشاب الذي رآته من لحظات يسرع إليها متهلل الوجه مشرق البسمات، ويهتف في سعادة:

— أنجيلىنا .. أميرتي المحبوبة، ثم انحنى على يدها يلثمها في وجد واشتياق.

وتراجعت الأميرة إلى الوراء وتملكها ردة شديدة، وتسارعت نبضات قلبها تخفق في عنف وصدى الكلمات يتردد في مسامعها وقالت كمن تحدث نفسها في دهشة:

— لا إنه أمر غير معقول حقاً إنه صوت حفيد الشيطان دون مرأه، ولكن ... هذه الصورة كيف ... لا ... لا شك أني وأهمة!

وهتف الأمير الشاب في صوت رقيق:

— إنه أنا يا أنجيلىنا .. بيتر ... حفيد الشيطان!.

وارتمت الفتاة في أحضانها وترقرقت في عينيها دموع السعادة.

وعاشت أنجيلىنا وبيتر في هناءة ورغد، يحوطهما لوسيفر برعايته. ونهشت الغيرة صدر الأختين المحقودتين فأخذتا تفتنان على سعادتهما، وقد ملأهما الندم على رفض الزواج من حفيد الشيطان، فلم يكن يدور في خلدتهما قط أنه على هذه الصورة من الجمال والشباب.

وأدرك لوسيفر أن الزوجين في حاجة إلى حمايته من الشر فانقض على الأميرتين وأحاط بهما قاتلاً:

— أنا لوسيفر الذي سخرتما به ورفضتما الزواج من حفيده وسأخذكما معي لأكفي الناس شركما. لقد تزوجت الأميرة الصغيرة من حفيدي الصغير وأنتما أكبر منها فلا يليق بكما إلا شيطان كبير.

وما إن فرغ من حديثه حتى حملهما على ظهره وضرب الأرض بقدمه فانشقت فاندفع بالشابيتين إلى أغوار الجحيم.

الملك تيمورلنك

لمحة من الوفاء

كان الملك تيمورلنك قد غادر قصره في الصباح في رحلة صيد تعود أن يقوم بها. والتف من حوله رجال حاشيته وبلاطه وكان معهم الوزير حكيم. وبينما هم يمارسون صيدهم ومرحهم إذ برزت فجأة أمام الملك تيمورلنك ظبية حلوة تختال طرباً أمامه. ولم يكذ بقع بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده وأطلق له العنان، وانطلق يطاردها أسرع من الريح.

ولم تكذ الظبية تلمح مطاردها حتى انطلقت هي الأخرى تثير وراءها زوبعة من الغبار. ورغم تلك السرعة التي كانت تجري بها إلا أن تيمورلنك كاد أن يلحق بها وصوب إليها سهماً، وهم أن يرميه، ولكن في هذه اللحظة اندفعت الظبية إلى نبع أملها وقفرت فيه وغابت عن ناظره. وتوقف الملك بحصانه إلى جوار ذلك النبع وترجل عن جواده. وأخذ يتحسس الماء بعصاه بحثاً عن طريدته التي يطاردها. فلما لم يجد لها أثراً. . تأكد من أنها جنية تقمصت صورة ظبية، حتى تستطيع العبث خلالها بقلوب الميادين.

وعندما تأكد الملك ووزيره من ذلك، أمر حاشيته أن تنصرف وتعود إلى القصر وبقي هو والوزير حكيم يجوار الماء انتظاراً لخروج الجنية إذ أنه من المعروف أن الجنيات يستطيعن المكوث فترة طويلة في الماء.

واستلقى الملك ووزيره جوار النبع انتظاراً لخروج الجنية، لكن الجهد الذي بذلوه في ذلك اليوم كان لا بد أن يسلمهما إلى النوم. فاستلقيا في نوم عميق وما كادا يستيقظان منه حتى وجدنا نفسيهما فجأة أمام قصر قد انتصب أمامهما كما ينتصب عملاق مهول.

وقال الملك مخاطباً وزيره:

— أكاد أجن. . من الذي شيد هذا القصر العظيم ومتى شيده؟ ألم نكن هنا من سويحات

قلائل ولم يكن هناك شيئا سوى رمال الصحراء . أترأه ماردا من الجن الذي أقامه ؟ .

أجاب الوزير حكيم :

— ما أظنه يا مولاي إلا أنه ساحر . وهو يبنى من وراء ذلك هدفاً ، لا نعلمه . هيا بنا يا مولاي نذهب قبل أن يلم بنا مكروه فنستلم له كما استسلمنا لهذه الظبية .

ولكن الملك قال :

— لا ، بل سوف أدخل هذا القصر بحثاً عن الظبية ولكني أكتشف ما وراء هذا القصر من الأسرار .

واستسلم الوزير لأمر ملكه وانطلق معه إلى داخل القصر وإذا بهما يتوسطان قاعة واسعة ، كل محتوياتها ذهب وفضة وعقيق ومن كل ركن من أركانها يتشتر عطر كبير الجنة . واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما في قاعة أخرى أكثر من الأولى سحراً ورونقاً . تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق يتدرج من فوق سطحها عرش من ذهب محلى بلؤلؤ وماس ، تجلس فوقه حورية حسنة كالبلدر . تحيط بها خمسون غادة في ثياب من حرير يغنين ويرقصن ، ويمزغن ألحاناً كالسحر لم تسمع مثلها الأرض أبداً من قبل .

كانت هذه الصورة التي أطلع عليها تيمورلنك أروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال . ووجد نفسه ينحني لهذا الجمال الذي يشع من وجه المرأة

وانطلق من شفته كلامٌ كالمهمس يقول :

— رحماك يا من تجلسين فوق عرض من ذهب وبأسر وجهك كل القلوب . رحماك يا من جعلت ملكاً أسيراً تحت سهام لحظك الفتاك . من تكونين أيها الحورية التي تعجز عن الإتيان بمثلها الأزمنة والأجيال ؟

أجابت الحورية :

— أنا من تبعتهما بسهامك وأردت أن تكتب لها الموت بحد رحمتك . أنا الظبية التي أغرتك وسأقتك إلى حيث تعيش . من أجل صرخات حب صاخب في قلب عربية .

قال الملك :

— ولكن كيف يكون هذا التحول ؟ . ومن أين أدرك أن حبي لا يقع في شرك مسحور من أجل لحظات قصار ليصير ويلقى بعد ذلك في أتون النيران ؟ .

ونهضت الحورية وهي تقول للملك :

— لا تخش هوائي أيها الملك . فهو لم يعرف السحر قط . وما تحولني إلى هذا الشكل

الذي رأيته سوى آية وجهها لي السماء منذ أن ولدت في هذا العالم .

وأخذت الحورية بيد الملك وذهبت به إلى حجرة أخرى حتى انتهى إلى قاعة تتوسطها مائدة جامعة بكل فاخر من طعام وشراب . لم يكد الوزير يجلس مع ملكه حتى أحاطت بهما كل الجوارى يقمن على خدمتهما ويمزغن ويرقصن . ويرفضن أن يأكلن بل يقمن على خدمتهما .

وشرح الرجلان من الطعام وتساخا الشراب حتى ارتويا وقالت الحورية للملك :

— ما أحلاك أيها الحبيب ! . إنني أنا التي تبكى الهوى برغم مولدي القدسي وأصلك الأرضي . أنا يا من خلقت من نار ، لم أستطع أن أمنع لهيب قلبي عندما رأيته . أنا ملكة حوريات الجن أجد نفسي أسيرة لرجل من الأنس لا يمت لي بصلة ولا نسب . فيجعلني استسلم لهواه ولا أهتم بمضي الزمن ، وقد كان يجب أن أكون بالأمس في ديار والذي الذي غادرته منذ شهور ثلاثة أضرب في الأرض وأطوف أثمارها لأشهد مملكة الأنس التي لا تشبه في شيء أبداً مملكة أبي الجنى ، ثم وقع بصري عليك أيها الأنس وأنا في طريق العودة إلى ديارى فما استطعت أن أمنع قلبي من السقوط عند قدميك وما عرفت كيف وأنا الجنية أقع في هوى أنس .

وقد كدت أعود إلى جزيرة والذي في أعماق البحر ، إلا أنني وجدت قدمي مقيدتين إلى الأرض التي أنت عليها ، فلم أستطع أن أتحرّك . وهنا قررت الاستسلام لما يملئ عليه قلبي فانطلقت إليك وأنا أصور لك صورة الظبية وأحاول أن أغريك . وليست أنت ذلك النداء وتبعته ولم تقصر في العدو خلفي بينما كنت أزيد في إغرائك ودعوتك دون أن تدري أنت ذلك ، حتى ألقيت بنفسي داخل النبع وأنا أعلم أنك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التي أوقعتك في شركها . ولقد صدق حسبي إذ رأيته تحسّن الماء بعصاك وازداد حي لك وأنا أسمع في الأعماق منك تصميمًا على قضاء الليل إلى جوار النبع . فألقيت على عينيك ووزيك غشاوة الندم ثم أمرت بتشيد ذلك القصر لقضي فيه مما أيام حينا وزواجنا . فهل أنت راض الآن عما فعلت ، أم تراك غضبت لمعرفة الحقيقة ؟

وانفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وبين تلك الحورية التي اعترفت له بكل ما في قلبها من حب له ، وقال :

— أيها الملكة الحورية . . سأعيش إلى جوارك لنتم بما كتبه الله لنا .

وهنا في تلك اللحظة بالذات فتح الباب وألقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمي ملكتها وهي تبكي وتقول :

— لقد انتقل والدك إلى العالم الآخر يا مليكتي والشعب ينتظر عودتك لكي يضع التاج فوق رأسك قبل أن ينقض عليه عمك يا مولاتي . . فلنعجل فلم يعد هناك وقت .

وصرخت الملكة وهي تنعي إليها والدها وأخذت تبكي . . غير أنها بعد فترة قصيرة استسلمت فيها لقدرها وأخذت تكلم تيمورلنك :

— لا بد لي أن أعود إلى شعبي الذي ينتظرنني لكي أدفع عنه ذلك الطاغية الذي يسعى إلى الحكم الآن . وداعا يا ملكي العزيز . . ثم أني لن أنساك . .

ولم تكذب تنطق هذه الكلمات الأخيرة حتى اختفت عن الأنظار وتحول القصر إلى سراب وكأنه لم يكن .

وعاد الملك تيمورلنك إلى قصره . . ولكنه لم يكن ذلك الملك الذي خرج منه بل حطمه الحزن . . وأخذ في الخروج كل يوم إلى النبع ينتظر أن تخرج منه تلك الحورية التي أسرت فؤاده لعلها تخرج وتخفف عنه نار الفراق .

ومضى عام وبعض عام . .

وذاث يوم بينما الملك جالس إلى جوار النبع كعادته ، إذ به يخفي فجأة ولا يترك أثرا يدل على مكان اختفائه . وضح الشعب ، وجن جنون وزيره . واضطربت صفوف القادة والجيش والجميع يبحث دون جدوى . هل لقي حتفه؟ . هل ذهب إلى المجهول؟ هل اقتصرته وحوش الغابة؟ . لم يستطع أن يخمن أين ذهب الملك ولكن وزيره كان يساوره ذلك الشك أن ملكة الجن وحوريته قد خطفته وليكه وكان محقا في ذلك .

إذ أمرت الملكة بعض جنودها وقاموا بخطف الملك بعد أن رأت هي أنها قد نفذت الوعد الذي قطعته له وهو كذلك لم ينسها . وهي لم تنس .

وأطلقت الملكة تدعو شعبها إلى لقائنها . واجتمع الشعب في ساحة قصرها الملكي ووقفت هي في شرفتها وقالت لهم :

— هذا هو الرجل الذي أحبه قلبي ، ولكنه يختلف عن هيتنا . وإني أنوي أن أقرن به . فإما أن تجعلوه منكم بمثابة ملككم حيث وضعتوني ، وإما أن تتركوني أرحل معه أشاركه عرشه وأشاركه حب شعبه .

ولكن جموع الجن التي كانت تعشق ملكتهم قالوا في صوت صاخب :

— نحن نبارك هذا الزواج يا مولاتي .

لم يمض سوى يوم واحد على القسم حتى كانت تلك المملكة تحتفل بزواج ملكتهم

على تيمورلنك

وجلس الحورية مع ملكها وقالت له :

— قبل أن ترتبط حتى النهاية أريد أن أنبهك إلى شيء قد لا تستطيع أن تفني به فيكون فراقنا .

وقال لها :

— أبدا أيتها الحبيبة . سوف أفي بجميع وعودك التي سوف أقطعها على نفسي أمامك .

ورددت هي قائلة :

— إنه أمر شاق ذلك العهد . وإذا نكثت فيه سوف ينتهي أمرنا . وإني أخشى أن تنكث ذلك اليمين .

وعاد تيمورلنك يقول :

— أنا رهن إشارتك ولن أنكث وعودي

وقال الملكة :

— إذا عاهدتني ألا تتدخل في أمر آتية . فنحن معشر الجن لنا من الطباع ما يختلف عن طباعكم ولنا من التصرفات ما لا يمكن أن تقبله عقولكم البشرية .

وأجاب تيمورلنك قائلا :

— أمذا هو كل ما تحذرنني منه أيتها الجنية . لا تخشي شيئا ، ولن يحدث هذا الذي تخافين منه .

وعادت الملكة تؤكد عليه ذلك قائلة :

— هل أنت واثق من ذلك؟ .

وضحك تيمورلنك قائلا :

— نعم . .

واقترنت الملكة وصار تيمورلنك شريكا على عرش الجن لمملكة الجن .

وانقضى عام . .

وذاث يوم أغلقت الملكة على نفسها باب حجرتها ومنعت زوجها من الدخول . . وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليدا رائعا كأنه البدر ، وأخذ تيمورلنك وراح يحضنه ويقبله وهو يكاد يرقص طربا وفرحا بمولوده الجديد . وتناولت الأم منه الطفل

ثم وقفت بجانب مدفأة وهي تضطرم بنيرانها المتأججة، وراحت تنتم بألفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئاً قط. ثم فجأة ألقت الوليد في تلك النار التي سرعان ما ابتلعت ذلك الطعام وخمدت وكأنه لم تكن هناك نار على الإطلاق.

وصرخ الملك رعباً وحزناً على ولده الذي راح ضحية ذلك التصرف المجنون. وكاد يصيح بما يجول في خاطره لولا أنه تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه لزوجته ألا يتدخل في أي تصرف من تصرفاتها. وكتم ألمه داخل نفسه.

وانقضى عام آخر..

ومثلما حدث في المرة الأولى، أغلقت الملكة على نفسها الباب وعندما فتح مرة أخرى خرجت وهي تحمل مولودة كأنها البدر في ليثته وراح الملك يحتضن ابنته وهو يتوقع في كل لحظة أن تأخذها منه الملكة وتقذفها في النار، غير أن شيئاً من ذلك لم يقع في ذلك اليوم فاطمأن قلبه وامتلاًحاً حباً لزوجته وابنته. وما عاد يطيع فراق أي منهما لحظة واحدة.

غير أن الملك فوجئ بعد أسبوع من ولادة ابنته بكلمة عملاقة تدخل من باب القصر وهي فاعرة فاما الكبير، واقتربت منها الملكة وهي تحمل الطفلة الرضيعة وتقذفها داخل هذا القم..

وكاد الملك ينفجر ورفع يده وهي تكاد تهوى على تلك الكلبة، غير أنه تذكر وعده الذي قطعه على نفسه ورفع يده كأنه يمس الكلبة وهي تمر من أمامه، وانطلق إلى مخدعه وراح يبيكي وهو يحدث نفسه قائلاً:

— يا لي من تمس، لقد تزوجت امرأة سفاحة. أين ضميرها وهي تقذف بابنتها إلى النار وتلقي ابنتها بين أفواه الكلاب؟ أليكون كل هذا من تقاليد الجن؟. أتأبى أن يكون لها أولاداً من أسس.. إذا كان كذلك فلمماذا تزوجتني إذن؟ ما أفضح قلب تلك المرأة! إن لصبري حدود ولن أطيق تلك المعاملة من بعد. لن أحتمل بطبعي البشري كل هذا الهراء.

وانطلق تيمورلنك حيث توجد زوجته وقال لها:

— لقد اشتقت إلى أمر مملكتي وشعبي وناسي. ولقد تركتهم ولا أدري ما مصيرهم. ليتك تأذنين يا مولاتي بالذهاب ولزيارتهم ومعرفة ما ألم بهم ثم أعود بعد فترة.

وابتسمت الملكة وهي تجيب زوجها:

— حسناً يا زوجي العزيز.. لك ما شئت ثم أن الأعداء على أبواب بلادك العزيزة والشعب في حاجة إلى قائده الذي يقوده إلى النصر. واطمن من هذه الناحية فلن أتركك قط

حتى ترتفع راية انتصارك إلى الأعلى.

وأمرت الملكة مارداً من الجن ينقل الملك إلى عرش بلاده.

ولم تمر لحظات حتى وجد تيمورلنك نفسه جالساً فوق عرشه، في ذلك الوقت الذي كان وزيره المخلص يقوم بحكم البلاد باسمه انتظاراً لعودته. فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالساً على العرش ارتد إلى الوراء وكان الثعابين لسعة.

فركع الوزير على ركبتيه وهو يشكر الله ثم قام واحتضن ملكه الذي كان يملأه العجب من ذلك الوفاء والإخلاص من هذا الرجل، الذي قام بحرس العرش انتظاراً لعوده ملكه.

وأخذ الملك يتفقد أمور بلاده. ويعد الجيوش لملاقاة الأعداء التي تقف على أبواب المدينة.

وتجمعت الجيوش في ساحة الوغى وهي تهدر. بينما كان القائد (ساوشيم) هو المسؤول عن إمداد الجيوش بالمؤن والثمار والخبز جميعها، ثم يرسلها مدداً للجيش الذي يقف في انتظار الأعداء، غير أن هذه القوافل لم تكم تصل إلى حيث يتبع الجنود أبداً، فخلال الطريق كانت جيوش أخرى من الجن تنقض على تلك المؤن برئاسة زوجة الملك تيمورلنك وتلقي المؤن على الأرض فتفسدها. وتبقى قرب الماء فتهرقها وتسيلها على الأرض.. وقد تكررت هجمات الجن على قوافل المؤن حتى كاد القائد (ساوشيم) يجن. وحيتند برزت له ملكة الجن وقالت له:

— اذهب إلى ملكك وقل له إن التي تعبت بالمؤن وتفسدها وتلقفها ليست إلا زوجتك.

وانطلق ساوشيم غاضباً على تلك المؤامرة التي تدبرها زوجة ملكه. وأخير الملك تيمورلنك بما تفعله زوجته بأمر المؤن التي تخص الجيوش التي تقف في وجه الأعداء.

وطاش عقل الملك ولم يطق صبراً على أفعال زوجته، وبمجرد أن ظهرت تلك المرأة لم يدع لها فرصة الكلام وقال لها:

— لم أعد أطيق ما تفعلينه أيتها المرأة. فدون ذلك خرق المواثيق وإنهاء الوعود. أما كفك ما تفعلينه؟. أما كفك أنك حرقت ولدي ورميت ابنتي إلى أفواه الكلاب؟. بل ذهبت إلى أكثر من ذلك بأنك تسعين إلى قتل جيش بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب؟. أما كفك يا سيدتي أنك تريدين قتلي أنا نفسي؟ فما أستطيع أن أقف حيّاً وسط جيش يموت.

وكانت الملكة في خلال كل ذلك قد فتحت عينها وهي غير مصدقة. ولم يكد الملك ينتهي من كلامه حتى قالت الملكة تحدثني في صوت رهيب:

— يا للأسف أيها المسكين . لقد كان يجدر بك أن تازم الصمت وتحفظ المهد الذي قطعته على نفسك من قبل . لقد حدث ما حذرته منه من قبل . فلتسمع أيها المسكين تفاصيل ما جرى وخفي عنك . إن هذه النار التي رأيته بائنا فيها لم تكن سوى ربة الشتاء اللبقة الحاذقة التي عهدت إليها بائنا لتعلمه وتتفقه . وهذه الكلية التي ألقيت ابتنا إلى فيها لم تكن سوى حورية المملكة التي تتولى تلقين الأميرات أصول الآداب والفنون . ولقد أنمت كل منهما ما عهدت به إليهما وأعادت الأولاد .

وحيتيت صفقت الملكة يديها فدخلت وصيفتان من الحور وبين أيديهما الأميرة والأمير الصغيران .

وجثا الملك على ركبتيه يعانق ولدها ويحتضنها ويقبلهما .

واستمرت الملكة تقول :

— أما المؤمن التي ظننت أنني أثقتها . فلم تكن سوى مسمومة كانت كفيفة بالفضاء على جيشك وأنت معه ، إذ أن القائد ساوشيم خائن لك ، جاسوس للأعداء وإذا لم تصدق فحرب هذا الطعام .

وأمر الملك بإحضار قائده الخائن وأمره أن يتذوق طعامه المسموم . فأبى الرجل أولاً ولكنه تحت تهديد السيف ابتلع بعضاً منه . ولم يكن يصل إلى بطنه حتى تلوى واقعا على الأرض ، وما هي إلا لحظات حتى فارق الحياة

واقفت الملك بكلام زوجته . قال لها معتزلاً :

— لقد ظلمتك أيها الجنية . ولكن كيف أتصرف وجيشي لا يملك المؤمن والماء والأعداء على الأبواب .

وقالت زوجته تطمئنه :

— لا تخش شيئاً . سيساعدك جنودي من الجن وسوف تهزم الأعداء

وحدث ما توقعته حقاً وانتصر تيمورلنك على عدوه وردهم مدحورين ، وبينما كان تيمورلنك يستقبل انتصار قادته وتهنئتهم له بالنصر جاءت زوجته وقالت له :

— والآن أيها الملك وقد انتهت الحرب بنصركما وعدتك . فلتعش في قصرك مطمئناً وسأعود أنا إلى مملكتي فما عاد بيننا لقاء قط ما دمت قد تسرعت ووقعت في المحذور مخالفاً وعدك الذي قطعته على نفسك .

وجحظت عينا الرجل وهو يسمع هذا الكلام .

وقال لزوجته صارخاً :

— كلا يا مليكني . . اغفري لي بحق السماء

وهزت الملكة رأسها وهي تقول :

— لم يعد يجدي الأسف شيئاً . ولئن تراني ولا أولادك بعد اليوم .

واختفت عن الأنظار وسقط زوجها مغشياً عليه .

ومضت الأيام ثقيلة سوداء على الملك . . وما عاد يطيق لقاء أحد ، وازداد به الضيق ، وفوض وزيره في تفويض أمور الدولة وانطلق وحده معتزلاً الناس في جناحه ، وقد أغلق وراءه الباب ، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه سوى وزيره الذي يحضر له الطعام والشراب .

ومرت عشر سنين كان الملك خلالها على شفا حافة القبر ، وبينما هو جالس ذات يوم يتذكر الزمن الذي انقضى على فراق زوجته وأولاده . إذا بزوجته تظهر أمامه وعلى وجهها الفرح وهي تحيطه يديها وتقول :

— ها قد عدت إليك يا زوجي الحبيب لأضع حداً لآلامك وأحزانك وأعيد إليك نضرة الحياة . لقد انقضت الفترة التي حددتها شريعتنا لمن يخنت في يمينه .

وانطلق أولادها يمانقون أباهم .

وتلك هي صورة من صور الوفاء .

البحر وأشرقت الشمس وبددت الغياهب، وأشرقنا على جزيرة أقمنا فيها يومين. ثم خطفنا منها إلى مملكتي نطلب العودة، فسرنا عشرة أيام كنا نتوقع بعدها أن تلوح لنا الأرض فلم يظهر لها أثر، واستغرب الريان شكل البحر. فأمر الناظور أن يتسلق الدقل ويتأمل الأفق، فلما بلغ أعلى الصاري وتفرس في الأفق نادى قائلاً: يا ريس، رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سوادا من بعد يلوخ تارة أسود وتارة أبيض. فلما سمع الريان كلام الناظور ضرب سطح السفينة بعمامة ونسف لحيته، وأنذرنا بالويل والثبور قائلاً: ضللتنا الطريق ولا ربح يرجعنا. وفي الغد نصل إلى هذا السواد اللامع فهو جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس، يجذبنا قسراً إلى ناحيته بسبب ما في السفن من حديد. فإذا أشرقنا عليه تفككت أوصال السفن وطار حديدنا ليلتصق بجبل المغناطيس، وتفرقت ألواح العراكب في البحر وغرقنا».

أخذنا البحر يدفعنا إلى جبل المغناطيس دفعا حتى صرنا على مقربة منه، وحدث ما قاله الريان، وغرق أكثرنا. أما من نجا فلم يعرف مستقراً غير ألواح السفينة لتحمله الأمواج وألقت بهم وبها على الجبل.

وشاهدت على رأس الجبل قبة عظيمة صفراء مقلمة على عشرة أعمدة، وفوقها فارس من نحاس على فرس من نحاس، وفي يده رمح من نحاس، وعلى صدره لوح من رصاص به نقوش وطلاسم. فتقدم إلى القبة لا أوري إلا على الهجوع تحتها، ونمت منهوك القوى ثم صحوحت على صوت هاتف يقول: يا بن خصب، قم واحفر تحت رجلك تجد قوساً من نحاس وثلاث نشابات من رصاص عليها طلاسم. خذ القوس هو الراصد لما يصخور الجبل من قوة المغناطيس، وإذا هوى فقد الجبل صفته المشؤومة. ثم أحذر بعد ذلك أن تذكر اسم الله حتى ترجع إلى بلادك.

واسترسل عجيب بن خصب في سرد روايته، متأثراً تارة بما عاينه، ومتحسراً على ما فقدته. وذكر لنا الراوي أن ابن خصب قام ورمى الفارس بالسهم فوقع من توه في البحر، وعلا البحر حتى ساوى قمة الجبل. وإذا بزورق يجذف فيه رجل من نحاس على صدره لوح من رصاص وهو متجه إلى حيث الملك عجيب يومئ إليه أن يركب الزورق. فنزل الملك بالقرب وسار به الرجل التحاسي عشرة أيام ظهر له بعدها البر. نسي عجيب وصية الهاتف وحمد الله على سلامته، وإذا القارب يغوص بصاحبه بطرفة عين، وابن خصب يسبح في الماء يومه وليته، حتى رمى به الغباب إلى ساحل وقام في صباحه فوجد نفسه فوق جزيرة صغيرة كثيرة الأشجار. وبينما الرجل متحير في أمره رأى مركبا

من الأساطير الشيقية في قصص ألف ليلة وليلة..

قصة القرندي الثالث

في الليلة الثالثة بعد الخمسين من ليالي شهرزاد، واصلت الأميرة شهرزاد سرد قصة «الحمال مع بنات بغداد» على زوجها الملك شهريار. وكانت قد وقفت عند انتهاء الصعلوك الثاني من سرد حكايته في ذلك المجلس الليلي العجيب ببيت غانيات ثلاث يعيش على إفراد، أضفن في تلك الليلة حملاً وخليفة ووزيراً وسيافاً وصعاليك ثلاثة حليقي اللحى والحواجب، عوراً باليمن. وما إن انتهى الصعلوك الثاني من قصته عن سبب فقدان عينه اليمنى وحلق لحيته وحاجبيه، واتشاحه بملابس الصعاليك، حتى اتجه القرندي الثالث إلى ربة المنزل وخاطبها قائلاً:

«يا سيدتي الجليلة! قصتي أعجب من قصة رفيقي. ولقد كنت ملكاً ابن ملك كما أنهما من أبناء الملوك، وكنا فريستين للفضاء والقدر. أما أنا فصاحب بلتي والباحث عن شقائي بنفسي. أنا عجيب بن خصب، توليت الملك عن أبي في بلادي الواقعة على ساحل البحر، وبها المرفأ الأمين والسفن الكثيرة، حرية أو عمالة، ومراكب خصصت لنزهيته إلى الجزائر الواقعة تحت حكمي».

«وقد خرجت إليهما في أول تملكي وتعرفت إلى ريعتي من سكانها فأحبوني، وحُجِبَ إليّ البحر والأسفار البحرية. فطمعت ذات يوم أن أُلجَّ ما وراء جزائري، كاشفاً عن غوامض البحر، باحثاً عن عجايبه. فجهزت عشر سفائن خرجنا بها إلى عرض البحر أربعين يوماً وليلة. وفي الليلة الأولى بعد الأربعين هبت علينا ريح قوية، وأخذت علينا السبيل عاصفة هوجاء أحسنا أننا فيها من الهالكين. ولاح الفجر فهدأت الرياح وسكن

عشنا الأربعين يوماً في سلام، وسأيت أبي اليوم بصحبته إلى بلادك وبلادي. فلاغتسل لأستقبل والذي في أحسن نية.

ويأتيه عجب بالحوض والماء الساخن فيساعده على الاستحمام وينشف له جسده، وبذلكه وهو مسجى على سريره، ثم يغطيه. وبعد أن يغفو الصبي إغفاءة، يصحو ويطلب من صاحبه أن يناوله بطيخة. ويبحث ابن خصب عن السكين، فيراها على رف قائم فوق سرير الفتى، فيخطو فوق السرير ويتناول السكين، وإذا بقدمه تتعثر بالغطاء، فيقع على صدر الفتى بكل حمله، والسكين في يده وقد نفذت إلى قلب الصبي الجميل فمات لساعته.

صاح الملك صيحة منكورة إذ حم القضاء سويعات قبل نهاية الفترة التي رآهما المنجمون في الطالع، واستغفر ربه ودعاه أن يقبضه إليه. ثم أدرك أن توسلاته لن تعيد الحياة إلى الفتى، وأن الشيخ لا بد في طريقه إلى السرداب، فإذا رآه فلن يجديه أن يقص عليه ما حدث، ولا الشيخ مصدق له.

اختبأ فوق شجرة حتى اقترب مركب الشيخ، ورآه يمشي إلى الشرب متحاملاً تحت ورق السنين وحوله حشمة، كما رآه بعد هنيهة خارجاً من الطابق محمولاً على الأكاف وقد بلل الدمع عارضيه ولحيته. كان يشجع كسير النفس يؤوده المصائب، وحكم القضاء الذي لا يرحم. وحفر العبيد للفتى قبراً دفنوه فيه، وحملوا الشيخ المسكين إلى السفينة التي أفلعت وما عتمت أن اخضت وراء الأفق.

وبقي عجب في الطابق شهراً يقتات بما بقي من زاد الفتى، ويتجول في الجزيرة وهو يرى ساحلاً نائياً جعل ملتصقاً وسيلة للوصول إليه، حتى لاحظ ذات يوم أن البحر يغيض ماؤه، والجزيرة تنفسح شواطئها. فلم يبق بينه وبين ذلك الساحل سوى مسافة يستطيع سباحة قسم منها وغوص أكثرها. وهناك رأى قصرًا نحاسياً تنعكس عليه أشعة الشمس فيأخذ وهجه بالأبصار، فاتخذ ستمته إليه وجلس ببابه يستريح. وبعد برهة قدم إلى القصر عشرة من الفتيّة كأنهم عائدون من نزهة، كلهم حسنو الهيئة والبرءة، إلا أنهم عور باليمن، ومعهم شيخ فارغ القامة عليه سيماء الوقار والجلال.

ترفق الشيخ والفتيان بالأمير عجب، ودخلوا به إلى ردهة في القصر واسعة، انتظمت بها عشرة أسرّة في وضع دائري حول إيوان جلي عليه الشيخ. وجلس كل منهم على سريره، ودعوا عجيباً إلى الجلوس بينهم واستمعوا لحكاياته، وتنادموا حتى هزيع

قادما على الجزيرة فاخترت بين أغصان شجرة، ونظر فإذا عبيد خرجوا من المركب ومعهم المساحي والفؤوس، ومشوا في الجزيرة، وحفروا في أرضها حتى كشفوا عن سرداب فتنحوا بابه وجعلوا ينقلون من المركب أحمالاً كثيرة. فلما انتهوا عادوا إلى المركب وجاءوا بشيخ هرم يتوكأ على صبي، «أفرغ في قالب الجمال، وألبس من الحسن حلة الكمال»، وأتوا إلى السرداب فنزلوا كلهم فيه. وبعد ساعة صعدوا جميعاً إلا الصبي ذو الوجه الصبوح فلم يكن بينهم. ثم يمشوا شطر المركب والشيخ معهم بعد أن أقتلوا السرداب على الفتى وأبحروا.

نزل عجب من فوق الشجرة وانحدر من السرداب إلى بهو كبير غُطي بسجاد وأضاءته شمعتان، وفي ركن منه سرير عليه بسط ووسائد. وقد جلس الصبي فوق السرير ويده مروحة، وعلى مقربة منه طبق فواكه وطاقات أزهار. وفرغ الصبي إذ رآه فهذا عجيب من روعه، وعرفه أنه من أبناء الملوك، وأن حسن الطالع قد أرسله لمعونة الصبي في محنته، وخلاصه مما أراد له الشيخ وعبيده.

فأجابه الصبي: «لعلم أيها الأمير أن الشيخ أبي، وهو سر تجار الجوهرة. وقد رزق بي في شيخوخته بعد بأس، فتنبأ المنجمون لي بحياة طويلة إذا اجتزت من الخامسة عشرة. ففي ذلك السن تتعرض حياتي لخطر كبير، إذ يكون عجيب بن خصب قد أبطل طلائم جبل المغناطيس، وأطاح بالفرس والقارس في البحر. ورأى المنجمون أن عجيباً هذا قاتلي إن ظفر بي في الخمسين يوماً التالية لسقوط الفرس النحاسي. ولما عرف أبي أخيراً بأن الفرس النحاسي قد هوى، ومضى على زوال الطلسم عشرة أيام، جاء بي إلى هذه الجزيرة وكان قد احفر لي فيها هذا الطابق لأقضي فيه أيام النحس التي يخشى أنانها على حياتي. ووعدني أن يجيئني بعد أربعين. ثم أضاف ميسماً ابتسامة بريئة: وما أحسبني إلا مضيقاً هذه الأربعين يوماً في أمان، فمن أين لابن خصب أن يصل إلى مخبئي في هذه الجزيرة؟ وسخر عجيب في نفسه من نبوءة المنجمين، وأكد للصبي أن الحظ قَيَّض لـ أن يكون بجانبه في تلك الأيام، ويُبعد عنه عادية من تسوّل له نفسه الاعتداء عليه.

وعاشا صفتين تسعة وثلاثين يوماً، يتلاعبان ويتسامران، وعجيب يذل نفسه بذلا لإرضاء للصبي الجميل، مفتيقاً بهذه الفرصة المؤاتية التي مكنته من أن يعيش ناعماً، مطمئناً إلى قرب عودته إلى وطنه على المركب التي يجيء بها والد الفتى. وفي صباح اليوم الأربعين نهض الصبي جذلاً فرحاً وصاح بعجيب: سيدي الأمير، هذا نحن وقد

متأخر من الليل، ثم أذن أحدهم بأن قد دنت ساعة الحساب. فخرج الشيخ برهة وعاد يحمل عشر صحائف غطى كل منها بغطاء أزرق قائم، بلون السجف وأغطية الأسرة، ووضع أمام كل واحد منهم صحفته. فكشفوا أغطيتها عن رماد وتراب وفحم وأخذوا يمزجونها بأيديهم، ثم يحثون منه على رؤوسهم ويعفرون به وجوههم، ويكون يضربون صدورهم ورؤوسهم قائلين: هيهات.. هيهات أن يرجع ما فات. وقضوا ما تبقى من الليل على هذا الحال.

وكان الشيخ والشبان قد اشترطوا على عجيب ألا يسأل عما لا يعنيه من أمرهم، ولا عن سبب إصابتهم جميعا بعيونهم اليمنى. وقد عرف كيف يكبت فضوله بشأن هذه الماعة على ما فيها من غرابة الجمع بين الفئان العشرة واتفاقها على الناحية اليمنى فيهم بلا استثناء. ولم يستطع صبرا على هذا الذنب والتعجب المنظم كأنه طقس من الطقوس. فلما قارب الفجر واغتسلوا، واستبدلوا ملابسهم المعفورة بالسواد وخرجوا للترزمة، قال عجيب:

أصدقكم يا سادتي، إني غير مستطيع قبول شرطكم، فمظهركم ومخيركم يدل على أنكم من أهل الحجى والرزانة. ولكن فعالكم الغريبة في هزيع من الليل لا هي متفقة مع المظهر ولا مع المخبر. وما دمتم قد أثرتم فضولي إلى هذا الحد، فإني سائلكم أن تفسروا لى أيضاً سبب ضياع عيونكم اليمنى.

فأجابوه سترمين بفضوله، وطالبوه بأن يهون على نفسه ويهون عليهم.

ودام هذا شأنهم ليلة إثر ليلة حتى ضاق ذرع ابن خصب بإصرارهم على تركه في حيرة من أمره، وسألهم أن يدلّوه على طريق يعود منه إلى بلاده. فليس في منظر مناعتهم الليلة، ولا في لون أوانيتهم المجللة بالأزرق ما يغري بالبقاء إلى جانبهم، إلا أن يعرف على الأقل لذلك سببا.

وبعد فترة سكوت رهيبية قال له واحد منهم: أيها الفتى، ما سكورتنا إلا شفقة بك أن يصيبك ما أصابنا، فإن شئت أن تعرف من أمرنا ما تريد وكنت عاقد العزم عليه، فأعلم أن ذلك سوف يكلفك عينك اليمنى عدا الندم والحسرات

قال عجيب: هون عليك، فإذا قدر أن يحدث لي ما حدث لكم، فلست آخذكم بجزيرتي.

فاستطرد الذي قطع السكوت: وأعلم، إن فقدت عينك اليمنى، لا مقام لك بيتنا بعد ذلك.

وحينما استوثقت الجماعة من أن عجيبا لن يردت عن عزمه، احضروا بهيمة وذبحوها وسلخوا جلدها وأعطوه سكيناً وقالوا له: سوف نسجيك في هذا الجلد، ونخطيه عليك ونحملك إلى الخلاء، فيأتي طير عظيم يقال له الرخ فيحملك في أطباق الجو، وينزل بك على قمة جبل. فإذا أحسست أنه قد استقر بك عليه، فأسرع إلى الجلد ومزقه وانهض، لأن الرخ إذا ركز فزع منك وطار عنك. ثم رجع البصر حولك تر قصراً منيفاً، وكلفنا العلم به عيوننا اليمنى، وذلك الندم الذي ترانا نتردى فيه كل ليلة. هذا كل ما نستطيع أن نبوح لك به، ولن نزيد عليه كلمة واحدة.

تقدم عجيب إلى جلد البهيمه وتمدد فيه ممسكاً بالسكين، وخاطوا الجلد عليه وحملوه إلى الخلاء. وجاء الرخ فحملة بين مخالبه وطار وعبر به الجو إلى قمة جبل وقد حسبه بهيمة فلما رآه يلمس طريقه خارجاً من الجلد طار عنه. وشاهد عجيب الطير الهائل الأبيض الذي قيل بأنه يحمل القيلة إلى الجبال يرق بها أفراده.

وأمام هذا المجهول لم يستطع عجيب إلا أن يتصرف بسرعة وذهول وأخبر: أسرعاً لي سيدتي إلى القصر الموعود، فوصلت إليه في نصف يوم. ووجدته أغرب من أن يوجد. دخلت ساحته الواسعة قرأيت حولها تسعة وتسعين باباً من خشب الصندل والعود، أما الباب المائة فكان من ذهب. كلها مقلقة، والدخول إلى أيها القصر ورداته من أبواب أخرى قائمة بأعلى درج من العمرم واسع الجنبات. أخذت طريقي إلى أكبرها وسط البناء، ودلقت منه إلى بهو واسع جلست فيه أربعون صبية يأخذ جمالهن بمجاميع القلوب، ويقصر عنه وصف الواصفين، حتى لو كانوا من أعظم الشعراء.

قمن جميعاً كالغزلان الرضية المستأنسة، وأقبلن عليّ يرسلن تحياتهن في جرس رخيم: أهلاً وسهلاً بالسيد الغطريف وانفردت إحداهن بالكلام قائلة: ما أبطأ مرور الأيام والليالي ونحن في ترقب فارس مملك. فطعلتكم وسيماءك وقوامك على أحسن ما نرجو، وأملنا أن تجد في صحبتنا كل ما يسرك ويرضيك.

وأحللني منهن مكاناً رفيعاً وأنا مطرق الرأس خجلاً، وأكدن لي أنهن منذ اليوم رهن إشارتي، وأني سيدهن الأمر الناهي فيهن. وجاءتني واحدة بالبطست، وأخرى بالإبريق، وثالثة بالماء المعطر، ورابعة بالمناشف. غسلت واحدة قدمي، وصبت الأخرى ماء الورد

على يديّ، وقدمت لي الحلل الناعمة الباهرة، والطعام الشهي، وعصيراً طيباً. كل هذا في نظام وترتيب، وبخطوات متوازنة كأنها تتحرك على توقيع آلات غير منظورة.

والثقت الصبيات حولي، واشربأت أعناقهن إلى ينصتن لقصة أسفاري حتى جن الليل. فجاء بعضهم بالشموع الكثيرة فنسقت في أنحاء البهو تنسيقاً بديعاً وأوقدت، وقدمت في الفواكه والنقل وأصناف المشعوم. وجاءت البنات بالآلات الطرب، وجلست أتناول الطعام وأحسني الشراب وهنّ حولي يوقعن ألحانا ساحرة، ويغنين غناء تذوب فيه القلوب صباية، ويرقصن منفردات ومزدوجات في دوائر وأقواس وصفوف، ويفترقن ويجتمعن مثنى وثلاث ورباع، بأصناف من التخلع والتكسر تذهب بالعقول

وكان الليل قد انقضى منه أكثر من نصفه حينما انتهى الرقص والغناء فتقدمت إحدى الصبايا وقالت: ما نحسبك الليلة إلا متعباً من السفر، وتود أن تأوي إلى مخدعك الذي أعدناه لك. ففضل وتخير من بيتنا عروسك.

فأجبتها وأنا أدير البصر حائراً بين الأربعين غانية: حاشاً أن أفاضل بين الجميلات! . يا ما أحلى هذا الحسن، ويا ما أطيب وأظرف هذه الشماثل! . مرن عبدكن الخاضع، فهو صريع كل تلك اللحاظ، وأسير هذي القدود.

فكانت الصبية وهي تضحك من حيرتي البادية: هون عليك أيها الفارس الجميل، فنحن أعرف بشهامة نسلك، وطيب عنصرك ورفيع أدبك أن نخشي أن تدب بيتنا الغيرة، فنستحلفك أن لا تظن بنا الظنون، لكل واحدة منا نصيبها في صحبتك. تقدم أيها الحبيب إلى العروس السعيدة باختيارك، وعجل فما أشد حاجتك إلى الخلود والهدوء.

ومددت ذراعي نحو ذات الفصاحة والجرس الناعم، وسرنا في حشد من الحسان إلى جناح في القصر يتلألأ كالجنتحة الطراويس، ويتموج سحفه كرقاب اليمام.

وهنا أرادت شهرزاد التوقف قائلة:

- ولكن الصباح قد انفرق عن ثنياه يا مولاي، فهل يأذن لي مليكي بأن تترك الأمير العجيب مع صاحبه.

فلم يجب شهريار بكلمة، ولكنه تمت في نفسه: كيف أقوى على فراقك يا شهرزاد، لقد تعلقت وحي بأطراف لسانك المعسول، إذا سلمت لك للجلاد هذا الصباح، فاتني أن أعرف كيف فقد ابن خصب عيني اليمنى، وعاد قرنبدلي صملوكا. فلننتظرك أيها الساحرة ليلة أخرى.

فلما كانت الليلة الستين قالت دنيا زاد للسلطانة: حبذا لو أتممت لنا يا أختي حديث القرندي الثالث. فأجابت شهرزاد: سمعا وطاعة، فهذه يا مولاي بقية حديث الأمير عجيب:

«وفي ضحى اليوم التالي دخلت الصبايا إلى مخدعي واقتدنتي إلى الحمام، ثم قدمت لي الحلل البهية، وخرجنا إلى قاعة الطعام، وقضينا النهار في أنس وجور، والليل في طرب وسمر ومغازلة».

قضى الأمير عجيب عامه في ذلك الفردوس الأرضي، كأنه في حلم من أعجب الأحلام. فلما كان صباح اليوم الأول من العام التالي، دخلت الصبايا على غير عادتهن من الضحك والموسيقى الذي كان يصحو عليه، باكيات العيون مطرقات الرؤوس، وأخبرن الأمير بدنو ميعاد الفراق. فهن من بنات الملوك وعليهن واجبات يؤدبنها أربعين يوما في هذا الوقت، ولا يملكن أن يبحن بما في تلك الواجبات. ويكفيه أن يدرك حزنهن على فراق الأمير الجميل، حتى ولو فترة الأربعين يوما. ويخشين أن لا يطيعهن فيما يأمرنه به فتضرب الفرقة بينهن وبينه، ويكون اليوم آخر العهد به. أما إذا عرف من نفسه القدرة على صد فضوله، فلا يكون في شك من لقائهن القريب. وتلك مفاتيح المائة باب المحيطة بساحة القصر يتركها بين يديه ليمتع نفسه بما يشاهده خلف تلك الأبواب. إلا الباب الذهبي فحذار أن يفتحه، أو يحاول أن يعرف ما وراءه. ولكم يغريهن الخوف من عصيانه أمرهن بأن يحتفظن بمفتاح الباب المحظور. ولكنهن يتجبن تجريح الأمير بإظهارهن الشك في ملكة احتفاظه بالأسرار، أو قدرته على امتلاك أئنة الفضول في نفسه.

ووعدن الأمير باكيات وهو يكفكف عبراتهن الواحدة بعد الأخرى، وبقي وحيدا في ذلك القصر الكبير الذي لم يترك له فرصة التفرج عليه واكتشاف خباياه، ولا كان بحاجة إلى الفرجة، أو هو فكر بها. فلقد انتقض العام بينهن كأنه يوم من الأيام، بينما تدو الأربعون يوما بدونهن قرناً من الزمان.

وفتح الباب الأول فرأى به حداثك الفاكهة كأنها جنات عدن انتظمت أشجارها، وجرت غدرانها تسقي كل شجرة بقدر معلوم، حسب نموها وازدهارها، أو نضوج الثمار فوق أغصانها.

وتنقل من الباب الثاني إلى روضة الأراهير من الورد والياسمين والبنفسج والرجس، والزنبق والقرنفل والسوسن وشقائق النعمان، كلها مزهرة عاطرة في أوقاتها وغير أوقاتها، والجو عبق بما يتصوع من عبيرها، والأرض مغطاة ببساط العشب السندسي.

والباب الثالث كان باب بستان الطيور، وأرضه من مرمر، وأقفاص الطيور من خشب الصندل والعود. وبها الزهار والبلبل، والفاخت والكروان، وطيور لم يرها ولم يسمع بها طول عمره، وصحاف الجيوب من الزمرد والعقيق. والبستان نظيف طيب الرائحة على ما به من طيور كثيرة، وعلى خلوه من الخول والحشم، خلو بقية البساتين.

ودخل الفتى من الباب الرابع فشاهد الكنوز الباهرة، ورأى الدر والماس والزمرد والعقيق واللازورد واليشب وسبائك الذهب والفضة، والمرجان أفرعا وأشجارا كاملة.

قضى أربعين يوما إلا يوما واحدا يشاهد عجائب القصر المسحور وراء أبواب التسعة والتسعين. وقد رأى كنوز العالم وبدايعه الطبيعية، وروائع الفن ونفائس الأواني والطنافس مما كاد يضع مع رشده، ويذهل له عقله.

ولم يبق على عودة حبيبته سوى يوم واحد، وعلى رؤية جميع ما يحتويه القصر إلا ما وراء الباب المائة، الباب الممنوع.

لو عرف عجيب كيف يغفل النفس الأمّرة بالسوء، بل لو عرف ابن آدم أن يُحكّم ضميره ويرضخ لحكمه دون شهيد.

كأنني بآب خصب يخاطب نفسه: ما عليّ إذا فتحت هذا الباب الأخير، ومن ذا الذي يعرف بخبر فتحي إياه ولم أر أثرا لإنسان في كل ما زرته خلف الأبواب الأخرى. لقد رأيت كل ما تصبو إليه النفس، وعرفت في هذا القصر نعيمًا ليس من نعيم هذه الأرض. فما عسى أن يكون وراء الباب الأخير حتى يحظر على اقتحامه؟ قد لا يخفى شيئا، وقد يخفي عجائب لا تخطر بالبال. ثم غياب الصبايا ماذا يكون معناه؟ هل يكشف لي هذا الباب عن سر رهيب؟ على أن أمر ما وراء هذا الباب لا يعنيني في ذاته بقدر ما يعنيني أنني حيال المسجول، فلا تخرج نعيمي في هذا القصر بالعرفان.

لقد خفي على بنات القصر المسحور أمر هام، لو عرفته، وكن حريصات حقا على صحة الأمير العجيب، لما تركن له مفتاح الباب الذهبي. أو هن عارفات بهذا الأمر، وأقامهن الشيطان برهانا حيا على أن ابن آدم لم يتعظ ولم يتعلم. هل عرفت أميرات القصر المسحور أن عجيبا، قبل أن يكون ابن خصب كان ابن طريد الفردوس وابن حواء؟

وفتحت الباب يا سيدتي، الباب الذي وعدت ألا أفتحه. فإذا عطر قوي يشد إلى عرائني فيغشى علي. وحين عدت إلى نفسي لم أعتبر بالندى فأرثد إلى خارج الباب وأرصد. تقدمت إلى مكان فسبح أرضه من زعفران وسقفه عقود متناسقة، تضئته شموع تنفوح برائحة العنبر، قائمة في شمعدانات من الذهب الخالص، ومسارج تسقى ذبالاتها من زيت عطرية. وثقلت فرائط فرسا أسود لا مثيل له، فاقتربت منه، ورأيت عليه سرجا ولجاما من ذهب، يأكل الشعر والسسم ويشرب ماء الورد، فسحبته وخرجت به في العراء لأراه وأجره، ومعى سوط وجذته في ركن من مربط الفرس. واعتليت صهوته فلم يتحرك، فصرته بالسوط وإذا به يصلح سهيلا داويا، وإذا له أجنحة نشرها وطار بي مخترقا شغاف الفضاء كالسهم المريش وأنا مسك بلجامه متمالك نفسي. وظل طائرا ساعة من الزمان، ثم شعرت أنه ينحدر بي رويدا إلى الأرض حتى نزل بي على سطح قصر ولم يدعني أنرجل بل رمى بي ظهريا في عنف، وضرب عيني اليمنى بذيله فقفاها وطار مختفيا وراء السحاب.

عرفت يا سيدتي في تلك اللحظة أنني فقدت كل شيء، حتى صحبة الفتيان العشرة أناسي بأسامهم ويخف ندمي إذ أشاركهم الندم. ونزلت إلى داخل القصر فرائت أوأوينهم المصطفة في حلقة حول إيوان شيخهم. وكان البهو خاليا فانتظرت حتى عادوا، ولم تعزم دهمشة لرؤيتي على هذا الحال، بل قال أحدهم بصوت أجش: الآن عرفت ما عرفنا، وحظيت بما به حظينا. ولو وفينا بالوعد لبقينا في القصر المسحور ننعم بنعيم ليس بعده في هذه الدنيا نعيم. ولكنه الباب الذهبي فتحناه كما فتحته أنت في غياب بنات الملوك، ففجعنا بما فجعت به. ولعلك فهمت الآن، وإذا كنت فهمت فقد عذرت لنا طقوسنا في الحسرات، وأمان حالكم مردد معنا الآن: هيهات هيهات أن يرجع ما فات.

عبد الله البري والبحري

أوشكت السنة الثالثة على الانتهاء منذ قدمت ابنة الوزير نفسها زوجة للسلطان شهریار، وقد دأب على قتل كل غروس صباح اليوم التالي للزواج، ومع ذلك فالسلطنة شهرزاد تواصل بأعجب القصص في الشرق والغرب. قصت عليه أغلب الحكايات المشهورة في الكتاب الذي خلد اسمها: السندباد البحري، وعلاء الدين، والأصعاليك الثلاثة، وقمر الزمان، وحسن البصري. لم يعترها كلال في الجسد ولا ضعف في الروح ولا وهن في قوة الإبداع. ربما أعادت سرد بعض الحكايات، ولو في وضع آخر. وكانها

قالوا «من شق الأشداق، تكفل لها بالأرزاق، فالله تعالى كريم رزاق».

وإذا بالخياز يسأله إن كان يطلب خبزاً، ثم يلح عليه في أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير. ويرضى الصياد شريطة أن يقدم شبكته رهنًا فيرفض الخياز احتجاز الشبكة التي يقوم عليها أود الصياد، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة، ويقدم له عشرة أنصاف فضة «لطيخ بها طبخة» على أن يجيئه بسمكة في الغد.

وفي اليوم التالي يخفق في صيده كما أخفق في اليوم السابق، فيخجل أن يقف بباب باز. ويُعجل بخطاه أمام دكانه. ولكن الخياز يناديه: يا صياد، تعال خذ عيشك ومتصرفك فقد نسيت. ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد الحياة، وود أن لم يكن المخبز في طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخياز الكريم. ولكن زوجه كانت تشجعه على المضي إلى البحر، وتشكر الله الذي قبض لهم هذا المحسن.

يذهب الصياد في اليوم الأول بعد الأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه «ولو بسمكة واحدة يهديها للخياز» وإذا بالشبكة مثاقلة يسحبها في مشقة، حتى إذا هي عادت إليه، ألغها تحمل.. حماراً ميتاً. وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ، وتناقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة، حتى إذا ما جذبها إليه خرج منها رجل حسب الصياد «عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم في القمامق ويرمي بها إلى البحر» وصاح الصياد: الأمان يا عفريت سليمان!

فيجيئه الرجل: تعال يا صياد، لا تهرب مني فأنا إنسان مثلك، خلصني لأنال أجري.

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن. فيسأله عن رماه في البحر، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه، فهو من «أولاد البحر» وقع بالشبكة صدفة. وكان بوسعهم أن يقطعها ليخلص نفسه، لولا أنه «راض بما قدره الله». ويسأل الصياد أن يعتقه «ابتغاء لمرضاة الله».

ثم يتفق ولياه أن يجتمعا في ذلك الموضع كل يوم، فيأتيه الصياد بفواكه البر: «وعندكم منها العنب والبطيخ والخوخ وغير ذلك، ويأتيه هو بمعدان البحر من لؤلؤ ومرجان». ويقرآن الفاتحة، ويخلصه الصياد من الشبكة. ثم يتفان أن ينادي الصياد عليه من البر كلما أراد، قائلاً: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فيلبي نداه.

— والآن ما اسمك أيها الصياد؟

توقع تقاسيم موسيقية على أساس لحن الخوارق والأعاجيب. فروح شهرزاد وقصصها من روح الموسيقى، والسلطان مأخوذ بحلارة تلك الموسيقى، أو هذه القصص؛ سافر محمولا على أجنحة صوتها الساحر في بحار هادئة وبحار ثائرة، وطرق باب القصور المعجبية، وشاهد الأرصاد النحاسية، ورجالا مسخو صخوراً أو طيوراً، تلتقي بنار العشاق الذين ضرب بينهم الفراق، وفرح بفرحهم عند اللقاء، أطربت أذنيه كل ضروب الموسيقى البورتية والغنائية، وروحت عنه رقصات الحور، وبنات الجن، وليالي السمير. شهد الوقائع الدامية وعرف «المناصف» البارة ورحل إلى الجزائر البعيدة، ولقد عشنا كما عاش شهریار معلقين بأطراف لسان السلطنة الحلوة في عالم مسحور خلقة عبقرية امرأة.

أحقاً لم تكن هذه القصص فنا للفن ولا أدبا للأدب؟ بل كانت استرحاماً للسلطان الدموي، وإبعاداً للضيف السلطاني على أبلع جيد؟ لقد قدمت الأميرة نفسها قرباناً عن بنات جنسها، عارفة بما يتظرها. ولكنها قبل أن تتقدم تأملت في غريمها وغريمها بنات جنسها وبحثت عن مواضع الضعف في نفسه فنيبتتها في جهله بالطبيعة البشرية، وقصارى نظره، وفي ذلك الغرور البالغ الذي اخترع له الذكور اسم الغيرة، والذي لم يجد له السلطان علاجاً إلا بإغراقه في دم المذبذبة الأولى، ودماء البرينات قبل أن يعطيها الفرصة للمعصية أو للوفاء. فلتنقدم شهرزاد إذن إليه بصور من الضعف الإنساني في المرأة وبأكبر منها في الرجال. لم تتوقع الأميرة أن يتقبل السلطان المغرور منها درساً أخلاقياً مباشراً، إنما هي تفر به وتسترضيه بقصصها، ولعلها بذلك تنجو من القصاص الظالم، وتتخذ حياة البرينات. أتكون كل هذه القصص حيلة للتخلص من قضاء السلطان الغاشم؟ ربما، وهو قليل إذا قيس بالحياة الغالية التي يبقي عليها، حياة الأميرة شهرزاد.

في الهزيع الأخير من الليلة الأربعين بعد التسعمائة تختم الأميرة الساسانية قصة من القصص، تمادتها في أغلب الليالي ثم تبدأ قصة جديدة، على نغمة هادئة كأنها لحن مرتجلة: «كان في قديم الزمان صياد تقير اسمه عبد الله»

أكاد أرى هذا الصياد المعدم عاد من صيده فارغ الجعبة، يتظره بالبيت تسمة عيال وأمه التي وضعت في ذلك اليوم مولودها العاشر. أراه في عودته واقفاً بباب الخياز وسط الزحام، وكان «وقت غلاء» ولا يوجد عند الناس من المون إلا القليل، يرمق الأغرة المتراصة بنظر زائغ، ويستعبر رائحة «العيش السخن» تشبهه نفسه. أكاد أراه مثلاً أمامي هذا «الغلبان» خرج صباح اليوم يلقي الشبكة «على بخت المولود الجديد» فما تصيد إلا رماً وحصى وحسكاً. وهو يتساءل «كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق» وقدما

— اسمى عبد الله .

— أنت أذاً عبد الله البري وأنا عبد الله البحري . انتظر حتى آتي لك بهدية .

ويختمني عبد الله البحري في الماء هنيئة تبدو لعبد الله البري دهراً ، ويتأسف على تركه هذا المخلوق يفلت من يده ، وكان في استطاعته أن يأخذه إلى المدينة معرضه في الأسواق ، ويدخل به بيوت الأكابر .

ويعود عبد الله البحري باللؤلؤ والمرجان ملء اليدين ، ويعتذر لأخيه البري عن عدم مكته من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو «أن عنده مشنة لملاها له» ويتواعدان على لقاء في الأيام التالية .

وغدا عبد الله البري رجلاً واسع الثروة بفضل صداقته لسميه البحري . وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذي أحسن إليه في عسره ، وراح يقاسمه الجواهر البحرية . ولكن الثروة المفاجئة توقظ شكوك الناس ، وتنتهي به إلى موقف الاتهام بسرقة حلي ابنة السلطان ويقتاده الحرس بأمر شيخ الجوهري إلى القصر . فتذكر الأميرة أن الجواهر لها وتقول بأن بعض اللاكؤ أجمل من كل ما في عقودها . فيغضب السلطان وينهر شيخ الجوهري وأتباعه . فإذا اعتذر الرجل بأن الصياد «كان فقيراً فاستكثرنا عليه هذا الغنى المفاجئ» ، صاح السلطان فيه وفيمن حوله : «أنتستكثرون النعمة على مؤمن؟ اغربوا عني لا بارك الله فيكم» .

وسأل الصياد عن حقيقة أمره ، فسر قصته . وهنا طأطأ السلطان الحكيم رأسه هنيئة ثم رفعه قائلاً : «هذا نصيبك ، ولكن المال يحتاج إلى الجاه ، وأنا أسندك بجاهي» . ثم زوجه ابنته ، وأقامه وزيراً ، وحنا على أطفاله العشرة . وكانت زوجة الصياد موضع تكريم السلطان ، فنعمت عليها «وجعلتها وزيرة عندها» .

وغداة الزواج أطل السلطان ورأى وزيره وصهره عبد الله خارجاً من القصر يحمل على رأسه «مشنة» ملأى بالفواكه ، فناداه وأكره عليه ذلك . ودافع عبد الله عن نفسه بأنه لا يملك أن يخلف ميعاد صديقه البحري ، أو يتعرض لاتهامه بأن «إقبال الدنيا عليه» ، قد ألهاه عنه .

حافظ عبد الله البري على عهد صاحبه البحري ، وواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز . ثم انتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذي قال له : أرسل إلى صاحبك الخباز ، وهاته لنجعله وزير ميسرة .

قد تنتهي القصة عند هذا ، فاستقرار الحال يؤذن بختامها . وعيد الله يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر . وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل لصاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين ، ويدوم الحال على ذلك عاماً . ولكن الأميرة شهزاد أبرع من أن تقف عند هذا الحد ، وهما أن تثير شغب السلطان باقتياده إلى غير ما يتظره ، حتى تبعد عن رأسها سيفه المسلط . وهي عند هذا القدر من القصة تعود إلى حديث عادي ، وتصف له كيف دام الحال بين الصديقين ، وكيف كانا يجلسان على ساحل البحر ، عبد الله البري على الشاطئ ، وعبد الله البحري مغموراً إلى نصفه في الماء ، يتحدثان في شتات الأمور . وقد جرى الحديث بينهما مرة عن المقابر . . وهنا يبادر عبد الله البحري صاحبه قائلاً :

— يقولون يا أخي إن النبي مدفون عندكم في البر ، فهلا تعرف قبره؟

— نعم ، فهو في مدينة يقال لها طيبة .

— وهل يزوره أهل البر؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة قبر النبي الكريم . فمن زاره استوجب شفاعته . هل زرته أنت يا أخي؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه في الطريق ، حتى عرفتك . والآن وجبت عليّ زيارته بعد الحج إلى بيت الله الحرام ، وما منعي عن هذا إلا محبتي لك .

— وهل تفضل محبتي على زيارة قبر رسول الله الذي يشفع لكم يوم العرض على الله؟

— إن زيارته والله مقدمة عندي على كل شيء ، وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام .

— أعطيك الإجازة بزيارته ، وإذا وقفت على قبره فافترني مني السلام . وعندي أمانة فادخل معي في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي ، وأحملك الأمانة لتضعها على قبر الرسول .

— يا أخي ، أنت خلقت في الماء ، ومسكنك الماء فلا يضررك ، هل إذا خرجت منه يصيبك ضرر؟

- نعم، يجف بدني، وتهب علي نسيمات البر فأموت.

- كذلك أنا، خلقت في البر، ومستقري البر، فإذا غطست في البحر دخل الماء في جوفي فاختنق وأموت

- هوّن عليك، فإني أتيتك بدهان تدخن به جسدك فلا يضرك الماء، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك.

وعبد الله رجل كله إيمان واستكانة، فهو راض بما قدر الله. فحمل عبد الله البحري «المشنة» وغاص في البحر، ثم عاد بها ملأى «شحما كشحم البقر، لونه أصفر كلون الذهب، ورائحته زكية». وأخير صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له الدندان، أعظم أصناف السمك خلقة.

- وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخي؟

- يأكل من دواب البحر. أما سمعت المثل القائل: مثل سمك البحر، القوي يأكل الضعيف؟

- أخاف يا أخي إذا طوفت معك أن يصادفني هذا الدندان فيأكلني.

- هوّن عليك، فإنه متى رأيك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب، فالدندان أشد ما يكون خوفاً منك، لأن شحم ابن آدم سم قاتل له، ويكفي أن يسمع صياح ابن آدم ليموت هلعاً.

وتوكل عبد الله البري على الله، وخلع ملابسه ودفنها في رمال الشاطئ، ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص في الماء. وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالاً والماء لا يضايقه، وجعل ينزل إلى القعر ثم يرتفع بكل سهولة.

واندفع عبد الله البحري أمامه دليلاً له في تلك التزهة البحرية النادرة. فرأى عن يمينه وشماله جبلاً، وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك «البعض كبير والبعض صغير، منه ما يشبه الجاموس، ومنه ما يشبه الكلاب، وشيء يشبه الآدميين». وكلما دنا عبد الله البري من نوع تهارب منه فيسأل صاحبه:

- يا أخي، ما لي أرى كل هذه الأسماك تهرب مني؟

- مخافة منك يا أخي، فجميع ما خلق الله يخاف ابن آدم.

ووصلا إلى جبل شاقق الارتفاع، قمشى عبد الله البري بجانب الجبل، وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظرة فرأى شيئاً أسود منحدرًا نحوه من الجبل، وهو أكبر من الفيل والجمال. وسمع صديقه البحري يتأدي عليه:

- دونك وهذا الدندان، فهو متجه إلينا في طلبي ليأكلني، أزعم عليه. وصاح عبد الله طامعاً فرعاً، فإذا بالدندان يقع ميتاً، فيتعجب عبد الله البري ويقول: «سبحان الله! لم أضربه بسيف ولا بسكين، وما هو على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتي».

ويدخل الصاحبان مدينة «بنات البحر» فيهم عبد الله البري بأمر كل تلك الإناث لا ذكور لها، ويتساءل عن علة اجتماعهن في مدينة واحدة؟.

- إنهن منفيات فيها بأمر ملك البحر، ولا يمكنهن الخروج منها أو تلتهمهن دواب البحر.

- هل في البحر غير هذه المدينة؟

- كثير غيرها.

وجعل عبد الله البري «يفرج على عجائب البحر»، وقد رأى لبنات الماء «وجوها كالآفامار، وشعورا كالنساء. ولهن أيد وأرجل نابعة في بطونهن، وأذنان كأذنان السمك امتدت من مؤخرتهن»، والرجال كذلك فيما يتعلق بالأيدي والأرجل والأذنان.

- يا أخي، إنى أرى الجميع مكشوفى العورة.

- لأن أهل البحر لا قماش عندهم.

وما زال عبد الله البحري يدور بصاحبه على المدن وأهلها في أغوار البحر ثمانين يوماً، فيسأله عبد الله البري:

- يا أخي، هل بقيت في البحر مدائن؟

- لو فرجتك ألف عام، كل عام على ألف مدينة، وأطلعتك في كل مدينة على ألف أعجوبة، لما أظهرتك على كل مدائن البحر وعجائبه!

- يكنيني هذا، فقد سمعت أكل السمك وأنت لا تطعمني صباحاً ومساءً إلا ممكاً طرياً، لا مطبوخاً ولا مشوياً. أين مدنتك من هذه المدائن؟

وبلغا مدينة عبد الله البحري، فاقناده إلى مغارة وقال له:

- هذا بيتي، وكل من أراد من أهل البحر أن يكون له بيت، ذهب إلى الملك وعين له الموضع الذي اختاره لسكنائه. فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة «النفارين» لأن لها مناقير تفتت الجمود.

وعندما دخلوا البيت تقدمت ابنة عبد الله البحري ويادرت أباهما بالسؤال وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقا لا ذنب له

- يا أبي! من هذا الغريب الذي جثت به؟

- هذا صاحبي البري يا بنتي، من كنت أجيء لك من عنده بالفاكهة البرية. تعالي سلمني عليه.

وتقدمت إليه الغادة وسلمت عليه «بلسان فصيح وكلام بليغ» وقدمت له سمكتين كبيرتين: «كل واحدة منهما مثل الخروف». فأكل مثيرما بهذا السمك النيء. وحضرت امرأة عبد الله البحري وهي «جميلة الصورة، ومعها ولدان، كل ولد في يده فرخ سمك قرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار». وما إن رأت عبد الله البري حتى صاحت:

- أي شيء هذا الغريب؟

وتقدمت هي وولدها يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البري ويقولون: أي والده إنه غريب، وتتفاحكوا طويلا حتى ضاق ذرع عبد الله البري بهذا الضحك، والتفت إلى صاحبه وقال:

- يا أخي، هل جثت بي إلى هنا لأكون سخرية زوجك وأولادك؟

فاعتذر عبد الله البحري عنهم مؤكدا لصاحبه أن المخلوق الذي لا ذنب له في البحر نادر، «فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار، فقولهم، كما تعرف، ناقصة»

وبينما هم في الحديث وقد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد، وقالوا لعبد الله البحري: لقد عرف الملك بأنك جثت بغريب من البر، وهو يريد أن يراه حالا. وأخذه إلى الملك فلققه ضاحكا وقال: مرحبا بالغريب. وجعل من في حضرة الملك يتضحكون مرددين: أي والده إنه لغريب. وقص عبد الله البحري على الملك قصة صاحبه، ثم استأنه في أن يعود به إلى البر «لأنه سئم أكل السمك نيئا، ولا يحب أكله إلا مطبوخا أو

مشويا»، فتبادل الملك مع بطائنه نظرات التعجب والابتسام، وأذن لرجل البر بالرحيل بعد أن رّوده بهدية عظيمة من الدر والمرجان

وعاد عبد الله البحري إلى مغارته حيث سلمه الهدية التي يرجو أن يوصلها إلى قبر النبي، واصطحبه عائدا إلى البر.

وبينما هما في طريقهما وسط الماء، التفت عبد الله البري إلى جماعة من أهل البحر يقفون ويرقصون حول سباط ممدود من السمك، فسأل عما إذا كان ذلك عرسا، فأجابه عبد الله البحري: إنما هو مأتم.

- أو إذا مات عندك ميت تفرحون له، وتغنون وتآدبون؟

- نعم، وأنتم يا أهل البر، ماذا تفعلون؟

- نحن نحزن عليه، ونبكي، وتشق النسوة جيوبهن، ويلطمن ويتدبن الميت.

وهنا حلق عبد الله البحري في صاحبه هتية، واسترد أمانته في شيء من العنف. وعند وصولهما إلى البر قال له:

- لقد قطعت صحبتك وودك، فلن تراتي بعد اليوم.

- لم هذا الكلام؟

- ألتسم يا أهل الأرض أمانة الله؟

- نعم.

- كيف يحزنكم أن يسترد الله أمانته؟ وأنتم إذا أناكم المولود وهو أمانة الله تفرحون به؟ كيف أحملك أمانة للنبي تندبون وتولولون إذا أخذ الله أمانة حبلكم إياها إلى حين! كلا، لست أطمئن إليكم، وما بي حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر!

واختفى عبد الله البحري وسط الأمواج. وعاد عبد الله البري صهر السلطان يقص عليه ما رأى من عجائب البحار.

وقد لبث زمتا طويلا يذهب إلى الشاطئ ينادي على صاحبه: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فتزد الأمواج صداه، ولكن العباب أبى أن يكشف له مرة أخرى عن سر سكان البحار

واختفى عبد الله البحري إلى الأبد.

أسطورة حسن البصري

كان حسن شاباً صائفاً يعيش في مدينة البصرة، ورث عن أبيه دكاناً للصياغة. جاءه يوماً مجوسي اسمه بهرام وغرّر به ثم حملته على ظهر سفينة عبرت بهما البحار إلى أرض مجهولة، بحجة أن يعلمه السيمياء، أي تحويل النحاس إلى ذهب. وقد انتهى إلى جبل تخفي قمته وسط السحب بلغ حسن إلى قمته مسجّى في جلد دابة ومحمولاً بين مخالب الرخ.

ونادى بهرام على حسن من أسفل الوادي بأن يلقي إليه بربطة من الحطب يعتمد عليها المجوسي في عملياته السيمائية، فإذا صنع بأمره، ضحك بهرام وعاد من حيث أتى تاركا الفتى يندب سوء حظّه ويكي ضياع شبابه.

وينتهي حسن بطريقه أو بأخرى إلى قصر في جبل السحاب، يرى بياض فتاة من بنات الملوك تصطفيه وتتخذله أختاً لها، وتأتي بقية أخواتها الست فتقدمه إليهن، ويقضي بينهن عاماً في عيشة رضية وأخوة تامة. وتسافر البنات لزيارة أبيهن، ويتركن للبصري مفاتيح أبواب القصر، وله أن يفتح كل مقاصره إلا مقصورة واحدة.

ولكنه اتقحم الباب المحظور فرأى خلفه مسلماً يرقى عليه إلى سطح القصر، يشرف على البحر في ناحية، وعلى روض مزدهر عاطر في ناحية أخرى. وتقوم وسط الروض مقصورة من خشب العود والصندل تغطي بحيرة ماء حولها المقاعد والأسرة. ثم إذا هو يسمع رفرقة طيور قادمة من ناحية البحر متجهة إلى البحيرة، فيختبئ ليتمكن من مشاهدتها دون أن تنثر منه. وتحط الطيور على شجرة فيلاحظ من بينها طيراً أجمل ريشاً وأرفع رأساً، والطيور تحف به كأنها من أتباعه.

وتشق الطيور عن ريشها وجلدها فإذا هي «بنات أبكار»، يفضضن بحسنهن الأعمار. وتنزل البنات إلى الماء يغتسلن ويلعبن ويمشجن. ولقد أدرك البصري إذ وقع نظره على سيدته أن نصيحة أخته له لم تكن عبثاً. لكنّها كانت تخشى أن يخسف بالفتاة الطائرة حبا. وقد حدث ما كانت تخشاه، إذ جعل البصري يتأمل المخلوقة النادرة في ذهول من وقع عليه الحب وقع الصاعقة. «فلما فهم كخاتم سليمان، وشعر أسود من ليل الصد على الوجهان وجبين مضيء كهلال العيد أو رمضان، وعيون تحاكي عيون الزلزال، وخدان كأنهما شقائق النعمان، وشفتان كالمرجان، وأسنانها لؤلؤ منظوم في قلائد العقيان، وجيد كسيكة فضة فوق قامه كخضن البان».

خرجت الصبايا من الماء فصحا البطل من ذهوله ليشعر بحرارة الحمى التي تصيب الفتيان في مثل سنه فتمنعهن الرقاد وتطير جنانهم شعاعاً. ولبس فعدن طيوراً رفرفت بأجنحتها وطارَت في الاتجاه الذي جاءت منه.

يعاود البصري فتح الباب في الأيام التالية وهو يتحرق جوى وشوقاً، ولكن الطيور لا تعود. فتجتمع الوحدة مع الهوى ليتقلب الفتى البصري صبا مضى، أليف السقام. فإذا عادت أخته من رحلتها عرفت كل شيء بمجرد وقوع نظرها عليه، فلأتمته أشد اللوم على مخالفتها وأمرها. ولكن وقعت الواقعة والفتى في عداد الهالكين إن لم يفر بمعشوقته. وهنا تطلعه أخته على البنات الضاربات بالسيف، الطاعنات بالرماح، في جيش قوامه خمس وعشرون ألف فتاة. إذا ركبت واحدة منهن جوادها وليست آلة حربها قاومت ألف فارس. ولباس الريش الذي تلبسه الأميرة وأتباعها من صنع الجان القاطنين بجزيرة مجاورة لجزيرة النساء.

فليرتقب البصري مقدم معشوقته في الشهر التالي، وليخطف ريشها ويخبئها فلا تستطيع العودة إلى جزيرتها، ويغير عنها أتباعها ليلبغن خبر ما حل بها إلى أختها الملكة، ثم لينتقم إليها وهي خارجة من الماء فيجذبها من شعرها ويدخل بها مقصورته.

وفدّت البنات طائرات في موعدهن، وخبا البصري ريش الأميرة، فطار عنها أتباعها وبقيت وحدها تبكي. فتقدم إليها البطل واقتادها بشعرها إلى مقصورته حيث ألقى عليها قباة وأقبل الباب وذهب إلى أخته يدعوها. فجاءت إليها ووجدتها تبكي وتعض على أناملها، ثم هي تترك البكاء لتوجه أشد اللوم إلى أخت حسن لأنها سمحت للرجل الغريب بأن يطلع على سرّها، فتدافع الفتاة عن أخيها البصري، وتفصح للأميرة الطائرة عن حب الفتى لها وكيف أخذ عليه حواسه، وهو لا شك مرديه إلا إذا رقت الأميرة الطائرة لحاله. ثم قدّمت لها الملابس وأدوات الزينة. وطبّبت خاظرها وهذّأت من روعها، وتأمرت بالمائدة لثمّدت، ونادت على حسن وأمرته بأن يدخل على الأميرة ويقبل يديها ورجليها. وأخذ الفتى يبشها لواعج حبه ويفصح لها عن نبل غرضه، ويرسم لها صورة بهجة عن الحياة في البصرة وهو مزعم إذا تنازلت بالقبول، أن يتزوجها «بسنّة الله ورسوله» والأميرة الطائرة صامتة مطرقة الرأس.

وأتت أخوات حسن، فقصّت عليهن الأخت الصغرى قصة العاشق، وهي تنظر منهن أن يوقفن بينه وبين الأميرة الطائرة، ويعقدن زواجه عليها.

ومضت أيام الخطبة على حسن ولسانه منطلق بأرق صنوف الغزل، وبنات الجن يسرين عن همّ الخطيبة بما في وسعهن، ويزججن المدح إلى الفتى البصري الذي لم تجد الأميرة أطيّب منه نفساً ولا أعذب حديثاً وأحلى.

فتى عقد زواج الفتى على الأميرة، وقضى أربعين يوماً مع عروسه وبين أخواته، استأذن في العودة إلى البصرة، فجهزته بالعطايا وأهدين عروسه الحلل والجواهر، وتواعدن أن يزورهن حسن مرة كل عام.

وفرحت والدته بلفاته، ورحّبت بعروسه ونصحت أن يغادرا البصرة إلى دار السلام ليعيشا في كنف عاصمة الخلافة، ويكونا في مأمن من مظلمة الظالمين، بعد ما عاد حسن مع نقاش الجواهر. وفي بغداد يستأجرون داراً راحة يقيمون فيها.

ولما وافى العام تهياً حسن للسفر إلى قصر السحاب، واستأذن زوجته بذلك، وأوصى بها أمه، وحذرها الریش الذي خباه في صندوق دفته في صحن الدار. وسافر لملاقاة أخته الصغرى.

واشتاقت نفس الأميرة الطائرة للخروج فآلحت على حماتها أن تصحبها إلى الحمام. وما إن وقع بصر نساء بغداد على جمال الأميرة الباهر حتى كبرن وهللن، وانتشر خبر حسنهما بين النسوة من داخل الحمام إلى خارجه. فتفاطرت النساء على بابهن يتظنن دورهن في مشاهدة قوامها البديع، وسواد شعرها الأليل، وعينيها الكحيتين الساحرتين. واتفق أن مرت بباب الحمام إحدى جوارى أمراء الخلافة، فلما عرفت علة الازدحام ودخلت تشاهد الصبية وتأمل محاسنها، بهتت بها، وجلست تنفّس فيها وهي تلبس، وتتمها وهي خارجة إلى إيوان الحمام لتستريح برهة، والنساء حولها متزاحمت مهلات عجباً وإعجاباً.

وعادت الجارية إلى قصر الخلافة تحدث السيدة زبيدة بأمر ما رأت في يومها، وتحذرها أن يرى أمير المؤمنين تلك الصبية فيقصد بزوجها شراً ليتزوج بها، فتصبح امرأة الخليفة: يا فاجرة، إن في سراي أمير المؤمنين هارون الرشيد، الخامس من بني العباس، ثلاثمائة وستين جارية. أنتحسين أن ليس بينهن من تفوق فتاتك جمالاً واعتدالاً؟ وتجييب الجارية: ليس في بغداد بأسرها، بل ولا في العرب ولا في المعجم من يدانيها حسناً وسحراً.

أمرت امرأة الخليفة الصبية لتنجى إليها مع أم البصري، وتقبل الأرض بين يديها، ثم

ترفع رأسها القائم على جيد كأنه عمود من فضة. وترسّح زبيدة بصرها فيها وهي تؤمّن في نفسها على ما قالت الجارية، وتأمّر لها بسرير إلى جانبها، وخلعة فاخرة، وعقد من نقاش الجواهر. هذا وجلست السيدة زبيدة كمن على رأس الطير.

وفي غضون الحديث سألته امرأة الخليفة عما تعرف من الفنون، فأجابته الصبية بأنها تحب الرقص. فأمرت امرأة الخليفة بالآلات والمغنيات، وطلبت إلى الغادة أن ترقص. فاستأذنت في أن ترقص رقصة الطيور على أن يسمح لها بارتداء الثوب الخاص بتلك الرقصة، وأشارت إلى مكانه. فعندما أخضر إليها لبسته وبدأت رقصتها بخفة الطير، تدور على نفسها وتتهادى، وتلوي برأسها ذات اليمين وذات الشمال في عجب وخيلاء، ثم تنشر أجنحتها وتطير إلى قبة البهو، وتحط على إفريزها بجانب نافذة من نوافذها، وتطل على حماتها وتقول: إذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق، وهزته رياح المحبة والأشواق، فليبحث عني في جزائر الوقواق، وطارت من النافذة.

وعاد حسن البصري من رحلته وعرف بمصابه فبكى وتندّم ثم اعتزم السفر إلى قصر السحاب توّاً لسيال أخته المعونة. لكنها عاجزة عن معونته إلا أن يرضى عنها الشيخ بأن يساعده، فربما كان في مقدوره أن يعمل شيئاً. وجاء الشيخ في زيارة الفتاة وأخواتها، فإذا علم بالخبر أطرق برأسه هنيهة، وهو ينكش الأرض يعود في يده ثم هز رأسه وقال: يا بنتي، لقد أتعّب هذا الفتى نفسه، وهو لا شك يلقى بها إلى الهلكة إذا حاول الوصول إلى جزائر الوقواق. فبينه وبينها سبعة أودية وسبعة بحار وسبعة جبال عظام.

ولكنه إذ رأى إصرار حسن على مجابهة الأخطار سعياً وراء زوجته الحبيبة، أمره بإتباعه وسافرا إلى بلاد بعيدة، ودخلا كهفاً ينشق عن فلاة واسعة وبواب الكهف فرس مرج ملجى طلب الشيخ إلى حسن أن يعتضيه، ثم أعطاه كتاباً ليحمله إلى المكان الذي يصل إليه الفرس في آخر غلواته، وهو باب كهف يترجل عنده البصري ويطلق للفرس العنان فيدخل الكهف من تلقاء نفسه. وعلى حسن أن ينتظر بالباب خمسة أيام، وفي اليوم السادس يخرج إليه شيخ عليه لباس أسود، وله لحية بيضاء مرسلّة إلى أسفل صدره، يقبل حسن يديه ويسلمه الكتاب دون أن ينبس بكلمة، فيعود الشيخ إلى الكهف. ويتنظره الفتى خمسة أيام أخرى، فيخرج إليه في اليوم السادس في ثياب بيض، ويمسك بيد البصري ويقوده إلى داخل المغارة، حيث قاعة كبيرة ذات أربعة لاووين، في كل إيوان مجلس شيخ بيديه كتب كثيرة ومجامر بخور، وطلبة يقرأون عليه. يأمر الشيخ فينصرف الطلبة، ويلتف الشيوخ حول رئيسهم ذي اللحية والثياب البيضاء، فإذا عرفوا ما جاء الفتى لأجله تذالوا

بالنظرات وقال الشيخ الرئيس: يا إخواني، لم أر إنسانا كارها للحياة كره هذا الشاب لها، أو هو لم يدرك بعد ما هي جزائر الوقواق، ولا ما يتجشمه من مشاق في الوصول إليها، وما ينتظره إذا وصل إلى هناك. فزوجته هي أخت ملكة جزائر النساء ذات الحول والطول. يمحض الشيوخ الصبح للفتى المحزون، وهو ثابت في عزمه يقبل يدي الشيخ الرئيس، ويفرك وجهه في لحيته البيضاء حتى يرق الشيخ له ويقول: لا تحسن الأمر بيدي أيها الفتى، فوصلك إلى جزائر الوقواق رهين بإرادة صاحب الأمر، ولا طريق لك إلى هناك إلا أن تمر بجزائر الكافور، وسأزوره لعله مديبر لك أمرا.

سافر حسن البصري إلى جزائر الكافور، وكرّم ملكها وفادته، ثم أخذه برفق وأطلعه على الصعوبة الكبرى، وهي ليست في وصوله إلى جزائر الوقواق بقدر ما هي في دخول الجزائر نفسها. فالمراتب تسير بين جزائر الكافور وبينها، ويمكن أن يوصي به أحد ربابته فيحمله إلى أول جزائر الوقواق. ولكن الرباب والتجار لا ينزلون إلى الأرض، فتلج جزائر النساء إذا دخلها الرجال كان جزاؤهم الموت. وتحمل التجارة بين المراكب والبهر في دوانيج وتترك على الساحل. فإذا جن الليل جاءت نساء الجزيرة في حرس نسائي مسلح، وحملن السلع وتركن بدلها مما تنتجه الجزائر دون أن يراهن أحد.

نزل حسن بإحدى مراكب جزيرة الكافور، فوجد عليها «خلقا مثل الحصى لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم» وأوصى الملك به الرباب، وحذره ألا يكشف للمسافرين عما يعترمه الفتى، كما أوصى البصري بأن يخفي غرضه عن الركاب.

وسافرت المركب في البحر عشرة أيام، ثم أُلقت مراسيها بعيدا عن البر ونزل حسن في زورق الرباب، وقفز منه إلى البر، وجرى إلى مقاعد مرسوعة اختبأ تحت واحد منها. ولما أرخى الليل سدوله جاء خلق كثير من النساء سائرات على أقدامهن، تضطرب السيوف المشدودة إلى أواسطهن، وتقرع الزرد الذي يغطي سائرهن. وبينهن نساء حملن المتاع، وذهبن من حيث أتبن. وجلست المساكين يسترحن على المقاعد، فسلح حسن بأطراف زرد الجالسة فوق المقعد الذي اختبأ تحته، وشكا لها حاله، واستحلها بالكهنتا أن تغفو عنه، وتستر عليه، وتشد أزره، فقد جاء من بلاد وراء البحار والجبال والوهاد، بحثا عن زوجته الحبيبة من بنات الجزيرة.

ورأت الفارسة من ملامحه ولهجته ما حرك فيها الشفقة عليه والرثاء لحاله، فأمرت أن يظل مخبئا حتى الليلة التالية حين تحضر له زردا وسيفا وخوذة.

وبذلك تمكن البصري من الاختلاط بجنود بنات الوقواق دون أن يكشف أمره، ويتبعن إلى خيامهن على ضوء المشاعل والشموع، يفوح منها عير العود والعنبر، ويدخل إلى خيمة صاحبه التي استجار بها. فلما رفعت خوذتها وكشفت عن وجهها، رآها عجوزا مشرقة الوجه مهية الطلعة. جلست تنصت إلى حكاياته معجبة بشجاعته وشبابه، ثم قالت:

إعلم يا ولدي أننا في أول جزائرننا، لا نجيء إلى هنا إلا للتجارة، ثم نعود إلى جزيرة الوقواق نفسها، وهي السابعة في هذه الجزائر، بيننا وبينها سفر طويل في البر والبحر. نمر فيه بجزائر الطيور، ثم بجزائر الوحوش، فجزائر الجن حيث تندلع النار من أفواههم والشرر من عيونهم، وأخيرا إلى جزيرة الوقواق حيث الجبل المقدس، والأشجار التي تثمر رؤوسا كرؤوس ابن آدم إذا طلعت عليها الشمس استقبلتها صائحة واق! واق! سبحان الملك الخلاق. لا يدخل الرجال أرضنا، ومن تجرأ منهم علينا فمصيره الموت لا محالة. فكر في أمرك مليا وما زلت، تستطيع أن تعود إلى بلادك.

وهيات أن يرجع الولهان عن عزمه، أو ثقل المصاعب والأخطار في عزمته. قالت له السيدة وقد زاد عطفها عليه: لن يقضى لك حاجتك سوى حسن نيتك، وصديق محبتك، وفرط شوقك إلى زوجتك. وسامد إليك يد المساعدة بما تملك يميني وأنا نقيبة المسافر في هذه المملكة، وكلهن نساء، وملكتنا امرأة.

وأمرت نقيبة الجيش بالرحيل، وتمايلت طول الطريق حتى تمكن لحسن من رؤية وجه عساكرها. فمرة تفتش عليهم والخوذ مرفوعة، ومرة تأمرهن بالاستحمام. وكان حسن قد أخفى عليها أن زوجته أخت الملكة الوقواق. وعندما اقتريا من الجزيرة الكبرى، وسألته أن يصف لها زوجته، أصر على إنكاره معرفة من تكون، وراح يصفها وصف العاشق الولهان لمحاسن الحبيبة التي طال شوقه إلى رؤياها. فاصفر وجه العجوز وقالت له: لقد بليت بك أيها البصري! ليتني ما عرفتك! فمن تصف هي ملكة الوقواق بأسرها. تب إلى رشدك وارجع عن غيك أيها المجنون، فبينك وبينها ما بين الأرض والسماء!

ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة الكبرى، ولم تجد نقيبة الجيش بداً من إخبار الملكة بأمره، فقدمته لها، وغشي على الفتى في حضرتها، إذ لم يكن يتوقع أن يرى زوجته بعينها، أو أشبه الناس بها.

وفهمت ملكة الوقواق أنه زوج أختها التوأم، ولم تنس الملكة بعد فضيحة أختها وغيبتها في البلاد البعيدة حين خطفها الشاب الغريب. ولكنها أرادت اليوم أن تكشف عن سريرة تلك الأخت، وتعرف إذا كانت تحب خاطفها، أو أنها ظلت مقيمة على عهد بنات الوقواق، كارهة للرجال، مكروهة على معاشرته الرجل الذي تجرأ عليها.

أما أمر هذا الرجل الخاطف لأختها، المتجاسر على دخول جزائر النساء المطلع على أسرار بلادها، وأما أمر نقيبة العساكر ذاتها فقد أبرمته في نفسها: التعذيب حتى الموت.

فإذا اجتمعت أميرة الوقواق بزوجها حسن البصري، جرت تعانق العاشق الصنديد، ثابت الحب والحنان الذي، جاء يسعى إليها عبر الجبال والوهاد والبحار، ويتزعمها من بين أهلها وجزيرتها انتزع الفارس الشجاع، فيكفر بذلك عن سيئة اختطافها خطف الإماء تحايلاً وغدراً، إنه الآن جدير بها كما هي جديرة به.

وصرخت ملكة الوقواق صراخاً تهتز له أرجاء المكان. فسلوك أختها عار لصق بعرضها، وبشرف مملكتها. بل هو نذير بالبشر، العصيان والثورة على التقاليد الموروثة، قاض على الأوضاع والطقوس. غدا سوف يتشتر الخبر بين نساء الوقواق، وتنقله الأفواه إلى الأسماع، وتتردد بينهن أسطورة جديدة تنشئ تقليداً جديداً. ألم تر نساء البلاط كيف أشرفت عيون الأميرة العاشقة، وتوردت وجنتاهما، وكيف ارتمت على صدر الرجل تعانقه في طراوة وأنوثة، وتطبع على فمه قبلات تكاد تضطرم بنار الشوق؟ أهدأ ما نشأن عليه من صراع وسابرة وطعان، ومن ضرب الأرض بالأقدام سيرا في صفوف عسكرية، ومن صلابة في الحركات وجفاف في التعبير؟

حاولت ملكة الوقواق أن تطفئ نذر الشر والثورة بأن تجعل من أختها وزوجها ونقيبة العساكر عبدة لم تعتبر. وبعد حوادث كثيرة، ومواقف بين ملكة الوقواق وبين البصري توازده النقيبة، تخلفها كثير من الخوارج وأدواتها من عصا سحرية وقلانس إخفاء وجن طائر وعون خادم، يعود البصري إلى بغداد بزوجه الأميرة، وقد اجتاز الأهوال، وتغلب على الصعاب وهدم تقاليد جزائر النساء بقوة غرامه، وصلابة عزيمته وثبات جنته. وعاش الجميع في هناء وسعادة، حتى أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات. فسبحان الحي الذي لا يموت.

آكلة لحوم البشر

حكى أنّ رجلاً من أهل البصرة نزل في شارع قريش وخرج من بلدته في مركب إلى بحر الهند، فالتكرست، وألقت به الأمواج على جزيرة، قال:

«صعدت تلك الجزيرة، وتعلقت بشجرة كبيرة وواريت نفسي بين أوراقها وبت ليلتي فلما أصبحت رأيت غنماً أقبلت نحو مائتي رأس، يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة، طويل، عريض، بشع المنظر، ومعه عصاه يسوق بها غنمه، فتعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين الشجر. ثم طرح نفسه على وجهه، فنام نصف النهار، ثم قام فرمى بنفسه في الماء، واغتسل وخرج، وهو عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز، إلا أنها أعرض منها، وقد جعلها في وسطه كالمئزر (ثوب تصفي) ثم عمد إلى شاة فقبض رجلها، وأخذ ضرعها في فيه، وامتنعه، ثم فعل ذلك بعدد من الغنم، واستلقى في ظل شجرة.

ولم يلبث أن وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجراً ثقيلاً وقذف به الطائر، فأصابه وسقط بالقرب مني، فأومأ إلي بيده أن أنزل. ولخوفي منه بادرت وأنا ضعيف خائف وجائع. وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، وقدرت أن وزنه لا يقل عن مائة رطل، فتفت ريشه وهو حي يضطرب، ولما تنفخ أخذ حجراً قدر عشرين رطلاً، ففصر به رأسه، وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى شقه، وجعل ينهشه بأسنانه، يأكل منه كما تاكل السباع، حتى أتى عليه، ولم يبق إلا عظامه.

ولما أصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفرعتني. واجتمعت الغنم إلى موضع واحد، واردها خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب، فسقاها، وشرب وشربت وقد أقيمت بالموت. ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعاً بين الأشجار، حوله خشب كثير طويلاً وعرضاً، وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلت معها، وإذني وسط ذلك الموضع، أقيم على خشب وثيق في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً. بينما دخل الرمل أخذ

شاة من أصغر الغنم وأهلها، فذق رأسها بحجر، ثم أجيح ناراً، وجعل يقطع اللحم بيديه وأسنانه كما تفعل السباع، ورمى اللحم مع الجلد والصوف في النار، وأكل جميع ما في جوف الشاة نيئاً. ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وتلك حتى شرب من عدد كثير. ثم صعد فأخذ معه شيئاً كان يشربه، ونام وجعل ينفخ كما ينفخ الثور.

ولما انتصف الليل جعلت أدب قليلاً قليلاً إلى موضع النار وتبعت ما بقي من اللحم، فأكلت ما يسك رمقي، وكنت خائفاً أن تنفر الغنم فيتبته، فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة. وبقيت مطروحاً إلى الغد. فلما أصبح نزل وساق الغنم وسافني معها، وكان يكلمني فلا أفهم كلامه، وكلمته بما أعرف من اللغات فلم يفهم مني شيئاً، وكان قد صار على شعر عظيم، وأظنه لما رأيته على تلك الصورة القبيحة عافيتي نفسه، فأخر أكلتي. ولم أزل معه في تلك الحال عشرة أيام، يفعل كل يوم مثل ما فعله في سابقه، ولا يمضي يوم دون أن يصطاد طائراً أو طائرين. وإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم، وإن قلت الطيور أكل شاة. وصرت أعاونه في إشعال النار وجمع الحطب وأخدمه، وأدير الحيلة لنفسه حتى أخلص منه، إلى أن مضى لي عنده شهران، وصلح جسمي. ورأيت في وجهه آثار السرور، وفهمت أنه عزم على أكلتي. وكان يأخذ ثمرات من شجر في الجزيرة ينقعها في الماء، ثم يصفيه ويشربه، فيسكن طوال ليلته، حتى لا يعقل.

وكنت أرى في تلك الجزيرة طيوراً كباراً كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، ولذلك يبست هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور. وفي ليلة من الليالي صبرت حتى غفا، فقممت وتعلقت بشجرة ودليت غصناً من أغصانها إلى الأرض، ومضيت على وجهي أطلب صحراء كنت قد رأيتها من تلك الشجرة. ولم أزل أمشي حتى الصباح، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعني خشبة قد أعددتها، حتى إن لحقتني ضربت بها رأسه، فأما أن أقتله وأما أن يقتلني، والموت على كل حال لا بد منه. ومكثت يومي هذا في الشجرة، ولم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها، ونزلت فمشيت حتى الصباح، ووجدت نفسي في صحراء فيها أشجار متفرقة فمشيت وأنا لا أرى أحداً إلا الطيور وحيات ووحوشاً لا أعرفها، ورأيت ماء عذباً، فأقمت بجانبه. وجعلت أخذ من تلك الثمار والموز وأكل منها والطيور تطوف بالغوطة. وعانيت طائراً منها ضحكاً، فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال، ولم أزل أرصد الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه، فتعلقت بساقه وهو مشغول برعيه، وشدت نفسي بالحبال. ولما فرغ من أكله

شرب ماء، وحلق في الهواء، وأشرقنا على البحر، واستسلمت للموت، ولم يلبث أن حط على جبل في الجزيرة، فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف وجعلت أجر نفسي خوفاً منه، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة، وأخفيت نفسي فيها. ولما أصبحت رأيت دخاناً، فقلت لا بد أن عنده ناساً، ونزلت أمشي إلى ناحيته، فما مشيت قليلاً حتى استقبلتني جماعة، وأخذوني وكلموني كلاماً لا أفهمه، وحملوني إلى قريتهم، وأدخلوني في منزل حسوني به مع تسع أنفس، سألوني عن خبري، فحدثتهم وسألتهم عن خبرهم فحدثوني أنهم أهل مركب كان قد خرج عن الصنف (الهند الصينية) إلى الزابج (جزر الهند الشرقية) فخرج عليهم خب (إعصار) كسر مركبهم، وتخلصوا في قارب نحو عشرين رجلاً، فوقعوا على هذه الجزيرة، فأخذهم قوم واقتسموهم، وأكلوا منهم نفراً حتى هذا الوقت. وتعجبت وقلت في نفسي: إن مقامي عند صاحب الغنم كان أصح لي، وجعلت أستأنس بالقوم. ولما كان الغد جاءونا بسمس أو شيء يشبهه وموز وسمن وعسل، وقال لي القوم: هذا طعامنا منذ وقعنا هنا. وأكلنا مقدار ما يسك رمقتنا، ثم جاءوا فنظروا إلينا، وأخذوا أحسننا حالاً في جسده فودعناه، وأخرجوه إلى وسط المنزل ودهنوه من رأسه إلى قدميه بالسمن، ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين، واجتمعوا عليه، فذبحوه وقطعوه قطعاً، ونحن ننظر، ثم شوهه وأكلوه وأكلوا أجزاء منه نيئة، ثم شربوا شراباً، فناموا، فقلت للقوم: «قوموا فقتل هؤلاء فإنهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله، وإن هلكنا فالهلاك أسهل من هذا اليلاء» واختلف رأينا بقية يومنا، وأظننا الليل، وأصبحتنا، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد.

ومضت أربعة أيام على تلك الحال، فلما كان اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا رجلاً، ففعلوا به ما فعلوه بالأول. ولما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحنهم بأسرهم، وأخذ كل واحد منا سكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمسم. ولما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل، ومشيئنا نطلب الساحل من جانب آخر غير جانب القرية. ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن ثمانية، خوفاً من القوم. ولما جن الليل نزلنا ومشيئنا مهتدين بالكواكب، وأماناً من هؤلاء الناس، فكنا نمشي نهراً ونستريح ونأكل من ثمار الجزيرة وهي كثيرة الموز، وما زلنا نمشي حتى وقعنا في غوطة حسنة، وفيها ماء عذب طيب، فمزمنا على المقام بها أبداً إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة، وبقينا خمسة.

وبينا نحن في بعض الأيام نمشي وإذا بقارب قذف به الموج وفيه جماعة قد ماتوا، والقارب جانح في الطين والموج يضربه وهو مطروح فرمينا بهم في البحر وغسلنا القارب،

وصنعنا له دقلاً من الشجر، وسوينا حبالاً من خوص النارجيل (جوز الهند) وشراعاً من الليف، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وأخذنا معنا ماء وكان بيننا ملاح يعرف السفر في البحر، وسرنا نحو خمسة عشر يوماً، حتى وقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا. وأخبرنا الناس بقصتنا، فجمعوا لكل منا زاداً، وخرج كل منا يقصد بلداً. ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبيتي، وقد مات أكثر أهلي ووجدت لأبي ولداً لم أكن أعرفه وكانوا لما انقطع خبري قسموا مالي، فلم يصل إلى منه شيء.

المراجع

- * الواقع والأسطورة في التوراة زينون كاميدوفسكى
- * فن الهوى أوفيد - ترجمة ثروت عكاشة
- * عجائب وأساطير شوقي ضيف
- * الشهامة الفردوسي
- * معتقدات وخرافات يوسف ميخائيل أسعد
- * أساطير من الشرق سليمان مظهر
- * أساطير من الغرب سليمان مظهر
- * أساطير صينية نسوجين بيه
- * القوى الخفية إبراهيم أسعد محمد
- * ألف ليلة وليلة القزويني
- * عجائب المخلوقات القزويني
- * حديث السندباد القديم حسين فوزي

المحتويات

5	مقدمة
7	الأسطورة والخرافة
15	آلهة في الأساطير
17	أساطير فرعونية
19	أسطورة إيزيس وأوزيريس
31	أسطورة إنقاذ البشر من الفناء
37	امرأة بين رجلين
49	قصة «آتون» إله التوحيد
57	أساطير عربية
59	سليمان النبي والغراب
69	الأميرة الساحرة
83	زوجة أخي الخائنة
91	أساطير هندية
93	رامايانا
109	الأساطير في بلاد الهند

121	أساطير فينيقية
123	من قبرص إلى لبنان: أسطورة أبدية
129	أساطير ألمانية
131	ملحمة فاوست الألمانية الخالدة للشاعر العظيم غوته
141	الأساطير الإسبانية
143	الساحر وابنته
157	الأساطير البابلية
159	جلجاميش
171	الأساطير اليابانية
173	ابن السماء
187	الأساطير الصينية
189	المقص السحور والسمكة الناطقة
193	السوط (الكرياج) السحري
197	ملك الرياح
205	صائد الشمس
211	تشانغ تطير إلى القمر
219	الإمبراطور السماوي
223	البلدان الأجنبية البعيدة
235	الأساطير الفارسية
243	من كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم
247	عقاقير تحيي الموتى
249	صقر وعصفور

251	الأساطير الإغريقية
253	الأوديسه للشاعر الخالد «هوميرس»
261	ثيسيوس .. بطل أثينا
267	أبولون ودفنى
271	الأساطير الروسية
273	إيفان وماريا تولستوى
277	الشهور الاثنا عشر
287	عجائب وخوارق من التاريخ
289	النساء زهور نبت في قلوبنا
292	أسطورة شعثون الجبار
299	متفرقات
301	حفيد الشيطان
319	الملك تيمورلنك
328	من الأساطير الشيقة في قصص ألف ليلة وليلة ..
328	قصة القرنديلى الثالث
337	عبد الله البري والبحري
346	أسطورة حسن البصرى
353	آكلة لحوم البشر
357	المراجع
358	المحتويات